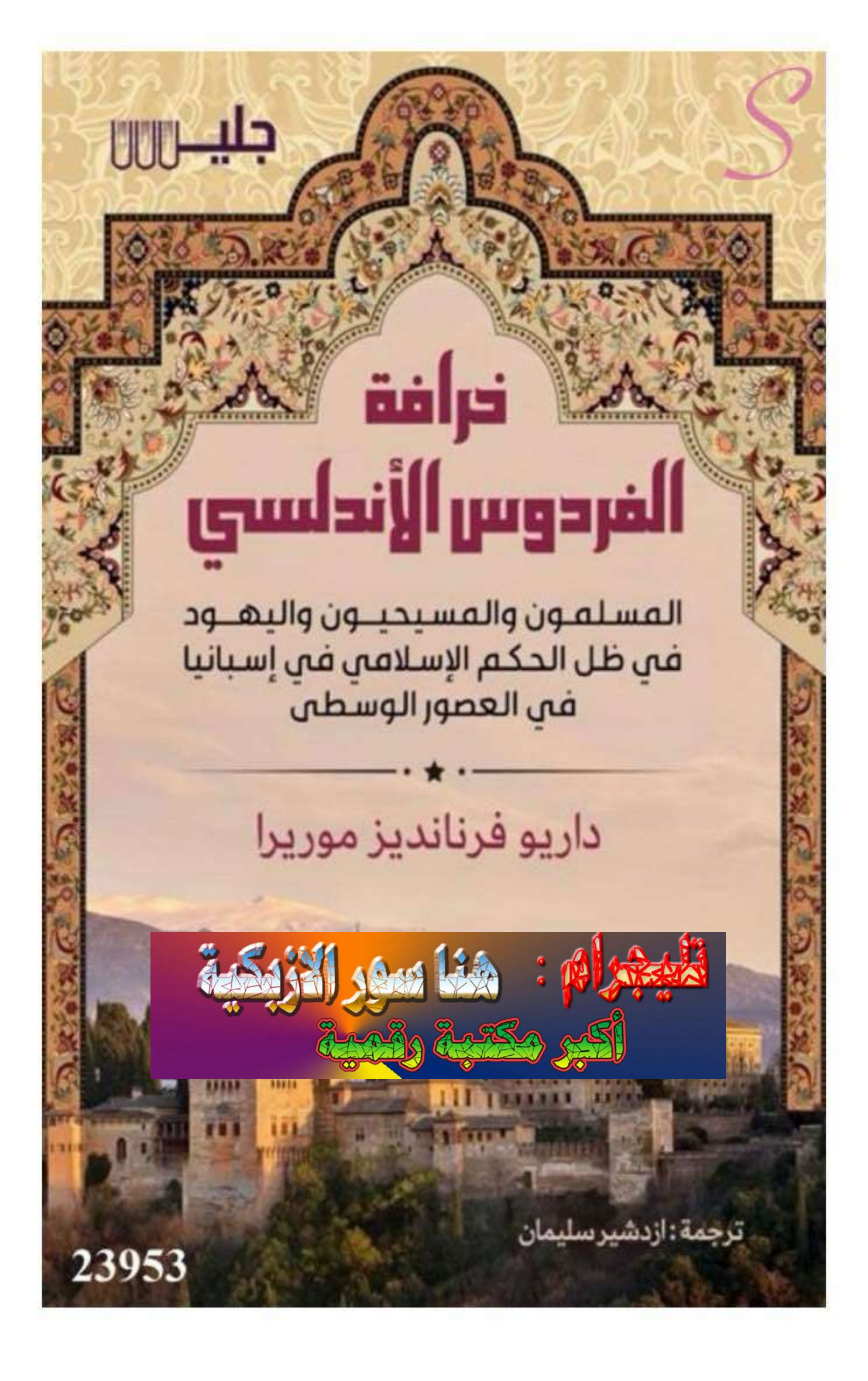

جليـــ
خرافة
الفردوس الأندلسي
المسلمون والمسيحيون واليهود
في ظل الحكم الإسلامي في إسبانيا
في العصور الوسطى
داريو فرنانديز موريرا
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
ترجمة : ازدشير سليمان
23953

خرافة الفردوس الأندلسي

المسلمون والمسيحيون واليهود في ظل الحكم الإسلامي في إسبانيا في العصور الوسطى

داريو فرنانديز موريرا

لكني لا أود إلا الوصول إلى الحقيقة وليس تخيلها، وأن الأصح هو أن نكتب ما يفيد الآخرين وليس ما نتخيله.

نيكولو مكيافيلي، الأمير، الفصل الخامس عشر.



استهلال

لعب الإسلام دورًا مهمًّا، على المستوى الفكري، في تطور الحضارة الغربية الأوروبية من خلال نقل كل من فلسفة أرسطو وكذلك طرائقه العلمية والتقنية والفلسفية. ظل التسامح الديني جزءًا من الشريعة الإسلامية على الرغم من اختلاف تطبيقها باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

بيرت ف. برينير وكريستيان ترول "المسيحية والإسلام" في موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي المعاصر. جون إسبوسيتو (نيويورك، منشورات جامعة أكسفورد، 2009).

في العصور الوسطى كان ثمة نوعان من أوروبا، (أوروبا المسلمة) الآمنة في دفاعاتها، المتسامحة دينيًا، الناضجة من الناحيتين الثقافية والعلمية، والأخرى (أوروبا المسيحية) التي كانت ساحة حرب مستمرة، التبست فيها الخرافة بالدين وذوت فيها شعلة المعرفة.

ديفيد ليفرينغ لويس، الحائز على بوليتزر مرتين وأستاذ التاريخ في جامعة نيويورك. كتاب "بوتقة الله": الإسلام وصناعة أوروبا (نيويورك، نورتون، 2008، 335).

كان الحكام المسلمون في الماضي أكثر تسامحًا من المسيحيين مع أتباع الديانات الأخرى. على سبيل المثال، أفسحت الدويلات متعددة الثقافات والأديان في الأندلس والتي حكمها المسلمون الطريق لنظام مسيحي كان شديد التعصب حتى مع المعارضين من المسيحيين، وقد حشر ذلك المسلمين واليهود بين خياري التحول القسري أو الطرد (وربما أسوأ).

الإسلام والغرب، لن يلتقي التوأمان بسلام أبدًا؟ الإيكونومست، 15 تشرين الثاني 2001.

حملة لواء التسامح في العصور الوسطى المبكرة كان من المرجح العثور عليهم في بلاد المسلمين أكثر مما في بلاد المسيحيين.

توني بلير، رئيس وزراء بريطانيا "معركة من أجل القيم العالمية"، فورين أفاريز، يناير- فبراير 2007.

يهدف هذا الكتاب إلى جلاء الغموض الذي يكتنف إسبانيا الإسلامية من خلال التشكيك في الاعتقاد واسع الانتشار أنها كانت مكانًا رائعًا للتسامح الديني ولتعايش ثلاث ثقافات في ظل الوصاية الكريمة للحكام المسلمين المستنيرين. كما

توضح العبارات المقتبسة التي تتخلل هذا الكتاب، تحولت رؤية القرن التاسع عشر الرومانسية لإسبانيا الإسلامية إلى الكتابات الأكاديمية والشعبية الرئيسة اليوم والتي تحتفي بـ"الأندلس" "لتعدديتها الثقافية" و"وحدة المسلمين والمسيحيين واليهود فيها"، "لتنوعها" و"تعدديتها" بغض النظر عن مدى قرب هذه التأكيدات من الوقائع. حتى إن بعض علماء العصور الوسطى الإسبانية قد أعلنوا صراحة الاهتمام بالترويج لهذه الأفكار[1].

نزع الأسطورة عن هذه الحضارة يتطلب تركيز ضوء البحث على الميزات الثقافية في العصور الوسطى التي قد تبدو قليلة الشهية للقراء المعاصرين، وربما لهذا السبب نادرًا ما تُناقش. يدرس الفصلان الأولان من هذا الكتاب كيفية غزو إسبانيا واستعمارها من قبل قوات الخلافة الإسلامية. جادل بعض العلماء بأن استيلاء المسلمين قد تم إلى حد كبير من خلال "المواثيق السلمية"، رفض البعض حتى إن يطلق عليه تسمية "الفتح" مفضلين تسميته موجة هجرة. جادل آخرون بأن الغزو اضطلعت به القوة[2]. كلا الجانبين غير محق تمامًا. استخدم الفاتحون المسلمون القوة إزاء مقاومة مملكة القوط الغربيين المسيحيين، لحضارتهم الوليدة، لكنهم منحوا أيضًا مواثيق لأولئك اللوردات القوطيين الغربيين والقادة المسيحيين الذين رأوا أنه من المفيد قبول عرض السلام ليصبحوا أهل ذمة "المسيحيين واليهود الذين يحتلون مكانة ثانوية في الأراضي الإسلامية" بدلًا من مواجهة عواقب المقاومة. خلف "مواثيق السلام" كان دائمًا ثمة تهديد القوة الوحشية. تدرس الفصول المتبقية من هذا الكتاب الجوانب الأساسية من إسبانيا الإسلامية التي نادرًا ما يُسلط الضوء عليها: القمع الديني وبالتالي الثقافي في كل مناحي الحياة وتهميش مجموعات معينة، كل هذا في خدمة القمع الاجتماعي من قبل الحكام المستبدين وفئة من السلطات الدينية. يقدم أنصار التناغم والتعايش المثمر كدليل أحيانًا التأثيرات المتبادلة والتحالفات العسكرية بين المسلمين وغير المسلمين، لكن هذه الحجة تغفل حقيقة أن التأثيرات المتبادلة والتعايش في نفس الإقليم والتعاون والتحالفات العسكرية وحتى الزواج والإبداعية الفنية الإنتاجية والمدهشة كثيرًا ما تحققت في الأماكن التي تنازعت فيها ثقافات مختلفة –من لاتينية الإسبان والبرتغال الأمريكية إلى الهند الإنجليزية إلى الجزائر الفرنسية إلى الغرب الأمريكي وحتى الجنوب الأمريكي الذي كان يتيح الاسترقاق- دون أن يناقض هذا بأي شكل حقيقة النزاع بين الثقافات أو وجود بعض الجماعات المهيمنة وجماعات أخرى مُهيمن عليها. بالطبع كان هناك تعايش، بهذا المعنى المبتذل، بين الفاتحين والمهزومين, لكن لا يمكن اعتبار هذه سمة من سمات إسبانيا الإسلامية: هي سمة من سمات صدام الثقافات بين المجموعات المهيمنة والأخرى المُهيمن عليها في كل مكان[3].

الموقف التأويلي لهذا الكتاب موقف ميكيافيللي وليس موقفًا بانجلوسيًا*. أولئك الذين يصورون إسبانيا الإسلامية على أنها مثال للتعايش السلمي كثيرًا ما يستشهدون بحقيقة أن الجماعات الإسلامية واليهودية والمسيحية في الأندلس كانت تعيش أحيانًا إلى جوار بعضها. حتى عندما كان هذا هو الحال، فإن هذه المجموعات كانت تقطن في أحيائها الخاصة أكثر من غيرها. أكثر من ذلك: حتى عندما تعاون الأفراد المسلمون والمسيحيون واليهود مع بعضهم بدافع المصلحة والضرورة والتعاطف المتبادل أو الحب فإن هذه المجموعات الثلاث والمجموعات العديدة المتفرعة عنها انخرطت لقرون في صراعات من أجل السلطة والبقاء الثقافي، وهو ما تجلى في كثير من الأحيان بطرق خفية لا ينبغي إغفالها لمصلحة المُثل الحديثة للتسامح والتنوع والتعايش.

"ثقافة النسيان"

انهارت الخلافة الأموية في القرن الحادي عشر.. في عام 1805 استولى ألفونسو السادس الملك المسيحي لليون وقشتالة على طليطلة. بخلاف الفرنجة، كان يعرف ما هو أفضل من فرض الكاثوليكية على الناس بحد السيف. روح التسامح التي خلقها العرب بقيت بعد رحيلهم. استغرق الأمر أربعة قرون أخرى للوصول إلى التعصب الديني لمحاكم التفتيش الإسبانية.

*Kwame Anthony Appiah, Laurance S. Rockefeller University Professor of Philosophy, Princeton University, "How Muslims , November 6,*New York Review of Books*Made Europe," 2008*

Kwame Anthony Appiah، Laurance S. Rockefeller، أستاذ الفلسفة في جامعة برنستون، "كيف صنع المسلمون أوروبا"، نيو يورك ريفيو أوف بوكس، 6 نوفمبر 2008.

ليس من السهل تفسير وجود "ثقافة النسيان" هذه التي سمحت بصياغة نوع معين من إسبانيا الإسلامية. بالكاد يمكن تفسير الأمر بالجهل اللغوي، بما أن مصادر العصور الوسطى الأساسية من لاتينية، إسبانية، عربية ويهودية والمطلوبة من أجل فهم عام جيد لإسبانيا الإسلامية تمت ترجمتها إلى لغات غربية سهلة ميسرة مثل الفرنسية، الإسبانية، الإنجليزية والألمانية، وفي بعض الحالات أكثر من مرة، وعلى كل حال فإن العديد من علماء اللغة العربية والدراسات الإسلامية شاركوا أيضًا في هذه الصياغة التبجيلية.

ربما كان الكتّاب يعتقدون أن الإنجازات الفنية للأندلس لا يمكن أن تصمد أمام تقييم أكثر واقعية لمجتمعها. ربما كان الأمر يتعلق بما يسميه الاقتصاديون

"مصالح وحوافز أصحاب المصلحة" والتي تؤثر على أبحاث الأكاديميين في العلوم الإنسانية لا أقل، وربما حتى أكثر من تلك التي في حقل العلوم[4]. ربما كان الأمر يتعلق بما يسميه علماء النفس "العمى المُحفِّز" الذي يثبط قدرة الفرد على إدراك البيانات غير الملائمة[5]. وربما كان الأمر يتعلق بـ"براءة المثقفين"[6]. ربما كان الأمر مجرد نتيجة بحث رديء قام به عدد من أساتذة الجامعة وكرره العديد من الصحفيين. أو ربما أنه منذ عصر التنوير في القرن الثامن عشر كان البنيان الإشكالي لإسبانيا إسلامية متنوعة ومتسامحة وسعيدة جزءًا من محاولة الترويج لأجندة ثقافية معينة، تم تقويضها من خلال الاعتراف بمجتمع متعدد الثقافات مزقته النزاعات الإثنية، الدينية، الاجتماعية والسياسية والتي ساهمت في زواله في نهاية المطاف؛ مجتمع متعدد الثقافات لا توحده إلا القوة الوحشية للحكام المستبدين ورجال الدين[7].

ستكون هذه المهمة الأيديولوجية عندها الدافع النهائي في تحويل السرد ضد إسبانيا الكاثوليكية السائدة منذ عصر التنوير وكتابات فولتير وإدوارد غيبون. ساهمت الكتب المصورة الجميلة سريعة البيع في هذا البناء الفكري[8]. تحولت هذه المهمة الأيديولوجية في العقود القليلة الماضية إلى "الحاضرية"*، وهي جهد برعاية أكاديمية لرواية الماضي بمصطلحات الحاضر ومن ثم إعادة تفسيره لخدمة دراسات "تعدد الثقافات"، "التنوع" ودراسات "السلام" المعاصرة، مما يستلزم رفض أي رؤية للماضي قد تتعارض مع الأجندة التقدمية بوصفها "أي الرؤية" ارتكاسية، شوفينية أو محافظة؛ لذلك من المذهل أن نرى كيف يستدير بعض الأكاديميين المتخصصين وينعطفون للتقليل من أهمية الدين بوصفه القوة الدافعة في الفتوحات الإسلامية وحتى للتشكيك في غزو إسبانيا من قبل البربر الذين يقودهم العرب المسلمون بوصفه غزوًا لثقافة ودينها من قبل دين آخر. إن القصور في أخذ العامل الديني بجدية في الفتوحات الإسلامية هي سمة من سمات نوع معين من التأريخ الغربي المادي الذي يجد أنه من غير المريح قبول أن الحرب والرغبة في القتل والموت فيها يمكن أن يكون ناجمًا عن المعتقد الديني لشخص ما وعقبة أمام الفهم قد تعكس الدور الذي يلعبه المعتقد الديني في حيوات العديد من المؤرخين الأكاديميين. هذا النهج المادي ساد أيضًا بشكل عام في التحليلات العلمية للحروب الصليبية[9].

في إسبانيا، أصبح واقع الأندلس معروفًا بفضل عمل مؤرخين مثل لويس أ. غارسيا مورينو، فرانسيسكو غارسيا فيتز، مانويل غونزاليس خيمنيز، ميغيل أنخيل لاديرو كيسادا وأنطونيو دومينغيز أورتيز، وباحثين قانونيين مثل رامون بيرالتا، ومستعربين مثل ماريا لويزا أفيلال، سهى عبود حجار، سيرافين فانجول، آنا فرنانديز فيلكس، ماريا إيزابيل فييرو، مرسيدس غارسيا أرينال، تيريزا غارولو، فيليبي مايلو سالغادو، مانويلا مارين، سيليا ديل مورال، كريستينا دي لابوينتي،

خواكين فالفي برميجو، وماريا خيسوس فيجويرا مولينيز، وكتّاب معروفين مثل سيزار فيدال.

مع ذلك، حتى في إسبانيا تسود الروايات التمجيدية، ربما يعود هذا إلى التأريخ الإسباني للقرن التاسع عشر الذي لم يميز بين "مسلم"، "عربي"، "بربر"، "مولدي"، "ذمي"، "عبد" والفئات والثقافات العرقية الأخرى وإنما صاغ بدلًا من ذلك كيانًا بسيطًا ورائعًا يُدعى الحضارة الإسبانو –عربية. مُجادلات القرن بين العالم الأدبي أميركو كاسترو والمؤرخ كلاوديو سانشيز ألبورنوز حول "طبيعة الإسبان" وقعت ضحية هذا الخلط الفكري المثالي. لم يستشهد كاسترو بالنصوص الشرعية الإسلامية من الأندلس أو إي مكان آخر، ولم يستخدم أي مواد أركيولوجية "أثرية"[10]. دفعته هذه الفجوات لتكرار اللغو الموروث عن التسامح والعيش المشترك. كان سانشيز ألبورنوز أكثر اطلاعًا لكن عدم الإلمام بالنصوص الشرعية كان واضحًا أيضًا في كتابته[11]. وهكذا بالنسبة لسانشيز ألبورنوز أيضًا تمتعت النساء المسلمات في الأندلس بحرية يُحسدن عليها مقارنة بالنساء المسلمات في أماكن أخرى.

في ألمانيا، إيطاليا وفرنسا، تشكل أعمال علماء مثل عادل تيودور خوري وروبرتو دي ماتي وألفريد مورابيا وسيلفان غوغنهايم استثناءات للقاعدة، لكنهم ناضلوا ضد مقاومة الخبراء في أقسام الجامعة[12]. من الجدير بالذكر أن أيًا من هذه الكتب لم يُنشر عن طريق المطابع الجامعية.

تلقي قضية غوغنهايم الضوء على ذلك. جادل غوغنهايم أن الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى بقيت، باستثناء العلم، وتقنيات العمارة وبعض جوانب الفلسفة، أقل تمثلًا لروح الحضارة اليونانية. كانت غير مبالية بل ومعادية لأساسيات تلك الحضارة مثل النحت التمثيلي والرسم، الدراما، السرد، الشعر الغنائي، النظرية والممارسة السياسيين. حتى في الفلسفة، بقي الإسلام غريبًا إلى حد ما عن الفلسفة الإغريقية. يُذكّر كتاب غوغنهايم قراءه أيضًا أن النصوص اليونانية لم تكن "مفقودة" ليتم اكتشافها ونقلها بلطف من قبل الإمبراطورية الإسلامية ولكن في الواقع جرى الحفاظ عليها ونقلها والتعليق عليها في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية "التي يُشار إليها عادة بالإمبراطورية البيزنطية"، حتى إن ترجمات النصوص العلمية والفلسفية اليونانية إلى العربية قام به المسيحيون الناطقون باليونانية في الأراضي التي احتلتها الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية، كما أن أرسطو قد تُرجم في فرنسا في دير مونت سان ميشيل قبل أن تظهر ترجمات أرسطو إلى العربية (من قبل العلماء السوريين المسيحيين في الأراضي التي احتلتها الإمبراطورية الرمانية اليونانية المسيحية) في إسبانيا الإسلامية، كما كان ثمة استمرارية بين الحضارتين اليونانية والأوروبية عن طريق

الإمبراطورية اليونانية الرومانية المسيحية دون أن يتطلب الأمر ظهور الإسلام على الساحة التاريخية.

اعتُبِر كتاب غوغنهايم تهديدًا كبيرًا للمؤسسات التعليمية لدرجة أن "مجموعة دولية من 56 باحثًا في التاريخ والفلسفة" وجدت أنه من الضروري التوقيع على رسالة مفتوحة، نُشرت في صحيفة ليبراسيون الماركسية، تهاجم عمله. قيل إن كتابه لم يقدم شيئًا ليس معروفًا سلفًا من قبل العلماء. شيطنة غوغنهايم والحاجة الأكاديمية الواضحة لطرد الأرواح الشريرة التي تلبست عمله استمرت عندما نظمت جامعة السوربون ندوة علمية للتنديد بكتابه ومن ثم أعلنت مدرسته الخاصة علنًا أنها لا تشاركه آراءه. من بين النعوت العلمية المُخففة التي استخدمت لوصف كتابه "الجهل" و"جدال متنكر على هيئة منحة دراسية" و" مليء بالمفاهيم غير المتسقة"، "الاذع" و"كتاب استلاب" (هادم) و"كتاب مُضلل علميًّا"، "عار على ناشره"، "عمل هواة مبني على التجميع والافتراضات المسبقة"، "حالة مزرية"، "عمل من أعمال الخوف والكراهية"، "عنصرية ثقافية"، "مُخجِل"،"غير موثوق"، "قصور في الأخلاقيات التاريخية"، "نتاج للأيديولوجية الكاثوليكية النكوصية"، "غير مؤهل لمعارضة إجماع المتخصصين فيما يتعلق بالإسلام والمسيحية في العصور الوسطى"، وطبعًا "معادٍ للإسلام" وجزء من الإسلاموفوبيا العلمية المعاصرة.

لوّح أساتذة الدراسات الإسلامية بـ"الاحتكام إلى السلطة" ضد غوغنهايم من خلال الإشارة بابتهاج إلى أنه ليس مُستعربًا وإنما متطفل ذو دوافع أيديولوجية "ليس له عمل في حقل علمي ليس حقله" ثم مشّطوا كتابه بشكل لافت خلال بحثهم عن الأخطاء، الزلات أو الأخطاء البيبلوغرافية، ولكن ليس من المحتمل بعد ذلك أن يؤلف مستعرب أو خبير أكاديمي في الدراسات الإسلامية كتابًا يستجوب فيه مزاعم المستعربين والخبراء الأكاديميين من دارسي الإسلام فيما يتعلق بالتأثير المفيد لإسلام العصور الوسطى على أوروبا المسيحية. قد يشير التأويل الارتيابي إلى أن مثل هذا الاستجواب من شأنه أن يعرض للخطر جاذبية حقل البحث الذي يوفر لقمة العيش لخبراء الدراسات الإسلامية وقد يؤدي مثل هذا الاستجواب أيضًا إلى وضع حد للسفر إلى البلدان الإسلامية للقيام بالبحث وفقدان التمويل لباحثي الهرطقة وجامعاتهم (ليس فقط من المؤسسات المانحة ولكن أيضًا من الحكومات مثل المملكة العربية السعودية وقطر والإمارات العربية المتحدة وليبيا القذافي وتركيا)، والنبذ لطلاب الدراسات العليا وصعوبة العثور على المناصب الجامعية (بافتراض أن العلماء كانوا قادرين على إكمال الدكتوراة في قسم دراسات الشرق الأوسط). وقد وثق النقاد الطريقة التي هدد مال البلدان الإسلامية من خلالها دراسات الإسلام والشرق الأوسط في الجامعات الغربية[13].

حالة غوغنهايم تذّكرنا بالمستعرب الإسباني الكبير Francisco Javier Simonet فرانسيسكو خافيير سيمونت (1829- 1897) قبل أكثر من قرن: فالعمل الضخم الذي قام به سيمونت عن "المستعربين" لم يجد ناشرًا خلال حياته بسبب المعارضة الليبرالية المؤثرة للمستعربين الإسبان الذين اعترضوا على رؤى سيمونت الكاثوليكية والمحافظة حول إسبانيا الإسلامية[14].

مما لا شك فيه أن الحفاظ على الذات مهنيًا فضلًا عن الصواب السياسي والاقتصاد أثروا على البحث الأكاديمي في حقول دراسية عدة، على عكس الجرأة التي أظهرها الأساتذة عند كشف الفظائع في حقول التحقيق الخطيرة مثل أوروبا المسيحية (حرق الساحرات، الاستعمار) وإسبانيا الكاثوليكية (محاكم التفتيش الإسبانية). إسبانيا الإسلامية ليست استثناءً للقاعدة. لا تريد المطابع الجامعية أن تتورط في تقديم صورة للهيمنة الإسلامية ولو قبل قرون سوى كونها حدثًا إيجابيًا، ويفضل المتخصصون الأكاديميون عدم تصوير موضوع يشكل خبزهم وزبدتهم بشكل سلبي. بالإضافة إلى ذلك، شل الخوف من تهمة "كراهية الإسلام" العديد من الباحثين الأكاديميين.

إن نشر كتاب عن الرسوم الكاريكاتورية لمُحمد من قبل منشورات جامعة ييل يوضح كل هذه المشاكل. في البداية كان من المفترض أن يكون الكتاب مُرفقًا برسوم كاريكاتورية لمُحمد منشورة في الدنمارك كان المسلمون قد احتجوا عليها بقتل ما لا يقل عن مئتي شخص حول العالم بين عامي 2005 و2006، لكن التعليقات على مواد المخطوطة من قبل بعض الأكاديميين الخبراء في التاريخ والدين دفع إدارة جامعة ييل لإلغاء نشر الرسوم الكاريكاتورية بالإضافة إلى رسم توضيحي لفنان القرن التاسع عشر غوستاف دوريه عن مقطع في الكوميديا الإلهية حيث وضع دانتي مُحمد في الجحيم. وهكذا نُشر الكتاب الذي يتناول الرسوم الكاريكاتورية لمُحمد في عام 2009 من قبل منشورات جامعة ييل ولكن دون أن يكون مرفقًا برسوم مُحمد الكاريكاتورية.

ما هو واقعي:

كان للكون الإلهي في الأندلس ثلاث سمات رئيسة ومتداخلة ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا، والتي كانت في زمنها الخاص في صلب العافية الحيوية الاستثنائية لتلك الثقافة: التعددية العرقية، التسامح الديني ومجموعة متنوعة من الأشكال المهمة لما يمكن أن ندعوه العلمانية الثقافية –الشعر والفلسفة الدنيويين- الذين لم يفهمهما، أولئك الذين طاردوهما، إلا بوصفهما معاديين للإسلام.

María Rosa Menocal— أستاذة اللغة الإسبانية والبرتغالية في R.Selden Rose ومدير مركز ويتني للعلوم الإنسانية في جامعة ييل.

*Culture in the Time of Tolerance: Al-Andalus as a Model for (Year 2000,*Yale Law School Occasional Papers *Our Time," .Paper 1)*

العلماء الذين يحتفلون، على سبيل المثال، بالفتور المزعوم لأهل الأندلس إزاء القيود الدينية والأخلاقية، أو قدرة أولئك الناس على أن يكونوا متدينين وقادرين في الآن ذاته على كتابة الشعر الجنسي المغاير والشذوذ الجنسي المبهج، قد يفعلون ذلك ليس لمجرد عملهم في سياق تاريخي وسياسي وتعليمي معين بكل ما يتمخض عنه من أيديولوجيا ومخاوف ومحرمات، فعملهم قد يعكس أيضًا على نحو أكبر العامل التقني من حيث قصر المرء نفسه على أنواع معينة من الوثائق. رؤى ساذجة عن الروعة لأن انحلال الأندلس الأخلاقي يُستنبط من الحياة الفاسقة لبعض الحكام المسلمين ومثقفي بلاطهم ويُسحب إلى الحياة اليومية للجموع المسلمة (المسيحية أو اليهودية). الأساليب المتعوية لملوك الطوائف في القرن الحادي عشر خلبت على نحو خاص بعض الأكاديميين الناطقين بالإنجليزية الذين لم يهتموا كثيرًا لحقيقة أن -كما أشار مستعربون إسبان مثل Serafín Fanjul وFelipe Maíllo Salgado- حياة المسلم في الأندلس تميزت "في المتوسط" بالوصاية الأكليركية المفصّلة على الشعائر الدينية من قبل العائلة، القبيلة والنزاعات الدامية[15].

هذا النهج الانتقائي غير سوي علميًا، كما هو الحال بالنسبة لتقييم الحياة اليومية والتفضيلات الأخلاقية للعائلات الأمريكية في القرن العشرين بناءً على قراءة السجلات التاريخية التي تركها ممثلو هوليود والفنانون والأدباء الأمريكيون، أو تقييم الحياة اليومية والتفضيلات الأخلاقية لسعوديي القرن العشرين بناءً على السجلات التاريخية المتروكة في أوروبا من قبل بعض أمراء وأميرات العائلة السعودية المالكة. أدلة كهذه، مع أنها قد تكون رائعة وربما ذات قيمة أخلاقية كبيرة، ليست مؤشرًا على كيفية حياة الغالبية العظمى من السكان أو ما هي معتقداتهم وتفضيلاتهم الأخلاقية. مقاربة مختلفة مطلوبة من أجل فهم أفضل لحضارة ما. كما كتب المفكر السياسي الإسلامي اللامع ابن ظفر الصقلي في القرن الثاني عشر: "العاقل يقدم التجريب على التقريب، والاختبار على الاختيار، والثقة على المقة"[16].

قام بعض العلماء المعاصرين في العالم الناطق بالإنجليزية بعمل ممتاز، لكن إذا ما استثنينا Emmet Scottفإنهم إما شعروا بالقلق أساسًا إزاء التجربة اليهودية أو لم يتبنوا نهج الكتاب الحالي، الذي ينظر إلى هذه الثقافات على نحو متزامن ومُقَارن، مُسائِلًا المواد الأدبية، التاريخية، القانونية، الدينية، السيرية، الأثرية وغيرها من المواد الثقافية من أجل أن يُظهِر في الوقت نفسه، إنسانية

تعاني وتُسبب المعاناة[17]. في كثير من الأحيان لا تُظهر الكتب باللغة الإنجليزية مهارة عمل الدارسين الإسبان[18].

يبحث هذا الكتاب في بعض الجوانب الثقافية للمسلمين واليهود والمسيحيين في إسبانيا الإسلامية في العصور الوسطى من أجل تسليط الضوء على البنى العقلية والتمثيلات الجمعية لهذا المجتمع. ولا يصدر حكمًا على المسلمين أو اليهود أو المسيحيين أو على عقائدهم. وهو "أي الكتاب" لا يدعم صدامًا بين الحضارات على الرغم من أنه لا يتبنى هدف "بناء الجسور" بينها. إنه ينصح القرّاء بتوخي الحذر وتذكر الاختلافات الموجودة بين عقائد العصور الوسطى "إسلام، يهود ومسيحية" وبين عقائد اليوم قبل محاولة إيجاد أوجه الشبه المطمئِنة أو المثيرة للقلق بين الاثنين. وهو يرفض كل وجهات النظر المعادية للإسلام، المعادية لليهود والمعادية للمسيحية. أو، كما قد تصف الرطانة النقدية المعاصرة الأمر: يجب على القرّاء أن يضعوا في اعتبارهم أن النصوص المدروسة هي "بُنى ثقافية مُعينة تاريخيًا"[19].

لا يحاول هذا الكتاب دراسة الإمكانية التي تشغل العديد من الخبراء الغربيين عن الإسلام والعديد من العلماء المسلمين المعاصرين المتأثرين بالفكر الغربي، والتي مفادها أن العلماء الأذكياء والمتعلمين "رجال الدين" والحكام المسلمين إما أساؤوا فهم القرآن أو تعمدوا تحريفه بطرق مختلفة، بما في ذلك من خلال اختراع الأحاديث (الروايات التقليدية لأقوال مُحمد وأفعاله أو السنة النبوية) بسبب "وصفات الجنس والسلطة" أو بسبب "مصالحهم البطريركية" أو لأن القوى الاقتصادية الاجتماعية لعصرهم قد صاغتهم أو لسبب خفي آخر لا يخضع له علماء اليوم بطريقة أو أخرى ولذلك يمكنهم نزع القناع وشرحها بتجرد. كما لا يحاول الكتاب فحص الافتراض القائل بأن الحقيقة هي إلى جانب أولئك الخبراء الغربيين المفسرين الذي يجادلون فيما أصبح نوعًا أدبيًا واقعيًا، بأنه ليس فقط أن القرآن لا يعني حقًا ما اعتقد الفقهاء بطرق شتى وعلى مدى قرون أن القرآن يعنيه وإنما أيضًا أن الشريعة لا علاقة لها بتعاليم مُحمد وأنه يمكن للنصوص الإسلامية أن تتصالح مع المفاهيم الغربية للحرية السياسية والدينية والجنسية[20].

قد يكون هذا الفهم الخاص للقرآن صحيحًا ولكن، إذا ما استعرنا كلمات سرفانتس: "إنه لا يهم قصتنا كثيرًا". ما يهم قصتنا هو أن القرآن لم يكن النص ذا الأهمية الكبيرة في ثقافة الإسلام في العصور الوسطى في الأندلس بقدر ما كانت القوانين الدينية المفسَّرة من قبل علماء المدرسة المالكية، ذاك أنه بالنسبة للمدرسة المالكية في الفقه الإسلامي التي هيمنت على الأندلس، كما كانت الحالة أيضًا عمومًا بالنسبة لمدارس الفقه الأخرى في الإسلام الكلاسيكي، كان للحديث والسنة السلطة ذاتها التي تمتع بها القرآن، حيث إن علماء المالكية في الأندلس قد قبلوا في الواقع الأقوال المأثورة لمثل هؤلاء التقليديين المحترمين كالأوزاعي (نحو

704-774) ويحيى بن أبي كثير (توفي 748) التي يغدو القرآن وفقًا لها "أي الأقوال المأثورة" في أشد الحاجة إلى السنة من أجل توضيحه أكثر مما تحتاج السنة إلى القرآن[21] وأن النصوص الإسلامية غير مفتوحة للتأويل من قبل أي فرد مؤمن وإنما ينبغي أن يتم ذلك بوساطة رجال دين مؤهلين[22].

من دون مساءلة أو استجواب موضوعية علماء المدرسة الفقهية المالكية في الأندلس، يأخذ هذا الكتاب، جديًّا وظاهريًا، تفسيراتهم وممارساتهم، بما في ذلك إيمانهم بالوحي الإلهي المنفصل عن التغييرات الاجتماعية الاقتصادية والشروط التاريخية. هذا الفهم للقانون الإسلامي كشيء متعالٍ لا يخضع للابتكار قد تشاركه حتى العالم العظيم "أي الحكيم" ابن حزم الأندلسي الذي لم يكن صديقًا للمذهب المالكي[23]. بالنسبة لكل هؤلاء التقليديين وأعداء الابتكار، وعلى الرغم من الخصومات والاختلافات الفردية، لم يكن الإسلام يحتاج ولا ينبغي له أن يكون "متكيفًا" مع الظروف الجديدة.

يولي هذا الكتاب اهتمامًا خاصًّا للمصادر الأولية (سجلات العصور الوسطى المسيحية، الإسلامية، واليهودية، الأعمال الأدبية، النصوص الدينية والقانونية والسير الذاتية)، وعادةً ما يُقتبس منها حرفيًّا بحيث يمكن لغير العلماء أن يقرؤوا هذه المواد (التي لا تشكل غالبًا جزءًا من السرد وحتى إنها لا تشكل غالبًا جزءًا من الملحوظات في المنشورات الحديثة حول إسبانيا الإسلامية) ويقرروا بأنفسهم إن كانت التفسيرات التبجيلية "التي تضفي القداسة" واسعة النطاق لإسبانيا الإسلامية لها ما يبررها أم لا. ما لم نشر إلى خلاف ذلك، التأكيدات الواردة في هذا الكتاب مدعومة بوفرة بالمصادر الأولية المسيحية والإسلامية واليهودية التي تعود للعصور الوسطى التي إما جرى اقتباسها في النص أو ذُكرت في الملاحظات.

قد يختلف المرء مع واحدٍ أو أثنين أو ثلاثة أو أربعة من هذه المصادر التي تتعارض تأكيداتها مع المعتقدات المريحة ويرفضها بشكل غريزي، أو قد يثير المرء أسئلة حول المعنى الحقيقي لهذه الشهادات من أجل أن يقوض سلطتها بشكل دفاعي، ولكن بعد وهلة يصبح من الصعب دحض العدد الكبير من التأكيدات من المصادر المختلفة كما يصبح تبديد تأثيرها التراكمي أكثر صعوبة. بالقدر الذي تسمح به الأدلة الوثائقية المتاحة والمساحة المحدودة، يتبع هذا الكتاب المعيار التأويلي لشهادات متعددة، وهكذا، على سبيل المثال، كلما كان دين محدد أو تعليم شرعي أوسع تعميمًا وكانت الممارسة المرافقة له عابرة للمصادر عظمت إمكانية أن يتغلل تعليم أو ممارسة كهذين في الحياة اليومية، وكلما كانت المصادر المتخاصمة –إسلامية أويهودية أو مسيحية- على اتفاق فيما يخص افتراضًا ثقافيًّا أو تاريخيًّا معينًا، عظمت القيمة الحقيقة لذاك الافتراض.

تم تقديم كل أنواع الحجج للتشكيك في المصادر الإسلامية: يصفها بعض علماء الغرب اليوم بالنصوص المزوقة بالأساطير التي تخدم أجندات سياسية ودينية، والتي كُتبت بعد قرون من الأحداث[24]. لكن نبذ السجلات الإسلامية يعرضنا لمشاكل. أولى تلك المشاكل أن السجلات تدعي استخدام مواد أقدم وأكثر قربًا من الأحداث الموصوفة، وأن تاريخ بعض السجلات الإسلامية ربما يرجع إلى أقل من قرنين من الزمان بعد الفتح.

مشكلة أخرى هي أن بعض العلماء الذين يشّكون في دقة المصادر الإسلامية غالبًا ما وظفوها للادعاء فيما يتعلق بروعة حضارة إسبانيا الإسلامية وأيضًا للتقليل من شأن الأبطال المسيحيين التقليديين مثل El Cid إلى مجرد محاربين آثمين ومرتزقة. لا يمكن للمرء أن يتبنى كلا وجهتي النظر في آن معًا.

أخيرًا، إن الاستخفاف بالمصادر الأولية لأنها قد تحتوي زخارف وأساطير أو تخدم أجندة سياسية أو دينية يمكن أن يترك للعلماء مواد عمل محدودة وأن يحرمهم من الكثير مما يمكن لتلك الأساطير، الزخارف والأجندات السياسية والدينية أن تقوله عن ثقافة ما وحتى عن الأحداث التاريخية. على أي حال، كما يقر أستاذ الدراسات العبرية نورمان روث:"إن تحليلًا مفصلًا لهذه المصادر يؤدي إلى ترابط ملحوظ وإلى رواية متسقة عمومًا لغزو إسبانيا". إن فحص الباحث في الدراسات الإسلامية والعربية طريف الخالدي للعوامل المختلفة التي أثرت في كتابة سجلات المسلمين في العصور الوسطى يثبت فائدتها التاريخية[25].

لحسن الحظ، حتى لو نظرنا بحق إلى أجزاء من سجلات المسلمين على أنها تزوير محتمل في خدمة الدين، يمكننا التحقق من رواياتهم في مواجهة مصادر أولية مهمة أخرى. يولي هذا الكتاب اهتمامًا خاصًا بالمصادر المسيحية والاكتشافات الأثرية التي تتضمن الروايات الأقدم وربما الأكثر دقة للفتح الإسلامي وعواقبه. المصادر المسيحية مثل *Chronica mozarabica* لعام 754 و*Chronica Byzantia-Arabica* لعام 743 يعود تاريخها إلى عقود قليلة بعد الفتح ويمكن أن تؤكد أو تعارض سجلات المسلمين. كما لاحظ Luis A. García Moreno فإن المصادر المسيحية بما في ذلك التراتيل اللاتينية مثل *Tempore belli* قد تم إهمالها في كثير من الأحيان عند دراسة الفتح الإسلامي لإسبانيا. تقدم الروايات المسيحية الفائدة الإضافية المتمثلة في كتابتها من منظور المهزوم.

طريقة أخرى للتحقق من صحة أو -في بعض الأحيان- زيف سجلات المسلمين هي من خلال علم الآثار، وهكذا فإن الأدلة الأثرية من شمال إفريقيا في منطقة برقة تشير إلى تدمير الكنائس على طول الطريق التي اتبعها الفاتحون المسلمون في وقت متأخر من القرن السابع، والكنوز الفنية الرائعة المدفونة على طول الطرق

المؤدية إلى شمال إسبانيا من قبل القوط الغربيين والإسبان الرومان الفارين خلال أوائل القرن الثامن تتكون إلى حد كبير من الإكسسوارات الدينية ومعدات الأسر الحاكمة التي أراد السكان المسيحيون بشكل واضح حمايتها من نهب المسلمين وتدنيسهم.

تمت ترجمة معظم المصادر الأولية المهمة من اللاتينية، الإسبانية، العربية واليهودية في العصور الوسطى إلى واحدة أو أكثر من اللغات الغربية. قرّاء هذا الكتاب الناطقون بالإنجليزية الذين قد يندمون إذ يتعين عليهم النظر في كل هذه المواد المترجمة يمكنهم أن يجدوا العزاء في حقيقة أنهم ليسوا أسوأ حالًا من المسلم القرطبي الشهير رجل الدين ابن رشد وهو رجل متعدد المواهب حقق شهرة دائمة بالتعليق على النصوص التقنية والصعبة لأرسطو دون معرفة اليونانية وبعد قراءتها في ترجمتين. هذه الترجمات موجودة بفضل العلماء المسيحيين العارفين بالثقافة اليونانية للشرق الأوسط: لقرون تم حفظ أعمال الفيلسوف ودراستها في الإمبراطورية اليونانية الرومانية المسيحية وقد ترجمها علماء مسيحيون تحت الحكم الإسلامي من اليونانية إلى السريانية ثم من السريانية إلى العربية، اللغة التي قرأ بها كل المسلمين المتعلمين الفلسفة اليونانية والعلوم[26]. جميع الترجمات إلى اللغة الإنجليزية لي ما لم يُنص خلاف ذلك في المصادر. لتسهيل القراءة من قبل غير المتخصصين تجنبتُ عمومًا استخدام علامات التشكيل: وهكذا Quran بدلًا من Qur'an, وtaifa بدلًا من ta'ifa, وMuhammad بدلًا من Muḥammad. استخدام المصادر متعددة اللغات، بما في ذلك الترجمات المطبوعة في بلدان مختلفة في عصور مختلفة قد جرى بشكل عرضي لكن آمل أن تكون التناقضات في حدودها الدنيا في تهجئة بعض الكلمات والأسماء الشخصية.

ماذا عن الاسم؟

لم تتساءل أي من التغطيات الغربية عن نوع الإسلام الذي قد يخرج من مسجد غرناطة الجديد؟ ما مدى صرامة رؤاه حول الشريعة؟ عن دور المرأة؟ حتى السؤال الأكثر وضوحًا بقي معلقًا: هل حاكى هذا المسجد الإسلام الفكري العظيم للمغاربة الأندلسيين بإنسانيته الدينية الشاملة؟ لم يكن إسلام الثقافة المغربية نقيًا في ذروته، بل تطور بشكل شامل بعد ثمانية قرون من التعاون مع اليهود والمسيحيين. في الواقع، يمكن للمرء أن يجادل بأن "الإصلاح" الفائت المأسوف عليه للإسلام كان جاريًا هناك إلى أن جرى إجهاضه من قبل محاكم التفتيش الإسبانية. على أي حال كان الإسلام المغاربي أي شيء سوى كونه أصوليًا.

elik Kaylan, "Houses of Worship: Back Again After 500 —M
., July 18, 2003 Wall Street Journal *Years,"*

أستخدم مصطلحات إسبانيا، إسبانيا في العصور الوسطى، إسبانيا الإسلامية بدلًا من استخدام إيبيريا، إيبيريا في العصور الوسطى، وإيبيريا الإسلامية. إن استخدام مصطلح إيبيريا الإسلامية، وهو استخدام معياري في معظم الكتابات الأكاديمية الاختصاصية منذ 1990 (قبل هذا التاريخ، كانت كل البحوث العلمية معتادة على استخدام مصطلح إسبانيا في العصور الوسطى) يُبرز عددًا من الصعوبات الواقعية والنظرية. إيبيريا هي ما قبل الرومان ولذلك هي مصطلح يعود للعصور الوسطى. الرومان الذين سيطروا على إسبانيا بشكل مختلف من نحو 215 قبل الميلاد وحتى انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية (أو اللاتينية) في أوائل القرن الخامس بعد الميلاد دعوا إسبانيا هسبانيا. هذه كلمة لاتينية (ربما اقتُرضت من القرطاجية) تطورت إلى كلمة *Spania* في العصور الوسطى وإلى إسبانيا في نهاية المطاف. هكذا نتج اسم إسبانيا من عملية تطور اللغة من اللاتينية "المبتذلة" (اللاتينية الأبسط التي يستخدمها الجنود والتجار الرومان) المتحصلة من اللهجات الرومانسية المختلفة لأشباه الجزر مثل القشتالية، النافارية والليونية، قبل أن تصبح اللهجة الرومانسية القشتالية معيار اللغة الإسبانية. يمكن رؤية مثل هذه العملية في لغات رومانسية أخرى: أدت اللهجة التوسكانية الإيطالية إلى ظهور الإيطالية الحديثة، وأدت اللهجة الفرنسية للمنطقة الباريسية (*île-de-France*) إلى ظهور الفرنسية الحديثة. صوتيًا وصرفيًا ونحويًا وغالبًا على المستوى المعجمي يمكن اعتبار الإسبانية الحديثة مثل الفرنسية، الإيطالية، الكاتالانية، البرتغالية أو الرومانية شكلًا متطورًا من اللاتينية لغة الإمبراطورية الغربية الرومانية؛ لذلك فهي لغة رومانسية. كان تأثير اللغات الأخرى على الإسبانية معجميًا في الغالب. هكذا فقط نحو 6 بالمئة من مجموع المفردات الإسبانية يمكن عزوها إلى العربية نتيجة للفتح الإسلامي. في المقابل، نحو 30 بالمئة من مفردات اللغة الإنجليزية، وهي لغة جرمانية، يمكن عزوها إلى الفرنسية، وهي لغة رومانسية، نتيجة للغزو النورماندي 1066[27]. بحلول الوقت سيطر الرومان على معظم إسبانيا في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، كانت الأرض تُدعى بالفعل باللغة اللاتينية هسبانيا وليس "إيبيريا".

علاوة على ذلك، فإن القوط الغربيين الجرمانيين ذوي الطابع الروماني للغاية[28] والذين بدؤوا بالاستحواذ على إسبانيا من الرومان في القرن الخامس بعد الميلاد أشاروا إلى الأرض باسم هسبانيا وليس "إيبيريا". في القرن السادس تغنى العالم القوطي الغربي القديس إيسيدور، أسقف إشبيلية، بجمال هسبانيا وليس "إيبيريا". بينما كانت اللهجات الإسبانية تتخلص بشكل تدريجي من اللاتينية كانت كلمة هيسبانيا تتطور إلى الكلمة اللاتينية التي تعود إلى العصور الوسطى *Spania*، ومن ثم إلى كلمة اللغة الرومانسية *España*. لذا كانت Spain وليس "Iberia" في العصور الوسطى كيانًا جغرافيًا مُعترفًا به عالميًا.

في الواقع، كما سوف نرى في الفصل الأول، لطالما اعتُبرت الأراضي، على مدى قرون من العصور الوسطى المسيحية، التي احتلها الإسلام جزءًا من إسبانيا لا جزءًا من الإسلام ولذلك لم يستخدموا مصطلح الأندلس وبالتأكيد ليس إيبيريا. المستعرب Joaquín Vallvé Bermejo خواكين فالفي بيرميجو أشار إلى أن السجلات المسيحية التي تعود للعصور الوسطى أشارت إلى الأراضي التي يحتلها الإسلام بـ Spain[29]. سكان الممالك المسيحية في شمال إسبانيا أشاروا إلى المسيحيين الباقين بوصفهم "ذميين" في إسبانيا الإسلامية بـ"الإسبانيين" وليس "الإيبيريين". يشير مخطوط "لاس كانتيغاس دي سانتا ماريا" للملك ألفونسو العاشر (1221-1284) المكتوب بالغاليكية البرتغالية إلى الأراضي المحتلة من قبل المسلمين بوصفها جزءًا من أرض "إسبانيا"[30]. كانت مملكة البرتغال (التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر) مملكة في إسبانيا، مثل قشتالة وليون "وليس مملكة في "إيبيريا")، لذلك فإن استخدام "إيبيريا" في العصور الوسطى بدلًا من استخدام "إسبانيا" لتجنب الإساءة للبرتغاليين (أو الكاتالونيين) ليس له أي مبرر تاريخي[31].

حتى المسلمون استخدموا كلمة إسبانيا وليس إيبيريا للإشارة إلى الأراضي التي فتحوها. أقدم عملات إسلامية في إسبانيا، والتي يعود تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثامن، تُظهر على أحد وجهيها اسم الأندلس مكتوبًا بالعربية وعلى الوجه الآخر *SPAN* كاختصار لـSpania [32]. المؤرخون المسلمون البارزون بما في ذلك المؤرخ الطبري (839-923) والجغرافي المسعودي (توفي 956) أشاروا إلى إسبانيا بإسبانيا[33]. آخرون، بمن فيهم الجغرافي العربي الإدريسي (توفي 1165) والمؤرخ التونسي العظيم ابن خلدون (1332-1406) والمؤرخ الجزائري المقري (1578-1632) استخدموا مصطلح *Isbania* أو *Ishbaniah* الذي يعني España /Hispania[34]. المؤرخ لويس أ غارسيا مورينو .Luis A García Moreno لاحظ أنه "في نص يحتوي على مراجع أندلسية جمعه خلال الحقبة العباسية الموسوعي ابن خرداذبة في منتصف القرن العاشر كان من المثير للدهشة أن سكان قرطبة يُلقبون بالإسبان وهو نسخ عربي بسيط لكلمة *Hispani*؛ لذلك لا يبدو أنه يمكن للمرء أن يشك أن نخبة المستعربين "الذميين" في هذه القرون لا تزال تحتفظ بوعي كونها جزءًا من هوية إثنية-جغرافية تُدعى إسبانيا، والتي كانت وحدتها وتعبيرها السياسي هي Regnum Hispaniae "المملكة الإسبانية" التي تأسست على الفضائل الملحمية للقوطيين كمحور لهذا الواقع الأيديولوجي"[35].

من الصحيح، مع ذلك، أنه كان ثمة جهد بين المؤرخين، الشعراء والمثقفين المسلمين اللاحقين على العموم، الذين كانوا يعتمدون اقتصاديًّا على الحكام المسلمين، من أجل أن يسموا الأرض المحتلة بالأندلس والثناء عليها بوصفها فردوسًا أرضيًّا[36].

هذا التكتيك هو مناورة استعمارية معروفة، تغيير الأسماء الجغرافية في أرض مُحتلة يعزز سلطة الفاتح. في الواقع، كما سيُظهر الفصل الأول، عرّب الفاتحون المسلمون من الأسماء القديمة في الأرض الإسبانية بقدر ما استطاعوا. نتائج الفهرسة الطبوغرافية لهذا التعريب المنهجي لا تزال باقية في جنوب إسبانيا حتى يومنا هذا. ومع ذلك، فإن السكان الخاضعين في إسبانيا، كما في أي مكان آخر في الإمبراطورية الإسلامية، غالبًا ما تشبثوا بعناد بالأسماء القديمة كجزء من مقاومتهم الثقافية لأسلمة أرضهم.

أحد أسباب استخدام المصطلح المُختلق "إيبيريا" في الكثير من الكتابات الأكاديمية اليوم هو تجنب الإساءة للحساسيات غير المسيحية. هذا مشابه للاستخدام الأكاديمي الأيديولوجي لمصطلح مُختلق آخر، "c.e" وهو اختصار لـ "Common Era" الذي تطلبه الآن العديد من المنشورات الأكاديمية باللغة الإنجليزية بدلًا من "A.D" أو "Anno Domini" "عام الرب"، المنشورات نفسها تؤكد أيضًا على "B.C.A"،"Before the Common Era" بدلًا من "B.C" "Before Christ"، بالطبع التأريخ الفعلي في مثل هذا الاستخدام الأكاديمي يبقى مثبتًا على ميلاد المسيح، الذي يجب عدم نطق اسمه رغم ذلك. في المقابل، يحترم علماء الدراسات الإسلامية، وبكل حصافة، التقويم الإسلامي وعادة ما يضيفون إلى "c.e" التأريخ الهجري –التقويم الإسلامي المثبت على رحلة مُحمد من مكة إلى المدينة- أو حتى يستخدمون التأريخ الهجري فقط.

كانت إسبانيا جزءًا من صرخة معركة الاسترداد (Reconquista) "*S*antiago y cierra, España"[37] والعديد من المسلمين "بمن فيهم أسامة بن لادن" طالبوا بحق العودة وحكم الأندلس التي يعتبرونها مثل فلسطين والشرق الأوسط برمته ومناطق أخرى من العالم فتحها الإسلام ذات مرة، "وصية إسلامية" غير قابلة للتصرف أو وقفًا أصيلًا؛ لذلك يستخدم المؤرخون الآن إما الأندلس (تبعًا للدعاة المسلمين) أو إيبيريا "الكلمة التي تعود للعصور الوسطى".

ثمة سبب آخر لاستخدام هذه الكلمات وهو نقض جوهرية فكرة إسبانيا بدلالاتها "المسيحية والأوروبية والإسبانية" القومية وغير المرغوب فيها للغاية وجعل هذا الكيان مفتوحًا لإعادة التأويل الأكاديمي بوصفه شيئًا "متنوعًا"، خليطًا من المسيحية، الأوروبية، العربية، اليهودية، الإفريقية وماهيات أخرى من هذا القبيل. بعبارة أخرى، تعمل هذه المهارة الاصطلاحية ضد تفضيل المسيحية وأوروبا ولكن ليس ضد تفضيل الماهيات الأخرى.

حتى إن هذه المهارة الاصطلاحية تتضمن الشك في أن التابعين لرايات الممالك المسيحية في العصور الوسطى مثل ليون، قشتالة، أراغون والبرتغال كان لديهم تواصل ديني، سياسي، اجتماعي، ثقافي وعرقي كاف مع مملكة القوط الغربيين

الكاثوليكية المحتلة لتأهيليهم بصفتهم غزاة جددًا للثأر لعالم مسيحي مفقود في مشروع ديني، عسكري وسياسي يُدعى الاستردادReconquista La لكن هذه المهارة ذاتها لا تشك في أن أتباع الإسلام في إسبانيا كان لديهم تواصل ديني، سياسي، اجتماعي، ثقافي وعرقي كاف مع الإسلام في أماكن أخرى من أجل تأهيليهم كجزء من ماهية تُدعى "الإسلام"[38].

الفتح والاسترداد

كان التفسير التقليدي هو أن الغزو كان مدفوعًا بالإيمان بمفهوم الجهاد بمعنى الحرب المقدسة. عند كتابة التاريخ في عهود معينة لا سيما في القرن التاسع عشر، كان من الطبيعي أن نعزو توسع الإسلام إلى حماسة إيمان المسلمين الأوائل.. السعي وراء الجهاد بوصفه حربًا مقدسة ليس عاملًا مُحفزًا يتعلق بالصدام بين المسلمين والشعوب التي هزموها في القرن الأول للإسلام على الأقل ليس فيما يتعلق بفتح شبه الجزيرة الإيبيرية واحتلالها لاحقًا.

—*Richard Hitchcock, Professor Emeritus of Arab and Islamic*
Mozarabs in Medieval *Studies at the University of Exeter,*
(Aldershot: and Early Modern Spain: Identities and Influences
Ashgate, 2008), 7–8

يجب أن نفكر في المسلمين، بطريقة ما، على أنهم موجة هجرة، تمامًا مثل القوط الغربيين، باستثناء مئتي سنة لاحقًا.

David Nirenberg, Deborah R. and Edgar D. Janotta Professor of Medieval History and Social Thought at the University of
Cities of Light: The Rise and Fall of *Chicago, in the PBS film*
(2007) Islamic Spain

تخبرنا السجلات الإسلامية والمسيحية كما تؤكد الأدلة الأثرية[39] أنه في النصف الثاني من القرن السابع اجتاحت جيوش الخلافة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط المناطق الساحلية في شمال إفريقيا التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية (يُشار إليها عادة بالإمبراطورية البيزنطية)[40]. كان شمال إفريقيا إلى حد كبير أراضي مسيحية منذ أوائل القرن الرابع على الأقل. كانت هذه أرض ترتليان (160-225 تقريبًا) والقديس سيبريان (نحو 200-258) والقديس أثناسيوس الإسكندري (نحو 296-373) والقديس أوغسطينوس (354-430). كان في مصر وحدها شبكة من الأديرة المسيحية (اليونانية والقبطية) المليئة بالمخطوطات القديمة والفن الثمين تمتد من الإسكندرية على الساحل إلى الخارجة والأقصر في المناطق النائية، لكن القوات الإسلامية دمرت هذه الشبكة وفي النهاية اختُصر كل من اليونانيين والمسيحيين الأقباط إلى أقليات صغيرة تتعرض للمضايقة بشكل دوري[41].

لكن المحاربين المسلمين أيضًا هزموا وأرغموا عددًا من القبائل البربرية الوثنية في داخل الشمال الإفريقي، ليس دائمًا بشكل شامل، على التحول إلى الإسلام

ودمجوهم في الجيوش الغازية. من خلال اضطهادها من قبل الإسلام، فإن الدين والثقافة واللغة البربرية بقيت مُهمشة حتى يومنا هذا[42].

تستمر السجلات لتخبرنا أنه، خلال النصف الأول من القرن الثامن، ربما نحو عام 711، عبرت القوات الإسلامية المضيق الضيق (الذي كان يُسمى وقتذاك باسمه اليوناني القديم "أعمدة هرقل"، لا يزال الاسم مُستخدمًا من قبل سيرة المستعربين المسيحيين Christian *Chronica mozarabica*لعام 754)[43] ليفصلوا إفريقيا عن الأرض التي أطلق عليها الرومان اسم هسبانيا –الكلمة اللاتينية التي تطور منها المصطلح اللاتيني اللاحق *Spania*والإسباني المعاصر *España*-. (لم يدع الرومان هذه المنطقة إيبيريا، وهو مصطلح يوناني أقدم اعتمده العديد من العلماء اليوم).

تختلف الروايات المبكرة حول التكوين الدقيق لهذه القوات وعددها، وعلى التفاصيل الدقيقة وتسلسل الأحداث. يبدو أن الغزو كان مسبوقًا بغارة في عام 710 شارك فيها عدة مئات من البربر من القوات المسلمة بقيادة طريق، مولى بربري (الجمع: موالي، في حالته هو عبد مُحرر اعتنق الإسلام وظل مرتبطًا كـ"تابع" بمولاه المسلم السابق في علاقة من الامتثال والحماية) لوالي شمال إفريقيا موسى بن نصير[44]. ربما كان موسى نفسه نجل عبد مسيحي سوري مُحرر اعتنق الإسلام بحسب المؤرخ المسلم الشهير ابن حيان من قرطبة (توفي 1076) وأيضًا بحسب تاريخ مسلم مجهول من القرن العاشر أو الحادي عشر "أخبار مجموعة"[45]. عاد طريق، أي طارق "فأصاب سبيًا لم ير موسى مثله ولا أصحابه ومالًا جسيمًا ورجع سالمًا"[46]. كان من نتائج هذه الغارة، كما تخبرنا "أخبار مجموعة" ومصادر أخرى، أن أغرت موسى على المضي قدمًا في الغزو؛ لذلك أرسل قوة استكشافية قوامها عدة آلاف من الرجال للتحقيق في دفاعات العدو، وفقًا للتكتيكات العسكرية المعتادة للفتوحات الإسلامية المبكرة[47]. كانت هذه القوة مؤلفة إلى حد كبير من المحاربين البربر المسلمين الذين يقودهم طارق بن زياد وهو مولى بربري آخر لموسى. ربما وجد طارق مقاومة أقل مما كان متوقعًا لذلك تبعه جيش كبير يقوده موسى مؤلف من وحدة عربية صغيرة وعدد كبير من المحاربين البربر فيما بعد معززاً بقوات من سوريا واليمن[48].

ما يبدو أقل إثارة للجدل هو أن الجيوش الإسلامية استغلت صراعات الأسر الحاكمة، عدم الاستعداد العسكري والأوبئة، والخيانة من قبل نبلاء القوط الغربيين قبل وبعد وربما أثناء القتال لهزيمة ملك القوط الغربيين الإسبان رودريغو في المعركة المعروفة تقليديًا باسم غواداليت ربما في 26 يوليو 711. وهكذا انتهى ما تدعوه " Christian *Chronica mozarabica*" لعام 754 "ما يقرب من ثلاثمئة وخمسين عامًا من حكم القوط في إسبانيا"[49]. خلال أقل من عشر سنوات سيطر الإسلام على معظم المناطق الإسبانية. أصبح الرومان الإسبان والقوط

الغربيون ذميين –أي المسيحيون الذين يعيشون في وضع ثانوي في الأراضي الإسلامية- أو تحولوا إلى الدين المهيمن أو فروا للنجاة بحياتهم. هرب الكثيرون إلى الجبال، إلى مناطق أستورياس وجاليسيا في الشمال الغربي التي ظلت كما أظهر المستعرب والباحث في الشريعة الإسلامية Felipe Maíllo Salgado فيليبي مايلو سالغادو حرة إلى حد كبير من سيطرة المسلمين[50]. فر آخرون في نهاية المطاف إلى فرنسا، من بينهم الشاعر واللاهوتي القوطي الغربي ثيودولف (نحو 750-821) الخبير بشعر أوفيد وفرجيل الذي أصبح أسقف أورليانز وأحد أعمدة عصر النهضة الكارولنجية.

بعد أن عززوا قبضتهم على معظم الأراضي الإسبانية أرسل الفاتحون المسلمون قوة استكشافية للإغارة على جنوب فرنسا. نهبت هذه القوة بوردو وأحرقت جميع الكنائس في طريقها، ووصلت إلى ضواحي بواتييه في وسط فرنسا حيث أحرقت الكاتدرائية. في هذا الوقت، تعرض الغزاة الإسلاميون للضرب. فيما أصبح معروفًا بمعركة تورز أو معركة بواتييه (10 أكتوبر 732) هزم جيش الفرنجة بقيادة زعيمهم المسيحي والحاكم الفعلي (شارل مارتل) القوات الإسلامية. كما تصف *Chronica* mozarabica لعام 754 المعركة "هؤلاء الرجال الشماليون ذوو الأطراف القوية والأيدي الحديدة وقفوا كجدار ثابت من الجليد وقطعوا العرب إلى أشلاء"[51].

بعد هذه الهزيمة على أيدي الأوروبيين "أوروبيين كما تدعو *Chronica* mozarabica مارتل ومحاربيه الفرنجة لتمييزهم عن الآخرين"، مع مؤرخ القرن الثامن ذاك الذي يبدي وعيًا مبكرًا بالوحدة الجغرافية، الثقافية وحتى العرقية لما يُدعى "أوروبيون"، لم تعد الجيوش الإسلامية من إسبانيا تهدد أوروبا بشكل خطير مرة أخرى[52]. كانت القوات المسيحية لمارتل فعالة في التثبت بشكل فعال من محاولة المسلمين جعل كل أوروبا تخضع للإسلام، على الأقل حتى هزم الأتراك المسلمون الصرب في كوسوفو عام 1389 واستولوا على القسطنطينية في 29 مايو 1453 (وبذلك أكملت تدميرها للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية وإخضاع اليونانيين المسيحيين، والذي سيستمر لأربعمئة عام) ثم تحركوا عبر البلقان لهزيمة المجريين في موهاج عام 1526 (برؤوس أربعة عشر ألف جندي مجري مذبوح، بالإضافة إلى رؤوس السجناء، بمن فيهم سبعة أساقفة، بنى الأتراك تلًا كتحذير للمسيحيين الذين تجرؤوا على المقاومة) ووصلوا أخيرًا إلى أبواب فيينا عام 1529 (معركة حصار فيينا) ومرة أخرى عام 1683 في معركة بوابات فيينا التاريخية[53].

غزو بدوافع دينية:

رغم أن شهوة السلب والاسترقاق كانت بلا شك جزءًا من دوافع الجيوش الإسلامية، إلا أن الدافع الأساسي لحركة هذه الجيوش عبر شمال إفريقيا ومن ثم إلى أوروبا كان مباشرة حربًا دينية، جهادًا. تشير كل المصادر الإسلامية والمسيحية لغزو شمال إفريقيا وإسبانيا وكذلك تشهد الأدلة الأثرية على أهمية العامل الديني في الغزو الإسلامي.

قبل النظر في هذه المصادر، من المهم فحص الطريقة التي تم فهم مفهوم الجهاد من خلالها بوصفه حربًا ذات دوافع دينية في النصوص الشرعية الإسلامية وغيرها من المصادر الأندلسية في ذلك الوقت. يصر العديد من الأكاديميين المتخصصين اليوم أن الجهاد –باللغة العربية، حرفيًا "الجهد" أو "الكفاح"- يعني في الشريعة الإسلامية بشكل أساسي جهدًا روحيًا داخليًا أو نضالًا فرديًا لتحسين الذات[54]. يؤكدون على هذا المعنى لتقوية ادعائهم أن الغزو الإسلامي كان بدافع آخر غير الدين، ربما بسبب رغبة غير مؤذية في "توسيع" أو "نقل" أو "بذل" أنفسهم في البحث عن الكمال. على سبيل المثال، يتحدى ريتشارد هيتشكوك، الأستاذ الفخري للدراسات العربية والإسلامية في جامعة إكستر البريطانية، "التفسير التقليدي.. أن الغزو كان مدفوعًا بالإيمان بمفهوم الجهاد بمعنى الحرب المقدسة". يلاحظ هيتشكوك أن "معنى كلمة جهاد هو "الكفاح" أو "الاجتهاد". يستشهد باستحسان بتعليقات أحد أشهر مترجمي القرآن في القرن العشرين "مولوي محمد علي" الذي كتب أنه "التفسير التقليدي" (يُظهر جهلًا تامًّا باللغة العربية) لتفسير الإشارة إلى الجهاد في السورة 9 من القرآن بأنها تعني القتال بالسيف. أضاف علي بأن "الجهاد الأعظم الذي يمكن أن يضطلع به المسلم هو عن طريق القرآن.. وليس السيف"[55].

هذا التفسير الأكاديمي الروحي للقرآن جعله موضوعًا للتعليم لأطفال المدارس في الغرب. كتاب "عبر القرون" (*Across the Centuries*) لـ Houghton Mifflinيعلم الأولاد أن الجهاد هو "صراع داخلي" يحث المؤمنين على "بذل قصارى جهدهم لمقاومة الإغواء والتغلب على الشر"[56]. يتم تدريس هذا المنظور للجهاد الآن في العديد من المدارس في الولايات المتحدة[57]. الفيلم الوثائقي "حياة مُحمد" (2011) عن حياة القديسين الذي تم تمويله وإنتاجه من قبل هيئة الإذاعة البريطانية BBC والذي تبثه بانتظام محطات التلفزة التعليمية في إنجلترا والولايات المتحدة يدعّي هذا أيضًا. ينكر العديد من المسلمين المتعلمين في الغرب اليوم أيضًا أن لمصطلح الجهاد مضامين عسكرية. على سبيل المثال، الدكتورة قانتا أحمد وهي طبيبة معالجة بريطانية المولد من أصل باكستاني وتزاول مهنتها في السعودية أخبرت أحد المراسلين:"أحد الأخطاء المركزية التي يتعرض لها الغربيون باستمرار هي استخدام هذا المصطلح "الجهاد"". أضافت: "الجهاد

المركزي بالنسبة لنا جميعًا هو أن نتحسن باستمرار وأن نكون أفضل ما بوسعنا أن نكونه وأن نحاول الالتزام ببعض المثل النقية للغاية"[58].

الآن، من الممكن بالتأكيد وعلى مدى قرون، أن يكون علماء المسلمين في العصور الوسطى الذين فسروا النصوص الإسلامية المقدسة وكذلك القادة العسكريون المسلمون (بمن فيهم ربما مُحمد نفسه عندما قاد جيوشه ضد الكفار غير الراغبين في الخضوع) أساؤوا فهم (على عكس خبراء الدراسات الإسلامية اليوم) في المقام الأول المعنى السلمي والدفاعي للجهاد وأن الجيوش الإسلامية نتيجة لهذا الخطأ تقدمت، على نحو دفاعي دائمًا، وغزت نصف العالم المعروف. أو ربما كانت هذه الجيوش الإسلامية الغازية، بطريقة ما، لا تعدو أن "تبذل" نفسها لمقاومة الإغواء والتغلب على الشر.

رغم ذلك، فإن الفهم الصحيح للمصطلح بالنسبة للمفسرين الخبراء الأكاديميين اليوم قليل الأهمية بالنسبة لما حدث فعلًا. هذا لأنه، كما يشير فيليبي مايلو سالغادو Felipe Maíllo Salgado، عندما كانت النصوص الشرعية للمدرسة المالكية السائدة في الأندلس تذكر الجهاد، فهي لم تكن تتحدث عن "صراع داخلي روحي" أو عن نوع ما من "مجهود للسمو بالذات"؛ كانت تلك النصوص تتحدث عن الحرب ضد الكفار، القتال المقدس أو الحرب المقدسة أو كفاح مقدس أو أي اسم آخر قد يختاره المرء ليصف هذه الحرب المفروضة دينيًا ضد الكفار[59](انظر الفصل 3 حول هيمنة المالكية في إسبانيا الإسلامية). وهكذا، ما يسميه كثير من أكاديميي الدراسات الإسلامية اليوم "الجهاد الأصغر" كنقيض لـ"الجهاد الأعظم" (الجهاد الروحي) تبين أنه الجهاد الوحيد الذي بحثته مقالات المالكي الدينية والذي مُورس فعليًا في إسبانيا الإسلامية. على حد قول سهى عبود حجار أستاذة الشريعة الإسلامية والدراسات السامية في جامعة كومبلوتنسي في مدريد، إن الهدف من الجهاد المفهوم على هذا النحو هو "شن الحرب من أجل نشر الدين الإسلامي وتطبيق قانونه في جميع أنحاء العالم، ومكافأته "أي الجهاد" هي الجنة"[60].

فحصي للمصادر المتاحة ذات الصلة بإسبانيا الإسلامية يترك القليل من الشك حول هذه الأمور. أطروحة الإمام مالك بن أنس التأسيسية التي تعود للقرن الثامن عن الشريعة الإسلامية، الموطأ (الطريق السهل أو الطريق المطروق) في النص الأكثر موثوقية (العائد للفقيه القرطبي يحيى بن يحيى بن كثير الأندلسي) يناقش الجهاد أو "الكفاح المقدس" بالمعنى العسكري فقط (الكتاب 21، الجهاد)[61].

كانت المقاطع في "الموطأ" عن وجوب أداء هذه الحرب الدينية مصدر إلهام لأي محارب مسلم بلا شك وكانت تفيد في شرح حماس القتال الذي لا يقاوم في كثير من الأحيان للجيوش الإسلامية. من بين العديد من الأمثلة، قال رسول الله "صلى

الله عليه وسلم": إن الله سبحانه وتعالى تعهد أن يُدخل الجنة من يقاتل في طريقه، أو أن يرده إلى مسكنه مع ما نال من أجر أو غنيمة (21.1.2). الفوائد الأبرز في مباشرة الحرب المقدسة واضحة في ترتيب السلوك الجيد هذا: قال رسول الله، ألا أخبركم بخير الناس منزلًا؟ رجلٌ آخذٌ بعنان فرسه يُجاهدُ في سبيل الله، ألا أخبركم بخير الناس منزلةً بعده؟ رجلٌ معتزلٌ في غنيمة له يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد الله لا يُشرك به شيئًا (21.1.4).

الشهادة في سبيل الله مجّدها مالك في كتاباته. على سبيل المثال: "قال رسول الله: لوددتُ أني أُقتلُ في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أُقتل". وقال رسول الله "لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا. لوددتُ أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا فأقتل" قال ذلك ثلاثًا. حث رسول الله على الجهاد المقدس وذكر الجنة بينما كان رجل من الأنصار يأكل تمرًا كان في يده، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل". قال رسول الله: لا يُكلمُ أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكلمُ في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعبُ، اللون لون دم والريح ريح مسك (21.14.29). دخل رسول الله ذات مرة إلى "أم حرام" فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلتُ وما يضحكك يا رسول الله فقال ناسٌ من أمتي عُرِضُوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة (21.18.39).

مما لا شك فيه أنه كان حافزًا قويًا لمحارب ذكر يُقاتل في سبيل الله أن يأخذ كل أموال هؤلاء المقاتلين الأعداء الذين قتلهم، بما في ذلك نساؤهم، اللواتي لن يعتبرن نسوة أحرارًا ولذلك سيتخذن كعبيدات جنسيات[62]. الرغبة في الموت خلال قتال الكفار والتي تُدرس في النصوص الدينية عن الجهاد، أعطت المحاربين المسلمين ميزة تكتيكية على أعدائهم خلال الفتوحات الإسلامية. هذا الاستعداد للموت وُجد، على سبيل المثال، في كلام القائد العربي خلال الخلافة الإسلامية خالد بن الوليد في عام 633 آمرًا الفرس بالخضوع للإسلام أو "الأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة"[63].

كل الأطروحات الشرعية للمالكي تتبع هذا الفهم الحصري العسكري للجهاد. كتاب التفريع من القرن العاشر، واحد من آثار المالكي المقروءة على نطاق واسع في إسبانيا الإسلامية، يناقش الجهاد بوصفه حربًا مقدسة فقط (39-231).

أطروحة مالكية مؤثرة أخرى من القرن العاشر في إسبانيا الإسلامية، الرسالة للقيرواني التي تناقش الجهاد كحرب مقدسة فقط (30.1،30.6)، (والجهاد فريضة يحمله بعض الناس عن بعض، وأحبُّ إلينا أن لا يُقاتل العدو حتي يُدعوا

إلى دين الله إلا أن يعاجلونا. فإما أن يسلموا أو يؤدوا الجزية وإلا قوتلوا. وإنما تُقبل منهم الجزية إذا كانوا حيث تنالهم أحكامنا).

وبالمثل فإن الدليل القانوني *Suma de los principales mandamientos y devedamientos de la ley y çunna, por don* (مجموع الوصايا والعهود الرئيسة للشريعة والسنة) من قبل عيسى جبير المكتوب عام 1492 بالأعجمية الأندلسية في إسبانيا مكتوب بالإشارات العربية التي استخدمها العديد من المسلمين في ظل الهيمنة المسيحية الإسبانية يتناول الجهاد (*al-chihed*) فقط بوصفه حربًا مقدسة وفرضًا على المؤمنين. ينطبق الشيء ذاته على الدليل القانوني *Leyes de moros* المكتوب بالإسبانية والذي يرجع تاريخه ربما إلى القرن الرابع عشر (انظر الإشارة إلى الجهاد في 250). إن الاستمرار في فهم الجهاد بوصفه حربًا مقدسة فقط في هذه الأعمال مُعبِرٌ تمامًا لأنها كُتبت من أجل استخدام المسلمين في ظل المسيحية (*mudéjares*) "المدجنون"[64]. يوضح كتاب *Suma* أن الجهاد واجب على جميع الذكور المسلمين الأحرار وأنه قبل قتال الكفار يتوجب على المرء الطلب إليهم إما الخضوع للإسلام ودفع الجزية أو التحول إلى الإسلام.

البداية، أطروحة مالكية لتوجيه القضاة المسلمين، من قبل الفقيه القرطبي العظيم ابن رشد (المعروف على نحو واسع في الغرب باسم الفيلسوف Averroes) تناقش الجهاد فقط بوصفه حربًا مقدسة وتؤكد على الضريبة أو الجزية لقاء إنقاذ أرواح المسيحيين واليهود بينما يظلون غير مؤمنين تحت سلطة الإسلام. (1.1.10-2.7.6.10).

وبالمثل، فإن أحد أعظم العقول في إسبانيا الإسلامية، العلامة ابن حزم (994-1064) تحدث عن الجهاد فقط كحرب مقدسة ضد الكفار. كما يشير عالم الإسلام الفرنسي روجر أرنالديز Roger Arnaldez إلى أن الجهاد يبقى بالنسبة له حربًا مسلحة ولا يقوم بأدنى محاولة لإضفاء بعد روحي على الكلمة[65]. علاوة على ذلك، لاحظ ابن حزم أن "الجهاد هو لخدمة الله أكثر مما هو لخدمة البشر"، وهو المعنى الصارم ذاته الذي فهم إمام المرابطين العظيم الأمازيغي عبد الله بن ياسين الجهاد من خلاله وبشّر به محاربيه الذين لا يُقاومون[66]. في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" يؤكد ابن حزم في الواقع أنه يجب على المسلم المشاركة في الجهاد بصرف النظر عمن هو القائد العسكري في ذلك الوقت، حتى لو كان القائد العسكري قد اغتصب السلطة بالقوة وكان طاغية ظالمًا طالما أنه يضطلع بالحرب باسم الإسلام، ثم يستشهد ابن حزم بآيات مشهورة من القرآن "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد"[67].

الشافعي الذي درس لدى مالك لسنوات عدة، لكنه أسس مدرسة قانونية خاصة به يناقش الجهاد حصريًا على أنه حرب مقدسة: "فرض الله واجب الجهاد على النحو المنصوص عليه في كتابه وما قاله نبيه. وشدد على دعوة الرجال لأداء واجب الجهاد على النحو التالي "يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًا"[68].

يعتبر المسلمون السنة غير المالكيين مجموعة البخاري من السرد التقليدي لأقوال مُحمد وأفعاله (المفرد:حديث، الجمع: أحاديث) مصدرًا ثانيًا للشريعة والدين الإسلاميين بعد القرآن، لكن حتى أحاديث البخاري تموضع الجهاد، بوصفه حربًا مقدسة، على رأس واجبات المسلم، مباشرة بعد الإيمان بالله ورسوله:

عن أبي هريرة، أن رسول الله قد سئُل: أي الأعمال أحب إلى الله، فأجاب "الإيمان بالله ورسوله. قيل ثم ماذا؟ قال الجهاد في سبيل الله. قيل ثم ماذا؟ قال حج مبرور (الذي يقبله الله ويؤدى بنية طلب رضا الله وحده وعدم التباهي ودون ارتكاب المعصية وبما يتفق مع سنة الرسول)".

عن أبي هريرة أن الرسول قال: تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة والذي نفس محمد بيده ما كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل[69].

كان الجهاد مفهومًا على نطاق واسع بوصفه حربًا مقدسة في إسبانيا الإسلامية حتى إن العمل المشهور عن الجهاد كحرب مقدسة من قبل أبو إسحاق الفزاري (توفي بعد 802) ظل شائعًا في إسبانيا بعد فترة طويلة من توقف تحريره في بلدان أخرى[70].

علاوة على ذلك، ثمة رسائل باقية من إسبانيا الإسلامية تستخدم كلمة الجهاد لا تظهر أي معنى آخر غير الحرب المقدسة "الجهاد"[71].

السيرة الإسلامية المجهولة لملوك الطائف (القرن الثاني عشر) تشير إلى الجهاد فقط كحرب مقدسة يجب على الملوك شنها ضد المسيحيين الكفار ليكونوا جديرين بالقيادة[72].

تاريخ ابن الخطيب عن ملوك الحمراء في القرن الرابع عشر يزخر بالثناء على ملوك الطوائف من حكام غرناطة الذين شنوا الحرب المقدسة وكان قمع الكفار والزنادقة ومخالفي الشريعة هدفهم الرئيس في الحياة[73].

وبالمثل تدرس مصادر إسلامية موثوقة أخرى غير إسبانية الجهاد بوصفه حربًا مفروضة دينيًا ضد الكفار وليس بوصفه صراعًا روحيًا لتحسين الذات. هكذا يتحدث المؤرخ الفارسي المشهور الطبري (839-923) في أطروحته الشهيرة عن الجهاد كحرب مقدسة جماعية وليس كمحاولة "لنكون أفضل ما يمكننا أن نكون"[74]. لاحظ المؤرخ التونسي العظيم ابن خلدون (1332-1406) أن أحد الواجبات الدينية العشرة للخليفة هي مسؤوليته عن "شن الحرب المقدسة "الجهاد" بنفسه على رأس جيوشه مرة واحدة في العام على الأقل"[75].

كما أكد ابن خلدون أيضًا على الاختلاف الجوهري بين طريقة مسلمي العصور الوسطى في فهم الدين والسلطة السياسية، والحرب وبين طريقة غير المسلمين، وهو اختلاف يغفل عنه كثير من العلماء عندما يساوون بين الحملات الصليبية المسيحية وجهاد الإسلام. شرح ابن خلدون:

وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفًا، ونوع بالكر والفر. أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب. وكان الحرب أول الإسلام كله زحفًا، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر، لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران: أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفًا فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم. الثاني، أنهم كانوا مستميتن في جهادهم، لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان، والزحف إلى الاستماتة أقرب. [76]

في إسبانيا الإسلامية كان يؤخذ بعين الاعتبار استحقاق رجال الدين المسلمين خاصة لمزيج الفضيلة الشخصية والاستعداد لشن الحرب على الكفار[77]. وكما تشير قائمة ابن خلدون لواجبات الخليفة الدينية لم ير الخبراء في إسلام العصور الوسطى الجهاد كفعالية دينية ثانوية (كما يصر العديد من الأكاديميين اليوم) ولكن بالأحرى كفعالية رئيسة[78]. وهكذا فإن الموطأ في الكتاب 21 (الجهاد) الذي يتعامل مع الجهاد بوصفه حربًا ضد الكفار يقول:

حدثني يحيى عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: كفَّلَ اللهُ لمن جاهدَ في سبيلِهِ لا يخرجُهُ من بيتِهِ إلا الجهادُ في سبيلِهِ وتصديقُ كلماتِهِ أن يدخلَهُ الجنةَ أو يردَّهُ إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منه مع ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ.

حدثني يحيى عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله.

تنص الكتيبات الإرشادية المالكية، كما يلاحظ مايلو سالغادو Maíllo Salgadoعلى أنه "يجب شن الحرب المقدسة كل عام.. هذا واجب تضامني (والجهاد فريضة يحمله بعض الناس عن بعض) مفروض على كل مسلم ذكر حر[79].

علاوة على ذلك، عندما تحدثت النصوص الشرعية المالكية عن الجزية، وهي الضريبة الخاصة التي دفعها المسيحيون واليهود عندما خضعوا للإسلام، فإنها أوضحت أن فرض الجزية كان يعني إذلال "أهل الكتاب" هؤلاء أمام الكيان السياسي والديني المهيمن حديثًا، الإسلام.

يؤكد الموطأ على التمييز المهم بين الجزية والضريبة المفروضة على كل المسلمين: "الزكاة مفروضة على المسلمين لتطهيرهم ولتعود مرة أخرى إلى فقرائهم بينما الجزية مفروضة على أهل الكتاب لإخضاعهم (17.23.46). الموطأ يتبع الآية القرآنية "29.9": قال تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[80].

نصح الفقه المالكي المجاهدين بترك النحل، الأطفال الصغار، النساء والرجال كبار السن والرهبان والنسّاك الذين عاشوا وحدهم ولم يشكلوا أي تهديد، وتجنيبهم الدمار أثناء الجهاد. يمكن تركهم بما يكفي لتدبير قوتهم، لكن هذه الرحمة لم تكن تنطبق بالضرورة على الكهنة "وحدثني عن مالك عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله (ص) رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان"، و"إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له. وستجد قومًا فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر. فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. وأني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا، إلا لمأكلةٍ. ولا تحرقن نحلًا، ولا تفرقنه، ولا تغلل ولا تجبن".[81]. أطروحة المالكي الفقهية "التفريع" أشارت إلى أنه يمكن لقائد مسلم في ميدان الجهاد أن يقتل أو أن يرحم المسيحيين المهزومين حسب مشيئته "وحد المحارب موكل إلى اجتهاد الحاكم، فإن رأى قتله قتله، وله قتله، وإن لم يقتل أحدًا في حرابته إذا أداه اجتهاده إلى قتله" [82].

مع أنه يجب عدم قتل النسوة والأطفال المسيحيين خلال الجهاد طالما لا يشكلون تهديدًا، إلا أنه يمكن أسرهم واستعبادهم[83]. طبعًا يمكن قتل النسوة أو الأطفال أو الرهبان الذي قاتلوا[84]. وأوضحت النصوص القانونية للمالكي أن ليس ثمة قيود على المحارب المسلم في ممارسة الجنس مع النسوة الأسيرات اللواتي حُكم له بهن غنيمة حرب وبالتالي رقيق[85]. **عن أنس أنّ رسول الله (غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس (الغلس ظلمة آخر الليل) ولما دخل النبى القرية قال "الله أكبر.. خربتْ خيبر.. إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذرين" قالها ثلاثًا.. وقال قائد الحملة: فأصبناها عنوة.. وسبينا.. وقال دُحية للنبي: أعطنى جارية من السبي. قال: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حـُـيي، فجاء رجل إلى النبي وقال: يا نبي الله.. أعطيتَ دحية صفية بنت حُيي سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لـك. قال: ادعوه بها.. فجاء بها.. فلما نظر إليها النبي قال: خذ جارية من السبي غيرها.. قال فأعتقها النبي وتزوجها.. حتى إذا كان بالطريق جهزتها أم سليم فأهدتها له من الليل فأصبح النبي عروسًا (الأدق لغويًا عريسًا) وقال: من كان عنده شيء فليحيي به.. وبسط نطعـًا.. إلخ).**

لم تكن الحرب المقدسة، في إسبانيا الإسلامية، فقط لفائدة الروح الفردية للمؤمن وإنما من أجل النصر النهائي للإسلام أيضًا. الحرب المقدسة، كما كتب ابن حزم بشكل مشؤوم بالأحرى "تجعل الكافر يترك ظلمات الكفر إلى نور الإسلام"[86]. بكلمات أخرى، "من أجل قهر ظلام الكفر، من الضروري أن يمتد نور الشريعة الإسلامية ليشمل عددًا متزايدًا من الرجال، أو على الأقل إلى أن يتوارى هؤلاء الرجال الذين يقاومون"[87]. ربما كان ابن حزم، مثل العلماء المسلمين الآخرين الذين ذكرناهم، على دراية بكلمات مُحمد المعروفة جيدًا في أحد أحاديثه التي استشهد بها المقري، عن مسعود بن قبيصة سمع رسول الله يقول: "إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله، وأدى الأمانة".[88]

لم يكن للكافر عمليًا أي حق خلال هذا الصراع الذي دار في دار الحرب (أراضي الكفار) بينما كان للمسلم كل الحق. فقط بعد الإذعان، حين تصبح دار الحرب دار الإسلام، يمكن أن يُمنح أولئك الذين أذعنوا، ودائمًا بناءً على إرادة المنتصر، صفة "المحميين" أو الذميين، لكن بالنسبة لأهل الذمة والمسلمين، كانت "الحقوق" تُعرّف دائمًا وفقط وفقًا للشريعة الإسلامية.

ألفريد مورابيا Alfred Morabia مؤلف ما قد يكون الدراسة الشافية عن مفهوم الجهاد، يجادل بأن فكرة أن الجهاد هو أساسًا "صراع روحي داخلي" قد ترتكز على حديث متأخر ومُختلق، اختُرع أو أُذيع من قبل رجال الدين المسلمين (العلماء،

مفردها: عالم) الراغبين في تعزيز سيطرتهم على حياة المسلمين. الحديث يقول إن على المرء أن يُجاهد ليكون دقيقًا في حياته قدر الإمكان لأن المرء يجب أن يجاهد كل يوم في كل الأوقات وضد كل أنواع الأعداء، بما في ذلك نفسه. مَن أجدر من العلماء ليقولوا للمؤمنين كيف يباشرون هذا الصراع الداخلي الدؤوب حتى في حالة عدم وجود حرب حقيقية لخوضها؟[89]

يشير موارابيا أيضًا إلى أن فكرة الجهاد بوصفها نوعًا من حرب "دفاعية" تطورت بشكل متأخر نسبيًا أيضًا. بعد كل شيء، اجتاحت الجيوش الإسلامية الأولى، شبه الجزيرة العربية واحتلت مناطق بدءًا من إسبانيا الحالية في الغرب إلى الهند في الشرق. لم يكن ثمة شيء دفاعي فيما يتعلق بهذا "التوسع" الهائل، لكن في نهاية المطاف، شهد بعض أعداء الإسلام المحتل صحوة ما، وبرز أعداءُ جدد أيضًا. بعد قرون من الغزو، كان يمكن للإسلام، بصورة شرعية، أن يرى نفسه في موقف دفاعي، على الأقل في بعض المناطق (بما في ذلك إسبانيا).

تم إثبات نظرية موارابيا من خلال التوكيد الجديد على الدفاع الذي وُجد في أطروحة القرن الثاني عشر عن الجهاد للأندلسي ابن هذيل المكتوبة عندما -تحت ضغط الاستعادة المسيحية Reconquest- بالكاد كان يمكن للمسلمين التشبث بأرض صغيرة كانوا غادروها، ناهيك عن مهاجمة الأر اضي المسيحية[90].

ومع ذلك، فإن الوقائع التاريخية في الخمسمئة عام المنصرمة لا يمكن تجاهلها. حروب مُحمد ضد الكفار في شبه الجزيرة العربية وفتوحات الإسلام إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية بما فيها الكثير من إسبانيا لم تكن ممكنة من خلال "صراع داخلي" مسالم وإنما من خلال حرب خارجية عدوانية.

علماء العصور الوسطى المتعلمون والقادة العسكريون المسلمون ربطوا الحرب على الكفار بواجب مقدس، وبالتالي حولوا الحرب إلى جزء لا ينفصم عن حياة المسلم الدينية. قربان الحرب والشهادة أصبحا جزءًا من الأخلاقيات الدينية - الثقافية لإسلام العصور الوسطى[91].

في هذه الرابطة قد يكمن الكثير من النجاح المبكر للإمبريالية الإسلامية: كما يلاحظ موارابيا، ما كان ببساطة لعرب ما قبل الإسلام مجرد غزوة "رزية"، أي غارات خاطفة ضد القبائل البدوية الأخرى، أصبح حربًا مقدسة في ظل مُحمد، وما كان مجرد "حرب" بالنسبة للأمم خارج شبه الجزيرة العربية أصبح بالنسبة للإسلام في ظل خلفاء مُحمد حربًا مُقدسة دائمة[92].

ظلت الأديان والأمم الأخرى في وضع غير مواتٍ عند مواجهة المفهوم الديني الإسلامي عالي التحفيز عن الجهاد بوصفه حربًا مقدسة. كما سنرى بعد قليل، نجحت إسبانيا المسيحية بتحويل حربها للاستعادة ضد الإسلام إلى حرب دينية

خاصة بها في القرن الثالث عشر، إلى حرب صليبية، لكن حتى حرب صليبية -كما لاحظ ابن خلدون أعلاه- لم يكن لها أن تتمتع بالدرجة المتأصلة ذاتها من التكليف الروحي اليومي الذي حققه الجهاد الإسلامي بوصفه حربًا مقدسة.

إن محاولات مساواة الجهاد بالحملة الصليبية لا تصمد أمام التحليل. كانت الحرب الصليبية المقدسة بالنسبة للمسيحيين المتدينين حدثًا فريدًا من نوعه يمكن للبابا فقط أن يعلنه. لكن كما أشار ابن خلدون، كانت حرب الجهاد المقدسة حالة دائمة تفرضها الشريعة الإسلامية ويتوجب على الخليفة أن يشنها على الأقل مرة واحدة في السنة[93].

يمكننا الآن العودة لفحص الدليل على الدافع الديني للفتح الإسلامي لإسبانيا. في التقليل من أهمية الدوافع الدينية في الغزو الإسلامي يكسب بعض الأكاديميين الغربيين الكثير من حقيقة أن أقدم سجل مسيحي يروي الغزو-the *Chronica mozarabica لعام* 754- لا يشير إلى الغزاة باسم "المسلمين" وإنما باسم " "Saracens" أو "عرب"[94]. وفقًا لخط التفكير هذا، إذا لم يكن المسيحيون يرون الغزاة كمسلمين، فلن يمكنهم رؤية الغزو كمواجهة دينية. وهكذا قد تكون دوافع "التوسع" الإسلامي (يتم تجنب كلمة غزو في مثل هذا النوع من الجدال) مادية أكثر منها دينية، تمامًا مثل "التوسعات" الأخرى عبر التاريخ (التي من المفترض أن تتضمن مجرد "توسعات" كهذه أو "موجات الهجرة" أو "مجهودات" مثل تلك التي قام بها الإسبان في الأمريكتين أو الفرنسيين في الجزائر، أو الهولنديون في جنوب إفريقيا، البريطانيون في الهند أو البلجيكيون في الكونغو).

ثمة العديد من المشاكل التي تكتنف هذا الجدال. فهو يغفل أولًا عن واقعة أن سجلات المسلمين عن الفتوحات الإسلامية تصور الجهاد بوصفه حربًا مقدسة وليس "كفاحًا فرديًا سلميًا" أو "مجهودًا لتحسين الذات" وأن القادة المسلمين الأندلسيين رأوا حروبهم ضد المسيحيين بوصفها حربًا مقدسة أيضًا. عادةً ما تعرّف السجلات الغزاة بوصفهم "مسلمين" والمسيحيين بوصفهم "عبدة أوثان"، "مشركين" و"كفرة" وكذلك "الروم" أو الرومان بوصفهم من سكان الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. يروي المؤرخ ابن القوطية (توفي 977) الذي يعود بأصوله إلى القوط الغربيين كيف كان أحد القادة المسلمين، مُلهمًا بحلمه بمُحمد وأصحابه حاملين سيوفهم المسلولة يدخلون إسبانيا. القائد ذاته، طارق، يُصّور وهو يخاطب رجاله قبل المعركة بتذكيرهم بالفوائد الدينية للشهادة خلال الجهاد[95]. "فلما دخل السفن مع أصحابه غلبته عينه، فكان يرى في نومه النبي (ص) وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فيمر النبي عليه السلام، بطارق فيقول له: تقدم لشأنك. فنظر طارق في نومه إلى النبي وأصحابه حتى دخلوا الأندلس، فاستبشر وبشر أصحابه".

أحد القادة المسلمين الأوائل في الأندلس، الحاكم البارع عقبة بن الحجاج السلولي (توفي 741)، وصفه المؤرخ الإسلامي الخوشني في القرن العاشر "فكان صاحب جهاد ورباط, وذا نجدة وبأس، ورغبة في نكاية المشركين (أي المسيحيين الذين آمنوا بإله ثالوثي الآب، الابن والروح القدس)[96] وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً، ويرغبه فيه ويبصره بفضله، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه".

يُسّلط مؤرخ القرن الثاني عشر ابن الكردبوس الضوء على الحماس الديني للغزاة: "وصدق المسلمون القتال وحملوا حملة رجل واحد على المشركين فخذلهم الله وزلزل أقدامهم، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر، ولم يعرف لملكهم لذريق خبر، ولا بان له أثر"[97]. باستخدام مصادر القرن العاشر، يشير كتاب ابن عذاري المراكشي "البيان المغرب" إلى الأعداء المسيحيين بوصفهم "كفارًا" و"عبدة أوثان" وإلى الفاتحين بوصفهم "المسلمين". يجدر بالذكر أن ابن الكردبوس يخبرنا أن القائد العربي موسى بن نُصير كان يصحبه التابعون، رجال حكماء من الجيل الثاني أو الثالث من المسلمين كانوا يعرفون واحدًا على الأقل من أصحاب مُحمد والذين كانوا مخولين بمراقبة الأسلمة الصحيحة للأراضي المحتلة وإقامة المساجد الأولى، سمة أخرى من سمات الجهاد المبكر.

وهكذا يبدو أن المحاربين المسلمين كانوا يعون أنهم يقودون حربًا ذات دوافع دينية -الجهاد- ضد الكفار وليس ذرائع سلمية للسمو بذواتهم أو إجهادها روحيًا. كان من الممكن للتقي محمد بن أبي أمير المنصور (938-1002) الذي كان معروفاً للمسيحيين بالمنصور، وهو على الأرجح العقل العسكري الأكثر ذكاء في إسبانيا الإسلامية، أن يبرر حرقه للمدن الكاثوليكية بالتعاليم الإسلامية المالكية: التفريع والمدونة يوضحان أن حرق بلدات الكفار كان مسموحًا به خلال الجهاد[98]. وكذلك إغراق تلك البلدات و"قطع أشجارها وثمارها، قتل مواشيها، تدمير بيوتها، وكل ما يمكن هدمه"[99]." ولا يقاتل العدو حتى يُدعوا إلى الإسلام إلا أن يعاجلوا عن ذلك فيقاتلوا. ولا بأس بتحريق أرض العدو وقطع أشجارهم وثمارهم وهدم بنيانهم، وعقر دوابهم وكل ما فيه نكاية لهم. ويحرق النخل ولا يغرق". مدفوعًا بحماسته الدينية، أمر المنصور بأن تحرق كل كتب الفلسفة والمنطق في الساحات العامة لقرطبة[100] "وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطب والحساب، فلما تميزت من بيان الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطب والفقه والحديث، وغير ذلك من العلوم والمباحثات عند أهل الأندلس، الا ما خلت منها في أثناء الكتب وذلك أقلها، أمر إحراقها وإفسادها، فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر، وهيل عليها التراب والحجارة، وغُيرت بضروب من التغايير". هذه الموضوعات، كما لاحظ المؤرخ الإسلامي سعيد الأندلسي، بقيت محظورة بعد ذلك

في ممالك الطوائف، مع أن حكامهم رعوا "الفنون العامة" مثل الشعر والقواعد[101]. "وكثيرًا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إن وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن، والله أعلم، وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك".

كان المنصور مُنكبًا جدًا على الحرب لدرجة أنه أرسل في سنة واحدة (981) خمس بعثات ضد الممالك المسيحية. هدم مدينة ليون بأكملها باستثناء البرج الذي تركه قائمًا بحيث تتمكن الأجيال اللاحقة من إدراك عظمة انتصاره من خلال ثخانة جدرانه.

من الجدير بالذكر أن القادة المسلمين عاقبوا رجالهم الذين اشتبهوا في ضعف حماسهم الإسلامي. كان من الممكن أن يُعاقب المقاتلون المسلمون بالموت بسبب الردة، الأمر الذي ساهم في اتقاد حماس الغزاة. وبحسب ابن القوطية، عندما عُين نجل موسى بن نصير حاكمًا، تزوج زوجة الملك رودريغو وبدأ يتبنى بعض طرق المسيحية، فقطع القادة العسكريون رأسه، "وعهد إلى خمسة نفر من وجوه العرب بالأندلس بقتل ابنه عبد العزيز، منهم حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وزياد بن النابغة التميمي، فقصدوا إليه، فلما أصبح خرج إلى مسجد وصار في المحراب، وقرأ بفاتحة الكتاب وسورة الواقعة، فرفع القوم سيوفهم عليه بمرة، وأخذوا رأسه وبعثوا به إلى سليمان. وكان ذلك بمسجد رُبينة المشرف على مرج إشبيلية إذ كان ساكنًا في كنيسة رُبينة وإذ كان قد نكح امرأة من القوط تُسمى أم عاصم، كان يسكن معها في هذه الكنيسة، وكان قد ابتنى على بابها المسجد الذي قُتل فيه، وكان دمه فيه على عهد قريب"[102].

المشكلة الثانية هي أن الاستخدام المبكر للكلمة اليونانية - الرومانية *Saracen* بدلًا من المسلمين في *Chronica mzarabica* لعام 754 لا يعني -كما يردد العديد من المؤرخين- أن المؤرخين المسيحيين فشلوا في الكشف عن الدوافع الدينية وراء الغزو. بقدر ما يعود الأمر إلى القرن الثامن، فإن النقاش اليوناني المسيحي المبكر ضد الإسلام، والذي صوّر الأشياء بالتأكيد بمصطلحات دينية، قد استخدم مصطلح *Saracen* أيضًا[103]. بالنسبة لمؤرخ *Chronica mozarabica* في القرن الثامن وبالنسبة لقرائه (أو مستمعيه) المسيحيين الإسبان كانت أسماء *Saracens* وعرب تعني –كما كانت تعني للمؤرخين اليونانيين المسيحيين- لا شيء سوى أتباع مُحمد: أي، المسلمين.

لكن الواقعة ذات الدلالة أن *Chronica mozarabica* لعام 754 تذكر مُحمد (*Mammet*) بوصفه زعيم الغزاة، ومرة واحدة على الأقل بوصفه "نبيهم" (*propheta eorum Mammet*)[104]. إن نداء مُحمد بـ"نبي" الغزاة يشير

بالتأكيد إلى أن الكاتب المسيحي لـ *Chronica mozarabica* لعام 754، وهي واحدة من أقدم الروايات عن الغزو الإسلامي لإسبانيا وأكثرها مصداقية، كان واعيًا أقله بالمعتقد الديني الذي يشي بأفعال أتباع مُحمد.

بالإضافة إلى ذلك، فإن حياة مُحمد المكتوبة باللاتينية من قبل مسيحي، والمتداولة بين أهل الذمة الإسبان وأهل الذمة السابقين (أي المسيحيين الخاضعين، والذين سبق إخضاعهم للهيمنة الإسلامية) والتي تؤرخ على الأرجح اعتبارًا من النصف الثاني من القرن الثامن –بعد عقود فقط من الغزو الإسلامي– تقدم سيرة مهينة لُمحمد، الأمر الذي يشير إلى وعي المسيحيين الإسبان بالإسلام بوصفه القوة المحركة وراء غزو أعدائهم المسلمين[105].

يؤيد الشهادة المبكرة لـ *Chronica mozarabica* لعام 754 أيضًا الشهادة المبكرة بالمثل لترنيمة القوط الغربيين "زمن الحرب" (*Tempore belli*) التي جرى تأليفها ربما في النصف الأول من القرن الثامن، قبل بضعة عقود فقط من الغزو. ترثي هذه الترنيمة غزو الأرض من قبل شعب بربري غير مسيحي هزم المسيحيين ومارس الوحشية على المعابد المسيحية والكهنة والعذارى. كما يلاحظ مؤرخ العصور الوسطى لويس أ. غارسيا مورينو Luis A. García Moreno أن هذه الترنيمة الطقسية هي شهادة معاصرة على "الانطباع الرهيب الذي خلفته على المجتمع المسيحي لملكة القوط الغربيين الهزيمة الكاملة لجيشها على يد غاز من ما وراء البحار يعتنق ديانة مختلفة عن المسيحيين". تشير هذه الترنيمة، حسب غارسيا مورينيو، إلى أن "فكرة الاسترداد ولدت مباشرة بعد الهزيمة"[106].

تقدم الاكتشافات الأثرية المزيد من الأدلة: العملات التي صُكت في شمال إفريقيا قبل وقت قصير من غزو إسبانيا تطلب الحماية من الله من أجل الجهاد. يلاحظ غارسيا مورينيو أن الدعوات الموثقة باسم يسوع من قبل المسيحيين في صراعهم ضد الغزاة كانت بلا شك ردًا على دعوات المسلمين الغزاة باسم الله بوصفه الدافع لأفعالهم كما تبين من العملات الإسلامية المعروفة التي كانت تمهد للغزو[107].

إن إجراء تمييز غربي علماني حديث بين الدافع الديني والسياسي من جانب المحاربين المسلمين كما يفعل العديد من العلماء الآن، هو بالكاد أكثر فطنة من الناحية التاريخية. ببساطة، لم يكن ثمة تمييز في إسلام العصور الوسطى بين الدوافع الدينية والسياسية للقيام بالحرب ضد الكفار كما سيوثق الفصل 3.
وهكذا، بينما كان المؤرخ العظيم الطبري (839-923) يروي غزو فارس كان ينقل توضيح المتحدثين المسلمين للكفار الفرس أنهم على عكس عرب ما قبل الإسلام "لسنا مثلكم في هذا الدين، ولا بصائرنا كبصائركم وليس فيكم حرم نحامي عنهم، ولم تلحقنا بأشراف العطاء، ولنا سلاح وكراع وأنتم حسر"[108]. وبالطبع دون

إسلام لن يكون هناك "توسع" إسلامي ("التوسع العربي" لن ينجح، بما أنه منذ أوائل القرن الثامن لم يعد المسلمون وجيوشهم مجرد "عرب").

تؤكد دراستي للمراجع الأولية تقييمات المستعربين الفرنسيين مثل جورج هنري بوسكيه George Henri Bousquet (أستاذ القانون السابق بجامعة الجزائر) ودمينيك أورفوي Dominique Urvoy(أستاذ الفكر والحضارة الإسلاميين بجامعة تولوز) الذين أشاروا إلى أن الفتح الإسلامي لإسبانيا كان بالفعل بدافع من مفهوم الجهاد[109].

الصدمة والرعب:

يتطلب التقييم الكامل للحكم الإسلامي في إسبانيا في العصور الوسطى دراسة كيفية سيطرة قوات الخلافة الإسلامية على هذه المنطقة. التكتيكات البربرية التي استخدموها غالبًا أنذرت ببعض الإجراءات التي سيتمكن حكام الأندلس من خلالها من الاحتفاظ بسلطتهم. (انظر الفصل الرابع).

غالبًا ما أثارت سرعة الفتح الإسلامي لإسبانيا والذي استغرق أقل من عشر سنوات عجب المؤرخين. لم يكن أسرع، في الواقع، من انتصارات خاطفة أخرى في تاريخ الحرب. غزا محاربو الإسكندر المقدوني العظيم خصومًا أشد قوة، الإمبراطورية الفارسية، في وقت أقل. مغول وتتر هولاكو وتيمورلنك اضطلعوا بفتوحات مماثلة، بما في ذلك الهزيمة الساحقة للجيوش الإسلامية في الشرق الأوسط، في وقت أقصر. السرعة النسبية للفتح الإسلامي ليست أحجية، كما شرح بإقناع المؤرخون العسكريون مثل القائد خوسيه ميراندا كالفو José Miranda Calvo وهانز ديلبروك Hans Delbrück ومؤرخو العصور الوسطى مثل غارسيا مورينيو García Moreno والمستعرب مثل فيلبي مايلو سالغادو[110] Felipe Maíllo Salgado.

أظهر غارسيا مورينيو بخلاف الكثير من "الآراء الراسخة" أنه لم يكن هناك "تفسخ اجتماعي" أو "انحطاط" في إسبانيا التي يحكمها القوط الغربيون وأن الفتح الإسلامي كان بعيدًا عن أن يكون "حتميًا"[111]. ومع ذلك، إن بضعة قرون من الحياة في بيئة في جنوب إسبانيا تشبه "كابوا" قد أوهن البنية العسكرية للقوط الغربيين المحاربين، الذين هزموا ذات مرة "هون" أتيلا الذين لم يهزموا مسبقًا في معركة السهول الكاتالونية. النبلاء الذين قادوا طبقة المحاربين القوط الغربيين أصبحوا الآن أكثر استمتاعًا بالحياة في عقاراتهم الكبيرة من المساهمة العسكرية في جيش نظامي. علاوة على ذلك، بحياتهم بعيدًا بعضهم عن بعض في ممتلكاتهم الشاسعة، لم يتمكن هؤلاء النبلاء من حشد حاشيتهم المسلحة بسرعة من أجل الخدمة العسكرية. بالإضافة إلى ذلك، كانت دولة القوط الغربيين

ضعيفة سياسيًا بسبب الطبيعة غير الوراثية لملكيتهم: إذ جرى انتخاب الملك من قبل النبلاء من بين عدد قليل من العائلات النبيلة؛ لذلك، ثمة عامل رئيس في السهولة النسبية للفتح الإسلامي أكده المؤرخ العسكري ميراندا كالفو، وهو كما تشير العديد من المراجع الأولية انحياز زمرة ملكية منافسة إلى الغزاة ضد ملك القوط الغربيين رودريغو وانضمامها إلى القوى الإسلامية قبل المعارك الرئيسة وأثناءها وبعدها. ساعد الغزاة أيضًا سيد مسيحي من شمال إفريقيا ورد ذكره في العديد من المصادر باسم "الكونت يوليان" لكن من المحتمل أن يكون كونت روماني يوناني "بيزنطي" باسم أوربانوس Urbanusكما أظهر غارسيا مورينيو. لأسباب شخصية أو أسباب أخرى، قام هذا السيد المسيحي بنقل القوات المسلمة عبر المضيق وقادهم إلى الأرض وساعدهم في القتال مع حاشيته.

على النقيض من ذلك، كانت قوى الخلافة الإسلامية موحدة، ماهرة، شرسة، وذات قيادة جيدة. كان قادتهم يتمتعون بالخبرة، وكانوا قد قاتلوا وكسبوا ضد الإمبراطورية اليونانية الرومانية المسيحية وضد القبائل الوثنية البربرية. كان البربر الذين شكلوا غالبية قواتهم شرسين بشكل خاص، كما أشار إلى ذلك حتى المؤرخون المسلمون[112]. كان هؤلاء الوثنيون السابقون مشبعين بالحماس الديني للاهتداء الجديد وبجوع رجل القبيلة الغازي للنهب.

بالإضافة إلى ذلك، سجلت العديد من المصادر الأولية الإسلامية (بينها أخبار مجموعة، ابن القوطية، ابن الأثير، الخطيب، الرازي، ابن عذاري المراكشي والمقري) وكذلك المصادر المسيحية (من بينها رودريغو خيمينيز دي رادا (Rodrigo Jiménez de Rada 1170 -1247)) أن الجالية اليهودية انحازت إلى الغزاة وتولت الحراسة على المدن الكبرى بعد سقوطها في أيدي الجيوش الإسلامية، وهو تعاون ليس مفاجئًا بالنظر إلى تشريع القوط الغربيين المعادي لليهود[113]. هذا الدعم يُساعد أيضًا في الشرح العسكري للسرعة النسبية للفتح الإسلامي: لقد سمح للقوات الإسلامية بالتحرك قدمًا بسرعة دون الحاجة إلى ترك وحدات كبيرة وراءها لحماية الدفاعات الخلفية وخطوط الاتصال، وهذا ما سمح لهم بالظهور بشكل غير متوقع في النقاط الاستراتيجية الرئيسة مسببين الرعب للمدنيين وحاميات العدو على حد سواء.

أخيرًا، استخدم الغزاة مزيجًا من تكتيكات "الصدمة والرعب" والمعاهدات "السلمية". منح الفاتحون المسلمون في المعاهدات "السلمية" امتيازات مؤقتة واستقلالية للقوط الغربيين العلمانيين والقادة الدينيين الذين لم يقاوموا والذين دفعوا الجزية (كما هو موضح في المعاهدة مع اللورد ثيودومير Theodomir)[114]. حيث سمحوا لهم بالاحتفاظ، على الأقل لبعض الوقت، بأرضهم وخدمهم ومعتقدهم. كان هذا النهج ضروريًا لأن الغزاة كانوا في البداية أقل عددًا بكثير من السكان الأصليين.

لكن كما تشهد المصادر الإسلامية والمسيحية، كانت القوات الإسلامية أكثر وحشية، وعرفت كيف تُضعف معنويات العدو أفضل من أي جيش آخر منذ الفتح الروماني. كل المصادر الإسلامية والمسيحية تذكر قصة -حتى لو كانت مُلفقة- توضح معرفة الاستخدام التكتيكي للإرهاب في الحرب النفسية. بعد وقت قصير من نزول القوات الإسلامية قاموا بغلي لحم جثث بعض المسيحيين الذين قتلوا في المعركة في مراجل كبيرة على مرأى من السجناء المسيحيين المذعورين الذين اقتنعوا بأن المسلمين آكلة لحوم بشر. ثم أطلق المسلمون سراح السجناء الذين، على حد تعبير ابن الكردبوس "فلما تدانيا تخير لذريق رجلًا شجاعًا عارفًا بالحروب ومكائدها، وأمره أن يدخل في عسكر طارق، فيرى صفاتهم وهيئاتهم، فمضى حتى دخل في محلة المسلمين، فأحس به طارق، فأمر ببعض القتلى أن تُقطع لحومهم وتُطبخ، فأخذ الناس القتلى، فقطّعوا لحومهم وطبخوها، ولم يشك سول لذريق أنهم يأكلونها، فلما جن الليل أمر بهرق تلك اللحوم ودفنها، وذبح بقرًا وغنمًا وجعل لحومها في تلك القدور، وأصبح الناس ونودي فيهم بالاجتماع إلى الطعام، فأكلوا عنده ورسول لذريق أكل معهم، فلما فرغوا انصرف الرسول إلى لذريق، وقال له: أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بني آدم، وصفاتهم الصفات التي وجدنا في البيت المقفل، قد أحرقوا مراكبهم، ووطنوا على الموت والفتح، فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا"[115].

المؤرخان المسلمان ابن الكردبوس وعبد الواحد المراكشي يكتبان أن موسى بن نصير نهب واستعبد وقضى ثلاث سنوات في الجهاد ضد الكفار الإسبان[116]. مع ابن الكردبوس والمراكشي يقول المقري إن موسى قضى أطول وقت ممكن في النهب وفي تنظيم الأرض المحتلة. تذكر هذه المصادر أيضًا أن عددًا من التابعين (جيل من المسلمين الأتقياء الذين كانوا تلاميذ مباشرين للصحابة) دخلوا إلى إسبانيا لتوجيه الجهاد واغتصاب الأرض. حضور هذا العدد من التابعين يؤكد الدافع الديني الأساسي للغزو - الجهاد.

إذا قاوم المسيحيون، فإن مجزرة قد تلي نصر المسلمين. بالقرب من أوريولا Orihuela عوقب المسيحيون بالإبادة[117].

بعد أن استولى المسلمون على قرطبة من خلال اعتداء غاضب، تراجع المدافعون المسيحيون الباقون إلى كنيسة لمواصلة القتال. حسب ما ذكر المقري، وضع المسلمون المبنى على المِشعال ومات المسيحيون في الداخل دون أن يستسلموا، وحسب الكردبوس، حينما كان المسيحيون يستسلمون كان القائد المسلم يقطع رؤوسهم. وبحسب أخبار مجموعة، ترك القائد المسلم قرطبة حينها في أيدي الجالية اليهودية[118]. "فألفوا بها يومئذٍ يهودًا وكانوا إذا ألفوا يهودًا ببلدة ضموهم إلى مدينة البلد وتركوا معهم من المسلمين طائفة".

توليدو، عاصمة القوط الغربيين لم تحر أي مقاومة للتقدم السريع للقوات الإسلامية لأن معظم المحاربين زحفوا مع الملك رودريغو للقاء العدو. مع ذلك، أعدم موسى بعض كبار السن من نبلاء طليطلة لأسباب لا يتفق عليها العلماء، ولكن ربما كان ببساطة تشجيع الآخرين "*pour encourager les autres*"[119]. وبحسب الأثير: ترك الغزاة اليهود برفقة عدد معين من المحاربين المسلمين موكلين بتوليدو وتحركوا إلى غوادالاخارا. استولت القوات الإسلامية على إشبيلية بعد حصار، مما أدى إلى فرار المحاربين المسيحيين إلى الشمال. حسب الأثير، ترك الغزاة اليهود مرة أخرى لحراسة المدينة. أمام ميريدا، أتبعت القوات الإسلامية النصر بمذبحة لـ"المشركين" الفارين[120]. مرة أخرى في إشبيلية، عندما ثار المسيحيون ضد الحامية المسلمة - اليهودية المحتلة، استعاد جيش مسلم مُعزز المدينة وذبح السكان[121]. حسب أخبار مجموعة والخطيب، بعد الاستيلاء على إيلفيرا Elvira (تحريف عربي للاسم القديم Illiberis، في النهاية، أعيد تسميتها غرناطة) ترك الغزاة الجالية اليهودية مسؤولة عنها.

المصادر المسيحية مثل *Chronica mozarabica* لعام 754 المكتوبة بعد وقت ليس طويلًا من الفتح، وتاريخ إسبانيا (*Primera crónica general*) بتكليف من الملك ألفونسو العاشر في القرن الثالث عشر تؤكد أساليب العصا والجزرة الموصوفة في سجلات المسلمين. تخبرنا السجلات المسيحية أن موسى قدم السلام والامتيازات للنبلاء المسيحيين والزعماء الدينيين الذين لم يقاوموا لكنه قتل أولئك الذين فعلوا. أحرق موسى أي مدينة قاومت (صلب النبلاء والشيوخ) وقطّع الشبان والأطفال إلى أشلاء (*iubenes atque lactantes*) حتى استسلمت المدن المرعوبة وهرب العديد من السكان إلى الجبال[122]. كلا الطريقتين، السحق الوحشي لأي مقاومة ومنح المواثيق لأولئك اللوردات الذين وافقوا على عدم القتال، وكذلك الخداع الذي ينطوي عليه الميثاق (الخداع، كما سنرى، لوحظ من قبل مصادر مسيحية أخرى، ومن قبل مؤرخين مسلمين مثل ابن عبد الحكم) سجلتهما الـ *Chronica mozarabica* لعام 754: "بعد تخريب الأرض حتى طليطلة، مدينة العائلة المالكة، يسيطر موسى بسلام مُخادع يقدمه للمناطق المحيطة بمساعدة أوباس (سيد القوط الغربيين) ابن الملك السابق (إيجيكا)، ويُعدم عددًا من كبار القوط الغربيين الذين بقوا في المدينة ويضعهم جميعًا تحت السيف بمساعدته"[123].

طبيعة المواثيق السلمية "المخادعة" المذكورة في المصادر المسيحية والإسلامية كانت في الواقع مبررة في التقاليد الشرعية الإسلامية. عالم الشريعة الإسلامية المتعاطف جدًا مع الإسلام، ماجد خدوري، أشار إلى أن فسخ المواثيق في حالة الضرورة كان مقبولًا في ممارسة الشريعة الإسلامية في العصور الوسطى لأن:

برز الإسلام في القرن السابع الميلادي كأمة قاهرة مع الهيمنة على العالم كهدف نهائي له، رافضًا الاعتراف بالأنظمة القانونية المختلفة عن أنظمته. كان على

استعداد للدخول في علاقات تعاهدية مؤقتة مع دول أخرى، في انتظار إتمام مهمته العالمية. ومع ذلك، احتفظ النبي وخلفاؤه بالحق في التنصل من أي معاهدة أو اتفاق اعتبروه ضارًا بالإسلام.. على الرغم من أن العلاقة الطبيعية بين الإسلام والمجتمعات غير المسلمة هي حالة العداء، فإن إبرام معاهدة مع العدو سواء لأغراض المنفعة أو لأن الإسلام يعاني من انتكاسة لا يعتبر غير متوافق مع الهدف النهائي للإسلام[124].

ترنيمة كنيسة القوط الغربيين *"Tempore belli"* "زمن الحرب" المكتوبة بعد وقت قصير من هزيمة القوط الغربيين تؤيد ما تورده المصادر المسيحية والإسلامية الأخرى فيما يتعلق بالتكتيكات المرعبة ولكن الفعالة المستخدمة ضد المسيحيين. كما قال المؤرخ الإسباني M. C. Díaz y Díaz

م. سي. دياز تصف هذه القصيدة الطقسية اللاتينية "عدوًا لدودًا" "ممتلئًا بالحماس في ممارسة الحرب" (*continuo fervida bello*) "مرغمًا القوات المسيحية على الدوران والهرب في حالة من الذعر"، ناهبًا معابد ومنازل المسيحيين، وحارقًا مدن الذين قاوموا، مُستعبدًا فتياتهم جنسيًا، كل ذلك يخلق "رعبًا لا يوصف"[125]. The*Chronica mozarabica* لعام 754 تردد هذه المرثية عن نهب الكنوز واستعباد الشابات المسيحيات الجميلات جنسيًا (1-5. 57).

تاريخ إسبانيا لألفونسو العاشر (*Primera crónica general*) يروي كيف قتل الفاتحون المسلمون الرجال، وأحرقوا المدن، وأهدروا الأرض، واسترقوا الشابات جنسيًا، كيف نهبوا كنوز الكنيسة مما أرغم الأساقفة على الفرار مع الآثار المسيحية المقدسة. تاريخ آخر للقرن الثالث عشر كتبه رودريغو خيمنيز دي رادا Rodrigo Jiménez de Rada يتحدث عن إحراق المسلمين المدن وقطعهم الأشجار المثمرة، تدميرهم للكنائس، اعتبارهم الموسيقى المقدسة تجديفًا وتدنيسهم للكؤوس. من جهة أخرى، ومثل تاريخ ألفونسو، يصف "المعاهدات" التي كسب الغزاة من خلالها إذعان العديد من القادة المسيحيين، على الرغم من أن المسلمين خرقوا هذه الاتفاقيات بمجرد سيطرتهم على الأرض. الحكم المؤرخ المسلم للقرن التاسع يذكر أيضًا مراوغات كهذه: "عندما فتح المسلمون إسبانيا، نهبوها وارتكبوا العديد من عمليات الاحتيال"[126]. *Chronicon mundi*لـ لوكاس دي توي Lucas de Tuyالمكتوب في السنوات الأولى للقرن الثالث عشر، يردد هذه الأوصاف: "أجبر المور Moors كل إسبانيا تقريبًا على الانصياع، بالحديد والنار. فقط أولئك القوط الذين تراجعوا إلى مرتفعات جبال البيرنيه في إستورياس وغاليسيا نجوا. احتفظ المور بأفضل الأماكن التي كسبوها بسكين الحقد.. وغيروا أبراج المدن القديمة، دمروا القلاع.. والأديرة، أحرقوا كتب الشريعة المقدسة وارتكبوا العديد من الأفعال السيئة[127].

كما تشير هذه المصادر الإسلامية والمسيحية، إن حرق الكنائس المسيحية ونهب كنوزها لعب دورًا هامًا في تكتيكات الصدمة والرعب التي انتهجها الفاتح. ساعد هذا التدمير في إضعاف معنويات المقاومة المسيحية. محمد بن الرازي (887-955) واحد من أقدم المؤرخين المسلمين خلال الفتح الإسلامي يروي أن المؤسس لإمارة قرطبة، الأموي عبد الرحمن الأول، أحرق على الدوام الكنائس والآثار المسيحية[128].

كما أشارت المستعربة الإسبانية Susana Calvo Capilla سوزانا كالفو كابيلا، عندما تذكر سجلات المسلمين الكنائس فإن ذلك غالبًا ما يكون للشماتة بتدميرها أو تحويلها إلى مساجد كجزء من إذلال الكفار[129]. تؤكد الروايات المسيحية مثل نظيرتها الإسلامية: هكذا تحكي *Crónicas anónimas de Sahagún* (القرن الثاني عشر أو الثالث عشر) عن تدمير كنيسة صغيرة وذخائرها من القديسين قرب نهر Cea خلال الجهاد، و*Crónica de Alfonso III* (القرن التاسع، والتي تُنسب إلى ألفونسو الثالث ملك أستورياس الذي عاش بين 8582-910) تروي كيف أعاد ألفونسو الأول ملك أستورياس (693-757) بناء الكنائس في المدن المُستعادة وكيف أعاد المسيحيين إلى أرض آبائهم (*patria*)[130].

يكاد يكون من الصعب إملاء تعاليم الشريعة الإسلامية في العصور الوسطى خلاف ذلك، وهكذا فإن أطروحة شرعية للفقيه الأندلسي المؤثر ابن رشد الجد (توفي 1126) تتبنى جواب مالك التالي عن سؤال حول ما يجب القيام به فيما يتعلق بالصلبان والكتب المقدسة للمسيحيين المهزومين في الجهاد:

سؤال: ما الذي يجب عمله بالكتب المقدسة التي يجدها المرء في كنائس الروم (أي "الرومان" واحد من الأسماء العمومية التي أطلقها المسلمون على المسيحيين) في أرض العدو؟ ما الذي يجب عمله بصلبانهم المذهبة والأغراض الأخرى التي يجدها المرء؟

جواب: يجب تحطيم الصلبان الذهبية قبل توزيعها (كغنيمة للمحاربين المسلمين) ولكن لا يجوز توزيعها مباشرة، أما بالنسبة لكتبهم المقدسة فيجب إخفاؤها[131].

في تعليقه على جواب مالك، يوضح ابن رشد الجد أنه قرأ أن الكتب المقدسة للمسيحيين المهزومين يجب إحراقها لجعلها "تختفي" إلى أن نتمكن من محو محتواها تمامًا وعندها يمكن لنا أن نبيع الصفحات الخالية لتحقيق الربح. إذا لم نتمكن من بيع الصفحات المحوة ينبغي إحراقها.

يؤكد علم الآثار في إسبانيا كل هذه الأدلة النصية. هكذا لدينا كنوز دينية رائعة تعود للقوط الغربيين تم العثور عليها مدفونة على طول الطرق التي تقود من جنوب

إسبانيا إلى شمالها تؤكد ما تخبرنا به المصادر المكتوبة عن مخاوف السكان المسيحيين وهروبهم من نهب المسلمين للكنائس[132]. كان العدو الذي واجهته مملكة القوط الغربيين في الواقع "فتاكًا ومتصلبًا"[133].

لكن تكتيكات الإرهاب والدمار هذه لم تكن شيئًا جديدًا. لقد كانت الإجراء القياسي في فتوحات الخلافة الإسلامية في العصور الوسطى. يصف المؤرخ المسلم ابن خلدون كيف دمر قائد إسلامي عدوه في شمال إفريقيا المسيحية اليونانية:

حسن (القائد اليمني المسلم حسن بن النعمان) هاجم قرطاج بعنف لدرجة أن اليونانيين أُرغموا على الفرار، بعضهم إلى صقلية والبعض إلى إسبانيا. لم يفعل حسن حين دخل المدينة سوى السلب والقتل والاسترقاق. أرسل مفارز إلى المناطق المحيطة وأصدر أوامره بهدم المدينة. كان المسلمون يعرفون -بينما يدمرون كل ما يمكنهم تدميره- أن بعض اليونانيين والبربر أعادوا تجميعهم في سطفورة وبنزرت. (هاجمهم القائد المسلم وقتل منهم أعدادًا كبيرة... سُكان إفريقيا هُجروا)[134].

محاولة الخليفة العباسي المأمون (توفي 833) تدمير هرم الجيزة، تُبرز تكتيكًا إرهابيًا آخر لفتوحات الخلافة الإسلامية: تدمير آثار الأعداء. لم يكن الدافع خلف هذا التكتيك التعاليم الدينية للإسلام في العصور الوسطى فقط –جميع بُنى ما قبل الإسلام التي يمكن أن تحجب بجمالها أو علوها المباني الإسلامية أو المباني ذات التمثيلات الدينية "الأصنام" يجب تدميرها- وإنما أيضًا تأثيرها المُحبط على أعداء الإسلام، وضرورة إلغاء أي نصب غير إسلامي يمكن أن ينافس في عظمته إنشاءات الحاكم المسلم. مثال درامي آخر هو الهدم الناجح للقصر الاستثنائي للملك الفارسي خسروييس (كسرى توفي 579) من قبل هارون الرشيد (الخليفة الشهير لألف ليلة وليلة، المجموعة الشهيرة لأغلب الحكايات الفارسية والهندية المكتوبة باللغة العربية) في مدينة طيسفون الفارسية التي كانت عظيمة يومًا ما (مدينة المدائن في العراق اليوم)[135]. العديد من المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى من بينهم عبد اللطيف البغدادي (1162-1231) ومؤرخ مسيحي (قبطي) واحد على الأقل ذكروا أن مكتبة الإسكندرية الكبرى احترقت بإذن أو بأمر من الخليفة الثاني عُمر عام 642 للميلاد خلال الفتح الإسلامي لمصر. كجزء من رثاء طويل على خسارة علوم القدماء (باستثناء علوم الإغريق وذلك بفضل الخليفة مروان الأول والمال الذي أنفقه لدفع أجور المترجمين المسيحيين) عند الاتصال مع الفتح الإسلامي، يكتب ابن خلدون أن "علوم" الفرس دُمرت بناءً على أوامر الخليفة عُمر، وأن السلطان الشهير صلاح الدين (كردي مسلم) دمر مكتبات أعدائه المسلمين الهراطقة، الفاطميين[136].

تؤكد مصادر إسلامية أخرى مثل هذه التكتيكات الإرهابية خلال غزو معظم القبائل الوثنية (بعضهم كان مسيحيًا) البربرية في شمال إفريقيا. تروي هذه المصادر عن معارك "إبادة" ضد قبائل البربر، دفعت من تبقى منهم، الذين شعروا بالذعر مما لحق بالبربر المقاومين، للإذعان لموسى وطلب اعتناق الإسلام والانضمام إلى المسلمين المنتصرين. الأسلاب الوفيرة، إلى جانب الأعداد الهائلة من العبيد من كلا الجنسين، أغرت المؤمنين من جميع أنحاء الأمة (العالم الإسلامي) للتدفق إلى شمال إفريقيا للانضمام إلى جيوش موسى الناجحة:

وقال الصدفي لم يُسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير، ووجد أكثر مدن إفريقيا خالية لاختلاف أيدي البربر عليها، وكانت البلاد في قحط شديد، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء ومعهم سائر الحيوانات، وفرق بينها وبين أولادها، فوقع البكاء والصراخ والضجيج، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك، فقيل له ألا تدعو لأمير المؤمنين، فقال: هذا مقام لا يُدعى فيه لغير الله تعالى، فسُقوا حتى رووا، ثم خرج موسى غازيًا، وتتبع البربر فقتل فيهم قتلًا ذريعًا وسبى سبيًا عظيمًا، وسار حتى انتهى إلى السوس الأدنى، لا يُدافعه أحد، فلما نزل بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا، وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم واليًا، واستعمل على طنجة وأعمالها مولاته طارق بن زياد، وترك عنده من البربر تسعة عشر ألفًا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وترك موسى عندهم خلقًا يسيرًا من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام".

خاض موسى (ابن نصير) معهم معارك إبادة، قتل عددًا لا يُحصى منهم، وجمع عددًا مُذهلًا من السجناء، دون أن نذكر الجمال والأبقار والأغنام والخيول، البغال والحبوب ومصنوعات الملابس.. بعد هذا عد موسى ورجاله بغنائمهم إلى القيروان. كل هذه الغزوات حدثت في عام ثمانين (699-700 للميلاد). عندما سمع الجنود في البلدان البعيدة التي يقطنها المسلمون بالنجاحات التي منحها الله لموسى والغنائم العظيمة التي جمعها الرجال تحت قيادته، تمنوا جميعًا الذهاب إلى غرب إفريقيا، وسرعان ما تعزز جيش موسى بالأعداد التي زادت مما ضاعف من حجمه الأصلي.. (بعد معركة واحدة) الكثير من العذارى، اللواتي لا يُقدرن بثمن لجمالهن وبراعتهن، وبنات الملوك والزعماء، كن في هذه المناسبة، جائزة المنتصرين. حين كانت الأسلاب المتحصلة من المعركة تُوزع، أمر موسى بنات الملوك أن يقفن أمامه، ثم نادى ابنه مروان، قائلًا: "تعال يا بني واختر من بين العذارى"، واختار مروان بنت ملكهم الراحل، التي أصبحت لاحقًا أم ولدين لمروان[137].

كما نقرأ أيضًا أن عدد الأسرى الذين أسرهم موسى كان أعظم مما في أي غزو إسلامي سابق:

خرج موسى ضد البربر، وطاردهم بعيدًا في صحاريهم، تاركًا حيثما ذهب آثار مروره، قتل العديد منهم، وأسر الآلاف، وواصل أعمال الخراب والتدمير.. عندما رأت الأمم التي تستوطن سهوب إفريقيا الموحشة ما لحق ببربر الساحل والداخل، سارعوا إلى طلب السلام ووضعوا أنفسهم في خدمة موسى لتجنيدهم في صفوف جيشه[138].

كما لاحظ المستعرب الإسباني باسكوال دي غايانغوس Pascual de Gayangos: "ليس من المستبعد بالنسبة لنظام الحرب الذي تبناه العرب أن يكون عدد الأسرى المذكور قد وقع بين يدي موسى. يبدو من المراجع العربية والمسيحية على حد سواء أنه لم يكن نادرًا تدمير المدن المأهولة حتى الأرض وأن يُقاد سكانها، الذين يعدون الآلاف، إلى الأسر[139]. يروي الحكم أن القائد المسلم حسن قد أسر، حسب تعبير الشاعر نصيب المعاصر لحسن "شابات بربريات ذوات جمال لا يوصف، بعضهن قد يصل ثمنها إلى ألف دينار"[140]. يؤكد الحكم أن ما يصل إلى مئة ألف عبد تم أسرهم من قبل موسى وابنه وابن أخيه أثناء فتح شمال إفريقيا. في طنجة، استعبد موسى كل السكان البربر. قرب القيروان، نهب موسى قلعة واتخذ معه كل الأولاد عبيدًا.

السجل البيزنطي العربي لعام 743 الودود على الدوام تجاه الإسلام يسجل تكتيكات الصدمة والرعب الإسلامية الماثلة في شمال إفريقيا: وصل القائد المسلم عبد الله طرابلس وهاجم مع جيشه سيدامو ولبدى العظمى. بعد تدمير العديد من المدن، أخضع كل تلك المقاطعات المدمرة لسلطة المسلمين (Saracen). بعد ذلك، وكان لا يزال متعطشًا للدم، تقدم إلى الأمام.. كل جيش الموريتانيين تقهقر وكل أشراف إفريقيا وعلى رأسهم الكونت اليوناني (غريغوري) أبيدوا تمامًا. ثم عاد عبد الله، مُحملًا بالكنوز الوفيرة، إلى مصر[141].

تاريخ القرن السابع عشر للمطران القبطي يوحنا النقيوسي John of Nikiû الذي يسجل الفتح الإسلامي لأراضي اليونانيين المسيحيين شمال إفريقيا يردد تكتيكات الإرهاب المذكورة في روايات أخرى:

عندئذ دخل المسلمون إلى نقيوس، واستولوا على الممتلكات ولم يجدوا جنودًا "ليقاوموا"، وشرعوا في قتل كل من وجدوه في الشوارع، والكنائس من رجال ونساء وأطفال ولم يرحموا أحدًا. وبعد أن سيطروا على المدينة، زحفوا إلى البلدات الأخرى ونهبوها ووضعوا كل من فيها إلى السيف. ثم ساروا إلى مدينة سا Sa

ووجدوا هناك أسقطاوس وقومه في كرم، استولى عليه المسلمون ووضعوهم إلى السيف[142].

في 646 أضرمت جيوش المسلمين النار في الإسكندرية، المدينة المسيحية العظيمة وقتلت رجالها واستعبدت نساؤها وأطفالها؛ كعقاب على تمرد المسيحيين بعد توقيعهم اتفاق إذعان في 642 ليصبحوا ذميين[143].

مصادر مسيحية قبطية أخرى من أواخر القرن الثاني عشر أيضًا تذكر حرق المسلمين للكنائس والأديرة في مصر.

في إحدى المناسبات أخفى الأقباط المسيحيون عمودًا لإحياء ذكرى العذراء مريم والطفل يسوع المسيح لتجنب تدميره من قبل محاربي المعتقد المتمرد المهيمن حديثًا. تضيف هذه المصادر أن جيوش المسلمين الغازية كانت مصحوبة بما يربو عن مئة من صحابة النبي، ما حدا العلماء على الاتفاق أن الغزو كان بدافع التفويض الديني لشن حرب دينية –جهاد- لإرغام الكفار على الخضوع للإسلام. (تذكر أن بعض سجلات المسلمين عن فتح إسبانيا تذكر بالمثل وجود رجال حكماء "التابعون" بين جيوش المسلمين الغازية، هؤلاء التابعون الذين عرفوا على الأقل بعضًا من صحابة مُحمد، والذين يُشير وجودهم بالمثل إلى أن غزو إسبانيا كان جهادًا).

هذه التفاصيل مهمة؛ لأن المصادر القبطية بشكل عام تروي الغزو الإسلامي لمصر بحياد نسبي، حيث إن الغزاة المسلمين متبعون تكتيكهم القياسي في فرق تسد، عاملوا الأقباط بشكل أفضل من معاملتهم لليونانيين المسيحيين الحاكمين الذين اضطهدوا الأقباط المسيحين وقاوموا الغزو الإسلامي[144].

مصدرٌ قبطي آخر من أواخر القرن العاشر يخبرنا أن الغزاة المسلمين، ملتزمون تعليمات مبكرة من قائدهم "مُحمد" استبقوا أولئك الذين خضعوا للإسلام دون مقاومة. لم يكن التحويل (اعتناق الإسلام) ضروريًا بما أن إخضاع الكفار المسيحيين قد أُنجز، كان التحويل غير عملي؛ لأنه يعني نهاية فرض الضرائب على الذميين، والتي كان من المفترض أن يعيش المسلمون عليها إلى أجل غير مسمى، كما لاحظ الخليفة الثاني عُمر[145]، لكن بحسب تعليمات مُحمد، نهب الغزاة المسلمون المدن التي قاومت واسترقوا أهلها؛ لذلك قتلوا المقاومين اليونانيين وقائدهم في صعيد مصر. اليونانيون الناجون من المذبحة فروا إلى الإسكندرية.

استخدمت القوات المسلمة تكتيكات الصدمة والرعب في غزوها للإمبراطورية الفارسية. إذا استسلمت القرى والمدن الفارسية سلميًا، فسوف يحصلون على وضعية الذمي، لكن إن قاومت، ستُنهب القرى، ويُقتل رجالها، وتُستعبد نساؤها وأطفالها. كان الفاتحون المسلمون يطاردون الجيوش المهزومة إلى أن يدمروها

تمامًا ويستعبدوا جنودها الباقين. إذا ثار أهل الذمة الفرس، ستوضع مدنهم على المشعال، وسيقتل رجالهم وتُستعبد نساؤهم وأطفالهم[146].

تخبرنا المصادر المسيحية والإسلامية عن أساليب مشابهة في أراضي الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في سوريا، فلسطين والقيصرية. الواقدي (747-823) أحد أشهر وأقدم مؤرخي الفتوحات الإسلامية يحكي عن الإجراءات الصارمة التي اتخذها الزعيم المسلم العظيم عُمر، صحابي مُحمد الذي أصبح ثاني الخلفاء في 634، بعد عامين فقط من وفاة مُحمد. قيل إن عُمر قد حذّر أحد رجاله: "إذ أقبل إليه قوم من جذام فقالوا: يا أميرالمؤمنين إنّ عندنا رجلًا له امرأتان وهما أختان لأب وأم! قال: فغضب عمر وقال علي به فأتي بالرجل إليه فقال له عمر : ما هاتان المرأتان. قال الرجل : زوجتاي قال : فهل بينهما قرابة؟ قال : نعم هما أختان، قال عمر : فما دينك ألست مُسلمًا؟قال : بلى قال عمر : وما علمت أن هذا حرام عليك والله يقول في كتابه : وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف "النساء : 23" فقال الرجل ما علمت وما هما علي حرام فغضب عمر وقال : كذبت والله إنه لحرام عليك ولتخلين سبيل إحداهما وإلا ضربت عنقك.[147]

يروي الواقدي قصصًا أخرى توضح أساليب الفاتحين المسلمين. في إحدى الروايات "وأرسل إليهم خالدًا في أثرهم، فوجدهم في الطريق فأطلق عنانه وقال: يا أهل الإيمان وحملة القرآن دونكم وعبدة الصلبان، ارفعوا أصواتكم بذكر ربكم. قال، ونظر يوقنا النصرة وقد أقبلت، فعظم شأنه والتقى بصاحب الحصن، وقد عرفه بزيه فتطاعنا طعنًا كافيًا وتضاربا ضربًا شافيًا وصنع فيهم خالد -رضي الله عنه- كما تصنع النار في الحطب، ولما قتل يوقنا صاحب الحصن قطع رأسه وجعله على سنانه ونادى: عمن تقاتلون وقد قتلنا صاحبكم، فلما رأوا الرأس ولوا الأدبار، ومات أكثرهم وولوا الباقون نحو الجبال، ووقع الصائح في الحصن بأن يطالقون قد قتل فولوا الأدبار. قال الواقدي: "وكان ليطالقون زوجة عاقلة لبيبة صاحبة رأي وتدبير، فلما رأت ما حل بزوجها وأن أهل الحصن قد قتل أكثرهم وتفرقوا بالهزيمة أيقنت بزوال ملكها وخراب بيتها، فجمعت المشايخ من أرباب دولتها، وقالت لهم: اعلموا أن الملك قد قتل وقد تفرق شمل من كان معه، وقد وصلكم ما فعل هؤلاء العرب مع ملوك دين النصرانية وبني ماء المعمودية، وكيف ملكوا الشام وأرض ربيعة وديار بكر وديار مصر، وقد دانت لهم الأمور وانتشر شرعهم، وعلا ذكرهم ودخل في دينهم الملوك والبطارقة، وما نزلوا على حصن إلا ملكوه، ولا وافوا جيشًا إلا هزموه. فلينطلق منكم رجال إلى هؤلاء العرب ويعقدوا لنا معهم صلحًا. قال فخرجوا من عندها وسار منهم ثلاثون رجلًا من خيارهم، وعبروا الشط إلى عسكر خالد، فلما رآهم خالد والمسلمون علموا أنهم من أهل الحصن فاستقلوهم وسلموا عليهم ومشوا معهم إلى قبة خالد وإذا هو جالس على التراب ووجوه أصحابه حوله وهم يكثرون من ذكر الله وليس لهم حاجب ولا بوّاب، فسلموا

عليهم... قال خالد: كم تبذلون لنا من المال؟ فقالوا: مهما أردتم امتثلناه. فقال إنا لا نرضى إلا ما ترضى به أهل الذمة الذين في البلد حتى تطيب قلوبهم، ومن لا يرحم لا يُرحم.. الخ".

في رواية أخرى، التقى خالد المتدين مسيحيًا عربيًا تظاهر بأنه مسلم، لكن خالد اشتبه بكون الرجل، كما يصف الأمر، "عابد صليب" يتجسس لمصلحة المقاتلين المسيحيين. عندئذ اختبر خالد الرجل بالطلب إليه تلاوة مقطعين مختارين من القرآن. لم يتمكن المسيحي العربي من ذلك. عند هذه النقطة عرض خالد على الرجل اعتناق الإسلام أو الموت (لم يكن يُسمح للعرب أن يُصبحوا أهل ذمة). فقال الرجل العربي حينها "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحمدًا رسول الله" (هذه الطريقة الفعالة في اختبار الكفار المحتملين استخدمها المقاتلون المسلمون حتى يومنا هذا). كان خالد في الواقع ينتبه إلى رسالة أرسلها عُمر إلى جميع جنوده: "اغزوا سوريا، إذا عرضوا الاستسلام اقبلوا وإلا قاتلوهم. أرسلوا جاسوسًا إلى أنطاكية وكونوا على حذر من المسيحيين العرب".

لكن يمكن للغزاة أن ينتصروا أيضًا باستخدام "اللطف" كما عبّر الواقدي. هكذا يذكر أنه بعد الإغارة على بعض البلدات في سوريا المسيحية عاد المحاربون مثقلين بالأسلاب ومئات الأسرى، رجالًا ونساءً وأطفالًا. توسل الأسرى الرحمة من القائد المسلم الذي سألهم إن كانوا يرغبون بدفع الجزية وضريبة الأرض. وافق المسيحيون وأعاد لهم القائد المسلم عندها ممتلكاتهم وحريتهم، لكن بالطبع تحت الحكم الإسلامي. بهذه الطريقة، يكتب الواقدي: "جاء رومان آخرون إلى القائد أبو عبيدة يطلبون الأمان من المسلمين عند دفع الجزية وضريبة الأرض". في رواية أخرى، سأل كاهن يقود جماعة من المسيحيين المحاربين المسلمين عما يريدونه. قيل للكاهن إن لديه ثلاثة خيارات، إما الإسلام أو الجزية أو السيف.

يسجل المؤرخ المسيحي ميخائيل السرياني (1126-1199) البطريرك اليعقوبي لأنطاكية، العديد من الروايات عن الدمار الذي حدث أثناء فتح المسلمين لفلسطين والقيصرية اللتين كانتا أيضًا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية[148].

أشار ابن خلدون إلى أن استخدام الإرهاب كان أساسيًا في الفتوحات الإسلامية منذ البداية:

"يفهم المرء قول مُحمد "لقد تم مساعدتي من خلال الرعب (الذي حل بالعدو).."، (نفس الواقعة توضح) انتصار مُحمد بأعداد قليلة على المشركين خلال حياته وانتصارات المسلمين خلال الفتوحات الإسلامية بعد "موت مُحمد". اعتنى الله

بنبيه. ألقى الرعب في قلوب المشركين.. الرعب في قلوب أعدائهم كان السبب في أن هناك العديد من الهزائم خلال الفتوحات الإسلامية"[149].

لا عجب أن النقاشات الدينية المسيحية الشرقية ضد الإسلام من القرن السابع فصاعدًا تضمنت بشكل متجانس ذريعة أن المسلمين استخدموا العنف من أجل نشر دينهم، وأن المجادلات الدينية الإسبانية المبكرة ضد الإسلام أشارت بشكل متواتر أيضًا إلى استخدام العنف من قبل أتباعه[150].

وهكذا كانت الخيارات الثلاثة التي منحها موسى إلى القوط الغربيين - الإسبان هي الخيارات المعيارية التي قدمها الفاتحون المسلمون للمسيحيين" 1- اعتناق الإسلام 2- الإذعان كذميين للغلبة الإسلامية ودفع الضريبة (الجزية) المتوخى منها بوضوح إذلال الكفار وتذكيرهم بامتثالهم أو 3- أن يُقتلوا (في حالة الرجال) أو يُسترقوا (في حالة النساء غير المقاتلات والأطفال)[151].

هنا يكمن مصدر التأويلات المتضاربة للفتح الإسلامي لإسبانيا، أولئك الذين يدّعون أن استيلاء المسلمين كان "سلميًا" إلى حد كبير وأنه تحقق عن طريق "المواثيق" والآخرون الذين يدّعون أنه كان "عنيفًا" إلى حد كبير[152]. لقد عرض الفاتحون المسلمون حقًا السلام على أولئك الذين استسلموا دون قتال، وإن كان ذلك في ظل الهيمنة الإسلامية وضمن شروط صارمة، لكنهم سرعان ما دمروا أولئك الذين قاوموا. أولئك الذين استسلموا لنظام المسلمين "السلمي" فعلوا ذلك وهم يعلمون جيدًا عواقب مقاومتهم. مزج الفتح الإسلامي إذن، بين القوة الوحشية والاتفاقيات السلمية[153]. كانت الاتفاقيات ملازمة للعنف ونتيجة له. وكما رأينا، احتفظت القوات المسلمة بالحق في إلغاء "الاتفاقيات السلمية" متى ما كان من المفيد فعل ذلك لأنه، كما أشار الباحث القانوني ماجد خدوري "كانت العلاقة الطبيعية بين المسلمين والمجتمعات غير المسلمة هي حالة العداء" إلى أن يحقق الإسلام الهيمنة.

ما أسسه موسى وقواته المسلمة بالنسبة للمؤمنين المسيحيين كان "مملكة متوحشة" (*regnum efferum conlocant*) كما تصف الأمر the *Chronica mozarabica* لعام 754[154]. يلخص تاريخ إسبانيا لألفونسو العاشر الفتح الإسلامي كما هو موصوف في المصادر المسيحية في العصور الوسطى:

دُمرت المقدسات، هُدمت الكنائس، رموا من الكنائس الصلبان والمذابح المقدسة، الزيوت والكتب والأشياء التي كرمها العالم المسيحي، كلها كانت مبعثرة ومهملة. دمر الأعداء الأرض، أحرقوا المنازل، قتلوا الرجال، أحرقوا المدن والأشجار وكروم العنب وقطعوا كل ما وجدوه أخضر. نما هذا الطاعون لدرجة أنه لم يبق في

إسبانيا قرية أو مدينة نافعة.. لم تُحرق أو تهدم أو يستولي عليها المغاربة. خدعوا المدن التي لم يستطيعوا غزوها واستولوا عليها بواسطة المعاهدات الكاذبة[155].

يجعل التأريخ الإسلامي هذه النقطة أكثر قوة: بحسب المؤرخ الحكم، كان فتح إسبانيا مروعًا لدرجة أن موسى عندما كتب إلى الخليفة، وصف الأمر بأنه "ليس فتحًا وإنما يوم الحشر"[156].

إعادة تسمية الأرض المحتلة:

إن الاسم ذاته الذي أطلقه المسلمون على الأرض التي احتلوها –الأندلس- يعكس استراتيجية الهيمنة في العمل.

كما ذُكر، تطور اسم إسبانيا من الاسم اللاتيني الروماني هيسبانيا (*Hispania*)، ربما مُشتق من كلمة قرطاجية. ليس من المستغرب أن الفاتحين المسلمين أعادوا تسمية الأرض. كان تغيير الأسماء الجغرافية في الأراضي المحتلة حركة استعمارية معيارية، بصرف النظر عن معتقد الفاتحين، لكن جيوش المسلمين، على أي حال، نفذت الحيلة بإتقان غير عادي. في كل مكان ذهبوا إليه، استبدل المسلمون الأسماء القديمة بأسماء جديدة. ربما الأكثر شهرة، في القرن العشرين استبدالهم الاسم اليوناني المسيحي Κωνσταντινούπολις (Constantinople القسطنطينية) أو مدينة باسم إستانبول (وهي نفسها تحريف تركي لعبارة يونانية)[157]. وراء ذلك، حلت الأسماء التركية *Iskece* و*Gumulcine* محل اليونانية Xanthi وKomotini على التوالي، Armenia's Amid أصبحت ديار بكر، بيت المقدس أصبحت القدس العربية، Hebron العبرية تحولت إلى الخليل، Bethshemesh (بيت الشمس) أصبحت عين شمس، Bethhoron (بيت النور) أصبحت بيت أور (بيت المكفوفين)، Bethlehem أصبحت بيت لحم، والاسم اللاتيني Africa غيره الفاتحون المسلمون إلى *Ifriquiya*. أعادوا تسمية نهر بيتيس Baetis بالوادي الكبير (Guadalquivir). وحولوا اليوناني "أعمدة هرقل" (The Pillars of Hercules) إلى "*Gibt al-Tariq*" الذي يعني جبل طارق اليوم.

على الرغم من أن الأصل الاشتقاقي لاسم الأندلس غير مؤكد، فإن المستعرب والمؤرخ J. Vallvé Bermejo جيه فالفي بيرميجو قد جادل بأن الكلمة قد تكون كلمة عربية محرفة للكلمات اليونانية "جزيرة أطلنطس" Ατλαντίσ νησος. قد يكون المصطلح وصل إلى الإسلام المبكر في الشرق الأوسط عن طريق الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية التي احتلت جنوب شرق إسبانيا من 552 إلى 624. وكانت المستعمرات اليونانية موجودة في إسبانيا منذ القرن

الثامن قبل الميلاد على الأقل. هذا الأصل من شأنه أن يضع الأندلس في الفئة اللغوية السياسية نفسها مثل إسطنبول، المشتقة أيضًا من اليونانية[158].

لم يباشر الفاتحون المسلمون في إسبانيا بإعادة تسمية الأرض فقط، وإنما أيضًا في تعريب العديد من الأسماء القديمة في المنطقة قدر استطاعتهم. لا يزال بإمكان المرء اليوم أن يجد في جميع أنحاء جنوب إسبانيا آثار الأسماء الطبوغرافية لهذا التعريب، الذي، إذا ما كيّفنا كلمات علماء الأنثربولوجيا، خدم الإسلام في العصور الوسطى جيدًا من خلال تشكيله وتشريعه لخياله التاريخي الاستعماري – القومي وتأكيده لمزاعمه الإقليمية[159].

كانت مشكلة الفاتحين المسلمين هي أن الكلمة اللاتينية *Spannia / Hispania / Spania* كانت تتمتع بوزن تاريخي وأهمية سياسية كافية لتصمد لقرون بعد الفتح. ليس من غير المألوف أن يتمسك السكان المُحَتلون بأسمائهم القديمة، هذا التشبث كان واضحًا في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية حيث قاومت شعوب مختلفة أسلمة أراضيها[160].

اعتبر مسيحيو العصور الوسطى الأراضي التي احتلها الإسلام جزءًا من إسبانيا، وليس جزءًا من الإسلام، وبالتالي فهي ليست الأندلس. تشير سجلاتهم إلى "Spannia" وتتفادى المصطلح العربي[161]. القصيدة الملحمية القشتالية التي تعود إلى منتصف القرن الثالث عشر *Poema de Fernán González* التي تنشد بإسبانية العصور الوسطى أعمال البطل القشتالي في القرن العاشر تحدد قشتالة بوصفها أفضل أراضي *Espanna* وأن Fernán González فرنان غونزاليس حارب حتى الملوك المسيحيين لـ *Espanna*[162]. في الواقع أشار المسيحيون في شمال إسبانيا في البداية إلى أهل الذمة المسيحيين في إسبانيا الإسلامية بـ *Spani* هذا يعني Spaniardsالإسبان. "حتى القرن الثاني عشر" يكتب المؤرخ الإسباني ميغيل أنخيل لاديرو كيسادا Miguel Angel Ladero Quesada "المسيحيين، ولا سيما أولئك الذين في منطقة البرانس، كثيرًا ما يسمون أراضي الأندلس Hispania، وكذلك فعل القوطيون من مملكة ليون مذ نظروا إليها بوصفها أرضًا غير محررة"[163]. فالفي بيرميجو Vallvé Bermejo وزميله المؤرخ راينهارت دوزي Reinhart Dozy قد أشاروا إلى أن السجلات اللاتينية للمسيحيين في شمال إسبانيا عيّنت تحديدًا الأرض التي فتحها المسلمون بوصفها إسبانيا *Spania*[164].

هذه الإشارات السياسية إلى الأرض بوصفها إسبانيا حدثت، بشكل ملحوظ، على الرغم من واقعة أنه لم يكن ثمة "مملكة إسبانيا" واحدة في العصور الوسطى. ومع ذلك، في عام 1077 أطلق ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة على نفسه لقب "*imperator totius hispaniae*" "إمبراطور إسبانيا بأكملها". تاريخ آخر

يسمي سانشو الثاني ملك ليون وقشتالة (1036-1072) "*rex totius Castelle et dominator Hispaniae*" (ملك قشتالة والمسيطر على إسبانيا). تاريخ من عام 833 يخبرنا أن ألفونسو الثالث ملك استورياس سوف يحكم "في كل إسبانيا". كان المؤرخون المسيحيون يرثون منذ 754 في *Chronica mozarabica* "خسارة إسبانيا"[165]. القديس إيسيدور Isidore (560-636) أسقف إشبيلية كتب *Laus Spaniae.* في مدح إسبانيا. جوليان من توليدو (توفي 690) أسقف من أصل يهودي أصبح أسقفًا لكل إسبانيا القوط الغربيين كتب "تاريخ الملك وامبا) *Historia Wambae* الذي اعتُبر "عملًا قوميًّا" للدفاع عن الوطن والشعب الإسباني على عكس تلك الأراضي الأجنبية مثل فرنسا[166].

غالبًا ما استخدم المسلون أنفسهم كلمة إسبانيا بدلًا من الأندلس. الجغرافي العربي الإدريسي (توفي 1165) أشار إلى الأرض التي فتحها المسلمون بإسبانيا *Isbania*. [167]روى ابن خلدون، في القرن الرابع عشر (1332-1406) عن أسفاره إلى إسبانيا وليس الأندلس[168]. أشارت المصادر المبكرة التي ذكرها المقري إلى أن الأرض هي *Ishbaniah*[169]. كما تحدث مؤرخون مسلمون آخرون مرارًا وتكرارًا عن *Isbanians* و*Isbania*. في تأريخ الاستيلاء العنيف لعبد الرحمن الأموي على إسبانيا الإسلامية، أشار المؤرخ الطبري إلى إسبانيا بإسبانيا[170]. المؤرخ القرطبي ابن حيان (987-1076) في سرده حقبة الأمويين أشار إلى *Hispania*[171].

يؤكد علم الآثار هذا الاستخدام الإسلامي: يخبرنا علم المسكوكات أن أقدم عملات معدنية إسلامية في إسبانيا تعود إلى النصف الأول من القرن الثامن، بعد سنوات قليلة من الفتح، تظهر اسم الأندلس بالعربية على أحد وجهيها والاختصار اللاتيني *SPAN* أي Spania من أجل التعرف الصحيح على الوجه الآخر[172].

لم تستخدم هذه الوثائق من العصور الوسطى، سواء كانت مسيحية أو إسلامية، في أي وقت من الأوقات المصطلح الأكاديمي الرائج الآن *Iberia*.

كيف إذًا اكتسب اسم الأندلس رواجًا في القرون اللاحقة؟ كان أحد العوامل يتعلق باستراتيجيات الهيمنة الإسلامية المستمرة. المؤرخون والشعراء، والمفكرون المسلمون اللاحقون الذين كانوا عادة في خدمة حكامهم، بذلوا جهودًا لاستحضار الأراضي الإسبانية المحتلة (الأندلس) والثناء عليها باعتبارها فردوسًا أرضيًّا[173]. يتجنب العديد من المؤرخين الغربين اليوم، الذين ليسوا أصدقاء سواء للمسيحية أو لفكرة "إسبانيا"، استخدام مصطلح إسبانيا الإسلامية بشكل واضح، مفضلين الأندلس، تمامًا كما يفضلون إيبيريا القروسطية على إسبانيا القروسطية.

الاسترداد المسيحي:

مع أن القوات الإسلامية احتلت الأرض بسرعة، إلا أنها لم تفلح أبدًا في قمع المقاومة بالكامل في الجبال الشمالية الغربية لإسبانيا. سكان هذه المنطقة الأصليون الغاليسيون والأستوريون صعبو المراس انضموا إلى أولئك Hispano-Visigoths القوط الغربيين الإسبان الذين فروا من الغزو. يلاحظ فيليبي مايلو سالغادو Felipe Maíllo Salgado أن سجلات المسلمين أطلقت على الحكام الأستوريين "ملوك القوط" ويجادل بأن هؤلاء القادة المسيحيين كان لديهم منذ وقت مبكر "برنامج استرداد" حتى قبل أن يبدأ المسيحيون من أهل الذمة الهاربون من إسبانيا الإسلامية بالوصول في القرن التاسع[174]. خلال مئات السنوات العديدة التالية قاتلت هذ الجماعات المسيحية الإسلام بشكل متقطع (وغالبًا ما تصارعت مع بعضها، بمساعدة الإسلام أحيانًا). كما عبر مؤرخ مسلم عن استيائه في القرن الثالث عشر، بدا هذا في البداية غير مهم، والمسيحيين الفارين زادوا أعدادهم خلال الوقت إلى أن طردوا الإسلام بعيدًا عن الشمال الغربي وقشتالة[175].

حدثت نقطة تحول رئيسة عندما مات الزعيم المسلم العظيم أبو أمير محمد المنصور في 1002. من خلال جعله الخليفة الطفل حاكمًا دمية، أسس المنصور ديكتاتورية عسكرية قاسية حافظت لفترة من الوقت على قوة خلافة قرطبة. ومع ذلك أدى موته إلى نشوب صراع داخلي. في النهاية، تمزقت الخلافة إلى عدة ممالك صغيرة واستبدادية، أو طوائف تحكمها العائلات من العرب، البربر أو العبيد البيض المسلمين المُحررين، السلاف أو الصقالبة الذين كان العديد منهم من أصول سلافية، وكذلك حكّام ألميريا، بطليوس، فالنسيا ومورسيا وكذلك المجاهد "أي المشارك في الجهاد" يوسف الأمير الصقلبي المؤسس القدير جدًا لطائفة دانية. لم يكن لهذه الممالك الصغيرة القوة العسكرية التي كانت تتمتع بها خلافة قرطبة السابقة "الدولة الأموية في الأندلس".

اعتمد حكّام إسبانيا الإسلامية منذ البداية على جيوش من الأجانب معروفين ببسالتهم العسكرية وحماسهم الإسلامي (مثل البربر) على جيوش من المرتزقة (البربر وبعض المسيحيين أيضًا) على محاربين عبيد (العديد من الأفارقة السود ولكن أيضًا محاربين بيض عبيد "الصقالبة") وعلى العملاء "الموالي" الذين غالبًا ما تم أسرهم في الحرب واعتنقوا الإسلام ثم تم تحريرهم من العبودية والذين لا يمكن تمييزهم عن العبيد المحررين. (كان طارق مولى لموسى بن نصير). بحلول القرن الحادي عشر، كما يشير المؤرخان العسكريان ديفيد نيكول David Nicolle وأنغوس ماكبريد Angus McBride كانت "النخبة المحلية منزوعة السلاح إلى حد كبير وكان الجيش مكونًا بالكامل تقريبًا من العبيد الأوربيين والبربر "الجدد" من شمال إفريقيا[176]. كما لاحظت مؤرخة الإسلام باتريشيا كرون

Patricia Croneكانت أعداد العبيد الذين أخذهم العرب خلال فتوحاتهم "مذهلة"[177].

لكن هذه لم تكن دائمًا تحالفات مستقرة. في وقت مبكر من 741 ثار البربر غير راضين عن تخصيص الحكّام العرب أفضل الأراضي للعرب (استقر العرب على رأس الهرم الاجتماعي، وبالتالي حتى أولئك الذين لم يكونوا عربًا حاولوا في كثير من الأحيان أن يقدموا أنفسهم على هذا النحو). في النهاية أخرج الحكّام المسلمون من أراضٍ جديدة يسهل غزوها ويمكنهم نهبها أو انتزاع بطريقة أخرى الثروة والعبيد. الثروة التي انتزعوها سابقًا من أهل الذمة في إسبانيا الإسلامية قد نضبت إلى حد كبير لأنه لم يبق سوى عدد قليل منهم؛ لذلك افتقر حكّام الأندلس بعد المنصور إلى الموارد اللازمة لدفع أجور المرتزقة المهرة أو استرقاق عبيد للتناسل من أجل الحرب، على الأقل على نطاق الأزمنة السابقة.

لكن الجيوش المسيحية الإسبانية كانت تكتسب قوة. كانت هذه القوات تتكون من جنود فلاحين أحرار جسورين وميلشيات من سكان البلدات شمال إسبانيا، جنبًا إلى جنب طبقة اجتماعية من الفرسان النبلاء المولودين للقتال على جياد الحرب الثقيلة، على ما يبدو كان Rodrigo Díaz de Vivarرودريغو دياز دي فار الذي لا يُقهر (السيد) الأكثر شهرة بين هؤلاء المحاربين. الهياكل الإقطاعية للممالك المسيحية والتي أصبحت أكثر تطورًا بمرور الوقت ساعدت في إنتاج هذه القوات القتالية المتفوقة المفعمة بإيمان ديني قوي[178].

بحلول عام 1085 كان هذا الاسترداد المسيحي –مصطلح يثير خلاف أو سخرية المؤرخين متعددي الثقافات المعاصرين[179]- قد حقق انتصارًا عظيمًا: استعاد ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة العاصمة القديمة لمملكة القوط الغربيين المسيحيين، توليدو. كان هذا بعد أقل من عقد على إعلان ألفونسو نفسه إمبراطور إسبانيا بأكملها *imperator totius hispaniae*.

استمر حكّام ممالك الطوائف المسلمون في مواجهة التحديات. لقد كانوا بالفعل يفرضون ضرائب شديدة على رعاياهم للحفاظ على أسلوب حياتهم المبهرج: حريمهم، قصورهم، عبيدهم، وبلاط ملوكهم الذي ينشد فيه الشعراء والمفكرون مدائحهم. كما يذكرنا ابن خلدون، أن هذه الضرائب الباهظة المصحوبة بالسلوك الاستبدادي للحكام غير المسلمين غالبًا قد تسبب بحلول عام 1088 بدعم عموم المسلمين والعلماء (علماء الدين المسلمين) في إسبانيا، شمال إفريقيا وحتى العراق وتبريرهم استيلاء المرابطين البربر على الطوائف في (1088-1138) ومن ثم دعمهم لتحالف بربري آخر، الموحدون (1172-1212)[180]. الموحدون على وجه الخصوص قد تم شيطنتهم من قبل المعجبين بإسبانيا الإسلامية بوصفهم مسلمين

متعصبين أنهوا التسامح الإسلامي الرائع تجاه الأديان الأخرى السائدة في الأندلس. كما سنرى، فإن هذا الاعتقاد لا يصمد أمام التدقيق[181].

عملية الاسترداد اكتملت عمليًا بحلول أوائل القرن الثالث عشر. فيما قد يكون أفضل دراسة للموضوع، يسرد فيليبي مايلو سالغادو أسباب نهاية الأندلس: التنظيم الاجتماعي الأكثر تماسكًا للمسيحيين، تفوقهم القتالي "كفاءتهم"، تجذرهم في أرض أجدادهم –على عكس المسلمين الأندلسيين في اعتمادهم على التجريدات (الأمة أو جماعة المؤمنين أو روابط أنساب المسلمين)- والتنوع الديني والإثني في الأندلس (*abigarramiento étnico y confesional*للعرب، البربر، ذوي الأصول الإسبانية –البعض أسلم، آخرون ظلوا ذميين- العبيد، والأفارقة السود) مما جعلها أضعف اجتماعيًا وأيديولوجيًا عند مقارنتها بالممالك المسيحية[182].

في 16 تموز 1212 هزم جيش مسيحيي الموحدين في معركة لاس نافاس دي تولوز الهامة. كما يشرح المؤرخ Francisco García Fitzفرانسيسكو غارسيا فيتز في دراسته الدقيقة عن المعركة، كان جيش الموحدين مكونًا من قوة كبيرة جدًا وغير متجانسة من البربر، ومحاربين عبيد سود قساة (الـ "Imesebelen" الذين قُيدوا معًا كسلسلة من الحرس غير قابلة للكسر حول خيمة الخليفة الموحد)، عرب، رماة السهام الأتراك، جباة الضرائب المسلمون الأندلسيون (الذين يتألفون من أحفاد الإسبان الرومان والقوط الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام وأحفاد المسلمين الغزاة)، المجاهدون (المتطوعون الدينيون المقاتلون –جهاديون- من جميع أنحاء العالم الإسلامي وحتى مسيحيون مرتزقة ومنشقون). شكّل ملوك قشتالة ونافار ووأراغون جيش التحالف المسيحي الذي ضم المحاربين الكاتالانيين، الفرسان النبلاء وفرسان الأنظمة العسكرية في سانتياغو، كالاترافا والمعبد، الميلشيات الحرة للمدن الكتالانية و150 متطوعًا من الفرسان النبلاء من باقي أوروبا، اتحدوا جميعًا تحت راية الحملة الصليبية التي أعلنها البابا إنوسنت الثالث "Innocent III" ضد إسبانيا الإسلامية[183]. يقول التقليد، إنه في اللحظة الحاسمة للمعركة، حين بدا أن كل شيء ضاع، حشد ظهور علم العذراء السوداء من مأوى في Rocamadour-أحد التوقفات في طريق كامينيو دي سانتياغو- المسحيين وقادهم إلى النصر. لفترة طويلة بعد ذلك، كان يوم 16 يوليو يُحتفل به في التقويم الكاثوليكي الإسباني باعتباره يوم "انتصار الصليب المقدس". ألغى البابا يوحنا الثالث والعشرون John XXIIIالاحتفال كجزء من الإصلاحات الشعائرية للمجمع الفاتيكاني الثاني[184].

في عام 1248 تولى فرديناند الثالث (القديس) ملك قشتالة مملكة إشبيلية. بعد ذلك، فقط مملكة غرناطة الصغيرة في جنوب إسبانيا بقيت في أيدي المسلمين. مع أن الاستعادة *Reconquista* غالبًا ما يتم تسجيل انتهائها في 1492 عندما

هزم الملوك المسيحيون إيزابيلا من قشتالة وفرديناند من أراغون مملكة غرناطة، فإن سقوط إشبيلية في 1248 وسم في الواقع نهاية السيطرة الإسلامية على إسبانيا.

ومع ذلك، سيطر الإسلام على جزء كبير من إسبانيا لما يقرب من خمسة قرون ونصف (إن لم يكن سبعة أو ثمانية قرون كما يتكرر كثيرًا). هرب السكان المسيحيون الخاضعون "أهل الذمة" تدريجيًا (أو هاجروا كما يُفضل بعض الأكاديميين) إلى الشمال، أو اعتنقوا الإسلام أو طُردوا إلى شمال إفريقيا. كانت الخسارة الثقافية عظيمة. بحلول القرن التاسع عشر في ميريدا، لم يكن أي من المسيحيين "الذميين" القلائل الباقين قادرًا على قراءة نقش "كتابة" كنسي باللاتينية، أخذ الحكّام المسلمون النقوش إلى الأسفل وحملوها إلى قرطبة تذكارًا عن السيادة الإسلامية. في القرن ذاته في قرطبة، أعرب يولوجيوس Eulogius (الذي سيقتله الحاكم الأموي لاحقًا) عن أسفه لتفضيل بعض شبان أهل الذمة لأشياء المسلمين، بما في ذلك اللغة العربية. في عام 1805 قلة من المسيحيين كانوا قد بقوا في جنوب طليطلة. عندما ضم ملك أراغون، خايمي الفاتح، مملكة فالنسيا الإسلامية في 1238 لم يجد أي من المسيحيين هناك[185]. عندما غزا فرديناند وإيزابيلا غرناطة في 1492 لم يتم العثور على أي ذمي مسيحي في المدينة.

لكن عملية أسلمة الثقافة الإسبانية – الرومانية - القوط المسيحية القائمة انعكست بمرور الوقت. بينما كانت عملية الاسترداد تتقدم، أُعيد توطين مسيحيي الشمال، وكذلك أولئك المسيحيين الذميين واليهود الذين فروا ذات مرة إلى شمال إسبانيا الإسلامية. هرب العديد من المسلمين إلى شمال إفريقيا. أختار آخرون البقاء وسُمح لهم لعدة قرون بممارسة شعائرهم الدينية تحت الحكم المسيحي وأطلق عليهم اسم "المدجنون" من قبل المسيحيين (التي كانت تعني بالنسبة لهم "خاضع") ولكن كما أشار Gerard Wiegersجيرارد ويجرز وHans Wehr هانس وير فإن الكلمة مُشتقة من "مدجنين" العربية التي تعني "داجن" أو "بيتي"، واعتبر بعض الفقهاء المالكيين أن المدجنين مسلمون أنذال لقبولهم العيش تحت الحكم المسيحي[186].

بعد عدد من انتفاضات "المدجنين" الفاشلة عبر القرون، شعرت السلطات الإسبانية بالخشية (وهذا مبرر) من تواطؤ هؤلاء المسلمين مع إمبراطورية الأتراك العثمانيين الإسلامية التي تزداد قوة، مع المسلمين في شمال إفريقيا (تشير إحدى الشخصيات في دون كيشوت لسرفانتس إلى أن ملك فاس استخدم المدجنين كمحاربيه المفضلين)، وحتى مع أعداء آخرين للتاج الإسباني مثل إنجلترا، فرنسا والبروتستانت في أوروبا[187].

لذلك منحت السلطات الإسبانية المدجنين الخيار بين المنفى أو الإدماج من خلال تحولهم إلى المسيحية (قبل قرون عدة، أعطى الموحدون خيارًا مُماثلًا للمسيحيين ولأسباب مماثلة: الاندماج أو الطرد من الأندلس). غادر العديد إلى شمال إفريقيا، لكن الآلاف تحولوا واعتنقوا المسيحية، العديد منهم فعل ذلك لتجنب الطرد.

هؤلاء المسلمون المفترض أنهم تحولوا إلى المسيحية كان يُطلق عليهم موريسكيون (مغاربة)، لكن العديد منهم إن لم يكن معظمهم استمروا في ممارسة الإسلام في الخفاء وارتداء ملابس المسلمين والحجاب والاحتفال برمضان والتحدث بالعربية فيما بينهم. حدثت بعض الانتفاضات المغاربية تضمنت الرجم، التقطيع، قطع رؤوس المسيحيين وخوزقتهم وحرقهم أحياء[188]. أخمد الجيش الإسباني هذه الانتفاضات بصعوبة بالغة. أخيرًا بين عامي 1609و 1614 طردت السلطات الإسبانية معظم الموريسكيين إلى شمال إفريقيا (على الرغم من أن الأبحاث الحديثة تشير إلى أن الطرد لم يتم تنفيذه بدقة كما كان يُعتقد سابقًا). بررت السلطات الإسبانية أن مئات الآلاف من هؤلاء المسلمين السابقين بمعدلات ولادتهم المرتفعة[189] يشكلون طابورًا خامسًا خطيرًا في التواطؤ مع أعداء إسبانيا (تبرير مماثل لذاك الذي استخدمه المرابطون والموحدون في وقت سابق في قرارهم طرد الذميين المسيحيين من الأندلس). شكل هؤلاء الأعداء تهديدًا حقيقيًا. قدم وكلاء إنجلترا وفرنسا عرض تعاون لقادة هؤلاء المسلمين السابقين فيما يتعلق بانتفاضة عامة محتملة. كان بعض الموريسكيين على اتصال بالمسلمين في شمال إفريقيا. واصل القراصنة من شمال إفريقيا المسلمة الإغارة على سواحل أوروبا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط بحثًا عن السلب والعبيد المسيحيين (سرفانتس نفسه ألقي القبض عليه في البحر في 1575 من قبل القراصنة المسلمين، تم الاحتفاظ به باعتباره عبدًا لمدة خمس سنوات في الجزائر قبل أن يفديه الرهبان من الآباء الثالوثيين)[190]. استخدم الموريسكيون أيضًا مبعوثين للتواصل مع سلطان الدولة العثمانية؛ الخليفة الجديد للإسلام. هزمت الإمبراطورية التركية الإسلامية العثمانية الصرب المسيحيين في كوسوفو 1389 وغزت القسطنطينية اليونانية في 1453 وأخضعت المسيحيين اليونانيين (هذا الاستعباد من شأنه أن يستمر لأربعمئة عام) وكادت أن تغزو فيينا في 1529(حصار فيينا). ركزت هذه الإمبراطورية الإسلامية قوتها العسكرية الهائلة الآن ضد قلب أوروبا.

تدمير حضارة وليدة

انعكس فشل دولة القوط الغربيين أيضًا في وهنها التكنولوجي، الأمر الذي كان في صلب عجز نخبتها عن التكيف مع أي بيئة أخرى غير تلك التي كانت مألوفة لها أصلًا: لم يبتعد رجال الغابة كثيرًا عن هناك.

—Thomas F. Glick, Professor of Medieval History and Director of the Institute for Medieval History at Boston Islamic and Christian Spain in the Early Middle *University,* *(Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979; rpt.* Ages *New York: Brill, 2005), 31*

توماس إف جليك، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ومدير معهد تاريخ القرون الوسطى في جامعة بوسطن، إسبانيا الإسلامية والمسيحية في أوائل العصور الوسطى (برينستون، نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 1979 ؛ rpt. نيويورك: بريل، 2005)، 31.

ستحل إمبراطورية عظيمة محل الرومان في إسبانيا، لكنها ستكون إمبراطورية إسلامية بدلًا من سلالة القوط الغربيين.. حقق (الفاتحون المسلمون) ما لم يستطع القوط الغربيون تحقيقه أبدًا: لقد رفعوها من عصور الانحطاط والظلام، ما جعلها تستحق تفاخر إيسيدور "فخر وحلية العالم، الجزء الأكثر شهرة في الأرض".

A Vanished World: Muslims, Christians, and *Chris Lowney,* *(New York: Oxford University Press,* Jews in Medieval Spain *2006), 26*

—كريس لوني، A Vanished Worldعالم مندثر: المسلمون والمسيحيون واليهود في إسبانيا في العصور الوسطى (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2006)، 26.

كانت الثقافة الأوروبية منذ نهب روما في 455 للميلاد قد دخلت في تدهور دراماتيكي معروف باسم العصور المظلمة. على النقيض من ذلك، كانت ثقافة الشرق الأوسط مزدهرة، مع الزخم الإضافي الذي وفره الدين الإسلامي الجديد.

(New York: W. W. Coffee: A Dark History *Antony Wild,* *Norton, 2005), 30*

أنتوني وايلد، القهوة: تاريخ مظلم. (نيويورك، دبليو دبليو نورتون، 2005)30.

تشير أعمال المؤرخ الفارسي الطبري (839-923) ومؤرخين مسلمين آخرين إلى أن غزو مملكة القوط الغربيين الإسبانية خلال السنوات الأولى من القرن الثامن كان جزءًا من هجوم الإسلام على العالم المسيحي. استهدف هذا الهجوم أراضي الإمبراطورية الرومانية اللاتينية أو (الغربية) سابقًا التي تضمنت إسبانيا وأراضي الإمبراطورية اليونانية المسيحية التي كانت عاصمتها في القسطنطينية[191]. فشلت حركة "الكماشة" الاستراتيجية هذه في نهاية المطاف: أصبحت إسبانيا المسلمة تحت حكم الأمويين مستقلة عن الخلافة العباسية ومنافسة لها حتى إنها واصلت تبادلًا تجاريًا متبادلًا تجاريًا وثقافيًا مفيدًا للطرفين مع الأباطرة الرومان المسيحيين في القسطنطينية، لكن الفتح الإسلامي كانت له آثار قوية على إسبانيا.

الأهم أنه قاطع عملية الاندماج الثقافي والعرقي للرومان المسيحيين الإسبان مع القوط الغربيين وبالتالي البروز الكامل لحضارة مسيحية إسبانية - قوط غربية جديدة. بدأ الاندماج الإثني من خلال قانون الملك ليوفيغليد (568-586) المعروف باسم *Código de Leovigildo* أو *Codex Revisus* الذي سمح بالزواج المختلط للقوط الغربيين والرومان الإسبان. أما الاندماج الثقافي فقد بدأ مع المجلس الثالث في طليطلة (589) وتحول، في العام ذاته، الملك ريكارد ابن ليوفيغليد، مع شعبه من الآريوسية (بدعة مسيحية تعكس تعاليم القسيس آريوس) إلى الكاثوليكية التي كانت دين معظم الرومان من أصل إسباني. أشاد جوزيف كاردينال راتسينغر (البابا بنديكتوس السادس عشر لاحقًا) بمجمع طليطلة الثالث باعتباره علامة فارقة في اتحاد أوروبا بقوة روح القدس –الاتحاد أي المواطنين المسيحيين من الإمبراطورية الرومانية اللاتينية (الغربية) السابقة مع الأمم الشمالية التي استولت عليها-. في الواقع، أشار مؤرخون فرنسيون مثل جاك فونتين Jacques Fontaine وكريستين بيلستراندي Christine Pellistrandi إلى مقدار ما تدين به أوروبا في العصور الوسطى إلى إسبانيا القوط الغربيين[192].

ومع ذلك، غالبًا ما يتستر المؤرخون على تدمير الإسلام لإسبانيا القوط الغربيين – الإسبان. كثيرًا ما يُوصف الغزو الإسلامي بأنه جلب التنوير إلى أرض قاحلة ثقافيًا –ما يُسمى بالعصور الأوروبية المظلمة-. يصر العديد من المؤرخين على مدى ثقافة السكان الأصليين الرومان الإسبان إذا ما قورنوا بالقوط الغربيين "الهمجيين".

لا يهم أن علم الآثار الحديث قد أكد أن "عصور الظلام" كانت أقل ظلمة مما يُعلن عنه عادةً، وأنها كانت مستنيرة تمامًا إذا ما قورنت بالثقافة الإسلامية السابقة على الفتح العربي للشرق الأوسط وشمال إفريقيا[193]، أو أن إسبانيا كانت تحت السيطرة والتأثير الرومانيين لوقت أطول من أي أرض غربية خارج إيطاليا وأنها

أنتجت من الكتّاب والأباطرة اللاتين أكثر من أي مقاطعة رومانية أخرى، أو أن القوط الغربيين كانوا الأكثر رومانية بين الشعوب التي استولت عليها الإمبراطورية الرومانية اللاتينية وأنهم لعبوا دورًا هامًا في صنع الحضارة الغربية[194]، أو أن قادة القوط الغربيين تحدثوا اللاتينية وأنهم قضوا أجيالًا في الخدمة العسكرية والسياسية لروما، أو أن محاربي القوط الغربيين الذين قاتلوا جنبًا إلى جنب المحاربين الرومان كان دورهم حاسمًا في انتصار الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على الهون بقيادة أتيلا في معركة السهول الكاتالونية في 451، أو أن الكشوف الحديثة لعلم الآثار الحضري قد أكد على أهمية عمارة القوط الغربيين في إسبانيا، على تعدينها الرائع، على مدينتهم العظيمة ريكوبوليس Recópolis، على الطبيعة المبتكرة والتحويلية لثقافة القوط الغربيين وكيف قدمت أساس بناء أوروبا في العصور الوسطى[195]، أو أن قانون القوط الغربيين لم يكن أكثر وحشية من الشريعة الإسلامية أو اليهودية المعاصرة في العصور الوسطى، أو أن نساء القوط الغربيين تمتعن بدرجة من الاستقلالية في الفضاء العام ليست متاحة لامرأة مسلمة متزوجة حرة (مُحصّنة) بسبب القدر الأكبر من الاحتشام في حياة المحصّنة في إسلام العصور الوسطى، أو أن القوط الغربيين كان لديهم العديد من الملكات الإناث اللواتي لعبن أدوارًا سياسية مهمة في مملكة القوط الغربيين[196].

أيضًا، تم التغاضي عن أن قانون القوط الغربيين كان في وقته وثيقة رائعة جمعت ممارسات القوط الغربيين مع القانون الروماني والمفاهيم المسيحية، مما يثبت إرادة توجيهية للحد من سلطة الحكومة قبل قرون عديدة من ماجنا كارتا Magna Carta.(العناوين التالية في العنوان 1 من الكتاب الثاني تعطي فكرة عن هذا الانشغال بالحرية من قبل الحكم الاستبدادي. 2- السلطة الملكية وكذلك الشعب بأكمله يجب أن يخضعا لسيادة القانون. 3- لا يجوز لأحد أن يجهل القانون. 5- الطريقة التي يتوجب تقييد جشع الملك من خلالها)[197].

يختلف الغزو الإسلامي لإسبانيا في القرن الثامن نوعيًا عن ذاك العائد للقوط الغربيين في القرن الخامس. بمرور الوقت دخلت قوات القوط الغربيين إسبانيا التي تسيطر عليها الإمبراطورية الرومانية اللاتينية في 415 لمساعدة الرومان عسكريًا ضد أمم جرمانية مثل (الغاليسيين، آلانس والواندال) خدمت الإمبراطورية لأجيال وأصبحت رومانية ثقافيًا واعتبرت نفسها صاحبة الحق في وراثة الإمبراطورية. علاوة على ذلك، وعلى عكس المسلمين، لم يكن القوط الغربيون مدفوعين بإيمانهم الديني لغزو الأرض وإرغام أهلها على التحول، أو الإذعان ودفع ضريبة معينة "الجزية" بهدف إذلالهم وتذكيرهم بخضوعهم أو الموت[198]. في الواقع، لم يجعل القوط الغربيون من معتقدهم (الأريوسية، شكل من أشكال المسيحية التي اعتبرها المسيحيون الأرثوذكس بدعة) المعتقد المهيمن في الأرض،

تحولوا في النهاية إلى الشكل القائم والمُتبع من المسيحية، الكاثوليكية. أصبحت التناقضات واضحة في اللغة أيضًا: كان القوط الغربيون أقرب لغويًا إلى الرومان الإسبان؛ لأنهم تحدثوا لغة هندوأوروبية، وكذلك قادتهم وفي النهاية تبنى الناس بشكل عام شكل اللغة اللاتينية المستخدمة من قبل الجنود الرومان
والتجار(اللاتينية "المبتذلة" التي تطورت الإسبانية منها)، فرض الغزاة المسلمون لغتهم السامية الخاصة، العربية، كلغة مهيمنة على الأرض. كان القوط الغربيون، مثل الهندو أوروبيين، أقرب عرقيًا إلى الرومان – الإسبان، بينما لم يكن الغزاة العرب والبربر كذلك.

كل هذه العوامل جعلت من السهل بالنسبة للقوط الغربيين توحيد إسبانيا ثقافيًا.

"زاخرة بالكنوز":

بالرغم من الطاعون الأسود والجراد والجفاف والحروب الأهلية التي اجتاحت إسبانيا في السنوات التي سبقت الفتح الإسلامي[199]، ظلت مملكة القوط الغربيين الكاثوليكية تقدم نفسها على أنها أرض العجائب بالنسبة للغزاة البربر غير المتحضرين في القرن الثامن. تحكي سجلات المسلمين في العصور الوسطى عن دهشة المحاربين الإسلاميين إزاء روعة طليطلة، إشبيلية، قرطبة وميريدا ومدن القوط الغربيين الأخرى. تخبرنا تلك السجلات أيضًا أن نهب جيوش المسلمين لإسبانيا كان مُذهلًا. تؤكد السجلات المسيحية هذه الروايات، وكذلك الأدلة الأثرية من الكنوز التي دفنها المسيحيون قبل الفرار من الغزاة.

يروي تاريخ مسلم يُنسب إلى أبي جعفر القرطبي أن الكونت الخائن "Ylian" (يوليان، الاسم المُعتاد الذي يُطلق على اللورد الروماني اليوناني أوربانوس Urbanus) أغرى موسى بن نصير بغزو إسبانيا من خلال وصفها بأنها أرض "والأندلس عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجناب، منبجس بالأنهار الغزار والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجو والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه وصيفه على قدر من الاعتدال، وِسطة من الحال، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة.. وهون عليّ مع ذلك حال رجالها ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء، فشوق موسى إلى ما هناك.. إلخ"[200]. وبحسب القرطبي، أكد الزعيم المسلم طارق رواية يوليان عندما وجد بالقرب من طليطلة عاصمة القوط الغربيين "واحد وعشرون نسخة من التوراة، الإنجيل والمزامير بالإضافة إلى نسخة من سفر ابراهيم وأخرى من سفر موسى" (ربما سفر التثنية) وتتابع الرواية:

وقال ابن حيان: "وهذه المائدة المنوه باسمها المنسوبة إلى سليمان -عليه السلام- لم تكن له فيما يزعم رواة العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذاك

المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل، وتأنقت الأملاك في تفخيمها، يزيد الآخر منهم فيها على الأول، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات، وطار الذكر مطاره عنها، وكانت مصوغة من خالص الذهب، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد، لم تر الأعين مثلها، وبولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة إلا دون ما يكون فيها، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة، فأصابها المسلمون هناك، وطار النبأ الفخم عنها"[201].

طارق وغيره من القادة المسلمين ساعدوا أنفسهم في الحصول على "ثمار" غزوهم. يذكر القرطبي انه عندما ذهب موسى إلى دمشق لتقديم الولاء للخليفة أحضر معه "ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين، فأتى إفريقية، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك، يجر الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس، من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظهر، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي والمائدة المنوه بها، ومعها من الجواهر والذخائر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره"[202]. مثل هذا النهب والعبودية ورد ذكرهما في Christian *Chronica mozarabica* لعام 754 المكتوبة قبل عقود قليلة فقط من الغزو الإسلامي[203].

تؤكد العديد من الروايات الإسلامية هذا النهب المستفحل. حسب المؤرخ الحكم "وُجد في طليطلة حين فُتحت من الذخائر والأموال ما لا يُحصى، فمن ذلك مئة وسبعون تاجًا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر، وأصناف الحجارة الثمينة، ووجد فيها ألف سيف مملوكي، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف، ومائدة سليمان، وكانت من زمردة خضراء"[204]. يروي الرازي، أحد أوائل المؤرخين المسلمين عن إسبانيا الإسلامية، عن نهب "طليطلة" لم يكن ثمة مدن أو قلاع في إسبانيا وجدها طارق وأخذ جواهر أكثر وكنوزاً أعظم مما وجد في طليطلة[205]. يلاحظ الرازي أن جسرًا للقوط الغربيين فوق نهر تاجوس "كان مبنيًا على نحو جيد حتى إنه لم يكن ثمة شيء مثله في إسبانيا" وأن زعيمًا مسلمًا أمر بتدميره. وبحسب المؤرخ المقري، فقد أمر حاكم مسلم في أواخر عام 1145: وقال: وبيد صنم قادس مفتاح، ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون، وهو علي بن عيسى قائد البحر بها، ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه، فلم يجد شيئًا. انتهى"[206].

لا تشير كل هذه السجلات إلى جشع الغزاة المسلمين فقط، وإنما أيضًا إلى روعة مجتمع القوط الغربيين الذي ينبذه المؤرخون المعاصرون بوصفه بربريًا. وبالمثل يروي المؤرخ ابن القوطية أن "وتقدم موسى إلى مدينة ماردة، وكانت دار ملك في

سالف الأيام، وكانت فيها آثار عجيبة وقنطرة وقصور وكنائس تفتن الناظرين، وهي إحدى القواعد الأربع بالأندلس التي ابتناها أكتبان قيصر: وهي قرطبة وإشبيلية ومارِدة وطليطلة" [207]. (مرة أخرى، يؤكد علم الآثار إشارات مكتوبة كهذه إلى كنوز القوط الغربيين المدفونة). يكتب ابن القوطية أن المحاربين المسلمين بعد كل ما نهبوه أصبحوا مثقلين بالغنائم إلى درجة أنهم لم يلحظوا مجرد نسيج مطرز بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت. تروي أخبار مجموعة أنه في غارة على الجزيرة الخضراء، استولى موسى على سجناء وغنائم أكثر مما رآه من قبل[208].

حسب المؤرخ المسلم المقري، يصف مؤرخ مسلم القصر السابق للقوط الغربيين في قرطبة بأنه "قصر مليء تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى، صلى الله على نبينا وسلم، وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعجز الوصف"، يضيف المؤرخ: "وفي هذا القصر القصاب العالية السمو، المنيفة العلو، التي لم ير الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها"[209]. الناظرون المسلمون كانوا غالباً بربرًا من شمال إفريقيا، والذين شكلوا الجزء الأكبر من الجيوش الغازية والذين لم يتأملوا من قبل درجة مماثلة من الحضارة. "قصر القوط الغربيين هذا" يتابع المؤرخ "اختاره الخلفاء من آل مروان (حكّام إسبانيا الأمويين) مكانًا لإقامتهم".

يقول عمل منسوب لابن قتيبة الدينوري أن الغنائم الهائلة التي غنمها موسى لا تشمل العبيد والجواهر والمعادن النفيسة فقط وإنما أيضًا الآثار المسيحية. تصف هذه الرواية "طاولة رائعة مرصعة بالجواهر"، المهارة في الحرفة التي لم يرها المسلمون من قبل تتألف من "ذهب خالص وفضة مخلوطة مزخرفة بثلاثة صفوف من الجواهر لا تقدر بثمن، أولها من اللؤلؤ الكبير والثاني من الياقوت والثالث من الزمرد"[210]. يستنتج الكاتب المسلم "لا يمكن تصور شيء أكثر جمالًا أو ثراءً". هذه الطاولة، كما سماها الغزاة المسلمون -والتي حملوها بعيدًا بعد نهبهم الهائل لطليطلة- ربما كانت جزءًا من أثاث المذبح في كاتدرائية المدينة العظيمة وفوقها ربما كانت الأناجيل تستريح حين لم تكن تُقرأ على الجموع[211].

يكشف المؤرخ ابن الفرضي مآل آثار مسيحية أخرى "قيل لي من قبل أبو محمد الثغري (كذا) إن قرقشونة Carcassone هي مدينة تبعد خمسة وعشرين ميلًا عن برشلونة وإن المسلمين حين فتحوها وجدوا كنيسة رائعة كان المسيحيون يسمونها سانتا ماريا وكان فيها سبعة أعمدة من الفضة المكثفة، مصنوعة بطريقة جميلة جدًا لدرجة أنه لا توجد عين بشرية على الإطلاق قد رأت مثلها، وإن أبعادها كانت ضخمة جدًا لدرجة أن الرجل بالكاد يمكنه أن يحيط بها دون أن يمد ذراعيه"[212]. بعد الفتح الإسلامي، اختفى كل ذلك.

على حد قول ابن عذاري المراكشي، عندما عاد موسى [213]بكل هذه "الثروة التي لا تعد" أذهل أهالي البلدان التي مر من خلالها بالكنوز الهائلة التي حملها، كنوز لم يسمع عنها أحدٌ من قبل ولا رأى ناظر مثلها.

يعارض سرد موسى الخاص عن القوط الغربيين التصوير المبسط لهم كبرابرة، عندما سأله سيده سليمان عن طبيعة الناس في إشبان (أي إسبانيا: الاسم الإسلامي الأندلس لم يكن قد اكتسب بعد رواجًا عامًا بين المسلمين) أجاب موسى: أسدُ في حصونهم، عقبان على خيولهم، ونساء في مراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غلبة فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عارًا. قال فأخبرني عن البربر: قال هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرًا وفروسية، غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد. قال فأخبرني عن الأندلس: قال: ملوك مترفون وفرسان لا يخيبون، قال فأخبرني عن الإفرنج، قال: هناك العدد والعدة والجلد والشدة والبأس والنجدة. ثم دعا بطست من ذهب، فجعل يردد بصره فيه، فقال له موسى: إنك لتعجب من غير عجب، والله ما أحسب أن فيه عشرة آلاف دينار، والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتنور من زبرجد أخضر، كان يصب فيه اللبن فيخضر، وترى فيه الشعرة البيضاء، ولقد قوّم بمئة ألف مثقال، وإنه لمن أدنى ما بعثتُ به غليه، ولقد أصبتُ كذا وأصبتُ كذا، وجعل يعدد ما أصاب من الدر والياقوت والزبرجد حتى بهت سليمان من قوله. وقال الليث بن سعد: لما قدم موسى بن نصير إفريقية حين الفتح أخرج ابنًا له يسمى إلى بعض نواحيها فأتاه بمئة ألف رأس من السبي، أكثرهن وجوه كالبدور، ثم خرج هو نفسه فأتى بنحو ذلك. قال الليث: فلم يُسمع بمثل سبايا موسى في الإسلام".

لقد أوضح المؤرخ مانويل رينكون ألفاريز Manuel Rincón Álvarez التناقضات بين الجيوش الإسلامية الغازية الهمجية وبين الشعوب التي غزوها:

كان الحشد من شمال إفريقيا (الذي غزا إسبانيا) بربريًا على وجه الإجمال، محبًا للحرب، نهمًا للغنائم لكن قدرته على استيعاب الثقافة ضعيفة وحتى معدومة كما يفتقر إلى القدرة على التفاعل مع السكان الأصليين. ضمن ذاك الحشد كان هناك الشرقيون، أقلية عربية تتمتع بتكوين ثقافي أكبر لكنهم مدفوعون بنفس الحماس إلى الجهاد أو الحرب المقدسة، لكن بين هؤلاء البدو من الصحراء نادرًا ما يجد المرء أشخاصًا يعرفون القراءة والكتابة، عند السكان الأصليين تقبع رواسب الحضارة الرومانية والازدهار الإيسيدوري, وحتى لو أدركنا أن هذه كانت ثقافة النخبة، إلا أنها أنتجت موسوعات مثل *Liber Glossarum* ولا تزال باقية ثمار المدارس العلمية في إشبيلية وطليطلة، من بين الكثير من الأمثلة الثقافية من ذلك الوقت. إن تبخيس المستوى الثقافي لإسبانيا ما قبل الإسلام عام 711 هو في الوقت نفسه تجاهل ما قبله، ألا وهو اندماج العنصر الروماني

الإسباني مع المكون القوطي الغربي. قد يكون من غير الضروري أن نذكر أن السكان الأصليين في إيبيريا قد وصلوا إلى مستوى عالٍ من الرومنة[214].

لسنوات بعد غزوهم إسبانيا استمر الغزاة البربر في عيش حياة بدائية بدوية مصطحبين معهم أينما ذهبوا العديد من زوجاتهم وأطفالهم. وبحسب المؤرخ ابن العبار، كان الأموي عبد الرحمن الأول، أمير قرطبة، من جعلهم يبنون القرى ويعيشون حياة مستقرة[215].

تأثير الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية ومملكة القوط الغربيين على الحضارة الإسلامية:

في الواقع، عادةً ما تُنسى سنوات شبه البربرية الإسلامية في إسبانيا من قبل أولئك الذين يركزون على روعة خلافة قرطبة (929-1031)، لكن هذه الروعة ذاتها كانت ناجمة، من ناحية، عن تصاعد أسلمة الإسبان – الرومان والقوط الغربيين الأكثر ثقافة الذين ظلوا تحت الحكم الإسلامي، ومن ناحية ثانية، عن استيعاب الإسلام الإسباني لجوانب معينة من حضارة الإسبان - الرومان والقوط الغربيين واليونانيين المسيحيين.

المؤرخ العظيم ابن خلدون كان قد أكد على المستوى الثقافي المتدني للعرب المسلمين قبل أن يتحضّروا من قبل الإغريق والفرس: "وأما من كان معاشهم في الإبل، فهم أكثرُ ظعناً وأبعد في القفر مجالًا؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة، والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فرارًا من أذى البرد، إلى دفء هوائه وطلبًا لماخض النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فصالًا ومخاضًا وأحوجها في ذلك إلى الإبل، فاضطروا إلى إبعاد النُّجعة، وربما ذادتهم الحامية عن الطلول أيضًا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم، فكانوا لذلك أشد الناس توحشًا. وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه، والمفترس من الحيوان العُجم".[216]. يكتب ابن خلدون أيضًا: "وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائمًا يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويجافون عن الهجوع إلا غرارًا في المجالس، على الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبآت والهيعات، ويتفردون في القفر، والبيداء مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، وقد صار لهم البأس خلقًا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ". [217] الجاحظ لاحظ أيضًا أنه "من "الساسانيين" الفرس استعرنا قواعد الحكم والمملكة، تنظيم الشؤون الخاصة والعامة وإدارة المواد".[218]

لاحظ ابن خلدون أن الحضارة الوحيدة التي تعلم منها العرب غير المتعلمين العلوم، بعد تدميرهم لعلوم الفرس والحضارات الأخرى، كانت الحضارة الإغريقية بفضل ترجمات العلماء المسيحيين للنصوص الإغريقية إلى السريانية ومن ثم إلى العربية[219]. يسجل ابن خلدون أيضًا أن الخليفة المنصور طلب من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية اليونانية الأعمال الرياضية لليونانيين[220]. بالطبع كان اليونانيون القدماء قد اكتشفوا وطبقوا الخوارزميات ("الخوارزمية الإقليدية"، "غربال إراتوستينس"، والجبر(ديوفانتوس)[221]، على الرغم من أن الفارسي المسلم الخوارزمي (نحو 780-850 تقريبًا، كان يعمل في بغداد في بيت الحكمة حيث تُرجمت الأعمال العلمية والفلسفية لا سيما اليونانية إلى العربية) قد يكون حصل على فكرة الخوارزمية، من بين أشياء أخرى، بما في ذلك الأرقام "العربية"، من عالم الرياضيات الهندي براهماغوبتا "Brahmagupta" في القرن السابع، لكن عالم الرياضيات العظيم جورج كانتور رأى "آثارًا لطرق ديوفانتين" حتى في "الحلول الهندوسية للمعادلات المحددة" كما أشار مؤرخ الرياضيات فلوران كاجوري Florian Cajori إلى أن "بعض المصطلحات الهندوسية التقنية تخون أصلها اليوناني"[222]. يُظهر كاجوري أيضًا أن الهندوس يستندون إلى فيثاغورس[223]. جورج سارتون George Sarton أستاذ تاريخ العلم في جامعة هارفارد كتب أنه لا شيء في تاريخ العلم يُقارن بـ"بصيرة" إقليدس في إدراك أن مسلمته الخامسة كانت تحتاج إلى برهان لكن هذا البرهان مستحيل[224]. بسبب هذا الإدراك، سُمي إقليدس (نحو 300 قبل الميلاد) بـ"السلف الروحي" للهندسة غير الإقليدية لنيكولاي إيفانوفيتش لوباتشيفسكي (1792-1856). كتب سارتون أيضًا أن لا شيء يمكن مقارنته بالميكانيك الرياضي لأرخميدس (287-212 قبل الميلاد) لغاية عمل غاليليو (1564-1642) بعد ثمانية عشر قرنًا. يذكر المؤرخ اليوناني ثيوفانيس المعرف Theophanes the Confessor (توفي 818) في الكرونوغرافيا التي كتبها أن الخليفة الوليد الأول (توفي 715) طلب من البيروقراطيين المسيحيين الذين خدموه الاحتفاظ بكل التقارير "بالعربية بدلًا من اليونانية عدا الأكثر تعقيدًا منها التي تتجاوز إمكانيات اللغة العربية"[225].

لم تكن أكثر الجامعات "الإسلامية" مدعاة للتباهي في العصور الوسطى في الواقع سوى مدارس *madrasas* مراكز لتدريس النصوص الدينية والقانون. فقط بعد أن أصبح العرب على اتصال بمؤسسات التعليم العالي للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية خلال فتوحاتهم أن بدأت المدارس بتدريس مواد أخرى أيضًا، لكن الدرجة الوحيدة الممنوحة بقيت تلك المتعلقة بالخبرة في النصوص الدينية: "لم تكن هناك دكتوراة أخرى في أي حقل آخر، ولا إجازة "ليسانس" لتعليم حقل آخر عدا الشريعة الإسلامية"[226].

قام ديمتري غوتاس Dimitri Gutas وعلماء آخرون بفحص ظاهرة "الفكر اليوناني، الثقافة الإسلامية". خير مثال على ذلك هو الطب. في عام 854 قام النسطوري المسيحي ستيفانوس بترجمة الأعمال الطبية لديسقوريدوس Dioscorides إلى العربية. استخدم المسلمون هذه الترجمة كنص طبي لهم لأكثر من قرن. في عام 948 أعطى الإمبراطور المسيحي للإمبراطورية الرومانية اليونانية، أرمانيوس، إلى عبد الرحمن الثالث، الحاكم الأموي لقرطبة، أعمال ديسقوريدوس باللغة اليونانية الأصلية، لكن لم يكن بين المسلمين في قرطبة من يعرف اليونانية. نتيجة لذلك، أرسل الإمبراطور الروماني أيضًا راهبًا يونانيًا ليدّرس عبيد الحاكم المسلم باليونانية[227]. لا يتعلم المرء عن مثل هذه القصص في العديد من الكتب المدرسية وكتابات أخرى عن إسبانيا المسلمة، كما لا يتعلم المرء عن المعرفة العلمية الهائلة بما في ذلك المعرفة الطبية الجالينوسية، التي وقعت بين يدي المسلمين إبان الغزو العسكري للإسكندرية اليونانية المسيحية في 642[228]. على هذه الأعمال سيبني الأطباء المسلمون سمعتهم لاحقًا في المجال الطبي. وبحسب ابن خلدون، فإنه في وقت متأخر من الغزو الروماني اليوناني اليوناني لمصر في 641 كان الخليفة عُمر (الذي أصبح الخليفة الثاني في 634 بعد عامين من وفاة مُحمد وبعد وفاة الخليفة أبو بكر) لا يزال يحرم المسلمين من الإبحار في البحر بسبب "إني رأيتُ خَلقًا كَبيرًا يَركَبُهُ خَلقٌ صغير، إنْ رَكدَ حَرقَ القلوبَ، وإنْ تَحرّكَ أراعَ العقولَ، تَزدادُ فيه العقولُ قِلّةً والسيئاتُ كَثرةً، وهُم فيهِ كَدُودٍ على عودٍ، إنْ مَالَ أغرق، وإنْ نجا فَرَّق"[229].

المستعرب الإسباني خوليو سامسو Julio Samsó أظهر أنه حتى في وقت متأخر من القرن الحادي عشر كان العلماء المسلمون في الأندلس لا يزالون يتمثلون علم الكلاسيكيات اليونانية الرومانية وكذلك الثقافة اللاتينية لأهل الذمة المسيحيين "المستعربين"[230].

تمثل الإسلام المتكرر للسمات التجريدية لفن الحضارات الأخرى تدعمه دراسات مؤرخ الفن Basilio Pavón Maldonado التي تحاجج أن "الفن الإسباني الإسلامي ينبثق في معظمه من فن الرومان، المسيحيين القدماء، البيزنطيين والقوط الغربيين"[231]. كما أشار مؤرخ فني آخر، Isidro Bango Torviso، أن فن إسبانيا الإسلامية كان نتيجة "عطالة فن العصور القديمة المتأخرة المُنجز في ظل الهيمنة الإسلامية"[232].

في النهاية، استفاد ازدهار الفن الإسلامي في إسبانيا من السمات التجريدية للفن الإسباني – الروماني - القوطي الغربي. على نحو بات معروفًا، تبنى المسلمون قوس حدوة الحصان الذي يعود للقوط الغربيين كما هو ظاهر في كثير من البناء الإسلامي. كان القوس نفسه بالطبع من أصل يوناني روماني[233] وحتى قبل فتح إسبانيا كان الإسلام قد قلد تقنيات البناء والهندسة المعمارية

للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا[234]. وبالفعل، أشار ابن خلدون إلى أن الإنشاءات التي بناها العرب أنفسهم في شمال إفريقيا لم تعمر طويلًا بسبب إهمالهم، والمواد السيئة التي استخدموها، وافتقارهم إلى المعرفة بتقنيات البناء[235]. من بين العديد من الأمثلة الأخرى، أشار Bango Torvisoإلى أن *ventana bífora* (التي يُطلق عليها عادة اسمها المُشتق من العربية *ajimez* ; وهي نوع من النوافذ ذات فتحتين مقسمة عموديًا إلى نصفين متساويين بواسطة عمود رفيع) هي في الواقع إبداع روماني استُخدم على نطاق واسع في إسبانيا الإسبانية - القوطية قبل وقت طويل من الغزو الإسلامي[236]. الصناعات اليدوية الإسلامية ذائعة الصيت مثل الجلود، كانت موجودة قبل الغزو، مع وجود قرطبة ما قبل الإسلام كمصّدر إلى أوروبا[237].

الشعر الغنائي الشعبي (الخرجة الشهيرة في إسبانيا الإسلامية) كان شائعًا جدًا بين المسيحيين الإسبان - القوطيين الذين يعيشون مثل أهل الذمة (المستعربين) في ظل الإسلام ومن ثم أُدرج كمقطع نهائي في الشعر العربي الكلاسيكي للموشح، لكن الموشح أيضًا كان شكلًا شعريًا مُستحدثًا، حسب ابن خلدون، من قبل شاعر من أهل الذمة (مستعربي) وبالتالي ذي نسب مسيحي Muccadam de Cabra يعود للقرن العاشر[238].

يقدم مسجد قرطبة الشهير مثالًا جيدًا بشكل خاص عن كيفية دمج المسلمين للفن الإسباني والروماني والقوطي في أعمالهم. في قرطبة الإسلامية التي يسودها التسامح، هدم عبد الرحمن الأول كنيسة سان فنسنت المسيحية الفخمة ليبني مسجده فوقها[239]. (ربما وفقًا لعدالة شعرية، حوّل الملك فرديناند الثالث المسجد إلى كنيسة كاثوليكية في 1236: هي الآن كاتدرائية قرطبة، على الرغم من أن السياح والمرشدين السياحيين والعديد من الإسبان وحتى العلماء لا يزالون يسمونه، خلافًا للواقع، مسجد قرطبة). استخدم الفاتحون المسلمون واجهة كنيسة سان فنسنت واجهة لمسجدهم. وفككوا أيضًا أعمدة ومواد بناء أخرى من الكنائس الإسبانية - الرومانية – القوطية. وتبنوا تقنية رومانية (*opus vittatum mixtum*) في تعاقب الطوب الأحمر والحجر الأبيض في الأقواس، هذا النمط التعاقبي لا يزال مرئيًا اليوم في بعض القنوات الرومانية في إسبانيا مثل Milagros*los* de*Acueducto* في ميريدا. قلدت أقواس المسجد التي اتخذت شكل حدوة حصان الأقواس الرومانية اليونانية. أخيرًا، كانت فسيفساء المسجد من صناعة يونانية[240].

ولع المسلمين بدمج عناصر الثقافات المُستولى عليها يشرح أيضًا "ثقافة الاستحمام" في جنوب إسبانيا التي اعتبرها العديد من العلماء ابتكارًا إسلاميًا. في الواقع، ثقافة الماء والاستحمام الرومانية اليونانية كانت جزءًا من الحياة الرومانية الإسبانية في جنوب إسبانيا ذات المناخ المتوسطي الدافئ. ورث القوط

الغربيون ثقافة الاستحمام التي استولى عليها المسلمون من الجزيرة العربية بسعادة عندما واجهوها.

ومع ذلك، لم يُظهر الإسلام في العصور الوسطى اهتمامًا بجميع جوانب الحضارة الرومانية اليونانية: ظل الإسلام مُعاديًا للفن الكلاسيكي، للدراما والسرد. علاوة على ذلك، كما رأينا في الفصل الأول، في وقت مبكر من الفتوحات الإسلامية كان هناك تدمير متعمد لآثار الماضي ما قبل الإسلامي. وفي إسبانيا يخبرنا المؤرخ الأندلسي أن حكامًا مثل الأموي عبد الله (888-912) والطاغية محمد ابن أبي أمير المنصور (938-1002 المعروف لدى المسيحيين باسم Almanzor) كان لديهم كتب ثمينة من الشعر اللاتيني والإغريقي القديم، المعاجم، التاريخ، الفلسفة والقانون التي أمروا بحرقها بسبب محتواها الأثيم المفترض[241].

تأثير الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في مملكة القوط الغربيين:

في الواقع، كان ثمة ثقافة إسبانية – رومانية - قوطية رائعة موجودة بالفعل في إسبانيا لحظة وُلد الإسلام في شبه الجزيرة العربية بين البدو والخيام والأغنام والجِمال (لم تدخل الخيول الثقافة إلى أن سرقها العرب خلال غاراتهم على الإمبراطورية الفارسية). كانت هناك ثروة من الموسيقى المقدسة. كان هناك رجال متعلمون مثل القديس لياندر Leander (الذي عاش في الإمبراطورية الرومانية اليونانية لعدد من السنوات وترأس مجلس توليدان الثالث في إسبانيا القوطية والاتحاد الديني للإسبان والرومان والقوطيين)، الأسقف يوجين Eugene من طليطلة (الخبير في الرياضيات والفلك)، كونانتينوس من بلنسية (الخبير في الموسيقى)، والملك الشاعر سيسبوت Sisebut (الذي كتب قصيدة فلكية باللاتينية). في مدينة إشبيلية، رئيس الأساقفة الكاثوليكي، القديس إيسيدور Isidore (560-636) كتب دراسات لغوية (*Differentiarum libri*) وأطروحات في العلوم الطبيعية وعلم الكونيات (*De natura* reruand *De ordin*e creaturarum) والسير الذاتية لشخصيات الكتاب المقدس (*Sententiarum libri*)، أعمالًا تاريخية، ومختصرًا للحضارة اليونانية الرومانية (مثل *Historia gothorum*و*Etimologiae*). أصبح القديس إيسيدور من إشبيلية الكاتب الأكثر اقتباسًا في العصور الأوروبية الوسطى المتأخرة، امتدحه دانتي في الكوميديا الإلهية *Divina Commedia* (*Paradiso* X, 130)[242].

تؤكد الدراسات الأثرية الأخيرة التأثير الثقافي الواضح للحضارة الرومانية اليونانية المسيحية على إسبانيا القوطية. بيدرو مارفيل Pedro Marfil أستاذ الآثار والفنون في جامعة قرطبة، عاين كنيسة القديس فنسنت التي دمرها عبد الرحمن الأول ليبني فوقها مسجد قرطبة. يكشف عمل مارفيل عن وجود تقنيات رومانية يونانية مسيحية (بيزنطية، شرقية) وحتى المواد المستخدمة في ترميم

الكنيسة في القرن السابع الميلادي[243]. الحفريات الأثرية في أنقاض مدينة ريكوبوليس Recópolis الأثرية (بالقرب من Zorita de los Canesفي إقليم Guadalajara) التي بناها ليوفيغليد ملك القوطيين أظهرت تقليدًا طبوغرافيًا للقسطنطينية، ووجود قناة مائية، كاتدرائية عظيمة (من المحتمل أن تكون تقليدًا لكنيسة آيا صوفيا اليونانية المسيحية في القسطنطينية)، مراكز تجارية وسكنية، شوارع مرصوفة، عملات معدنية مُصنعة، مبانٍ قوية مُشيدة بالحجارة المستخرجة بالتقنيات الرومانية من المحاجر المحلية، وغيرها من الميزات المرتبطة عادة بازدهار المدن الرومانية اليونانية[244]. حفريات في طليطلة القوطية أظهرت على نحو مماثل أن التخطيط القوطي لطليطلة قد قلد بشكل واعٍ ميزات القسطنطينية الرومانية اليونانية[245].

وبالمثل فإن استمرارية نظام القنوات الروماني تحت حكم القوطيين، قد جرى توضيحه، من بين أمور أخرى، من قبل عالم الآثار Javier Martínez Jiménezخافيير مارتينيز جيمينيز والمؤرخ لويس أ غارسيا مورينيو[246]. في أطلال القوطيين في ميريدا، أشار عالم الآثار Miguel Alba Calzado إلى وجود حمامات تجارية خاصة وقناة لتزويدها بالماء. وفي قرطبة استفاد الفاتحون المسلمون من وجود قناة القوطيين كما أشار إلى ذلك عالم الآثار Rafael Hidalgo [247]Prieto.

كل هذه الإنجازات المعمارية والتقنية غير عادية بالنظر إلى الفترة القصيرة من هيمنة القوطيين وخصوصًا الطبيعة المضطربة لسيطرتهم على الأرض خلال السنوات العديدة من العصيان والحرب الداخلية التي سبقت تداعي القوة الرومانية في إسبانيا وتلتها على الفور.

في إسبانيا القوطية، كما كان الحال في باقي أوروبا المسيحية كانت الكلاسيكيات جزءًا من التعليم اعتبارًا منذ أوائل العصور الوسطى (التي تُسمى العصور المظلمة) في Trivium وQuadrivium لتعليم الفنون الليبرالية. يلاحظ Jan Ziolkowski يان زيولوسكي أستاذ اللغة اللاتينية في العصور الوسطى في جامعة هارفارد أنه في إسبانيا القوطية "كان الرهبان ورجال الدين متأصلين في الأدب الكلاسيكي كجزء من استعدادهم لاستخدام اللاتينية التوراتية، الترانيم التوراتية واللاتينية الشعائرية (الليتورجية) وتوظيف اللاتينية الشفهية نصف الحية التي دمجت المكونات الكلاسيكية والتوراتية مع العديد من المكونات الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، درسوا الكلاسيكيات من أجل التوفيق بينها وبين العقيدة المسيحية"[248].

يكتب باحث آخر في اللغة اللاتينية في العصور الوسطى، Dag Norberg: "انعكست أصالة ثقافة القوطيين في دور القواعد والبلاغة. لقد عاش البرنامج

التعليمي القديم هناك، درس الأساقفة المتعلمون الشعر القديم، على سبيل المثال، دون الاشمئزاز الذي شعر به العديد من المسيحيين الآخرين الذين كانوا يدرسون أدبًا مليئًا بالعناصر الوثنية"[249]. كما رأينا في الفصل الأول، الشاعر واللاهوتي القوطي، Theodulf ثيودولف كان مثقفًا جدًا في شعر أوفيد وفرجيل، وبعد فراره من إسبانيا أصبح أحد مؤسسي عصر النهضة الكارولنجية.

الكنائس العظيمة، الجسور العملاقة، القنوات العظيمة –كل ملامح الحضارة الإسبانية – الرومانية - القوطية أذهلت البربر، إن لم يكن قادتهم العرب، الذين كان بعضهم ربما عُرضة بالفعل لحضارة متفوقة خلال غزوهم للشرق الأوسط الروماني المسيحي اليوناني وشمال إفريقيا. تعجب الغزاة من الطرق الرومانية التي كانت لا تزال تجتاز إسبانيا بكل طولها[250]. اعتبروا إشبيلية القوطية، حيث عاش القديس إيسيدور "دارًا للعلوم"[251]. تعجبوا من الأعمال الهندسية التي لم يروها قط من قبل، مثل قناة Cádiz قادش الرومانية التي (حسب أحد المؤرخين المسلمين) كانت تنقل المياه العذبة من نبع في إقليم الأصنام إلى جزيرة Cádiz، عابرة ذراع المحيط "ومن ذلك ما صنعه الأوُل أيضًا من جلب الماء في البحر المحيط إلى جزيرة قادس من العين التي في إقليم الأصنام، جلبوه في جوف البحر في الصخر المجوف ذكرًا في أنثى وشقوا به الجبال، هكذا إلى أن انتُهي به إلى البحر، ثم دخل به في البحر، وأُخرج في جزيرة قادس" وقناة تاراغونا Tarragona الرومانية "منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحي التي بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به، وذلك من أعجب ما يكون" [252]. كما تعجبوا من وفرة أشجار الزيتون في الأرض[253].

كانت هذه هي الثقافة التي دمرها الفاتحون المسلمون. من خلال غزوها لمملكة القوط الغربيين في إسبانيا وسيطرتها في نهاية المطاف على البحر الأبيض المتوسط، قطعت الإمبراطورية الإسلامية إسبانيا المسيحية -فعليًا أوروبا المسيحية- عن اتصالها المباشر السابق مع علوم الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية وطبها وفنها وأدبها. كانت هذه أطروحة المؤرخ البلجيكي الكبير هنري بيريني Henri Pirenne التي سيتم فحصها أدناه[254].

التعتيم على التأثير المسيحي اليوناني الروماني:

كان العلماء المسلمون هم حفظة العلم والفلسفة اليونانية الرومانية خلال العصور المظلمة الطويلة في أوروبا في العصور الوسطى، وهي الحقبة التي كان الحكام العرب يتبحرون فيها، حسب تعبير المؤرخ فيليب حتي، في التقنيات اليونانية والفارسية "بينما كان شارلمان وأمراؤه منخرطين في بناء أمجادهم الخاصة".

جين دبليو هيك Gene W. Heck، *When Worlds Collide: Exploring the Ideological and Political Foundations of the Clash of Civilizations* (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2007), 29.

التأكيد المتكرر أن الإسلام حافظ على المعرفة الكلاسيكية ومن ثم نقلها بكرم إلى أوروبا لا أساس له من الصحة. النصوص اليونانية القديمة والثقافة اليونانية لم "تضع" قط "لاستعادتها" بطريقة أو أخرى و"نقلها" من قبل العلماء المسلمين كما يكتب العديد من المؤرخين الأكاديميين والصحفيين: كانت هذه النصوص موجودة دائمًا، محفوظة وتُدرس من قبل الرهبان والعلماء العلمانيين للإمبراطورية الرومانية اليونانية وانتقلت إلى أوروبا والإمبراطورية الإسلامية في أوقات مختلفة[255]. كما يشير مايكل هاريس Michael Harris في كتابه تاريخ المكتبات في العالم الغربي:

الكتابات العظيمة للعصر الكلاسيكي، لا سيما الخاصة باليونانيين، كانت مُتاحة دائمًا للبيزنطيين والشعوب الغربية في الاتصال الثقافي والدبلوماسي مع الإمبراطورية الشرقية.. من الكلاسيكيات اليونانية المعروفة اليوم، خمسة وسبعون بالمئة منها على الأقل معروفة من خلال النسخ البيزنطية.

كما ذكّرنا المؤرخ جون جوليوس نورويتش John Julius Norwich أيضًا بأن "الكثير مما نعرفه عن العصور القديمة -خصوصًا الأدب اليوناني والروماني والقانون الروماني- كان يمكن أن يضيع إلى الأبد لولا علماء وكتبة القسطنطينية".

المثقفون المسلمون الذين عملوا كدعاة للخليفة المأمون (نفس الخليفة الذي بدأ محاكم التفتيش الإسلامية لمواجهة العقلانية التي بدأت تتسلل إلى الإسلام لدى الاتصال بالمعرفة اليونانية)[256] مثل الجاحظ (توفي 868) أكدوا بشكل متكرر أن المسيحية منعت الروم (الرومان أي سكان الإمبراطورية الرومانية اليونانية) من الاستفادة من المعرفة الكلاسيكية[257]. لا تزال هذه الدعاية تتكرر من قبل هؤلاء المؤرخين الغربيين الذين ليسوا فقط متحيزين ضد المسيحية وإنما أيضًا استثمروا مهنيًا في كثير من الأحيان في حقل الدراسات الإسلامية والتأثير الثقافي الإسلامي[258]. التفجع على نهاية دراسة الفلسفة القديمة والعلم عند الإغلاق المفترض للأكاديمية الأفلاطونية الأثينية المحدثة من قبل الإمبراطور جوستنيان الأول في 529 هو جزء من هذه الرواية[259]. ومع ذلك، فهذه الدعاية لا تنسجم مع الوقائع كما أظهر سبيروس فريونيس Speros Vryonis وآخرون، وكما ثبت من خلال الحفاظ على المعرفة اليونانية القديمة واستخدامها من قبل مسيحيي إمبراطورية الإغريق.

كان الإغريق المسيحيون أنفسهم واعين لتفوق حضارتهم الخاصة كما للدعاية الإسلامية القروسطية ضدها. وهكذا عندما أرسل الإمبراطور الروماني اليوناني في القرن التاسع القديس كيرلس (المولود في القسطنطينية)، الرسول إلى السلافيين، في سفارة إلى العرب، أذهل مضيفيه المسلمين بمعرفته بالفلسفة والعلم وكذلك اللاهوت. تروي المؤرخة ماريا مافرودي Maria Mavroudi:

عندما سُئل كيف قُيض له أن يعرف كل ما عرفه، أقام "كيرلس" تناظرًا بين رد فعل المسلمين على سعه معرفته وتفاخرِ شخص احتفظ بماء البحر في زق خمر وتباهى بامتلاكه سائلًا نادرًا. قابل أخيرًا شخصًا من منطقة مجاورة للبحر، والذي أوضح أن شخصًا مجنونًا فقط من يتفاخر بمحتويات زق الخمر، بما أن الناس في وطنه يمتلكون وفرة لا نهاية لها من ماء البحر. المسلمون يشبهون الرجل صاحب زق الخمر، بينما يشبه الإغريق الرجل من المنطقة البحرية؛ لأنه تبعًا لخاتمة القديس الملحوظة في إجابته "أن كل التعليم منبثق من الإغريق"[260].

في الغرب، كان العديد من أعمال أرسطو متاحًا للعلماء الروم الكاثوليك في العصور الوسطى بالترجمات اللاتينية من اليونانية التي يعود تاريخها إلى بوثيوس في القرن السادس وماريوس فيكتورينوس في القرن الرابع. يذكّرنا تاريخ كولومبيا للفلسفة الغربية أنه، بحلول نهاية القرن الثاني عشر، "كان مؤلفو الغرب اللاتيني ضليعين تمامًا بالأعمال المنطقية لأرسطو "*Organon*[261]". كما أظهر المؤرخ SylvainGouguenheim سيلفان غوغنهايم، لم يكن علماء العصور الوسطى بحاجة إلى ترجمات أرسطو من العربية إلى اللاتينية[262]، مع الترجمات التي تمت في دير مونت سان ميشيل Mont Saint-Michel. علاوة على ذلك، نعلم أن القديس توما الإكويني قرأ أرسطو مترجمًا مباشرة من النصوص اليونانية إلى اللاتينية من قبل William of Moerbeke وليم الموربيكي (1215-1286) دومينكاني كان أسقفًا لاتينيًا لكورينثوس (أي، أسقفًا رومانيًا كاثوليكيًا لمدينة ذات غالبية مسيحية يونانية أرثوذكسية. أنجز ويليام أكثر من خمس وعشرين ترجمة لأرسطو، بالإضافة إلى ترجمات لأرخميدس، بروكلوس، بطليموس، جالينوس والعديد من المفكرين اليونانيين الآخرين. في الواقع، كما سيظهر، كان العلماء المسيحيون هم المسؤولون عن نقل المعرفة اليونانية إلى الإسلام، وهذه المعرفة جاءت إلى الإسلام فقط لأن القوات المسلمة غزت مناطق (الشرق الأوسط وشمال إفريقيا) تطورت فيها حضارة مسيحية يونانية ثرية[263].

تمتع العلماء الغربيون بالترجمات المباشرة من اليونانية على النقيض من الترجمات المنقولة مرتين المستخدمة من أمثال القرطبي ابن رشد "Averroes" والفارسي ابن سينا "Avicenna باللاتينية من اليونانية Αβιτζιανος" التي كانت ترجمات عربية قدمها علماء مسيحيون من ترجمات سريانية قدمها أيضًا علماء مسيحيون من تلك النصوص اليونانية الكلاسيكية المحفوظة من قبل العلماء

اليونانيين للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية[264]. هذه الواقعة لا يغيرها ادعاء التأثير على أوروبا من قبل المفسرين المسلمين لأرسطو الذين لم يقرأه باللغة اليونانية الأصلية ولكن من خلال ترجمات قدمها مسيحيون من اليونانية إلى السريانية ثم من السريانية إلى العربية. كما توضح قصة قصيرة كتبها خورخي لويس بورخيس "La busca de Averroes"، إن هذه القراءة عبر وسيطين لمثل هذه النصوص الفنية والصعبة من قبل ثقافة مختلفة كهذه وفي لغة مختلفة كهذه لا بد أن تؤدي بالضرورة إلى سوء فهم أرسطو.

يجب التأكيد على الاستمرارية بين الحضارة الرومانية اليونانية والإرث الكلاسيكي لأنها تؤثر على كل من الحضارتين المسيحية والإسلامية. ومع ذلك، تخفي كلمة *Byzantine* هذه الاستمرارية. إنها كلمة ليس لها ما يبررها لتعريف سكان الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في العصور الوسطى أكثر مما تُعرّف كلمة *Indian*هندي سكان الأمريكيتين في القرن السادس عشر أو أكثر مما تُعرّف كلمة *Iberia* إيبيريا (أصبحت الآن معتمدة عالميًا بين الإخصائيين في العالم الأكاديمي الناطق بالإنجليزية) إسبانيا في العصور الوسطى. إن كلمة هندي هي خطأ لاإرادي ناجم عن نقص حتمي في المعرفة عن قارة موجودة، لكن كلمتي *Byzantine* و*Iberia* هي بُنى أكاديمية صورية ناجمة عن الأيديولوجيا. تمامًا مثلما لم يكن سكان إسبانيا في العصور الوسطى يسمون أنفسهم "إيبيريين" وإنما مسيحيين، أو إسبانًا أو مسلمين "انظر الفصل الأول"، أو أن سكان الأمريكتين لم يكونوا يسمون أنفسهم "هنودًا"، كذلك السكان الناطقين باليونانية للإمبراطورية الرومانية اليونانية لم يسموا أنفسهم أبدًا "بيزنطيين" وهو مصطلح كان غير ذي معنى بالنسبة لهم، كما أشار Clifton R. Fox ومؤرخون آخرون. لقد أطلقوا على أنفسهم Ρωμιοι رومًا عثمانيين (المفرد Ρωμιος) كما سمى العديد من اليونانيين المعاصرين أنفسهم، أي رومان[265].

لكن كلمة *Byzantine* أيضًا كانت لتكون بلا معنى بالنسبة لأعداء الإمبراطورية الذين سموا شعبها إما رومًا (أي الرومان) أو يونانيين، كما يفعل القرآن والسجلات العربية للفتوحات الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. كذلك الحال بالنسبة لشهادة المؤرخ ابن خلدون: انظر، على سبيل المثال، روايته عن طلب الخليفة العباسي المنصور إلى "ملك اليونانيين" أن يرسل إليه الأعمال الرياضية لليونانيين[266].

على غرار ذلك، لم تكن هذه الكلمة ذات معنى بالنسبة للأوربيين الغربيين في العصور الوسطى، مثل الأسقف ليودبراند كريمونا Liudprand of Cremona (920-972) الذي أشار إلى مواطني الإمبراطورية إما بالرومان أو اليونانيين، ودعا إمبراطوريتهم "إمبراطورية اليونانيين"[267]. وهي كانت لتكون بلا معنى أيضًا

بالنسبة للقديس توما الإكويني الذي أشار إليهم بوصفهم يونانيين (في أطروحته المكتوبة عام 1263 *Contra errores Graecorum* على سبيل المثال).

وقد تكون هذ الكلمة غير ذات معنى أيضًا بالنسبة للمؤرخين اليونانيين في العصور الوسطى مثل نيكيتاس كونياتس Niketas Koniates (نحو 1155-1217) الذي يشير إلى سكانها في كتابه تاريخ الإمبراطورية اليونانية باسم Ρωμαιοι أي الرومان[268]. اليونانيون اليوم هم أحفادهم، ومن هنا جاءت المفاهيم اليونانية الحديثة عن Ρωμιοι وΡωμηοοσυνη. على الرغم من عدم وجود أغلبية يونانية عرقية ساحقة في محيطها مما كان لدى الإمبراطورية الرومانية اليونانية من أغلبية عرقية من الرومان خارج إيطاليا (العديد من الأباطرة الرومان اللاتين ولدوا في إسبانيا، وآخرون مثل Postumus بوستموس وTetricus تيتريكوس و"Illyrian emperors" "الأباطرة الإليريان" كانوا بالكاد من أصل يوناني عرقي)، ومع ذلك كانت هذه الإمبراطورية اليونانية المسيحية يونانية اللغة والثقافة، مثلما كانت الإمبراطورية الرومانية اليونانية لاتينية اللغة والثقافة. وفي أراضي وجزر ما يُعرف اليوم باليونان، وكذلك في الكثير مما يُعرف بشبه جزيرة الأناضول اليوم، كانت الإمبراطورية اليونانية الرومانية يونانية عرقيًا (حول هذه القضايا انظر عمل Speros Vryonis).

حدد الباحث في جامعة فيينا يوانيس ستيوراتيس Ioannis Stouraitis المشكلة من الناحية النظرية (الخط المائل والخط المائل الغامق موجودان في نص ستيوراتيس):

يمكن للمرء أن يجادل بشكل معقول أن مشكلة فك ترميز الهوية البيزنطية تكمن في واقعة أن مصطلح "Byzantine" الذي يستخدم عمومًا في الحاضر لتعريف ولاية ورعايا الإمبراطورية الرومانية المسيحية (سواء منذ عهد قسطنطين الأول أو بدلًا من ذلك منذ الحقبة ما بعد الجوستنيانية) هو ***terminus technicus*** ***مصطلح تقني***، إنشاء استعادي لعلماء الحداثة المبكرة في أوروبا الغربية. يزيح هذا المصطلح ***terminus technicus*** الضوء عن التعيين الذاتي المعياري لهذا المجتمع، أي الروماني، وهكذا يفرض على المؤرخ الحديث تحيزًا كامنًا، وتحديدًا التحيز المتعلق بالتسمية الواجبة للهوية الجماعية للمجتمع وبالتالي الفهم المختلف لما يرمز إليه اسمه[269].

في الواقع، اخترع العالم الألماني هيرنيموس وولف Hieronymus Wolf مصطلح "الإمبراطورية البيزنطية" في عام 1557، والذي لم يكن "بوصفه بروتستانتيًا" متعاطفًا مع المسيحيين الشرقيين "الأرثوذكس"، للإشارة إلى أن هذه الشعوب اليونانية ثقافيًا في الإمبراطورية الرومانية الشرقية لم يكونوا رومانيين، ولا

حتى يونانيين بطريقة ما. قد يكون قراره العلمي متأثرًا أيضًا بواقعة أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لشارلمان وخلفاءه قد ادعت هذا الاسم لنفسها.

علماء التنوير في القرن الثامن عشر مثل مونتسكيو، الذين احتقروا المسيحية الأرثوذكسية ربما أكثر من الكاثوليكية الرومانية، تبنوا المصطلح مؤكدين بذلك أن هؤلاء المسيحيين اليونانيين الرجعيين لم يكن يجمعهم شيء على الأرجح مع هؤلاء اليونانيين الوثنيين المعجبين بالتنوير. هذا التركيب المُختلق، البيزنطية، المشحون بالفعل بمضامين الشكلية الملتوية والتحريف التي خلقها التنوير، استمر استخدامه من قبل المؤرخين الغربيين[270]. كما تغاضت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عن استخدام اسم البيزنطيين *Byzantines* بدلًا من اسم رومان بالنسبة لليونانيين الأرثوذكس لهذه الأسباب: لم تكتف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بمعارضة الأرثوذكسية اليونانية المسيحية لكنها دعمت أيضًا ادعاءات الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأنها الإمبراطورية "الرومانية" الوحيدة، كما أن استخدام كلمة "رومان" لتعريف اليونانيين الأرثوذكس سيتعارض أيضًا مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وادعائها بكونها "الرومانية" الحقيقية.

في الواقع، لم تكن المدينة الأكثر استثنائية خلال أوائل العصور الوسطى -حتى أفولها السياسي الأول، وهو أفول تزامن، بشكل ملحوظ، كما أكد المؤرخ Emmet Scott، مع اعتداء المسلمين على الشرق الأوسط المسيحي وشمال إفريقيا في القرن السابع- لم تكن دمشق أو بغداد أو قرطبة أو روما وإنما القسطنطينية المسيحية أو "روما الجديدة". كانت بيزنطة مجرد مدينة يونانية على البوسفور عندما بدأ الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير في عام 330 بخلق المدينة الشاسعة والاستثنائية هناك، والتي أصبحت الأكثر تقدمًا في العالم في الطب والتعليم والقانون والنظافة والخدمات الاجتماعية والمستشفيات، التجارة والصناعة والعلوم والتكنولوجيا والفن والموسيقى والهندسة المعمارية والفلسفة. بقيت هذه المدينة تحمل اسمه، Κωνσταντινούπολις حتى بعد غزوها ونهبها وانتهاكها لثلاثة أيام من قبل الأتراك المسلمين في 1453 إلى أن غير الدكتاتور التركي كمال أتاتورك اسمها إلى "إستانبول" في القرن العشرين لكن حتى في هذا التغيير ساد الإرث اليوناني حيث إن "إسطنبول" اسم مُشتق من العبارة اليونانية στην Πόλη، "to the Polis" أي إلى مدينة القسطنطينية.

لم تتمكن اوروبا المسيحية بما في ذلك الممالك المسيحية في إسبانيا من الاستفادة من تجارتها مع الحضارة المتفوقة للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية لأن هجمات المحاربين المسلمين، كما أشار Henri Pirenne منذ وقت طويل، حولت منطقة البحر الأبيض المتوسط التي كانت مسيحية في ذلك الوقت إلى ساحة معركة، وفي النهاية إلى بحيرة إسلامية، وقصّرت بالتالي دورة التبادل الثقافي المباشر بين أوروبا وإمبراطورية الإغريق؛ لذلك يمكن القول إن

الإمبراطورية الإسلامية كانت سبب التباطؤ النسبي للتنمية الأوروبية في أوائل العصور الوسطى "المظلمة"[271]. فشلت الهجمات العلمية على أطروحة Pirenne في نقض أهميتها في إضاءة ما حدث: استمر التبادل الثقافي وخصوصًا التجاري بين الشرق والغرب في الحدوث وهو الآن إلى حد كبير عبر إمبراطورية إسلامية، لكن هذا لم يحدث بسبب الخصائص الحضارية للإسلام القروسطي وإنما لأن الإسلام في العصور الوسطى قد قاطع التواصل المباشر في المقام الأول.

لذلك، فإن سيل المنشورات الأكاديمية المتمحورة حول الإسلام: الأفلام الوثائقية التلفزيونية من PBC، قناة التاريخ، الـ BBC، الإعلانات بواسطة اليونسكو، معارض السفر في ناشيونال جيوغرافيك التي تمجد "نقل العلوم والمعرفة اليونانية" من قبل الإسلام إلى الغرب المتخلف تغفل عن أنه، مهما كانت الدرجة الفعلية لهذا النقل، فإن النقل لم يكن فقط للعلوم والتكنولوجيا اليونانية، لقد كان أيضًا للنحت والرسم والدراما والسرد والشعر الغنائي اليوناني، والذي "النقل" كان متعذر الحدوث ولم يحدث عن طريق الإسلام بسبب الحواجز الدينية، وكان سيحدث بالمثل دون الإسلام لو أن الإسلام لم يقاطع بغزواته العسكرية في القرنين السابع والثامن الاتصال المباشر بين الغرب المسيحي والشرق المسيحي.

في الواقع، عندما بدأ العلماء اليونانيون بالوصول إلى إيطاليا فارين من الدمار النهائي للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية من قبل الإسلام في القرن الخامس عشر (تدمير كان ميسرًا بواسطة إضعاف الغرب المسيحي للإمبراطورية خلال الحملة الصليبية الرابعة سيئة السمعة التي نهبت القسطنطينية عام 1204)، جلبوا الدراما اليونانية، والسرد، والشعر الغنائي والفلسفة (أفلاطون بشكل ملحوظ) والفن إلى الغرب. لقد ساهموا بشكل حاسم في (وربما بدؤوا حتى، كما جادل العديد من العلماء)[272] ما سيكون عصر النهضة الإيطالية. أظهر هذا النقل الثقافي المكثف نوع التأثير الذي كان يمكن أن يكون لليونانيين المسيحيين على أوروبا الغربية قبل قرون، ربما أبكر من القرن السابع، لولا التعطيل الإسلامي.

هكذا تبقى أطروحة Pirenne فعالة لجلاء دور الإسلام في التاريخ الأوروبي: حال إسلام العصور الوسطى بين أوروبا المسيحية والإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. استمر التواصل الثقافي بالطبع، لكنه تضاءل واتخذ صورة مختلفة؛ لذلك، وعلى وجه التحديد بسبب المشكلة التي خلقتها الإمبراطورية الإسلامية، كان مُقدرًا لهذا التواصل بين أوروبا المسيحية واليونانيين المسيحيين أن يحدث غالبًا من خلال وساطة الإمبراطورية الإسلامية ذاتها، التي استفادت واستمرت في الاستفادة من اتصالها المباشر مع الثقافة المتفوقة للإمبراطورية اليونانية. عندما وصلت هذه المادة اليونانية عبر الإسلام، كانت مُتضائلة ومُحرفة وموسّطة من قبل إيمان كان معاديًا بشكل أساسي لروح الحضارة اليونانية.

علاوة على ذلك، في إسطنبول وحدها، وكما نعرف من الشهادات المُعاصرة كان الغزو الإسلامي في العصور الوسطى مسؤولًا عن تدمير مئات آلاف المخطوطات اليونانية خلال استيلاء ونهب هذه المدينة اليونانية المسيحية من قبل السلطان العثماني (وخليفة المسلمين) محمد الثاني في 1453[273]. لن نعرف أبدًا كيف ضاع الكثير من الأدب اليوناني والفن والمعرفة العلمية بتدمير الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. إلى هذا الأذى الذي لحق بالحضارة الأوروبية يجب إضافة الكارثة الديموغرافية الناجمة عن ملايين الرجال والنساء والأطفال الذين تم أسرهم أو بيعهم كعبيد من قبل الإسلام خلال العصور الوسطى وما وراءها. وقد قدّر المؤرخ روبرت ديفيس Robert Davisأن أكثر من مليون من العبيد البيض تم تداولهم في الأراضي الإسلامية في الفترة بين القرنين السادس عشر والسابع عشر وحدها[274].

مثال مادي عن العلم والتكنولوجيا المتفوقين لهذه الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في العصور الوسطى يتمثل في النار اليونانية الشهيرة (لم يسمها العرب النار البيزنطية) التي ساعدت الأساطيل البحرية الإسلامية الأقوى عدديًا والأضعف تكنولوجيًا على البقاء في الخليج لقرون عديدة. مثال مادي آخر عن التفوق العلمي للإمبراطورية اليونانية المسيحية هو ساعة شمسية ميكانيكية رائعة بجهاز تعشيق رياضي يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي "مما يشير إلى أن التقليد الهلنستي الذي تثبته آلية أنتيكيثيرا Antikythera machine(القرن الأول قبل الميلاد) واصل نشاطه في الفترة البيزنطية ويقترح أنه ربما أثر في التقليد الإسلامي. مرة أخرى، أظهرت تحفة يدوية قصور الأدلة المستمدة من المصادر الأدبية"[275]. العلم والتكنولوجيا اليونانيان، وبعض الفلسفة (ليس فلسفة أفلاطون، ولا الأدب اليوناني، ولا الرسم التجريدي أو النحت) في الترجمات التي قدمها مسيحيون، تم الحصول عليها وتأثرت بها الحضارة الإسلامية عندما غزت الجيوش الإسلامية أراضي الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في الشرق الأوسط، شمال إفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط عمومًا[276].

محو آثار حضارة وليدة في إسبانيا القوط الغربيين:

بمرور الوقت، قام الفاتحون المسلمون بالنهب، والتدمير الواعي لآثار ما قبل الإسلام، والتحويل أو الطرد للسكان المسيحيين ماحين معظم الآثار الثقافية لهذه الحضارة الوليدة. لدينا عدد قليل من السجلات الأدبية عن إسبانيا القوط الغربيين: "النكبة التي سببها الغزو العربي ذهبت بكل الوثائق الرسمية" حسب المؤرخ الإسباني Antonio Domínguez Ortiz[277]. لدينا إشارات إلى الكنائس الجميلة التي اختفت. يمكن العثور على بقايا كنائس "Mozarabic" "موزورابي" فقط خارج الأندلس سابقًا، ولا يوجد أي منها في المراكز الحضرية الكبرى. علاوة على ذلك، اختفت المنحوتات الزخرفية واللوحات الفنية الحرة

الرومانية والإسبانية – الرومانية - القوطية العامة كما كان متوقعًا من فن في ظل دين حرّم التصوير الجسدي واعتبر النحت تجليًا لعبادة الأصنام[278].

لا يمكن أن تُعزى هذه النكبة المعمارية والأيقونية إلى القوط الغربيين؛ لأنهم كانوا رومانيين للغاية بحلول الوقت الذي دخلوا فيه إسبانيا. لم يكونوا مهتمين بالتدمير وإنما بحفظ وصياغة رموز القوة الرومانية لأنهم اعتبروا انفسهم ورثتها. وهكذا لدينا سجلات ممارسة القوط الغربيين للنحت ومركز فني عظيم في ميريدا، بقي القليل منها بسبب قرون من الهيمنة الإسلامية المحطمة للأيقونات. الكاهن والمؤرخ الإسباني José Orlandis أظهر تأثير الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية على فن القوط الغربيين، وهندستهم المعمارية، على طقوس الكنيسة واللاهوت، لكن الفتح الإسلامي قاطع تمثل القوطيين وتكييفهم للرومان والفن المسيحي الروماني الإسباني وخصوصًا الفن الغني للغاية للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية وكذلك العلوم اليونانية المسيحية[279].

يقر المؤرخون الإسلاميون بحماس الحكام الأمويين الأوائل مثل عبد الرحمن الأول لتحطيم التماثيل الدينية. حسب المؤرخ الرازي*، كان هذا القائد وحشيًا ضد "المشركين" كما كان المسيحيون يُلقبون:

"كان يأخذ كل الجثث التي يُجلّها المسيحيون ويسمونها قديسين -ربما إشارة إلى الذخائر المقدسة- ويحرقها وكان يحرق كنائسهم الجميلة، وفي إسبانيا كان هناك الكثير من الكنائس الرائعة التي بنى بعضها اليونانيون وبعضها الآخر الرومان. كان المسيحيون، لدى رؤيتهم هذا، يأخذون أشياءهم المقدسة إذا تمكنوا ويهربون إلى الجبال"[280].

كان تحويل الكنائس المسيحية البارزة إلى مساجد سمة معيارية للفتوحات الإسلامية. حوّل المسلمون العديد من الكاتدرائيات اليونانية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى مساجد في القرنين السابع والثامن. هدموا العديد من الكنائس الأخرى من أجل استخدام مواد بنائها الممتازة، بما في ذلك الرخام والذهب والفضة (استخدمت العمارة العربية التقليدية مواد بناء رديئة مثل الجص والخشب والطوب كما هو واضح في قصورهم الأندلسية مثل قصر الحمراء، وهذا من أسباب ادعاء ابن خلدون أن البناء العربي ليس صلبًا وسرعان ما يسقط أنقاضًا)[281]. هكذا بُنيت مساجد دمشق (الجامع الأموي) والقدس (الأقصى) والقاهرة (عمران) ومن قبل المهندسين المعماريين المسيحيين علاوة على ذلك وحسب الجغرافي ابن الفقيه (توفي 903) كانت مآذن مسجد دمشق في الأصل أبراج مراقبة في كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان اليونانية، كل منها يبرر المظهر "البيزنطي " للمسجد[282]. كما لاحظت المستعربة ماريا إيزابيل فييرو Maria Isabel Fierro أن جميع المساجد اليونانية تتميز بفسيفساء من أصل يوناني

مسيحي، بما في ذلك الجامع الكبير في دمشق (الذي بُني فوق كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان اليونانية المهدمة) الذي صُمم بنية واعية لتحجيم وإذلال الكنائس المسيحية المجاورة[283].

كان لتحويل الكنائس المسيحية إلى مساجد أن يكون أسرع بكثير لو لم يخضع المسيحيون بلا قتال.كان هذا هو الحال مع آيا صوفيا في القسطنطينية، البناء الأكثر استثنائية في أوائل العصور الوسطى. خلال نهب للقسطنطينية الذي استغرق ثلاثة أيام في 1453 قام الأتراك المسلمون بطمس وتلطيخ الجداريات واللوحات التي تصور الشخصيات المقدسة "الأيقونات"، وأزالوا الصلبان من داخل المبنى وخارجه، وحولوا الكاتدرائية اليونانية الأرثوذكسية إلى مسجد. قام الحكّام المسلمون في النهاية ببناء أربع مآذن متاخمة لا تزال صامدة حتى اليوم. تم تحويل آيا صوفيا إلى متحف من قبل الديكتاتور التركي كمال أتاتورك في القرن العشرين، لكن علامات التدنيس وغلبة الإسلام ما زالت موجودة في هذا "المتحف": محراب كبير (مكان للصلاة يشير إلى مكة والنقطة المحورية لجميع المساجد) يقف حيث كان المذبح، وعلى جانبي المحراب وحول صحن الكنيسة ثمة ثماني ميداليات سوداء ضخمة مُعلقة (على الأقل بعرض خمسة وعشرين قدمًا) مع كتابة عربية باللون الأصفر تجهر بـ"مُحمد عليه السلام"، "الله"، أسماء الخلفاء الأربعة الأوائل وأسماء حفيدي مُحمد، لتذكير كل الزوار إلى هذا "المبنى المُعلمن" أن هذا موقعًا إسلاميًا وليس مسيحيًا. عانت كنائس أرثوذكسية يونانية استثنائية أخرى في القسطنطينية مصيرًا مشابهًا، مثل كنيسة المخلص المقدس في خورا Chora: حُولت إلى مسجد، وغُطيت جميع أيقوناتها بالجص وأُزيلت كل الصلبان حتى من الجدران الداخلية. إنها متحف الآن[284]. في إسبانيا، حتى أواخر 1195 كان المسلمون في هجومهم لا يزالون يحولون الكنائس الكاثوليكية إلى مساجد كعلامة، كما لاحظ المؤرخون المسلمون بفخر، على هزيمة المسيحيين وإخضاعهم[285]. (من أجل تكتيك الهيمنة الإسلامية المتمثل بتدمير الكنائس، انظر أيضًا الفصل الأول).

من الجدير بالذكر أنه لا يمكن العثور اليوم على كنائس في جنوب إسبانيا كانت مبنية قبل الاسترداد الكاثوليكي. وكما لاحظ المؤرخ جاك فونتين Jacques Fontaine، ربما كان تدمير الإرث المسيحي القوطي – الروماني- الإسباني نتيجة ليس فقط للتعاليم الدينية للإسلام ولكن أيضًا لسياسة واعية من المحو المنهجي لكل "علامات القوة" المسيحية من "الأندلس"[286]. كما رأينا في الفصل الأول، كانت سياسة محو علامات أمجاد ما قبل الإسلام خلال الجهاد جزءًا من تكتيكات الهيمنة للفتوحات الإسلامية[287].

الأمثلة القليلة التي لدينا عن الحرف الفنية لدى القوط الغربيين بقيت إلى حد كبير في كنوز مخبأة من نهب الغزاة. هذه الكنوز المدفونة لا تعطي إلا فكرة باهتة عن

روعة هذا الفن، وهي التي جعلت الروايات العربية عن رودريغو ملك القوط الغربيين الذي يخوض المعركة بدرع مرصع بالجواهر أكثر منطقية[288].

صدى ضعيف:

كانت طليطلة تحت حكم القوط الغربيين مركزًا فنيًا كما تشير البقايا الأثرية من الشظايا الرخامية الرائعة[289]، لكن في ظل الإسلام تلاشى الفن من عاصمة القوط الغربيين، فيما محا الغزاة آثار العظمة المسيحية بتركيز اهتماماتهم الفنية على قرطبة، عاصمتهم الجديدة الجنوبية. فيما استمرت طليطلة، رغم ذلك، في كونها محورًا للمقاومة السياسية والثقافية –أو العصيان- كما وصفها مؤرخ مسلم. إذ وقفت إلى جانب الفهريين ضد الأمويين في 761، في عام 797 قاد الشاعر Garbib وهو مسيحي اعتنق الإسلام تمردًا، في عام 829 مسيح آخر معتنق للإسلام، هاشم، قاد تمردًا أيضًا، وفي عام 852 ثار الذميون المسيحيون والمسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام ردًا على قمع الأمير الأموي محمد والتمسوا دعم المسيحيين في الشمال[290].

كمؤرخ فرنسي للفن الإسباني والإسلامي لاحظ Henri Terrasse أن القوط الغربيين في إسبانيا أنتجوا في القرنين السادس والسابع نهضة في الحضارة والفن الأوروبيين لعب فيها النظام الملكي للقوط الغربيين والكنيسة الكاثوليكية دورًا أساسيًا[291].

لسوء الحظ، فإن روعة القصر الملكي العائد للقوط الغربيين في طليطلة، التي أظهرت الحفريات الأثرية أنها جاهدت لتقليد روعة الإمبراطورية الرومانية اليونانية في القسطنطينية، لم يصلنا إلا صدى ضعيف في سجلات المسلمين والأدلة المادية عن الكنوز المدفونة والمواقع الأثرية المحفورة[292]. منذ عصر النهضة، وخصوصًا خلال عصر التنوير، ترافقت الإدانات التي لا تناسب روح العصر لمملكة القوط الغربيين بوصفها غير عادلة اجتماعيًا مع نبذ الفن والثقافة القوطيين في حين كان الفن والثقافة في إسبانيا المسلمة يُبجلان في المقابل[293].

لماذا الحال كذلك؟ كيف أمكن تصوير إسبانيا الإسبانية – الرومانية - القوطية بوصفها أرض "العصور المظلمة السوداء والانحطاط" بينما رُحِّب بإسبانيا المسلمة بوصفها "فخر وحلية العالم والجزء الأكثر بروزًا في الأرض"؟[294] لماذا تم تحريف تاريخ كل من إسبانيا الإسلامية وسلفها (إسبانيا الإسبانية - الرومانية – القوطية) إلى هذا الحد؟

قد يكون أحد العوامل أن العلماء ببساطة غير مدركين للواقع. لا بد أن نأخذ في الحسبان أن أفضل الدراسات المتخصصة للفن والثقافة الإسبانية - الرومانية – القوطية متاحة فقط باللغتين الفرنسية والإسبانية[295]. علماء الدراسات الإسلامية

هؤلاء الذين يكتبون عن إسبانيا الإنجازات التي ينسبونها للإسلام في إسبانيا تعكس في الواقع تمثل الإسلام لعناصر ثقافات أخرى.

مع ذلك، فإن التصوير السلبي، في بعض الحالات، للقوط الغربيين في إسبانيا قد يكون نتيجة لسوء النية من قبل المؤرخين الأكاديميين ونفورهم من أي شيء مرتبط بإسبانيا المسيحية. يكتب Thomas F. Glick أستاذ تاريخ العصور الوسطى في جامعة بوسطن: "يتضح الانحدار الاقتصادي للقوط الغربيين في إسبانيا من خلال فشل القوطيين في مواصلة مشروع التعدين الكبير الذي بدأه الرومان"، لكن كما لاحظ المؤرخ Emmet Scott: "الدليل الوحيد الذي يملكه Glick هو أن التعدين الذي انحدر في ظل حكم القوط الغربيين هو التفاصيل الشحيحة التي قدمها Isidore إيسيدور من إشبيلية وواقعة أن أهم مناجم إسبانيا التي تعود إلى العصر الروماني معروفة الآن بأسماء عربية". بالكاد يُشكل هذا دليلًا مقنعًا يمكن أن يُتخذ على أساسه إقرار شامل كهذا. يختم Scott: "انطباع سوء النية من قبل الكاتب تُعززه تصريحاته حول كل موضوع ذي صلة بالقوط الغربيين" تقريبًا[296]. في الواقع "يبدو أن Glick (الذي يسمي القوط الغربيين) رجال الغابة الذين لم يبارحوها أبدًا" لا يملك فكرة عن مدن قوطية مثل ريكوبوليس Recópolis، عن الكنوز الرائعة من المصنوعات الذهبية والمجوهرات التي دفنها القوط الغربيون لحمايتها من جشع الغزاة المسلمين، أو عن أي من إنجازات الثقافة الإسبانية – الرومانية - القوطية.

ليس فقط الأستاذ Glick. الكثير من هؤلاء العلماء الذين يطلقون تصريحات عن إسبانيا الإسلامية يُظهرون جهلًا –أو ربما حتى ازدراءً صارخًا– لما تظهره المصادر الأولية والكشوف الأثرية.

الوقائع اليومية للأندلس

تُعرف التجربة الأندلسية أيضًا بتسامحها وتأليفها الثقافي بين أعضاء الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية على مدى ثمانية قرون (711-1492 للميلاد).

- جون دبليو فوكس *John W. Fox*، وندى مرتضى الصباح، وسليمان بن خلف، *Ethnography and the Culture of Tolerance in al-Andalus* "الإثنوغرافيا وثقافة التسامح في الأندلس"، هارفارد ميدل إيسترن آند إسلاميك ريفيو (2006)، 146-71.

مرونة مفاهيم ومقولات الشريعة الإسلامية استوعبت التفاعل والتكامل بين الطوائف في المجتمع الإسلامي.

جانينا م. سافران، *Janina M. Safran*أستاذة مشاركة في التاريخ ومديرة دراسات الشرق الأوسط الثانوية في جامعة ولاية بنسلفانيا، على موقع القسم الخاص بها: (http://history.psu.edu/directory/jxs57).

في بداية القرن الثامن، جلب العرب واحدة من أعظم ثورات التاريخ في السلطة والدين والثقافة والثروة إلى العصور المظلمة في أوروبا. كان على العرب البقاء هناك حتى نهاية القرن الخامس عشر، وفي معظم ذلك الوقت -حتى بداية القرن الثاني عشر تقريبًا- كان الإسلام في الأندلس (إسبانيا المسلمة) متسامحًا دينيًّا بشكل عام.

David Levering Lewis الحائز على جائزة بوليتزر مرتين وأستاذ جوليوس سيلفر للتاريخ في جامعة نيويورك، في God's Crucible: Islam and the Making of Europe، 570-1215 (نيويورك: دبليو دبليو نورتون، 2008)، xxii-xxiii.

أشار الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيغا أي غاسيت José Ortega y Gasset إلى أن "المجتمع العربي في الأندلس مختلف عن المجتمع أو المجتمعات غير العربية التي سكنت إسبانيا في ذلك الوقت"[297]. استشراف أورتيغا كان مُتوقعًا من رجل الدين اللامع ابن حزم القرطبي (994-1064) الذي كان أسلافه مسيحيين والذي أوضح لأترابه المسلمين البون اللاهوتي والثقافي الذي يفصل المسلمين عن المسيحيين[298]. ومع ذلك فإن موجة من المنشورات تتستر على اختلاف حياة المسلمين في إسبانيا الإسلامية. يقدم كل من العلماء والكتّاب

الشعبيون الأندلس كأرض نموذجية للتنوع المتناغم والتسامح، ويُقصون التقييمات المخالفة باعتبارها مجرد "استشراق" غربي.

وهكذا: يكتب Thomas Glick توماس غليك أستاذ التاريخ الإسباني في العصور الوسطى ومدير معهد دراسات العصور الوسطى في جامعة بوسطن في مقدمة كتابه *Convivencia: Jews, Muslims, and Christians in Medieval Spain*، التعايش: اليهود والمسلمون والمسيحيون في العصور الوسطى "رؤى المؤرخين عن الاتصال الثقافي تبطن بشكل متكرر نمطين أيديولوجيين أو مجموعة من المفاهيم المسبقة: الأول الذي يؤكد على النزاع والأخر الذي يؤكد "بينما يعترف بواقع النزاع" التساوق الثقافي والتفاعل الإبداعي". يقترح، بينما يرفض النمط الأول، أن الباحث الأدبي في القرن العشرين، Américo Castro أميركو كاسترو كان محقًا بشكل أساسي عندما طرح فكرة التعايش في إسبانيا الإسلامية. يقول Glick أنه يتوجب أن نضيف إلى مفهوم كاسترو "الإقرار بأن التفاعل الثقافي يعكس حتمًا دينامية اجتماعية ملموسة ومعقدة للغاية" على الرغم من أنه يشدد بأنه يتوجب علينا الاحتفاظ بـ"فهم أن التثاقف ينطوي على عملية استدخال للآخر وهي الآلية التي نجعل بواسطتها سمات الغريب "الأعجمي" الثقافية خاصة بنا"[299]. التفاعل الإبداعي، استدخال الآخر والدينامية الاجتماعية المعقدة: ها هنا أساس مشروع أيديولوجي وأكاديمي ومعياري لـ"التنوع" والمجتمع التعددي المتنوع ثقافيًا.

انضم العديد من العلماء المعاصرين والمفكرين الآخرين إلى Glick في هذا المشروع الأيديولوجي، كما توضح النقوش في بداية الأقسام في هذا الفصل. لا تتفق هذه الرؤى، مع ذلك، مع ما تخبرنا به المصادر الأولية عن نظام الممارسات الثقافية في إسبانيا الإسلامية. الوقائع اليومية للأندلس ليس لها علاقة تُذكر بالميثولوجيا الدارجة.

مجتمع هيروقراطي "محكوم بالسلطة الدينية":

في الفنون والزراعة والتعليم والتسامح، كانت الأندلس منارة التنوير لباقي أوروبا.. كان التسامح من بين أرقى إنجازاتها. تم الترحيب باليهود والمسيحيين، إن لم يكن على قدم المساواة، فعندئذ كمواطنين كاملي الأهلية. سُمح لهم بممارسة عقيدتهم وطقوسهم دون تدخل. كان هذا التسامح اتساقًا مع مبادئ القرآن، الذي علّم أنه يجب احترام اليهود والمسيحيين باعتبارهم "أهل الكتاب" أو المؤمنين بكلمة الله. تم استيعاب اليهود والمسيحيين في الثقافة الإسلامية وأحيانًا، ساعد القادة المغاربيون في بناء دور العبادة المسيحية.

Dogs of God: Columbus, the Inquisition, —*James Reston Jr.,* *(New York: Anchor Books,*and the Defeat of the Moors *.2006), 7–8*

جيمس ريستون جونيور، كلاب الله: كولومبوس، محاكم التفتيش، وهزيمة المغاربة.

لعل الواقعة الرئيسة في حياة المسلمين في الأندلس هي عدم وجود تمييز بين القانون المدني والشريعة الدينية. وبعبارة أخرى، عبر تاريخ إسبانيا الإسلامية منذ الفتح في 711 للميلاد وحتى انحسارها إلى مملكة غرناطة الصغيرة بعد 1248، إلى زوالها النهائي في 1492 للميلاد، كان الدين هو القانون، وبالتالي كان الإسلام هو القانون. كما يلاحظ المستعرب الإسباني José Aguilera Pleguezuelo خوسيه أغيليرا بليغيزويلو: "المفاهيم الغربية مثل القانون العام، القانون الخاص، والتمييز بين الأنظمة الدينية والقضائية والأخلاقية لا معنى له في الشريعة الإسلامية. الأنظمة القضائية لها في الوقت نفسه معنى ديني وأخلاقي. العلمانوية الغربية في الشؤون القضائية ليس لها واقع في الشريعة الإسلامية"[300]. كما تشير العالمة في الدراسات الإسلامية سهى عبود حجار إلى أن الشريعة في إسبانيا الإسلامية تخللت كل جانب من جوانب الحياة، من الخاص والحميمي إلى الاجتماعي والعام[301]. بهذا المعنى، عاش المسلمون في الأندلس في ظل حكم ديني. ولكن كما سنرى، فإن الاسم الأكثر دقة هو هيروقراطية: حكومة رجال الدين.

في قرطبة الأموية، أشار مؤرخ القرن العاشر الخشني القروي بشكل صريح إلى أن الدنيوي والديني غير قابلين للفصل على أعلى مستويات السلطة وأكد أيضًا أن الحاكم السياسي كان أيضًا سلطة دينية "بالولادة"[302]. كما أشار المؤرخ العظيم ابن خلدون إلى هيمنة الشريعة الإسلامية على كل جوانب السلوك البشري وإلى وحدة الديني والدنيوي في شخص الحاكم. وذكر عشر واجبات دينية للخليفة من بينها فريضة الجهاد "شن الحرب المقدسة" بنفسه وجيوشه مرة واحدة على الأقل في العام[303]. مُحمد وخلفاؤه، الخلفاء الأوائل، قبضوا على كل من السلطة الدينية والسياسية[304].

في هذا "العصر الذهبي للإسلام" عاش المسلمون في ظل تسلط الشريعة، التي لا تعني بالمعنى الدقيق للكلمة النظام القضائي الإسلامي وإنما وجهة نظر للعالم مستوحاة من الدين، وهي طريق للسلوك القويم أنعم الله بها على الرجال من خلال رسله ولا سيما من خلال الرسول، النبي مُحمد: كانت الشريعة قانونًا إلهيًا؛ لذلك تنطبق الشريعة على كل الحياة البشرية[305]. إنها وجهة نظر دينية للأشياء تخللت السلوك اليومي للمؤمن وكذلك القوانين التي عاش في ظلها[306].

هذه القوانين التي أطلق عليها رجال الدين المسلمون الفقه (الحكمة أو الفهم) تطورت على مدى سنوات من تطبيق الشريعة الإسلامية على الحياة اليومية، وكذلك الشؤون الوطنية والأممية. في الأندلس نظّم الفقه حياة المسلمين العائلية، حياتهم الجنسية، القانون الجنائي، القانون العام، الحرب والسلام، العلاقات مع غير المسلمين وكل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية. وكذلك ما يسميه الفكر الغربي الحياة "الدينية" الحقة. (فكرة الحيز الديني المنفصل كانت غريبة على الفكر الإسلامي في العصور الوسطى).

السلطات الدينية، وبالتالي المدنية في الحياة اليومية، كانت فئة من الناس مُكلفة بتطوير الفقه وتفسيره: العلماء (المفرد: عالم، وتعني حكيمًا أو متعلمًا) أو رجال دين مسلمون. من بين العلماء تم اختيار الخبراء القانونيين المناسبين، الفقهاء (المفرد: فقيه). كان العلماء رجالًا، رجالٌ فقط[307] ممن استفادوا من بين أشياء أخرى، من الكتاب المقدس الخالد "القرآن"، الذي من المفترض أن الله أملاه على مُحمد بواسطة الملاك جبريل، ومن الروايات التقليدية المرجعية على وجوه مختلفة (المفرد:حديث، الجمع: أحاديث) لأقوال مُحمد وأفعاله (السُّنة). عاش المسلمون في الأندلس إذًا، بالمعنى الدقيق للكلمة، في ظل الهيروقراطية.

في بعض الأحيان كان العلماء ينازعون الحاكم بشأن الأمور السياسية وبالتالي الدينية. في بعض الأحيان يسود الملوك الأقوياء، وفي أحيان أخرى يكون للعلماء اليد العليا، وهكذا أذعن الحاكم الأموي الحكم لحكمٍ مُخالفٍ صادر عن قاضي قرطبة المسعد بن عمران. من جهة أخرى، أرسل هذا الحاكم نفسه جيشه ضد علماء قرطبة المحرضين على الفتنة، الذين كانوا غير راضين عن طرق الحاكم الاستبدادية العنيفة ودمر منازلهم ومساجد حي كامل من المدينة، وصلب اثنين وسبعين عالمًا، ونفى العديدين إلى جزيرة كريت[308] وكان طاغيًا مسرفًا وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة، فقتلهم ودمر ديارهم ومساجدهم، وكان الربض محلة متصلة بقصره، فاتهمهم في بعض أمره، ففعل ذلك بهم، فسمى الحكم الربضي لذلك. (تفصيل هذه الوقعة أن الحكم الربضي هذا في صدر ولايته قد انهمك في لذاته ومباذله، حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بألسنتهم، وكان الفقهاء يومئذ هم قادة الرأي في البلاد، فاجتمع منهم بقرطبة جماعة من أهل الفقه والورع، منهم يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت بن عبد الجبار المعافري، من أصحاب مالك بن أنس ورواة الموطأ، فثاروا به يريدون خلعه، وإقامة أخيه المنذر بن هشام مكانه، وكان اجتماعهم بالربض الغربي من قرطبة، ثم زحفوا إلى قصره، فقاتلهم الحكم فغلبهم، وهدم دورهم ومساجدهم، وفر من بقي منهم على وجهه، فمنهم من لحق بفاس من أرض العدوة، ومنهم من لحق بالإسكندرية من أرض المشرق، ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا بالإسكندرية أن ثاروا بها ثورة

أخرى، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم، ففروا من وجهه إلى إقريطش (كريت)).

لكن لم يكن لأي حاكم أو سلالة أن تستمر طويلًا دون دعم العلماء. في القرن الحادي عشر، دعم العلماء الأندلسيون، الذين شعروا بالاستياء من التقوى الفاترة لحكّام الطوائف (الممالك الصغيرة التي نتجت عن انهيار الخلافة الأموية في قرطبة بعد عام 1009)[309] البربر التقليديين الموحدين في استيلائهم على الطوائف الضعيفة[310]. لا عجب أن الحاكم الأموي عبد الرحمن الثاني (حكم 822-852) اعتبر أن من الحصافة قبول كفارة لمدة ستين يومًا من الصوم التي فرضها الفقيه يحيى بن يحيى الليثي لأن العاهل جامع رقيق جنسي "محظية" في النهار خلال شهر رمضان[311]. استمر العلماء في المغرب وأجزاء أخرى من إفريقيا في الاحتفاظ بقوة ومكانة هائلة وقادت فتاواهم في بعض الأحيان إلى خلع السلاطين[312].

مهام رجال الدين المسلمين تضمنت صراحة التأكد من أن المسلمين يتصرفون بأسلوب لائق دينيًا، مما يعني سلوكًا متناغمًا مع التعاليم الإسلامية والتفاصيل الطقسية اليومية الصارمة كما فسرها رجال الدين. وهكذا كانت الفضاءات العامة لمدن عصر الإسلام الذهبي هذا محروسة بمأمور "حارس ديني" مُعين من قبل طبقة العلماء، "المُحتسب"، الذي تمتع بصلاحيات القاضي لتطبيق الشريعة في السلوك الشخصي والاجتماعي والتجاري للناس[313].

في هذا الصدد، ربما كانت كلمات أحد ولاة المسلمين في الأندلس، عقبة بن الحي السلولي (توفي 741) لقاضيه مفيدة. وصف الخشني هذا الحاكم: "ولي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، فكان صاحب جهاد ورباط، وذا نجدة وبأس، ورغبة في نكاية المشركين (أي المسيحيين الذين آمنوا بالثالوث الإلهي، الآب والابن والروح القدس) وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حينًا، ويرغبه فيه، ويبصره بفضله، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل [314]. وكان قد اتخذ بالأندلس مقرًا مدينة يُقال لها أربونة، وكان قد عرف مهدي بن مسلم بالعلم والدين والورع، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها وكان قد عرفه مع ذلك بالبلاغة والبيان فلما أراد توليته قال له: اكتب عهدك عني على نفسك، فكتب مهدي، بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما عهد به عقبة بن الحجاج إلى مهدي ين مسلم حين ولاه القضاء، عهد إليه بتقوى الله، وإيثار مرضاته، واتباع مرضاته في سر أمره وعلانيته، مراقبًا له، مستشعرًا لخشية الله، معتصمًا بحبله المتين، وعروته الوثقى، موفيًا بعهده متوكلًا عليه، واثقًا به،متقيًا منه، فـ(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، إمامًا يهتدي بنورهما، وعلمًا يعشى إليهما، وسراجًا يُستضاء بهما، فإن فيهما هدى من كل ضلالة وكشفًا لكل جهالة، وتفصيلًا لكل مشكل وبرهانًا ساطعًا ودليلًا شافيًا، ومنارًا عاليًا، وشفاء لما في القلوب، وهدى ورحمة للمؤمنين.

وأمره أن يعلم أنه لم يختره لمصالح العباد والبلاد وتولي القضاء،الذي رفع الله قدره وأعلى ذكره وشرف أمره إلا لفضل القضاء عند الله جل جلاله لما فيه من حياة الدين، وإقامة حقوق المسلمين، وإجراء الحدود مجاريها، على من وجبت عليه، وإعطاء الحقوق من وجبت له، وأن يحاسب نفسه في يومه وغده وأمره أن يواسي بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه واستماعه وأمره أن يكون وزراؤه وأهل مشورته والمعينون له على أمر دنياه وآخرته، أهل العلم والفقه والدين ممن قبله، وأن يكون حجّابه وأعوانه ومن يستظهر بهم على ما هو بسبيله أهل الطهارة والعفاف، والطلب لأنفسهم، والبعد من الدنس، فإن أفعالهم منسوبة إليه، ومنوطة لديه، فإذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب، إن شاء الله.[315]

مكّنت العقيدة الإسلامية المتعلقة بالقضاة الأندلسيين بعض أمثلة الاستقامة الذين قاوموا إغراءات السلطة وعاشوا حياة مقتصدة مكرسين أنفسهم لدراسة الشريعة الإلهية[316]. كان هذا هو حال القاضي مسرور. روى الخوشني إحدى الحكايات العديدة المتعلقة بحياته المثالية:

كان عندنا بقرطبة قاض يُعرف بمسرور وكان من الزهاد، استأذن من حضره من الخصوم يومًا في أن يقوم لحاجة يقضيها من حوائج نفسه فأذنوا له، فقام عنهم ثم خرج عليهم، وفي يده خبزة عجين وهو يسير بها إلى الفرن، فقال له بعض من حضر: أنا أكفيك أيها القاضي حملها، فقال له: وإذا عُزلت عن القضاء أين أجدك كل يوم تكفيني حملها، بل الذي حملها قبل القضاء يحملها اليوم.[317]

حكم رجال الدين الإسلاميين:

كان من المحتمل لو انتصر رجال عبد الرحمن في ذلك اليوم من أكتوبر (في معركة بواتييه 732) أن يُدمج الغرب ما بعد الروماني في نظام عالمي مسلم لا تعوقه الحدود.. نظام خالٍ من طبقة كهنوتية، مفعم بعقيدة المساواة بين المؤمنين، واحترام جميع الأديان.

ديفيد ليفرينج لويس، بوتقة الله، 173.

شكل العلماء طبقة اجتماعية من المثقفين الدينيين حكمت الحياة اليومية للسكان المسلمين. أصدر رجال الدين هؤلاء أحكامًا تتعلق بتفاصيل وجود الفرد، قد تعتبر في سياق دين مختلف غير ذي أهمية، مثل ما إذا كان يجوز شرب حليب الحمار،

أو إن كان يمكن استخدام الأغراض أو المياه التي لمسها المسيحيون لأغراض الطقوس، أو إن كان يجوز للمسلم مسح يديه بجوربيه بعد الوضوء، أو دخول المسجد بعد أكل الثوم، أو أي يد يجب أن تُستخدم للأكل والشرب، أو ما هي العقوبة الصحيحة لجماع الزوجة في رمضان، أو التكلفة المناسبة لدماء قطع القضيب أو الخصيتين، أو إذا ما كان ينبغي السماح للأطفال بدخول المسجد (لا يجب)[318].

تشير الأطروحات والكتيبات القانونية من إسبانيا الإسلامية أن اهتمامًا وثيقًا كهذا بالممارسات الشعائرية انبثق في الغالب من مفهوم الإله -الله، إله أحدٌ مطلق، ليس الإله الثالوثي للروم الكاثوليك والأرثوذكس وغيرها من الكنائس المسيحية- ككيان نقي يُجله ويصلي له المؤمنون الذين ينبغي أن يُحافظوا ليس فقط على النقاء الأخلاقي وإنما على النقاء الجسدي أيضًا[319]. أن تكون نقيًا في إسبانيا الإسلامية يتطلب أن تكون حرًا من الملوثات، التي تشمل كل ما يطرحه الجسم مثل البراز والبول والحيوانات المنوية والدم والحيض واللعاب. يتطلب النقاء الجسدي أيضًا من المؤمن البقاء بعيدًا عن الأشياء والناس (مثل المسيحيين)[320] والحيوانات (مثل الكلاب[321] ولكن ليس القطط) التي قد تحمل آثارًا من هذه الفضلات وتنظيف الجسد بشكل صحيح بعد تلوثه. بعد كل قذف جسدي يتوجب على المؤمنين أن ينظفوا أعضاءهم الجنسية وأجزاء أخرى من الجسم بكميات كبيرة من الماء أو بالرمل أو التراب أو الحجارة في حال عدم توفر الماء (بدائل إلزامية وشت بموطن الدين في أرض العرب المجدبة)[322]. إفرازات الحيض والمخاض خلقت حالة من الدنس التي تتطلب التطهّر قبل الصلاة، الجماع الجنسي أو مجرد لمس الأعضاء الجنسية للذكر المختون أو الأنثى المختونة يتطلب التطهّر لكل من الزوج والزوجة قبل الصلاة، والزوج الذي قبّل زوجته أو لاطفها يجب أن يطهّر نفسه أيضًا قبل الصلاة [323](لكن الزوجة لا تحتاج إلى ذلك).

قبل كل من الصلوات اليومية الخمس يجب على المؤمنين أن يقوموا بوضوء مفصّل لليدين والفم والأنف (من الداخل والخارج عن طريق الشفط والزفير)، والوجه والذراعين حتى المرفقين والقدمين صعودًا إلى الكاحلين[324]. خلال الحيض تعتبر المرأة دنسة[325]. لم يكن يُسمح لها بالسجود وبالتالي لم يكن بمقدورها المشاركة في خدمات المسجد[326]. ولا يمكنها أيضًا الحضور إلى المسجد في مكة المكرمة أثناء الحج المطلوب إذا كانت حائضًا، وبعد الحيض كانت تحتاج إلى أداء الوضوء الإضافي من أجل تطهير نفسها[327]. يجب ألا يُجامع الرجل زوجته أثناء فترة الحيض، لا يزال بوسع الرجل الحصول على بعض الاكتفاء عن طريق مداعبة المرأة فوق الخصر بينما تبقى مغطاة من الخصر إلى الأسفل، لكن يجب أن يتطهر بعد ذلك قبل الصلاة[328]. يجب على النساء أن يتوضأن بشكل منفصل عن الرجال[329]. حضور الواجبات الأسبوعية في المسجد لم يكن مطلوبًا من المسلمات

(في حين كان من المفترض أن تحضر المرأة المسيحية القداس الأسبوعي)، إذا حضرت النساء المسلمات تلك الواجبات فيجب أن يكون ذلك في وقت مختلف عن وقت الرجال؛ لأن، من بين أسباب أخرى، رؤية النساء يرفعن مؤخراتهن بينما يسجدن يمكن أن يتسبب في صرف الانتباه إلى الجنس الآخر، لكن النساء غير ممنوعات من دخول المسجد[330]. يجب على النساء أن يقمن بالصلاة مغطيات من الرأس إلى أسفل القدمين، لكن دون تغطية الوجه[331].

بمعنى آخر: حتى تكون الصلاة مقبولة من الله، نقاء الجسد ونقاء الروح سارا جنبًا إلى جنب في إسبانيا الإسلامية وكلاهما ينبغي أن يكون مثاليًا قدر الإمكان أيًا كانت الظروف[332]. ساهم مفهوم النقاء الإسلامي في جعل الفكرة المسيحية عن الله كلّي القدرة (والذي رغم ذلك سمح لنفسه أن ينزف ومن ثم يُصلب) محض هراء. إلى هذا الحد كان النقاء الجسدي مهمًا حتى إن مُحمدًا، كما ذكرت التقارير، قال: "لاَ يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، وَيُصَلِّي الصَّلاَةَ إلا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ حَتَّى يُصَلِّيَهَا"[333].

تم تنظيم كل الحياة حول هذه الممارسات الدينية الصارمة وغيرها، ما جعل من أحياء المسلمين في المدن الأندلسية أكثر صحية من أحياء المسيحيين. ساهمت هذه الممارسات الصارمة أيضًا في الانضباط اليومي الذي ثبّت التعاليم الروحية للإسلام وقوّى استقامة وترابط المؤمنين.

شكّل العلماء الذين أشرفوا على تعريف وتطبيق هذه إسبانيا الإسلامية إكليروسا، شبكة معقدة من رجال الدين ذوي سلطات ووظائف نافذة ولكن متفاوتة، من بينهم الممارسات في فقهاء (قضاة أو محامون) ورجال إفتاء (مصدرو الفتاوي أو المراسيم القانونية الدينية) وقضاة ومحستبون (قضاة الفضاء العام).

كما أشار العديد من العلماء الفرنسيين والإسبان، لم يكن تأثير الأكليروس الإسلامي في الحياة اليومية في أي مكان في الإمبراطورية الإسلامية قويًا كما كان في الأندلس[334]. استيلاء العلماء تخلل العائلات وأحيانًا خلال أجيال عديدة.

كان من المفترض أن يفكر رجال الدين هؤلاء فيما يتعلق بطبيعة وتطبيق الفقه من منظور ديني دائمًا. كان العلماء "*ulama*" بُحاثًا شرعيين وبالتالي ممارسين دينيين ولاهوتيين وقادة دينيين وأخلاقيين.

تمامًا كما في إسبانيا المسيحية حيث يمكن لأعضاء في عائلات غير مسيحية (يهود عادةً) ممن تحولوا إلى الكاثوليكية الرومانية (يُسمون بالإسبانية

conversos) أن يحققوا مناصب في السلطة داخل الكنيسة الكاثوليكية وخارجها (من بين العديدين هناك: جوليان، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة كل القوط الغربيين الإسبان، بيتروس ألفونسي Petrus Alphonsi، أبنير من بروغس Abner of Burgos، فرانشيسكو رئيس أساقفة Soria، بابلو دي سانتا ماريا Pablo de Santa María رئيس أساقفة قرطاجنة Cartagena، Luis de Santangel لويس دي سانتانجيل أمين صندوق الملك فرديناند من أراغون)، كذلك الأمر في إسبانيا الإسلامية حيث انتمى بعض العلماء المؤثرين إلى عائلات تحولت من المسيحية إلى الإسلام. أحفاد هؤلاء المتحولين كانوا يُسمون بالإسبانية "*muladis*"، "مولدين" بالعربية، والتي تعني "هجينًا" أو "مختلطًا"، كلمة مُشتقة من تربية الماشية واستخدمها الكتّاب المسلمون تاريخيًّا للإشارة إلى المتحولين وأيضًا إلى أطفال الآباء المسلمين من نساء غير مسلمات (في المقابل لا يمكن للرجال غير المسلمين الزواج أو الجماع مع النساء المسلمات الحرات)[335]. العلماء بمثابة قضاة معينين في المساجد، يقودون صلوات الجمعة الاعتيادية ويلقون الخطبة[336]. أحد مؤهلاتهم الرئيسة كانت خبرتهم المشهودة في نصوص الإسلام الأساسية: القرآن الكريم والأحاديث[337]. رجال الدين هؤلاء عقدوا المحاكم مرارًا داخل المسجد[338]. كانوا يرون أنفسهم وُعاظًا ومُبشرين لكل المسلمين[339].

تؤكد المصادر الأولية عن إسبانيا الإسلامية الضرورة النظرية للمعرفة الدينية العميقة والتقوى كشرط مسبق ليكون المرء قاضيًا. وهو يتكرر "أي الشرط" في جميع السير الذاتية في كتاب الخشني "تاريخ قضاة قرطبة"[340]. السطور الافتتاحية في المقالة القانونية المالكية المستخدمة على نطاق واسع "تحفة الحكّام" للفقيه الأندلسي أبو بكر بن عاصم (1359-1427) توضح أيضًا

بابُ القضاءِ وما يتعلّقُ بهِ

- 14مُنَفِّذُ بالشَّرْعِ لِلْأَحْكامِ... لَهُ نِيابةٌ عَنِ الإمامِ

- 15وَاسْتُحْسِنَتْ في حقِّهِ الْجَزالَهْ... وشَرْطُهُ التكليفُ والعدالهْ

- 16وَأَنْ يكونَ ذَكراً حُراًّ سَلِمْ... مِنْ فَقْدِ رُؤْيَةٍ وَسَمْعٍ وَكَلِمْ

- 17وَيُسْتَحَبُّ العِلْمُ فيهِ وَالْوَرَعْ... مَعَ كَوْنِهِ الأصولَ للْفِقْهِ جَمَعْ[341]

- 18وحيثُ لاَقَ للْقضاءِ يَقْعُدُ... وفي الْبِلادِ يُسْتَحَبُّ الْمَسْجِدُ

الدول الحديثة التي أسست برامج الأسلمة مثل باكستان في 1970 وإيران في 1980 فهمت الأهمية الأساسية لهذه القضية وبالتالي استبدلت القضاة الذين تلقوا تدريبًا علمانيًا بالقضاة الذين لديهم تعليم ديني؛ العلماء[342].

التناقضات مع أوروبا المسيحية:

(زخرفة مخروطية) مُشتقة.. من مستوى التسامح العالي الذي مارسه الحكّام المسلمون الأوائل.

جيرلين جي دودز Jerrilynn D. Dodds أستاذة تاريخ الفن في كلية سارة لورانس، التعايش: اليهود والمسلمون والمسيحيون في العصور الوسطى، تحرير: فيفيان ب مان، *Vivian B. Mann*، أستاذة مُساعدة في الفن اليهودي والثقافة البصرية في المدرسة اللاهوتية اليهودية، توماس ف جليك، *Thomas F. Glick*، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ومدير معهد تاريخ العصور الوسطى في جامعة بوسطن و*Jerrilyn D. Dodds* (*New York: G. Braziller* بالتعاون مع المتحف اليهودي، 1992)118.

يمكن للمرء أن يتخيل فقط نوعًا مكافئًا من القضاة في أوروبا الكاثوليكية في العصور الوسطى: رجلُ، من أجل أن يتم اختياره كشارح ومصدرٍ للقانون، يجب أن يكون أيضًا خبيرًا في العهد الجديد ويعرف كيف يترأس، ويقود الصلاة، ويلقي العظة في قداس الأحد. بكلمات أخرى، قاضٍ كهذا لا بد أن يكون كاهنًا.

لم يكن الأمر على هذا الحال بالطبع. كان للكنيسة الرومانية الكاثوليكية نظامها القانوني الخاص بها، حكمت نفسها بموجبه كما خضع الكهنة له: القانون الكنسي، لكن عوام الناس كانوا محكومين بالقانون المدني. بالرغم من كونه مستوحى ومتأثرًا في النهاية بالمبادئ المسيحية التي تأسست عليها على نحو جزئي مجتمعات ما بعد الرومان في العصور الوسطى، فإن هذا القانون المدني الأوروبي كان أيضًا قطعة أثرية عضوية تضمنت بشكل مختلف ممارسات علمانية أصيلة، القانون الروماني العلماني، وبالمثل القوانين العلمانية لغزاة الإمبراطورية الرومانية الجرمان والبلطيق الذين خلقوا الأمم الأوروبية الحديثة[343]. كان هذا القانون المدني، في إسبانيا الكاثوليكية كما في باقي أوروبا المسيحية، مُدارًا من قبل الناس العاديين وليس الكهنة[344].

يتم التغاضي عن هذه القضايا القانونية بشكل بارع أو أقل براعة في كل المناقشات "التخريبية" أو "التبسيطية" التي تؤكد على امتزاج الديني والسياسي في أوروبا الغربية وانتفاء أي فارق حقيقي بين أوروبا المسيحية والإسلام فما يتعلق بالفصل بين الدين والدولة[345]. هذي المناقشات لا يمكنها أن ترى الغابات لأنها تنظر إلى الأنماط الموجودة في لحاء الأشجار.

لم يكن لدى الإسلام في العصور الوسطى ما يمكن مقارنته بالفصل السياسي بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية في أوروبا العصور الوسطى، لكن النقطة لا تكمن في الفصل السياسي بين السلطة الروحية "الكنيسة" والسلطة الدنيوية

"الدولة" أو وجود المبادئ المسيحية وحتى التأثير في صنع القرار السياسي وصياغة القوانين، أو الطريقة التي شرّع بها الدين أو الكنيسة الملكية، أو السيادة التي منحها الملك لبعض الأساقفة على قرى معينة، أو إشراك الكهنة في إدارة الطقوس الدينية مثل الزواج والمعمودية، أو جهود البابوات لحيازة السلطة الدنيوية إلى حد الاستعانة بذرائع مثل "التبرع للقسطنطينية" أو الطرق العميقة التي أثرت المسيحية من خلالها على تطور وإدارة القانون المدني[346]. تكمن النقطة، بدلًا من ذلك، في التمييز بين القانون الكنسي والقانون الديني، والذي يعكس أخلاقيات مختلفة تؤثر على الدينامية بين السلطة الروحية (الكنيسة) والسلطة الدنيوية (الدولة)، وربما، الأكثر أهمية، بين الرفاه الديني للفرد وبين مسؤولياته وحرياته أمام القانون[347].

أصبحت الاختلافات بين القانون الكنسي والقانون المدني في بعض الأراضي المسيحية حادة جدًا. في إنجلترا، اشتُق القانون العام من قرارات القضاة المحليين في قضايا محددة، تلك القرارات كانت مبنية على عادات محلية وقد أوجدت سوابق قانونية بشكل فعّال[348]. كما أشار الباحث القانوني Richard Posner لو أن دليل هؤلاء القضاة كان مجموعة واحدة من المبادئ، فإنها ستكون الكفاءة الاقتصادية وليس الدين[349].

حتى إن بعض العلماء جادلوا بأن القانون العام كان له تأثير سياسي تحريري بسبب تطوره بمعزل عن السلطة الملكية. بغض النظر عن الجدوى الفعلية لهذه الاستقلالية عن السلطة الملكية فإن ما يبدو مفروغًا منه هو أن لا الكهنة ولا الكنيسة ساهما في تطبيق القانون العام وظهوره.

في قشتالة –التي انخرطت منذ البداية في حرب دورية مع الغزاة المسلمين وكانت مِصدًا لهم وبالتالي كانت في حالة "مجتمع حدودي" لقرون عديدة- حدث تطور مشابه: كان ثمة قاضٍ، قاضٍ تشريعي، واضع للقانون، قانون نشأ من فكرة العدالة المناسبة للقشتالين، حسب تعبير أستاذ القانون الإسباني Ramón Peraltaالذي يختتم: "نحن إزاء القانون بوصفه مُنتجًا اجتماعيًا"[350]. يُلاحظ المؤرخ الإسباني Miguel Angel Ladero Quesadaأن القضاة استندوا في قراراتهم جزئيًا إلى "قانون تقليدي متجذر لدى جمهرة السكان، وعلى المعرفة بالقانون الذي تضمنه إحالاته الشفوية"[351]. مؤخرًا تم تدوين هذا القانون المتطور المستند إلى التقليد في *fueros* أو حقوق المدن، التي أكدها التاج في المواثيق الملكية. تضمنت *fueros* الحقوق والواجبات على شكل "تشكيل من الحريات والامتيازات فيما يتعلق بالتدابير القانونية ودفع الضرائب والاقتصاد"[352].

ومن السمات الأخرى لهذا المجتمع الحدودي المسيحي الإسباني، كما يقول لاديرو كويسادا Ladero Quesada كانت "الاستقلال الإداري والوظيفي لمجالس

المدن" لا سيما بعد الربع الثاني من القرن الثاني عشر[353]. كان من المهم في إدارة القانون الانتخاب الشعبي لرؤساء البلديات المحليين أو *alcaldes* (اسم مُشتق من الكلمة العربية القاضي، على الرغم من أن هذا الموظف المُسلم لم يُنتخب من قبل الشعب بل تم فرضه من قبل الحكّام المسلمين)[354]. والسلطة الإقطاعية العلمانية المحدودة لكن الأساسية كانت جزءًا من هذا المزيج القانوني القشتالي المعقد.

لكن مرة أخرى، لم يقم الكهنة ولا الكنيسة باستحداث أو إدارة القانون[355]. كان كل هذا بعيدًا من الناحية المفاهيمية والوجودية عن حالة المسلمين في الأندلس، بما تمتاز به من احتكار ديني/ قانوني وإداري من قبل طبقة من المفكرين الدينيين.

المذهب المالكي في الفقه الإسلامي:

كان الحكّام المسلمون في الماضي أكثر تسامحًا مع أتباع الديانات الأخرى من المسيحيين. على سبيل المثال، الولايات الأندلسية متعددة الثقافات والأديان التي كان يحكمها المسلمون أفسحت الطريق لنظام مسيحي متعصب بشكل صارخ حتى مع المعارضين المسيحيين، وقد قدم لليهود والمسلمين فقط الخيار بين التحول القسري والطرد (أو ما هو أسوأ).

الإسلام والغرب: ألن يلتقي الاثنان بسلام أبدًا؟ الإيكونوميست، 15 نوفمبر 2001.

لا ينبغي أن يفترض المرء أن الأنظمة القانونية تشير إلى كيفية تطبيق القانون أو إطاعته. يمكن لأي شخص أن يجد أمثلة في زمانه ومكانه حيث لا يعكس القانون ما يفعله بعض الأفراد أو ما يختار بعض الحكّام فرضه أو يقرره القضاة[356]. في العمل ضمن نفس النظام القانوني قد يختلف القضاة في تفسيرهم للقانون[357]. انتهك الناس في إسبانيا الإسلامية بالطبع أوامر دينهم وأعراف مجتمعهم وربما عوقبوا أو لم يعاقبوا من أجل ذلك. علاوة على ذلك، ربما لعبت الرشوة الموجودة في كل ثقافة، دورًا في تطبيق الشريعة الإسلامية في الأندلس كما في كل مكان آخر. لم تكن إسبانيا الإسلامية فريدة في فشلها في إنفاذ القانون، أو في جعل القانون مرنًا ومُتنازعًا عليه في الحياة اليومية[358]. أمثلة مماثلة يمكن العثور عليها بذات القدر في إسبانيا المسيحية في القرن السابع أو السادس عشر كما في القرن الحادي والعشرين في الولايات المتحدة. لكنهم لا يقللون أهمية مراعاة النظام القانوني لثقافة معينة من أجل فهم عاداتها وأخلاقها ومعتقداتها. كما كتب إدوارد غيبون "تشكل قوانين الأمة الجزء الأكثر دلالة في تاريخها"[359]. إذا كان لدينا، كما هو الحال مع إسبانيا الإسلامية، العديد من الحالات القانونية الفعلية والسير الذاتية للقضاة والروايات التاريخية وشبه التاريخية، والمراسيم القانونية

والأطروحات في الفقه، يمكننا تشكيل لوحة دقيقة إلى حد ما للحياة اليومية لأولئك الخاضعين للقوانين والضوابط التي كان من المفترض أن توجه مجتمعهم.

من بين الأطروحات القانونية العديدة وتشكيلة القضايا والكتابات ذات الصلة، كان أكثرها قراءة كتاب التفريع المكتوب تحت الحكم الأموي من قبل الفقيه ابن الجلّاب (توفي 988). هذا الدليل، الذي يستشهد بالإمام العظيم أنس بن مالك بوصفه أول مرجع شرعي له، استُخدم على نطاق واسع لدرجة أنه بقي مُتداولًا حتى بعد الهزيمة النهائية للمسلمين في 1492: ثمة نسخ منه باللهجة الإسبانية "الجميادو" مكتوبةً بالحروف العربية استخدمها المدجنون "*mudéjares*" "المسلمون إبان استعادة الكاثوليك لأراضيهم" ولاحقًا بين الموريسكيين (المسلمين الذين من المفترض أنهم اعتنقوا الكاثوليكية والذين ظلوا في إسبانيا بعد 1526)[360]. كذلك كان أكثر تأثيرًا الأطروحة المالكية في شمال إفريقيا في القرن التاسع "المدونة"[361]، العتبية المكملة[362]، رسالة ابن زيد القيرواني "مالك الأصغر" التي تعود إلى القرن العاشر، وأطروحة القرن الثاني عشر "مذاهب الحكّام"[363]. الدليل التشريعي "تحفة الحكّام" من قبل الفقيه القرطبي الشهير محمد بن عاصم الأندلسي (1359- 1427) زاخر بالمعلومات ولا يزال يُستخدم حتى اليوم في محاكم الاستئناف الشرعية في نيجيريا وغرب إفريقيا[364]. كتاب الإرشادات العظيم للقضاة الذي كتبه العالم المشهور ابن رشد (1126-1198) -المعروف في الغرب باسم "الفيلسوف ابن رشد Averroes"- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، يُضيء الإطار القانوني المالكي الذي عاش المسلمون وأهل الذمة الخاضعون لهم في ظله[365]. في نهاية المطاف، يجب على طالب النظام التشريعي المالكي في الأندلس أن يذهب إلى التشكيلة العظيمة من المواد الدينية وبالتالي التشريعية أي، الموطأ "الطريق السهل"، أو "الطريق المطروق" لمؤسس المذهب المالكي في الشريعة الإسلامية، الإمام مالك بن أنس (711-795) كما رواه تلميذه الأندلسي يحيى بن يحيى بن كثير الليث الأندلسي. كما لاحظ المستعرب الإسباني J. M. Forneasأن تأثير الموطأ في الأندلس كان كبيرًا جدًا على "مشكلات ومواقف عظيمة، كما على التفاصيل الأقل أهمية للوجود اليومي"[366]، لكن ربما يكون "تاريخ قضاة قرطبة" للخشني أكثر النماذج الكتابية الباقية إثارة للاهتمام، حيث يعطي سيرًا ذاتية للقضاة وأمثلة عن مداولاتهم وقراراتهم[367].

هذه والعديد من الوثائق الأخرى تشير إلى أن النظام التشريعي المهيمن في إسبانيا الإسلامية لمعظم تاريخها، بما في ذلك مملكة غرناطة، كان المدرسة "المذهب" المالكية، إحدى المدارس الرئيسة الأربع للإسلام السّنُي.

المالكية واحدة من اكثر المدارس مُحافظة، إن لم تكن الأكثر تحفظًا، وهو شرف ينسجم مع المدرسة الحنبلية السائدة في شبه الجزيرة العربية. ربما كانت المدرسة الحنفية هي الأقل تحفظًا (وإن كانت تدعو إلى الرجم في حالات الزنا، والخلاعة،

أحكام مُدرجة حتى في الدستور الباكستاني 1979)[368]. بينما تحتل المدرسة الشافعية مكانًا وسطًا بين المالكية والحنفية[369].

العديد من الحكّام الأمويين، بدءًا من هشام الأول (788-796) بمن فيهم عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، صرحوا بالمالكية مذهبًا رسميًا. كما أشار المستعرب الإسباني Miguel Asín Palacios، اعتمد الفقهاء في الأندلس على كتيبات المالكي في قراراتهم الفقهية[370]. كتب المقدسي في القرن العاشر، وهو جغرافي من العالم الإسلامي، أن العلماء في إسبانيا الأموية لم يتبعوا سوى تعاليم مالك وادعوا أن القرآن وموطأ مالك هما مرجعيتهم فقط[371].

تمسك العلماء الأندلسيون بشكل وثيق بالمالكية في شؤون العائلة والسلوك الشخصي والعلاقات بين الجنسين[372]. المحدث الكبير العالم ابن حزم، وهو ليس من أتباع المالكية، لاحظ أنه لم يكن هناك الكثير من الطوائف الإسلامية في الأندلس. في الواقع، أحرق أتباع مالك كتب ابن حزم وأجبروه على الرحيل[373].

يسجل المؤرخ المقري إفادة من قرطبة الأموية توضح السيطرة الاجتماعية للمرجعيات الدينية المالكية الممارسة خلال عصر الإسلام الذهبي هذا: "في ضواحي قرطبة، هناك 3000 من بيوت المزارع (فيلات حيث يجري تداول أنواع مختلفة من الأعمال) وفي كل واحد منها ثمة فقيه... يذهب المرء إليه من أجل تفسير الأعراف والشريعة. فقط أولئك الذين يحفظون الموطأ من بينهم من يمكنه أن ينطق بالفتوى، أو من يعرف 10000 من الأحاديث النبوية والمدونة. هؤلاء الفقهاء الذين يعيشون حول قرطبة يأتون إلى المدينة يوم الجمعة لتأدية صلاة الجماعة مع الخليفة، للسلام عليه وإطلاعه على ما يجري في المدن المجاورة"[374]. وهكذا لعب رجال الدين المالكيين دورًا مركزيًا في نظام الهيمنة التعسفي الذي أتقنه الحاكم الأموي "المتسامح" عبد الرحمن الثالث (انظر الفصل الرابع).

أثناء حكم الموحدين في إسبانيا (نحو 1163-1236) كانت المالكية مؤقتًا في حالة نقمة رسمية[375]. وكان هناك دائمًا فقهاء يختلفون مع الفقهاء الآخرين في هذه المسألة الشرعية أو تلك، كما يختلف القضاة في كل مكان أثناء العمل ضمن نفس النظام القانوني[376]. علاوة على ذلك، اشتبك رجال الدين هؤلاء بشكل متكرر وأحيانًا بعنف حول من يعرف النصوص الدينية بشكل أفضل، حول من تعلم أكثر خلال رحلته الأخيرة إلى المشرق، أو من هو الأكثر أصولية أو من هو الأكثر ألمعية بينهم[377]. في ممالك الطوائف في القرنين العاشر والحادي عشر، سمح الحكّام الأقل تدينًا لليهود والمسيحيين ببعض التأثير مما أضعف العلماء وليس من قبيل الصدفة أن هذا تزامن مع حضيض السلطة الإسلامية في إسبانيا العصور الوسطى. العديد من علماء اليوم اعتبروا أن التأثير اليهودي والمسيحي مثال رائع

عن التعايش والتسامح، ناهيك عن أن ملك إحدى هذه الطوائف التي يُفترض أنها مستنيرة، المعتمد الإشبيلي، التزم نصيحة العلماء المالكيين وأحرق كتب ابن حزم.

حتى بعد الحكم الأموي، استمرت المالكية في العمل وفق تضامن مثمر مع الحكّام الأندلسيين. القاضي المالقي (توفي 1105) حفظ الموطأ والمدونة[378]. وفقًا للصقندي، للكاتب الأندلسي من القرن الثالث عشر، كان سكان قرطبة أكثر الملتزمين غيرةً بأحكام المالكي "الأصلية"، وبالتالي لن يُسمى أي فرد قاضيًا ما لم يكن واضحًا أنه لن يغادر مدرسة مالك[379]. بقي نفوذ العلماء المالكيين في ظل حكم المرابطين قويًا كما كان أو حتى أقوى مما كان عليه في ظل الأمويين[380].

لم تقتصر المعرفة الفخورة بنصوص المالكي على الفقهاء الأندلسيين: بل شملت شعراء وغيرهم من الأدباء والأشخاص الذين يعتبرون جديرين بشكل خاص بسبب فضائلهم الشخصية ومهارتهم في شن حرب مقدسة ضد الكفار "الجهاد"[381].

العصر الذهبي للإسلام:

عقوبات على التجديف، الردة، البدعة، السحر، اللواط، السرقة والزنا

ما كان أكثر إثارة للدهشة من الإنجازات واسعة النطاق لإسبانيا الإسلامية هو الواقعة البسيطة أنه إلى حين تدمير آخر مملكة إسلامية من قبل الملك فرديناند والملكة إيزابيلا في 1492، تمكن مسلمو ومسيحيو ويهود إسبانيا من منح التسامح وحرية العبادة للأقليات بينهم.

مقدمة ناشر كتاب A Vanished World: Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain *(New York: Oxford University Press, 2006) by Chris Lowney*.

عالم مندثر: المسلمون والمسيحيون واليهود في إسبانيا في العصور الوسطى.

كما أكد مؤرخ الفقه الإسلامي عبد المجيد تركي أن المالكية في الأندلس كانت مشهورة بعدم التسامح مع وجهات النظر الأخرى للمسلمين[382]. حاول بعض العلماء اليوم التقليل من أهمية هذه الواقعة من خلال التأكيد على الافتقار إلى الثبات لدى المدارس الفقهية الإسلامية أو على مرونة المالكية أو من خلال تكرار أن المالكية لم تكن متجانسة[383]، لكن الأدلة من الأطروحات الفقهية الأندلسية ومن الروايات المُقارنة المعاصرة تشير بشكل كبير إلى تعصب المالكية الأندلسية الذي أشار إليه تركي وغيره من مؤرخي الفقه الإسلامي.

الدليل الفقهي المستخدم على نطاق واسع "التفريع" والذي استمر المسلمون في استخدامه حتى بعد الفتح المسيحي لغرناطة، فرض الموت على المعتزلة الهراطقة

غير النادمين[384] "ويُقتل الزنديق الذي يُظهر الإسلام ويُسِرّ الكفر ولا يُستتاب". كما نهى التفريع عن الزواج والتواصل الاجتماعي مع شخص يتبع أيًا من المذاهب التشريعية السنية وحتى إلقاء السلام عليهم. حتى ابن حزم، الذي لم يكن مالكيًا، وافق على وجوب قتل المرتدين العرب دون أن ينالوا فرصة الندم[385].

الجغرافي المقدسي لاحظ هذا التعصب في الأندلس. بالإضافة إلى ملاحظة اعتماد العلماء على المالكية، سجل أنهم إذا ما قبضوا على شافعي أو حنفي فإنهم يبعدونه، وأنهم إذا ما قبضوا على معتزلي أو شيعي فإنهم قد يقتلونه[386]. يخبرنا الأندلسي المالكي أشاري أبو بكر بن العربي (توفي 1148) "أصبح التقليد معتقدهم "أي المالكية" والمحاكاة مذهبهم". متى ما جاء شخص من الشرق بمعرفة جديدة منعوه من نشره وأهانوه ما لم يختبئ بينهم ويتصرف كمالكي ويضع علمه في موقع التبعية[387]. في أوائل القرن الرابع عشر، أكد العالم الأندلسي ابن الفخار القرطبي (توفي 1323) أن الفرق الهرطوقية كانت نادرة في زمنه ولم تعمّر طويلًا، وأنه حيث ظهر الهراطقة كان يمكن قتلهم[388]. حذّرت الأطروحات المالكية المستخدمة في الأندلس المسلمين مرارًا من "البدع" في الأمور الدينية.

تعرض الهراطقة للاضطهاد أيضًا في ممالك الطوائف الذين وُصفوا أحيانًا من قبل المؤرخين باعتبارهم متسامحين على نحو خاص. ملك غرناطة محمد بن نصر (قُتل في 1350) أثنى عليه المؤرخ ابن الخطيب لأنه "اشتد على أهل البدع وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة". ولقد تذوكر يومًا بين يديه أصول الدين فقال: أصول الدين عندي "قل هو الله أحد" وهذا "وأشار إلى سيفه"[389]. وذكر الخطيب أنه في مملكة الطائف في غرناطة لم يكن هناك ببساطة "لا هراطقة ولا طوائف"[390].

مثلت المالكية في إسبانيا على نحو جيد التقليد السني للغرب الإسلامي الذي كان تاريخيًا أكثر صرامة من التقليد السني لإسلام الشرق الأوسط. نقلًا عن العديد من المصادر الإسلامية في العصور الوسطى، أكد المستعرب المجري الكبير إغناز جولد تسيهر Ignaz Goldziher، أنه على العكس من الرأي الشائع، كانت ممارسة الإسلام في إسبانيا أكثر صرامة من الشرق[391]. غالبًا، يبدو أن وجود عدد كبير من السكان الكاثوليك في الشمال وفي وسطهم بالإضافة إلى اعتناق الإسلام من قبل عدد من السكان السابقين قد أدى إلى تعاظم حمية رجال الدين الأندلسيين في تشبثهم بالتعاليم المالكية. بعبارة أخرى، بعيدًا عن كونه باعثًا على التسامح، فاقم العيش إلى جوار المسيحيين الإسلاموية في الأندلس[392].

موطأ مالك مثال على "اختراق الحياة القانونية برمتها بواسطة الأفكار الدينية والأخلاقية" كما لاحظ الباحث الكبير في الشريعة الإسلامية يوسف شاخت[393]. كما هو الحال في العديد من الأنظمة القانونية، سواء كانت إسلامية أو غيرها،

كانت ممارسة المالكي في بعض الأحيان تتمتع بدرجة كافية من المرونة للتكيف مع الظروف، أو مع أهواء المفسِّر، شريطة أن يكون بارعًا بدرجة كافية لقراءة ومناقشة القانون بطريقة معينة. خير مثال على ذلك مناورات الفقهاء المُستخدمين لمواجهة كارثة طبيعية مثل الطاعون بطريقة لا تنتهك الشريعة أثناء اتخاذ تدابير صحية فعالة[394]. يمكن العثور على مثال آخر في رجال الدين البهلوانيين القانونيين المُستخدمين للالتفاف على تحريم الربا الإسلامي في مواجهة العوز الاقتصادي أو الجشع الواضح[395]. في بعض الأحيان قد يُقيل الحاكم قاضيًا معينًا، مما يخرب العملية القانونية برمتها[396]. بعبارة أخرى، آراء رجال الدين المالكيين القانونية كما آراء القضاة في كل مكان، يمكن لها أن تتأثر بتقواهم، بوضعهم وتفضيلاتهم، وبعوامل خارجية منها معادة الحاكم أو محاباته[397]. ومع ذلك، لم تكن مفاهيم مثل "التسامح"، "حرية الضمير" و"التكيف مع المتغيرات" غريبة أساسًا بالنسبة للمالكية. ابن حزم دعا بدوره المؤمنين المسلمين إلى رفض البدع لأن كل البدع عبارة عن هرطقة وستُدان بالسعير "القوم بالجملة ذوو أديان فاسدة وعقول مدخولة، وعديمو حياء ونعوذ بالله من الضلال"[398].

في ظل مدرسة الفقه المالكي كان المسلم الذي يمارس شعائر دين آخر بينما يتظاهر بكونه مسلمًا هو أسوأ أنواع المرتدين ويجب إعدامه ولو أعلن ندمه. (لسخرية القدر، في 1492 العديد من المسلمين واليهود الذين تحولوا إلى الكاثوليكية في ظل الحكم الكاثوليكي سوف يمارسون دينهم في الخفاء وهو عمل من أعمال الردة جعلهم أهدافًا لمحاكم التفتيش الإسبانية). بعد الموطأ 16–36.18.15نصت الأطروحة الفقهية المالكية "التفريع" على أن "ويُقتل الزنديق الذي يُظهر الإسلام "[399]. وبالمثل الرسالة: "ويُقتل الزنديق ولا تُقبل توبته، وهو الذي يُسِرّ الكفر ويُظهر الإسلام، وكذلك الساحر ولا تقبل توبته، ويُقتل من ارتد إلا أن يتوب ويؤخر للتوبة ثلاثًا، وكذلك المرأة"[400]. فقط المرتدون الصريحون أعُطوا الفرصة للعودة إلى الإسلام، ولكن إذا رفضوا يقتلون، وإذا أعلنوا ارتدادهم الصريح مرة أخرى بعد العودة إلى الإسلام يجب قتلهم، حدثنا يحيى عن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من غير دينه فاضربوا عنقه. ومعنى قول النبي (ص) فيما نرى والله أعلم أن من خرج من الإسلام إلى غيره، مثل الزنادقة وأشباههم، فإن أولئك إذا ظُهر عليهم قُتلوا ولم يُستتابوا؛ لأنه لا تُعرف توبتهم، وأنهم كانوا يُسرون الكفر ويعلنون الإسلام. فلا أرى أن يُستتاب هؤلاء. ولا يُقبل منهم قولهم"[401]. بحسب الفقيه القرطبي المالكي ابن رشد (المعروف في زمانه فقيهًا وقاضيًا عظيمًا ومُستشارًا للخليفة الموحد المعروف بقسوته، وإن كان بعض العلماء اليوم يتجاهلون تلك الأدوار ويتعاملون معه بوصفه الفيلسوف العظيم والمستنير ابن رشد Averroes) تلقى المرتدون عقوبة الإعدام دون تمييز بين الرجال والنساء: كلاهما يجب أن يُقتل[402].

يجب قتل الساحرات أيضًا، بحسب "التفريع" و"الرسالة" وأوامر "*Leyes de Moros*"[403]. لا يزال اضطهاد الساحرات في الإسلام السابق للحداثة ينتظر دراسةً سوسيولوجية "اجتماعية" من النوع الذي يُخصص بانتظام لاضطهاد الساحرات في أوروبا والأمريكتين، مع أن العقوبات الحثيثة التي فُرضت في الأندلس كانت ربما بمثابة رادع أقوى من محاكمات الساحرات الغربية الدراماتيكية طويلة الأمد[404].

من أجل الكفر على مُحمد أو الله شرّع "التفريع" الموت دون إمكانية التوبة: "من سب الله جل جلاله أو سب رسوله (ص) من مسلم أو كافر، قُتل ولا يُستتاب"[405]. الرسالة كانت حاسمة بالمثل: "ومن سب رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل، ولا تُقبل توبته، ومن سبه من أهل الذمة بغير ما به كفر، أو سب الله عز وجل بغير ما به كفر، قُتل إلا أن يُسلم"[406]. في قرطبة الأموية، أكدت سلطة المالكي عثمان بن كنانة (توفي 802) أن للحاكم أن يختار نوع العقوبة التي يريد إنزالها بالمجدف، إما بقطع الرأس أو الصلب[407]. المستندات القليلة التي وصلت إلينا تؤكد تطبيق هذه العقوبات. وافق القاضي سعيد بن سليمان البلوطي على إنزال الموت بالمجدّف[408]. في قرطبة الأموية بين 961 و976 حكم العلماء بالإعدام على رجل يُدعى أبو الحير بتهمة الإساءة للصحابة علانية ومطالبته بالسماح بشرب الخمر (شيء ممنوع صراحة، كما سنرى)[409]. في وقت مبكر من عام 919، أصدر قاضي قرطبة قرارًا بقتل امرأة مسيحية ذمية مذنبة لقولها علانية إن المسيح هو الله وإن مُحمد نبي كذاب[410]. في عام 1064 تم صلب مسلم في طليطلة التي يحكمها المسلمون للتجديف عند مدخل الجسر الرئيس للمدينة[411].

في تاريخ قضاة قرطبة، يعطي الخشني مثالًا تعليميًا آخر في عهد الحاكم الأموي عبد الرحمن الثاني في منتصف القرن التاسع. قام عبد الرحمن بعزل قاضٍ لحكمه على رجل مسلم مُتهم بنطق كلام مُسيء بحق الله – كفر، بعقوبة أقل صرامة من الموت. ثم سمى الحاكم قاضيًا جديدًا، جعل الرجل الآثم يعاني الموت المنصوص عليه في الفقه المالكي: الصلب[412]. أثناء وضعه على الصليب، صاح الرجل أنه بريء وأنه يؤمن أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا نبي الله، لكن توبته لم توقف صلبه[413]. ثمة رواية لا تزال باقية عن عقوبة عالم مُتهم بالتجديف في عهد عبد الرحمن الثاني تُشير إلى أن المُجدّف في إسبانيا الإسلامية يمكن أن يُصلب وأن يُطعن على الصليب، وهو مزيج غريب كان في الواقع سويًا تبعًا للعقيدة المالكية[414].

من المؤكد، كما هو الحال في إسبانيا الكاثوليكية، أنه يمكن للسلطات أن تعرف ما الذي يشكله التجديف في ضوء مصالحها الحالية، وقد يُمنح المُجدّف الفرصة للتوبة والعودة إلى الصراط المستقيم. بقيت حياة المُجدّف دائمًا، رغم ذلك، في خطر جسيم في الأندلس.

البدعة كان يُعاقب عليها بالموت أيضًا، رغم أن الظروف أو توسط الحاكم، يمكن أن تُنقذ العالم المُسبب المُشتبه بهرطقته. يسجل الخوشاني أن أحدهم كان مُفضلًا للحاكم الأموي عبد الرحمن الأول (حكم 852-886) وكان مُتهمًا بتني آراء هرطوقية. قرر فقهاء قرطبة أنه يستحق الموت "لاقتلاع الآثار السيئة التي قد تسببها أفكاره". الطريقة الوحيدة التي وجدها محمد لإنقاذه هي عزل القاضي الذي نوقشت القضية أمامه، وبالتالي إبطال العملية القانونية، التي طواها النسيان بعد ذلك من خلال العطالة القانونية[415].

أطروحات الشريعة الإسلامية التي استخدمها المسلمون حتى في ظل الهيمنة المسيحية نصّت على موت المسلم الذي لم يعلن عن توبته من الهرطقة، بعد ثلاثة أيام في السجن، وبعد قتله تُصبح أملاكه ملكًا للمجتمع. كانت الردة والتجديف أسوأ من الهرطقة في هذه الأطروحات، إذا مارس المسلم دينًا آخر في الخفاء فيجب أن يُقتل ولا يأخذ نفيه أو نذوره في التوبة بعين الاعتبار، يجب قتل المسلم الذي يهين الله، وكل من يُهين مُحمدًا يجب قتله وعدم قبول توبته[416].

امتدت عقوبة الردة إلى ما بعد القبر. عبد الرحمن الثالث (حكم 929-961) مؤسس ما يُفترض أنه الخلافة الأموية المتسامحة في قرطبة نبش قبر المتمرد عمر بن حفصون وعرضه للتدنيس العام، كان عمر ابن عائلة مولدية من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام وقد اتُّهم بأنه مات مسيحيًا[417].

في تاريخ قُضاة قرطبة للخشني، إذا ثبت أن مسلمًا قد مات مرتدًا إلى المسيحية تُنقل ممتلكاته إلى المال العام (مال الحاكم في الواقع)[418]. تملي الرسالة المالكية أنه حيث أعدم مرتد، فإن ممتلكاته تُنقل إلى الجالية المسلمة[419]. يقول "التفريع" إن المسلم الذي ترك الإسلام جهرًا يمكن أن يُمنح الفرصة لإعادة النظر، إذا تاب وأعاد التحويل سيتم قبوله مرة أخرى، لكن إذا رفض يجب أن يُقطع رأسه ولا يرث أقاربه شيئًا من ممتلكاته[420]. نصّت المدونة أنه إذا ارتد المسلم مرة أخرى بعد التوبة فإن جميع أحكام الردة القرآنية، ما عدا التشويه، ستُلحق به قبل قتله[421]. العتبية تردد صدى أصلها، المدونة، موضحة أنه إذا هاجم المرتد المسلمين وأخذ غنيمة منهم يجب أن يُقتل دون أن يُعطى الفرصة للتوبة. على النقيض من ذلك، إذا سلب مسلم في حال ارتداد أو قتل مسيحيين، فهذه عوامل لا تشكل عائقًا أمام منحه التوبة. وإذا عاد مرة أخرى إلى الإسلام، لا يُعاقب بما أن قانون القبيلة يُطبق بين المسلمين ولكن ليس على مسلم، حتى المرتد الذي يؤذي أو يقتل مسيحيًا[422]. الردة من قبل الزوج أو الزوجة تفضي إلى نهاية الزواج تلقائيًا[423]. وينص التفريع على أن المرأة والمسلم الأسير الذين ارتدوا عن الإسلام ولم يتوبوا يجب قتلهم إذا وقعوا بين أيدي المسلمين: "إذا تحولت امرأة إلى دين آخر ولم تعلن ندمها، اقتلوها، والأمر ذاته بالنسبة للأسير: اقتلوه إذا تحول إلى دين آخر"[424].

قد لا يحمي المنصب الرفيع أي شخص يُشتبه في ارتداده. كما رأينا في المقطع الأول، تم قطع رأس ابن موسى بن نُصير، الذي خلف والده كحاكم إسلامي لإسبانيا المسلمة، من قبل ضباطه بينما كان يصلي في المسجد بعد أن اتخذ زوجة له أرملة رودريغو ملك القوط الغربيين وبدأ يُظهر ميولًا مسيحية[425].

ينص موطأ مالك على رجم الرجل اللوطي، حتى لو كان غير متزوج[426]. رجم اللوطي كان لا يزال العقاب المنصوص عليه بعد مئات من السنين في الأطروحات التي كان يستخدمها المسلمون في ظل الهيمنة المسيحية، مع الإنذار، أنه إذا كان أحد اللوطيين قاصرًا، فيجب إطلاق سراح القاصر ورجم الراشد[427].

تُقطع يد اللص إذا سرق ربع دينار فما فوق "ومن سرق ربع دينار من الورق أو ثلاثة دراهم من الورق، فعليه القطع إذا سرقه من حرزه". لم تكن اليد تُقطع، مع ذلك، إذا كان اللص قد سرق فاكهة متدلية من الشجرة أو خروفًا من الجبال[428] "وحدثني عن مالك، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا قطع في ثمر معلق، ولا في حريسة جبل" لاحظ ابن رشد باستحسان أن مالك والشافعي وافقا على صواب بتر اليد اليمنى للسارق ثم قدمه اليسرى على خلاف، ثم اليد اليسرى إذا سرق اللص لمرة ثالثة، ثم قدمه اليمنى إذا سرق مرة أخرى[429]. "واختلف مالك والشافعي وأبو حنيفة، بعد اتفاقهم على قطع الرجل اليسرى بعد اليد اليمنى، هل يقف القطع إن سرق ثالثة أم لا؟ فقال سفيان وأبو حنيفة: يقف القطع في الرجل، وإنما عليه في الثالثة الغرم فقط. وقال مالك والشافعي إن سرق ثالثة قطعت يده اليسرى، ثم إن سرق رابعة قطعت رجله اليمنى، وكلا القولين مروي عن عمر وأبي بكر".

كما سنرى في الفصل الخامس، كان الرجم عقوبة الزنا بحق امرأة مسلمة حرة متزوجة "مُحصّنة" في الأندلس، وكان ختان الإناث يُعتبر "مُشرفًا". معظم المستعربين وخبراء أكاديميون آخرون في الدراسات الإسلامية بالإضافة إلى الكتّاب الشعبيين أغفلوا هذه المواضيع وغيرها في رواياتهم التمجيدية لهذا العصر الذهبي للإسلام. كما شرح ابن حزم، أن الزانية يجب أن تُقتل حتى لو كانت مُسلمة مثالية وحتى لو أعلنت توبتها[430].

شرب الخمر والأكل:

بسبب الحظر الصارم على أي شكل من أشكال النشوة، كانت القهوة مسألة شائكة حقًا تتطلب نظرًا. كان خاير بك أول شخص حاول توفيرها، سرعان ما قام بتجميع فريق من الرجال المتعلمين، أطباء ورجال دين.. التأثيرات المعتدلة المتأصلة في الإسلام طالبت بعدم حظرها على أساس شعور التقوى المُغالى به، لكن ربما كانت القهوة ضارة للجسم؟

أنتوني وايلد، القهوة: تاريخ أسود. (*New York: W. W. Norton, 2005),*) *(49–50)*.

التأكيد على الانضباط والتحكم الذاتي الذي كان مركزيًا في الأطروحات التشريعية الأندلسية الإسلامية في العصور الوسطى أعدّ قواعد ملموسة حكمت فعليًا جميع جوانب الحياة اليومية للفرد. على سبيل المثال، القواعد التي أمرت الذكور بعدم التزين بالجواهر أو ارتداء الخواتم الذهبية أو الفضية أو غيرها من الحلي، أو ارتداء ملابس مصنوعة من الحرير، أو تشويه أجسادهم التي منحهم الله إياها بالوشم، أو الشرب بأوانٍ من الذهب أو الفضة، أو ترف اقتناء الأشياء المصنوعة من الذهب أو الفضة في منازلهم، أو لعب النرد أو الشطرنج، الأكثر تخريبًا من النرد[431]. "ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لباس الحرير، وتختم الذهب، وعن التختم بالحديد. ولا بأس بالفضة في حلية الخاتم والسيف والمصحف، ولا يُجعل ذلك في لجام ولا سرج ولا سكين، ولا في غير ذلك" هكذا تُذكّر الرسالة المسلمين أن: "لا يجوز اللعب بالنرد ولا الشطرنج، ولا بأس أن يُسلم على من يلعب بهما، ويُكره الجلوس إلى من يلعب بها والنظر إليهم" (45.03).

كانت أوامر منع شرب الخمر متوافقة مع القواعد الأخرى التي تضفي الرصانة والقوة على المؤمنين، لكن هذه القواعد كانت لها أهمية خاصة في إسبانيا الإسلامية نظرًا لانتشار شرب الخمر بين السكان المسيحيين في الأندلس وفي الممالك المسيحية المجاورة، الذين ربما دنس وجودهم المسلمين وقوّض بلا شك التقيد الصارم من قبل المسلم الصالح بتحريم الشريعة لشرب الخمر. تسجل الوثائق من قرطبة الأموية في القرن العاشر عقابًا مزدوجًا ضد الشخص الذي يصنع ويبيع الخمر[432]. يأسف الخشني أن بعض القضاة قد منحوا عقاباً "رقيقًا للغاية" للسكارى حتى إنهم حولوا أعينهم بعيدًا عن مظاهر السكر[433]. "كان محمد بن زياد يومًا يمشي مع محمد بن عيسى الأعشى، حتى لقيا رجلًا يتمايد سكرًا، فأمر القاضي محمد بن زياد بأخذه ليقيم عليه الحد، ثم مشوا قليلًا، فأتوا إلى موضع ضيق، فتقدم القاضي وتأخر الأعشى، ففي تأخره عن القاضي التفت إلى الذي كان يمسك السكران فقال: يقول لك القاضي أطلقه، فأطلقه، ثم افترقا جميعًا".

حتى حكّام ممالك الطوائف الماجنون غالبًا يمكن أن يكونوا قُساة في عقوباتهم على المخالفين. المؤرخ الخطيب أثنى على حاكم غرناطة محمد بن نصر لأنه "كان صارمًا ضد أولئك الذين لم يلتزموا بواجباتهم الدينية" و"متحمسًا جدًا في تطبيقه للعقوبات الشرعية وفي عقاب أولئك الذين شربوا المشروبات الكحولية"[434].

في أواخر القر ن السادس عشر، فرضت الأطروحات الشرعية المستخدمة من قبل المسلمين في ظل الهيمنة المسيحية ثمانين جلدة بحق من شرب النبيذ ولو كان

ممزوجًا بالماء. يجب أن يتلقى المتجاوز الجلدات بينما هو صاح. إذا عاد للشرب، يجب أن يُقتل بعد نكوصه الرابع[435].

بالطبع، كما في كل مجتمع، سينتُهك القانون من قبل الأقوياء، الأثرياء والسكارى. يذكر ابن حزم خليفة أمويًا واحدًا في الأندلس وبعض حكّام آخرين في الأمة يُشاع أنهم شربوا الخمر[436]. "أول من ذُكر ذكرًا فاشيًا بشرب الخمر: يزيد بن معاوية ثم يزيد بن عبد الملك –دون مجاهرة بذلك ولا إعلان به- ولكن الوليد بن يزيد جاهر باستصحاب المغنين فقط... إلخ".

ومع ذلك فإن الفهم المالكي للشريعة لا يترك مجالًا للشك في الأمر. يعلن الفقيه المالكي ابن رشد (Averroes): الدنس نوعان. أولهما يتعلق بما اتفق المسلمون جميعًا على تحريم بيعه. الخمر من هذا النوع[437]. القضاة الذين أشرفوا على السلوك الصحيح في الفضاء العام في الأندلس، المحتسبون، كان بوسعهم دخول المنزل والقبض على السكارى إذا سمعوا أصوات العربدة[438]. يؤكد "التفريع" أنه يجب عقاب العبد الذي شرب النبيذ أو أيًا من المشروبات الكحولية الأخرى وأن أيًا من صنع خمرًا يشربه المسلمون يجب ألا يُعاقب فقط وإنما تدمير عملية صنع الخمر برمتها[439]. "ومن شرب خمرًا أو شرابًا مُسكرًا فسكر منه أو لم يسكر فعليه الحد ثمانون جلدة، وليس عليه حبس أو نفي". ويشير ابن رشد إلى أن الإجماع بين الفقهاء كان استنادًا إلى رؤى الخليفة عمر الذي كانت عقوبة الثمل وفقًا له ثمانين جلدة[440]. في الواقع، يأمر "التفريع" بثمانين جلدة لمن شرب مشروبًا كحوليًا سواء ثمل الشارب أم لم يثمل[441]. ينص الموطأ (الكتاب 41-42) على أن المسلم الحر الذي تفوح من أنفاسه رائحة الخمر يجب أن يُجلد ثمانين جلدة (كانت العقوبة نصف هذا العدد للعبد).

شرب الخمر يمكن أن يكون له عواقب سياسية وخيمة. ويمكن أن يُفسد عمل الخليفة: وفقًا لمؤرخ القرن الثالث عشر عبد الواحد المراكشي كان الشغف بالنبيذ هو العامل الرئيس في منع عبد المؤمن (توفي 1163) الابن الأكبر للخليفة الموحد من خلافة والده[442].

ألقى المؤرخون العرب باللائمة على تدمير ممالك الطوائف الفاسدة على الحكّام المنحلين: "بسبب نقص الرعاية من ملوكهم، بسبب تخليهم عن الحكم، وتخليهم عن الحرب، ولأنهم فوضوا السلطة، وبسبب تراخيهم وحبهم للعيش الكريم، بما أن الشغل الشاغل لكل واحد فيهم كان الخمر الذي يحتسونه والمغنيات اللواتي يستمعون إليهن والملاهي التي يقضون فيها أيامهم"[443]. "إلى أن صار ابن عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار. وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب. وذلك لأن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه، على ما كانت العادة جارية به، إلا أنه

في تلك الليلة زاد في التحفي به، والبر به على المعتاد، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه: لتضعن رأسك معي على وساد واحد، فكان ذلك. قال ابن عمار: فهتف بي هاتف في النوم يقول: "لا تغتر أيها المسكين، إنه سيقتلك ولو بعد حين". قال: فانتبهت من نومي فزعًا، وتعوذت ثم عدت، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت ثم عدت، فسمعته ثالثة، فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر، وقصدت دهليز القصر مستخفيًا به، حتى آتي البحر فأركبه، وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني، فأمر بطلبي، فطلبت له في نواحي القصر، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يتفقد الباب هل فُتح، فوقف بإزاء الحصير الذي كنتُ فيه فكانت مني حركة فأحس بي، وقال: ماذا يتحرك في هذا الحصير؟ ثم أمر به فنفض، فخرجتُ عريانًا ليس علي إلا السراويل، فلما رآني فاضت عيناه دموعًا وقال: يا أبا بكر، ما الذي حملك على هذا، فلم أر بدًّا من أن صدقته، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها، فضحك وقال: يا أبا بكر، أضغاث أحلام، هذه آثار الخُمار، ثم قال لي، وكيف أقتلك؟ أرأيت أحدًا يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء، وتناسى الأمر فنسيه، ومرت على ذلك الأيام والليالي، إلى أن كان من أمره ما سيأتي الإيماء إليه، فصدقت رؤيا ابن عمار، وقتل المعتمد نفسه كما قال".

حتى في الجزائر اليوم، حيث تسود المالكية، فإن النبيذ غير مقبول اجتماعيًا على الإطلاق حيث يقتصر بيع النبيذ على "المخازن المظلمة والمطاعم السياحية باهظة الثمن، أو أقبية نبيذ غير مشروعة" يكتب بيتر شوليرز، الخبير في تاريخ الغذاء. "إن استهلاك الفرنسيين لهذه الكميات الكبيرة من النبيذ يعتبره الكثير من المسلمين علامة على افتقار الفرنسيين للرصانة وضبط النفس والفضيلة"[444].

كان يُنظر إلى استهلاك لحم الخنزير، وهو أمر شائع بين المسيحيين في الأندلس على أنه مقرف خصوصًا[445]، لكن أطعمة محظورة أخرى تسببت بمشاكل مماثلة للتعايش أيضًا. الثوم، على سبيل المثال، كان مرفوضًا من قبل المالكية: "حدثني يحيى عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال "مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ -يَعْنِي الثُّومَ- فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا"[446].
يلاحظ شوليرز "أن استهلاك بعض الأطعمة كان جزءًا لا يتجزأ من الطريقة التي ميّز بها المسلمون أنفسهم أو تمايزوا بها عن الجماعات المسيحية واليهودية"[447].
كما نهت المالكية عن أكل لحوم الحيوانات ذات "الأسنان الأمامية العلوية" والحمير التي تُربى محليًا والخيول، كما جاء في الرسالة (40.24).

يقدم موطأ مالك أحاديث توضح تدني احترام المؤمنين الأندلسيين المسلمين لإفراط "الكفار" في الطعام والشراب. يقال إن مُحمد قد أشار في هذه السرديات إلى

أنه في حين يأكل المسلم في معي واحد يأكل الكفار في سبعة أمعاء، وأنه بينما يشرب المسلم الصالح في معي واحد فقط يشرب الكفار في سبعة أمعاء[448].

لو ساد الإسلام في العصور الوسطى في إسبانيا وأوروبا، لكان من المرجح اختفاء "ثقافات الخمر والبيرة" الغربية التي كان ممارسات المسيحيين لا تسمح بها فقط وإنما تعززها[449].

الموسيقى والغناء:

وفقًا (لرجل الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر) دي فونتينيل "مغاربة غرناطة، شعب أسود صغير، لوحتهم الشمس، ممتلئون بالذكاء والنار، عاشقون دائمًا، يكتبون الشعر ومغرمون بالموسيقى، وينظمون المهرجانات والحفلات الراقصة والبطولات كل يوم".

Golden —*John G. Jackson, "The Empire of the Moors," in ed. Ivan van Sertima, Professor of Africana*Age of the Moor, *Studies at Rutgers University (New Brunswick, NJ: .Transaction Publishers, 1991), 86*

جون جي جاكسون، "إمبراطورية المغاربة" في العصر الذهبي للمغاربة.

يدعي بعض العلماء اليوم أن الإسلام يمكنه، بعد كل شيء، قبول الموسيقى على الرغم من الممارسات والقوانين التي تحد الموسيقى بصرامة في المجتمعات الإسلامية المتزمتة اليوم، مثل مجتمعات شبه الجزيرة العربية وإيران. قد يكون هؤلاء العلماء المتعلمون على حق في فهمهم لكيفية مقاربة التعاليم الإسلامية للموسيقى، في حين أن العلماء المتعلمين في هذه المجتمعات الإسلامية ربما كانوا مخطئين، لكن مثل هذه النقاشات، رغم أنها مثيرة للاهتمام، ليست في نهاية المطاف ذات صلة بما حدث في التاريخ فعلًا.

الحقيقة هي أن المذهب المالكي للشريعة الإسلامية في الأندلس حرّم الآلات الموسيقية والغناء. كان للمحتسب سلطة الدخول إلى المنزل إذا سمع أصوات الآلات الوترية أو النفخية وتحطيمها[450]. قال محمد، قال لي أحمد بن عبادة: "كنتُ يومًا ماشيًا مع محمد بن سلمة، وهو على القضاء، فلقينا إنسانًا على رأسه غرارة، فيها شيء مستور وبيده كبر، فأمر القاضي بكسر الكبر، وعلم ولم يشك أن الغرارة مملوءة أكبارًا. فقال: أنزلوا الغرارة وانظروا ما فيها. فقال أحمد بن عبادة: فقلت له: ما عليك أن تفتش أمتعة الناس وخباياهم، إنما عليك أن تغير ما ظهر من المنكر... إلخ". يُسجل الخشني أنه في العهد المتسامح المُفترض للحاكم الأموي عبد الرحمن الثالث، أمر القضاة المحترمون للغاية بمصادرة أدوات

الموسيقى الشعبية وإتلافها[451]. بعضها كان آلات إيقاعية وهي آلات كانت المالكية تعاملها بشكل أكثر تساهلاً[452].

كان هؤلاء القضاة مثابرين تمامًا في اتباع تعاليم الدين الإسلامي. توضح رسالة القيرواني موقف المذهب المالكي من الموسيقى (التعليقات الموضوعة بين قوسين هي تعليقات المترجمين):

أشياء لا ينبغي للمرء أن يستمع إليها 27-40:

ولا يحل لك أن تتعمد سماع الباطل كُلهِ، ولا أن تتلذذ بسماع كلام امرأة لا تحُل لك، ولا سماع شيء من الملاهي والغناء.

تلاوة القرآن:28-40:

ولا قراءة القرآن باللحون المُرجعة كترجيع الغناء، وليُجلّ كتاب الله العزيز أن يُتلى إلا بسكينة ووقار، وما يوقن أن الله يرضى به ويُقرّب منه مع إحضار الفهم لذلك. (ولا ينبغي الاستماع إليه بالإيقاعات المنغمة. يجب احترامه وتلاوته بهدوء).

الذهاب إلى وليمة الزفاف 42.4:

ولتُجِب إذا دُعيتَ إلى وليمة المُعرِسِ إن لم يكن هناك لهو مشهورٌ ولا منكر بيٌّن، وأنت في الأكل بالخِيارِ وقد أرخص مالك في التخلف لكثرة زحام الناس فيها. (يُقال إن هذه توصية ويُقال إنها التزام. من الملزم قبول الدعوة إذا كان الشخص مدعوًا على وجه التحديد، ويضيف المزيد من الشروط المسبقة: ألا توجد الآلات الموسيقية المحرمة وما يُكره من الأشياء مثل اختلاط الرجال والنساء والأرائك الحريرية).

الفيلسوف الغزالي أكد وجهة نظر المذهب المالكي بشأن الموسيقى: "أما مالك "رحمه الله" فقد منع الغناء. قال "**إذا اشترى رجل جارية ووجدها مغنية**فله أن يردها بالعيب الذي فيها""[453]. المؤرخ العظيم الطبري يؤكد أيضًا أوامر المالكية ضد الغناء والموسيقى[454]. حذر الفقه المالكي المرأة من الاستماع إلى الآلات الموسيقية. لاحظ المستعرب Pascual de Gayangos باسكوال دي غايانغوس "لم تكن الموسيقى بوصفها علمًا معروفة تقريبًا بالنسبة للعرب قبل فتوحاتهم، لقد استعاروا من الأمم المهزومة معرفتهم بها، وكذلك أسماء جميع آلاتهم تقريبًا"[455]. تشير المصادر الموجودة، حسب الباحث عرفان شهيد، إلى التأثير الأجنبي للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية وبلاد فارس في تطور الموسيقى في شبه الجزيرة العربية[456].

حتى اليوم، إذا سمع المرء الموسيقى في المساجد المالكية فهي تقتصر على صوت الدفوف، وهي آلات لا تفضي إلى كتابة مقطوعات موسيقية رائعة.

بالطبع، لم تثنِ القيود المفروضة على الآلات الموسيقية والغناء بعض الحكّام وغيرهم من الشخصيات البارزة أو الأغنياء في الأندلس عن انتهاك القانون والأعراف. يسجل المقري، بينما يكتب في القرن السابع عشر ومُستخدمًا مواد أقدم بكثير، قصائد مُعّدة للموسيقى ويعرض أسماء الموسيقيين البارزين[457]. عبد الرحمن الثاني، رعى واستمتع بموسيقى زرياب Ziryab وهو فنان فارسي موهوب من القرن التاسع، مغنٍ وعازف قيل إنه أدخل الموسيقى إلى الأندلس من أجل أن يعزفها العبيد في البلاط. رفض أمناء الخزانة لدى عبد الرحمن، لأسباب دينية، أن يدفعوا للموسيقي من أموال الدولة، فدفع له الأمير من ماله الخاص[458]. أيضًا سيحاول أشخاص أقل بروزاً وبالتأكيد فعلوا في الاستمتا ع بالموسيقى والغناء، لكن انتهاك المحظورات القانونية يحدث في أي مجتمع، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم: يعتقد الأقوياء والأثرياء أن بوسعهم الإفلات من أي شيء، وغالبًا ما يفعلون ذلك. عزفت الموسيقى في إسبانيا الإسلامية طبعًا، وتشهد السجلات على بناء الآلات الإيقاعية والوترية في إشبيلية ومدن أخرى.

لكن النقطة المهمة هي أن الغناء والموسيقى وُجدا في الأندلس رغم التعاليم الإسلامية الأندلسية وليس بسببها. قاد التغاضي عن هذه الواقعة البسيطة إلى الكثير من العمل الأكاديمي غير الضروري الذي يناقش ما إذا كانت الموسيقى مسموحًا بها في الأندلس وإلى أي مدى[459]. حظرت المدرسة المالكية بوضوح الغناء والموسيقى. لهذا السبب كان المغنون والموسيقيون غالبًا من العبيد (كما سنرى في الفصل الخامس)، الذكور الورعون والنسوة المحصنات (بوجه خاص) لا يتجولون بما يغنون أو يعزفون الموسيقى. يُسجل الخشني طُرفة توضح هذا الازدراء الورع للموسيقى، وكذلك احتمال أن ينتهك الأقوياء التعاليم (وإن لم ينجح المخالف في هذه الحالة). القصة التي حدثت في عهد الحاكم الأموي الحكم الأول (796- 822) تتضمن القاضي الشهير يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن بشير، وهي تُروى من وجهة نظر يحيى بن يحيى:

قال يحيى بن يحيى: الحلم يزين الرجال. جئت عبد الملك بن مغيث يوم أربونة في الغزو، ومعنا سعيد بن محمد بن بشير، فكان يرسل إلينا ويستشيرنا، فلما غنم المسلمون وعظمت في أيديهم، قسم ما هنالك برأينا ومحضرنا، فقلت له في بعض ما دار بيني وبينه، أحب أن أكلمك بشيء يرق وجهي عنك فيه، فقال له يا أبا محمد: كل ما بلغ بك الحشمة فضعه عن نفسك. قال عبيد الله: فكان يحيى يعجب بهذا الجواب جدًا. قال فلما قفلنا، قال لي: يا أبا محمد، أردت أن أكرمكما أنت وصاحبك، قلت له: بماذا؟ قال: بأن أسمعكما سماعًا جيدًا، قال: فقلت له: أنت والله تريد هواننا لا إكرامنا، فقال لي: يا أبا محمد، لا تظن ذلك، فو الله ما

كان رأي من قبلك أن يبالغ في إكرامهم حتى يفعل ذلك بهم، قال، فقلت له: لا جزاهم الله خيرًا عن أنفسهم ولا عنك، فقد خانوا الله ورسوله. قال يحيى فاحتشم وكف.[460]

هذا الموقف الرزين تجاه الموسيقى بين المسلمين المؤمنين الممارسين في إسبانيا استمر حتى القرن السادس عشر. نحو عام 1567 دافع النبيل Francisco Núñez Muley عن زملائه الموريسكيين (المسلمين الذين تحولوا إلى الكاثوليكية) ضد تحريم التاج الإسباني لما يُفترض أنه ممارسات إسلامية غير لائقة. جادل بأن المسلمين الطيبين في إسبانيا لم يشاركوا أبدًا في احتفالات غير منظمة، أنه ما إن يبدأ الغجر، في الواقع، برقص الزامبرا *zambras* (رقص غجري، ليس مسلمًا، يتصل بطريقة ما بالفلامنغو) حتى يغادر الفقهاء المكان، وأنه حتى ملوك غرناطة المسلمون منعوا العزف الآثم على الآلات الموسيقية حين يمر الملك وحاشيته في شوارع المدينة[461].

لا يمكن أن تتطور أي موسيقى عظيمة ضمن ثقافة لا يدمج دينها الاستيعابي الموسيقى ضمن طقوسه بل ويرفض الموسيقى بوصفها شيئًا غير مرغوب فيه. لو أن إسلام العصور الوسطى قد هيمن في إسبانيا وأوروبا –لو لم يكن ثمة معركة تورز، ولا حرب الاستعادة، ولا معركة لاس نافاس دي تولوز Las Navas de Tolosa ولا معركة بوابات فيينا- ربما كان التطور الموسيقي في الغرب قد عكس نظيره في الأراضي الإسلامية. كان يمكن للموسيقى الغربية أن تتكون من القطع الشعبية البسيطة، المنقولة شفهيًا والايقاعية غالبًا، أو كان يمكن أن تكون ممنوعة برمتها. بعبارة أخرى، في مختلف الأحوال والظروف، ربما لم تكن ترنيمة الميلاد لتوجد ولا البوليفونية ولا الأراغن (التي تطورت كجزء من الموسيقى الكنسية الكاثوليكية الرومانية)، لا قداديس صوتية أو آلاتية لفيكتوريا، باخ، موزارت وبيتهوفن، لا سمفونيات، لا أوبرات، لا مؤلفين عظام ولا جاز[462].

عقبات عملية في وجه التعايش:

لا تتعلق أثمن دروس تلك الحقبة (الفتوحات الإسلامية) بالاستبداد والتعصب، وإنما كيف يمكن للإسلام أن يجتاز بفاعلية عالمًا تعدديًا.

First*Christian C. Sahner, "The Crescent and the Scimitar,"* *., May 2008, 55*Things

كان لطهارة الطقوس أهمية خاصة بالنسبة لرجال الدين في الأندلس بسبب قرب المسلمين من جماهير الكفار. كان المسيحيون على وجه الخصوص مصدرًا مُقلقًا للدنس المحتمل.

في حين لم يعترض مالك على استخدام المسلم للماء المتخلف عن حيض امرأة أو الماء المُستخدم من قبل مسلم في حال نجاسة، منع استخدام الماء المتخلف عن مسيحي، أو استعمال أي شيء لمسه مسيحي في الوضوء أو تناول طعام خلّفه مسيحي[463]. "يؤسس هذا الرأي تمايزاً حادًّا بين المسلم -حتى في حالة النجاسة- والمسيحي ويخلق حاجزاً أمام التفاعل" حسب تعبير المؤرخة جانينا صفران[464]Janina Safran. لم يكن من المستحسن أن تأكل حتى ما اصطاده المسيحي[465].

تناول الطعام في منزل مسيحي قد يسبب مشاكل كثيرة، إن لم يكن لشيء فسبب المخاوف المتعلقة بالطهارة. فوجبات المسيحيين قد تتضمن أطعمة محظورة مثل الثوم أو لحم الخنزير. ثم هناك الحاجز المتمثل في استهلاك المسيحيين للنبيذ (الذي يجد في مجتمعات مسيحية أخرى معادلاً له في شرب الجعة التي تشرب على الإفطار حتى من قبل البيوريتانيين الإصلاحيين)[466]. إذا لم تُطهر الأطباق وفقًا للشريعة الإسلامية قد تظل ملوثة بتلك الأطعمة والمشروبات المسيحية. في الواقع، حتى الأدوات المُستخدمة لإعداد الوجبات الممنوعة "المحرّمة" "وجبات المسيحيين عادة" يجب ألا تُستخدم لإعداد الوجبات الحلال "المسموحة".

في الأندلس الأموية في القرن التاسع حذر الفقيه المالكي ابن حبيب من أداء الوضوء بأي شيء لمسه المسيحي أو استخدمه[467]. تلاحظ صفران Safranبحذر أن هذا التحذير قد يتضمن أن على المسلمين الابتعاد أيضًا، على سبيل المثال، عن الحمّامات التي يستخدمها أو يمتلكها المسيحيون. تحتوي كل كتيبات الفقه المالكي في الواقع على العديد من التعليمات المتعلقة بالمشاكل المطروحة عن طريق الماء، الملابس والطعام الذي لمسه المسيحيون.

العالم المالكي يحيى بن عمر الكناني (توفي 901) الذي نشأ في قرطبة الأموية قبل أن يرتحل لمتابعة دراسته الدينية في مصر، بغداد والحجاز، حذر المسلمين من اليهود والمسيحيين الذين قد يحاولوا أن يختلطوا بالمسلمين في السوق من خلال عدم ارتداء القماش أو الحزام المميز المطلوب من كليهما[468]. إذا كان المسلمون يعيشون بين "أهل الكتاب" فيجب أن يستخدموا أوانيهم الخاصة في الطعام والشراب. فقط إذا لم يكن لديهم خيار آخر يمكنهم استخدام أواني الكفّار، وفقط بعد غسلها بعناية[469].

تؤكد الفتاوى في "العتبية" القرن التاسع أن الأماكن التي مستها أقدام المسيحيين العارية تصبح نجسة ويجب تجنبها. كان هذا بعض سبب تجنب المسلمين دخول الكنيسة حيث كان يُعتقد أن المسيحيين يخطون بأقدام عارية على أرض الكنيسة[470]. تؤكد العتبية أن مالك كان يعتقد أنه يجب منع المسيحيين من

بناء كنائس جديدة، وأنه يجب تدمير الكنائس في حال تم بناؤها. كان المسلمون ممنوعين حتى من المساعدة في تجديد الكنائس الموجودة[471].

الكلاب الشائعة في المنازل المسيحية والتي تُعتبر تقليديًا في الحضارة الغربية صديقًا مقربًا من الإنسان بقدر ما يعود هذا التقليد إلى الحضارة اليونانية (انظر أوديسيوس وحركته للقاء أرغوس في الأوديسة)، شكلت عقبة أخرى، بالإضافة إلى الخنازير (حيوانات يحتفظ بها المزارعون المسيحيون) في وجه التفاعل بين المسلمين الأندلسيين والمسيحيين. تمثل الرسالة وجهة النظر الإسلامية هذه: فهي تصف الكلاب بالوحوش النجسة دينيًا والتي يتوجب أن تبقى خارج المنزل، بوصفها مجرد مكملات في العمل والصيد (05-44). وبالطبع كان الطعام المسيحي مُحرمًا لأن المسيحيين لا يتبعون الذبيحة *dhabiha* أو طقوس الذبح الإسلامي للحيوانات التي تؤكل: تتضمن الذبيحة جعل الحيوان ينزف حتى الموت بنحره في العنق لقطع القصبة الهوائية، المريء والأوردة الوداجية لكن دون فصل رأسه عن جسده[472].

أنتج التمييز الصريح بين المسلمين وغير المسلمين كل أنواع العواقب بالنسبة لأهل الذمة المسيحيين. في الفقه المالكي كانت "دية" (التعويض عن الإصابة وبعض أنواع الموت) قتل مسيحي نصف تلك الخاصة بمسلم حر. إذا قتل مسلم مسيحيًا، لا ينبغي أن يُعاقب بالموت إلا إذا كان القتل غدرًا، في حين أن جريمة قتل مسلم حر يمكن أن تُعاقب بالموت. الجروح التي يمكن أن يلحقها عبيد مسلمون بالمسيحيين تم التعامل معها بشكل مختلف أيضًا[473] "ودية الكتابي نصف دية المسلم، ودية المجوسي ثمانمئة درهم. وديات نسائهم نصف ديات رجالهم" و"يقتل العبد بالحر، والذمي بالمسلم، ولا يُقتل (المسلم بالكافر، ولا حر بعبده، لا بعبد نفسه، ولا بعبد غيره)، ويقتل العبد بالعبد والأمة. وتُقتل الأمة بالأمة والعبد. وأمهات الأولاد والمكاتبون والمدبرون بمنزلة العبيد. شهادة المسيحي أو (اليهودي) لا يؤخذ بها في الخلافات بين المسلمين"[474]. لاحظ مالك "أعتقد أنه يجب إجبار المسيحيين على ارتداء الأحزمة". كان هذا مطلوبًا من كبار السن منهم في السابق. أعتقد أنه يجب إجبارهم على الخنوع. كتب عُمر أنه ينبغي تنصيبهم جانبيًا على ظهور الحمير "التوكيد مُضاف". عُمر (حكم بين 634-644) خلفًا لأبي بكر (632-634) بوصفه الخليفة الثاني بعد موت مُحمد وهو المؤلف المزعوم لـ"العهدة العُمرية" وهي وثيقة إسلامية سمحت للمسيحيين بممارسة دينهم في الداخل وفي ظل قيود صارمة لقاء الخضوع للمسلمين ودفع "الجزية"[475].

من قبيل الصدفة، وبعد قرون عديدة من مالك، أُجبر المسيحيون على ركوب الحمير جانبيًا خلال *"Tourkokratia"* (خلال هيمنة الأتراك المسلمين على اليونان لمدة أربعمئة عام). كما هو الحال في إسبانيا الإسلامية، يجادل بعض العلماء اليوم

أن هيمنة المسلمين على اليونانيين المسيحيين لم تكن سيئة للغاية بعد كل شيء[476].

تؤكد العتبية أنه يجب إرغام أولاد الأب المسلم والأم المسيحية أن يبقوا مسلمين إذا ما أرادوا أن يصبحوا مسيحيين أو أن يُقتلوا، أطفال المرتد حين كان المرتد لا يزال مُسلمًا يجب أن يُجبروا على البقاء مسلمين حتى لو لم يرغبوا بذلك، وأطفال المرتد لحظة لم يعد المرتد مسلمًا (وكان قد نجا من أجل إنجاب الأطفال) يجب إرغامهم على أن يصبحوا مسلمين إن لم يكونوا قد بلغوا سن الرشد بعد[477].

حتى في عام 1100، بعد قرون من الفتح الإسلامي لإسبانيا، تردد صدى الانشغال الوسواسي لرجال الدين الأندلسيين بالدنس المحتمل للكفار في المراسيم الصادرة في إشبيلية من قبل الفقيه ابن عبدون:

ويمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم، والتكشيف عليهم ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، ومن ركوب الخيل بالسروج والزي بما هو زي المسلمين، أو بما هو من أبهة، ويُنصب عليهم علمًا يمتازون به من المسلمين، كالشكلة في حق الرجال والجلجل في حق النساء، ويمنع المسلمين أن يحاولوا كل ما لهم فيه خساسة أو إذلال للمسلمين، كطرح الكُناسة ونقل آلات الخمر ورعاية الخنازير، وشبه ذلك، لما فيه من علو الكفر على الإسلام، ويؤدب من فعل ذلك". لا ينبغي للمسلم أن يُعنى بحيوان اليهودي أو المسيحي، ولا أن يخدمه كمكّاري "سائق البغال" (لا الكاثوليك ولا اليهود يمكنهم ركوب الخيل، المسلمون فقط يمكنهم ذلك)، ولا أن يُمسك بركابه. إذا عُرف أن أي مسلم يقوم بهذا الأمر يجب استنكاره، لا يجب السماح لليهودي أو المسيحي (غير المتحول) أن يرتدي زي الناس ذوي المنصب أو الفقيه أو رجل ذي مكانة (هذا الحكم يردد صدى العهدة العُمرية). على العكس من ذلك، يجب أن يُمقتوا ويُنبذوا وألا تُلقى عليهم التحية بصيغة "السلام عليكم" لأن الشيطان قد سيطر عليهم وجعلهم ينسون اسم الله. إنهم حزب الشيطان و"**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**". يجب أن يكون لديهم علامة مميزة تُبرز عارهم. (التوكيد مُضاف)[478].

تؤكد وثيقة محكمة من قرطبة الأموية في القرن العاشر أن المسيحيين كانوا ممنوعين حتى من المشي خلال مقابر المسلمين لأن مشيهم من خلالها من شأنه أن يلوثهم[479].

علماء اليوم المنهمكون بالتعايش *convivencia* المتخيل والتنوع يتغاضون عن أن الدنس المحتمل للمسيحيين بالإضافة إلى الأحكام العديدة للصلاة الإسلامية وطقوسها المعقدة في الطهارة والنهي عن تناول الطعام والشراب خلال اليوم في

رمضان قد وفر كل أنواع العقبات أمام الاندماج اليومي للمسلمين واليهود والمسيحيين[480]. في ضوء هذه وغيرها من القضايا، لم يساعد انقسام المدن الإسلامية بحكم الأمر الواقع إلى أحياء سكنية شبه مستقلة جهود الحكّام في الإبقاء على الهيمنة الإسلامية فقط وإنما أيضًا في الحفاظ على السلام بين السكان متعددي الثقافات في إسبانيا الإسلامية.

يلمح بعض العلماء كمثال على التعايش *convivencia* إلى مشاركة مسلمي قرطبة في القرن الثالث عشر في احتفالات عيد الميلاد. وتغاضوا عن واقعة أن الكاثوليكيين قد استعادوا قرطبة في 1236. لم تكن مدينة مسلمة. من المُضلل مُصادرة ما فعله بعض المسلمين في المدن التي سيطر عليها المسيحيون كدليل على التسامح الديني والانسجام في إسبانيا الإسلامية. في المدن التي سيطر عليها المسلمون كان المسيحيون ممنوعين من الاحتفال بشعائرهم علنًا، حتى في أحيائهم السكنية الخاصة (لم يكن ممكنًا عرض الصلبان حتى على جدران الكنيسة الخارجية أو في أعلاها، ولم يكن ممكنًا قرع الأجراس) وبالتالي لا يمكن للمسلمين أن يشاركوا في احتفالات عامة غير موجودة أصلًا. على أي حال، "استمتاع" المسلمين خلافًا للقانون خلال الاحتفالات المسيحية بطرق عديدة لا يعني المشاركة الحقيقة في الاحتفال، التي تستلزم القبول بولادة ابن الله، "ابن الله" المفهوم التجديفي من وجهة نظر المسلمين[481].

تُظهر مجموعة من الوثائق الشرعية الإسلامية من القرن الرابع عشر حُكمًا من فقيه مالكي في قرطبة الأموية في القرن التاسع من الواضح تمامًا أنها تتعلق بموضوع قبول المسلمين لهدايا من المسيحيين خلال عيد الميلاد (الأقواس للمترجمين)[482]:

وسئل أبو الأصبغ عيسى بن محمد التميلي عن ليلة ينير التي يسمونها الناس الميلاد ويجتهدون لها في الاستعداد، ويجعلونها كأحد الأعياد، ويتهادون بينهم صنوف الأطعمة وأنواع التحف والطرف المتوبة لوجه الصلة، ويترك الرجال والنساء أعمالهم صبيحتها تعظيمًا لليوم، ويعدونه رأس السنة أترى ذلك أكرمك الله بدعة محرمة لا يحل لمسلم أن يفعل ذلك، ولا يجيب أحدًا من أقاربه وأصهاره إلى شيء من ذلك الطعام الذي أعده لها؟ أم هو مكروه ليس بالحرام الصريح؟ أم مستقل؟ وقد جاءت أحاديث مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتشبهين من أمته بالنصارى في نيروزهم ومهرجانهم، وأنهم محشرون معهم يوم القيامة. وجاء عنه أيضًا أنه قال: "من تشبه بقوم فهو منهم". فأجاب: قرأت كتابك هذا ووقفت على ما عنه سألت وكل ما ذكرته في كتابك فمحرم فعلُه عند أهل العلم. وقد رويت الأحاديث التي ذكرتها من التشديد في ذلك ورويت أيضًا أن يحيى بن يحيى الليثي قال: لا تجوز الهدايا في الميلاد من نصراني ولا من

مسلم، ولا إجابة الدعوة فيه، ولا استعداد له. وينبغي أن يجعل كسائر الأيام، ورفَع فيه حديثًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يومًا لأصحابه: "إنكم مستتنزلون بين ظهراني عجم، فمن تشبه بهم في نيروزهم ومهرجانهم حشر معهم" قال: يحيى وسألت عن ذلك ابن كنانة، وأخبرته حالنا في بلدنا فأنكر وعابه وقال: الذي يثبت عندنا في ذلك الكراهية، وكذلك سمعت مالكًا يقول: لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من تشبه بقوم حشر معهم" المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب/ لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى بفاس سنة 914 / الجزء 11 ص 150-151.

يشير هذا الحكم إلى نوع الإغواء الذي قد يطرحه العيش في بيئة متعددة الثقافات بالقرب من المسيحيين النجسين بالنسبة للمسلمين الُتقاة؛ بيئة جعلت الإسلام في الأندلس أكثر صرامة لأنها أجبرت العلماء على الإتيان بطرق لمواجهة الإغواءات.

نهى الفقه المالكي في الأندلس عن الاختلاط حتى مع مسلمين من مذهب إسلامي آخر، ناهيك عن تشارك العيش مع اليهود والمسيحيين[483]. كما رأينا، حتى الفقهاء غير المالكيين مثل ابن حزم وافقوا على ضرورة البقاء بعيدًا عن المسيحيين. أدرك رجال الدين المسلمون محقين أن المشاركة حتى في الجوانب الأكثر سطحية من احتفال دين مغاير من شأنه أن يؤدي تدريجيًا إلى تآكل المعتقدات. في بعض الحالات لم يتخذ العلماء أي "إجراءات" لمنع هذه المشاركة، لكن ذلك كان خلال أوقات السيادة المسيحية، كما في قرطبة المُستعادة في القرن الثالث عشر. حتى حينها، مع ذلك، واجه العلماء ما هو أكثر إغواءً من الاحتفالات، أي عيد الميلاد، مع الاحتفالات بذكرى مولد مُحمد[484].

باختصار لم تتمتع إسبانيا الإسلامية بتعايش متناغم، بالأحرى كان تعايش المسلمين والمسيحيين واليهود متزعزعًا. كان على أعضاء المجتمعات الثلاثة التواصل بين الحين والآخر. قاموا بأعمال تجارية في بعض الأحيان أو تعاونوا مع بعضهم أو سكنوا إلى جوار بعضهم. كما هو الحال في كل مكان على وجه الأرض، فإن الأعضاء الأكثر لطفًا من السكان قد يساعدون "الآخرين" في حال الضرورة، على الرغم من اختلافاتهم الدينية، في حين قد يتبنى الأعضاء الأقل تقوى بعض ممارسات "الآخرين" الأكثر متعة على نحو أقل أو أكثر سرية. الباحث والقس رافائيل خيمينيز بيدراجاس Rafael Jiménez Pedrajas سجل عددًا من الأمثلة عن العطف بين المسلمين والمسيحيين، نقاطًا مضيئة في كتابه عن التاريخ الطويل للاضطهاد الديني للمسيحيين من قبل المسلمين في الأندلس[485]. كما يحدث في كل مكان حين تهيمن ثقافة على ثقافة أخرى، تم التقاط كلمات من إحدى اللغات هنا وهناك باللغات الأخرى. تبنت الشعوب

الخاضعة تدريجيًا زي ولغة الدين المهيمن –العربية- أو مزيجًا من اللغة العربية واللغة الخاصة بهم. بعض قادة المسيحيين الخاضعين والجاليات اليهودية والذميين، خدموا الحكّام المسلمين، أحيانًا في مناصب سيادية على المسلمين وبالتالي شكّل هذا مخالفة للشريعة الإسلامية. توقف العديد من المجتمعات المسيحية في النهاية عن الوجود ككيانات ثقافية متمايزة لأن أعضاءها تحولوا لتحسين حالهم وبسبب من التركيبة السكانية البسيطة التي ساعدها زواج المسلمين من نساء مسيحيات وإنجاب أطفال ينبغي تربيتهم كمسلمين، لكن الجماهير بقيت في أغلب الأحيان في أحيائها السكنية الخاصة، حيث قضت العائلات والإخوة في الدين معظم حياتهم وحيث يمكنهم ممارسة شعائرهم بكل سرور متجاهلين "الآخرين".

حاول بعض الأكاديميين اليوم أن يجادلوا بشكل يائس، وعلى العكس من الأبحاث السابقة (التي تم رفضها بأناقة بوصفها "استشراقية") أن المسلمين واليهود والمسيحيين لم يتقوقعوا في أحيائهم في المدن التي كان يسيطر عليها المسلمون.

هذا الموقف لا يصمد أمام التدقيق. تطورت المجتمعات المختلفة بشكل طبيعي حتى دون موافقة أو إلزام رسميين، حول المساجد والمعابد والكنائس. تحتوي الوثائق الإسلامية من العصور الوسطى على العديد من الإشارات إلى الأحياء السكنية الخاصة بالمسلمين واليهود والكاثوليك. على سبيل المثال، في عهد الأمويين حكم الفقيه المالكي ابن القديم (توفي 806) وابن الماجشون (توفي 829) أنه يمكن للكاثوليك أن يبنوا كنائس جديدة في إقليم غير مسلم إذا ما خضعوا للإسلام ودفعوا الجزية، طالما أنهم لم يبنوها في الأحياء المسلمة[486]. لا تخلو من دلالة أيضًا، تلك الفتوى المالكية من السيوري (توفي 1067) والتي تتعلق بالمشاكل التي خلقها شراء يهودي لمنزل في شارع مسلم: "استقر هناك وأزعج جيرانه بشرب الخمر وعمل الأشياء المنكرة الأخرى. بواسطة دلوه وحبله وإبريقه يستخرج الماء، مثل المسلمين، من بئر قريبة، ولذلك يرفض الجيران المسلمون استخدام البئر". ما لم يغير اليهودي سلوكه -حكمت الفتوى- فإن منزله سيؤخذ منه[487].

كما أن وجود أحياء سكنية إسلامية متمايزة واضح أيضًا في كل نسخ "العهدة العمرية" الشهيرة التي تحدث عنها مالك باستحسان. تحظر "العهدة العمرية" على المسيحيين حتى إصلاح الكنائس في الأحياء المسلمة، أو امتلاك منازل تُشرف على منازل المسلمين والتجمع في الكنائس الموجودة في أحياء المسلمين وعرض الخمر أو لحم الخنزير أو الصلبان في الأحياء المسلمة[488].

قدرة المتمرد ابن حفصون على مواجهة سلطة الأمويين لسنوات عديدة لم تكن نتيجة لقدرته العسكرية فقط وإنما أيضًا نتيجة للدعم الذي تلقاه من الأحياء

والقرى المأهولة بالمولدين والذميين المسيحيين.

أظهر البحث الأثري الذي قام به كل منBasilio Pavón Maldonado باسيليو بافون مولدونادو، Leopoldo Torres Balbás ليوبولدو توريس بالباس و Antonio Almagroأنطونيو ألماغرو فروقًا مألوفة في الأحياء المسلمة واليهودية والمسيحية في عدة مدن إسلامية في إسبانيا.

حتى إن عددًا من المدن الإسلامية كان لديها أبواب موسومة تحديدًا بوصفها "أبواب اليهود" (*Bab al-Yahud*)[489].

امتد التمايز إلى القبر: كان ثمة مقابر إسلامية ويهودية ومسيحية.

يشير المنطق العسكري إلى أن الحكّام المسلمين فضلوا الاحتفاظ بتقسيم المجموعات العرقية والدينية الثلاث داخل المدن الكبرى. لن تقلل تقسيمات كهذه من الاحتكاك فقط بل ستعمل أيضًا على تسهيل السيطرة في حالة الاضطرابات المدنية أو الحرب.

بشكل عام، تشير الأدلة إلى أن القادة الدينين المسلمين برروا الخوف من "الآخر" بوصفه مصدرًا للتأثير والتحول المحتمل، الاختلافات الواضحة بين الأديان في العبادة والممارسات التطهيرية والإملاءات والتحذيرات الإقصائية للشرائع الدينية ضد الاختلاط مع المجموعات الأخرى جعل العيش حتى ضمن الكتلة ذاتها أمرًا صعبًا في أحسن الأحوال[490].

تصاعد خوف رجال الدين المسلمين من التدنيس فقط بينما كان المسيحيون يستعيدون الأرض. اكتملت الاستعادة الإسبانية تقريبًا اعتبارًا من عام 1248 بعد الاستيلاء على إشبيلية. فقط مملكة غرناطة المتضائلة بقيت تحت الحكم الإسلامي. في الأراضي التي أُعيد احتلالها، سمح الكاثوليك للمسلمين، الذين سُموا بالمدجنين، بممارسة شعائرهم لكنهم منعوهم من النفوذ السياسي والعسكري ومنعوهم أيضًا من عرض الشعائر الإسلامية علانية –نفس النوع من القيود التي فرضها المسلمون ذات يوم على أهل الذمة المسيحيين في ظل نظام "الحماية" الإسلامي-. خوفًا من وهن العقيدة بين المُحتلين، أصدر العديد من العلماء فتاوى حثت المسلمين في الأراضي المحتلة "المسلمين الخاضعين" على مغادرة بلاد الكفر "دار الحرب" والانتقال إلى الأراضي الإسلامية "دار الإسلام"[491]. في معاهدة الاستسلام عام 1492 أدخل آخر الملوك المسلمين لغرناطة فقرة تشترط عدم السماح لليهود بسلطة على المسلمين أو تحصيل أي ضرائب منهم[492].

أسطورة التسامح الأموي

محاكم التفتيش، قطع الرؤوس، الخوزقة والصلب

إسبانيا المسلمة.. شهدت عصرًا ذهبيًا بدأ في النصف الأخير من القرن الثامن في ظل الحكم المستنير للسلالة الأموية المتمركزة في قرطبة.

—Mark Tessler, Samuel J. Eldersveld Professor of Political
A History of the Israeli-*Science at the University of Michigan,*
*(Bloomington: Indiana University Press,*Palestinian Conflict
1994), 22

عندما تم غزو الأندلس من قبل سلالات شمال إفريقيا المُحافظة، المرابطين والموحدين، تم تقويض سياسة التسامح التقليدية.

—Jerrilynn D. Dodds, Professor of Art History at Sarah
Convivencia: Jews, Muslims, and*Lawrence College, in*
*, ed. Vivian B. Mann, Adjunct*Christians in Medieval Spain
Professor of Jewish Art and Visual Culture at the Jewish
Theological Seminary; Thomas F. Glick, Professor of
Medieval History and Director of the Institute for Medieval
History at Boston University; and Jerrilynn D. Dodds (New
York: G. Braziller in association with the Jewish Museum,
1992), 119

Jerrilynn D. Dodds أستاذة تاريخ الفن في كلية سارة لورنس، في التعايش، اليهود والمسلمون والمسيحيون في إسبانيا في العصور الوسطى. تحرير، فيفيان ب مان أستاذة مساعدة في الفن اليهودي والثقافة البصرية في المدرسة اللاهوتية اليهودية، توماس إف جليك أستاذ تاريخ العصور الوسطى ومدير معهد تاريخ القرون الوسطى بجامعة بوسطن وجيريلين جي دودز(*New York: G.* *Braziller* بالاشتراك مع المتحف اليهودي 1992)،119.

مثل معظم الأشياء المتعلقة بإسبانيا الإسلامية، تمت الإشادة بحكم الأمويين بحماس من قبل العديد من الأكاديميين المعجبين اليوم، سواء كانوا خبراء في الدراسات الإسلامية أم لا، بوصفه مثالًا مُلهمًا على التسامح والتعايش المشترك للأديان الثلاثة (الإسلام واليهودية والمسيحية).

في الواقع، كما قال ابن حزم بابتهاج، إن الأمويين كانوا من بين كل سلالات إسبانيا الإسلامية "الأكثر ابتلاءً بأعداء الله"[493].

رفع الأمويون المشهورون فعليًا من مستوى الاضطهاد الديني والسياسي ومحاكم التفتيش، قطع الرؤوس، الخوزقة والصلب إلى ذرى لا مثيل لها من قبل أي مجموعة أخرى من الحكّام السابقين أو اللاحقين في إسبانيا.

"التسامح" تجاه المسيحيين:

كان (المرابطون والموحدون) مختلفين جدًا عن أسلافهم العرب. كانوا مدفوعين بأرثوذكسية "أصولية" متحجرة جعلت من المستحيل الحفاظ على الانفتاح الفكري الذي دام قرونًا والذي جعل من إسبانيا الأموية مكانًا للبحث العلمي والفلسفي.

Kwame Anthony Appiah, Laurance S. Rockefeller University Professor of Philosophy at Princeton University, "How Muslims Made Europe," New York Review of Books, *November 6, 2008*

مؤسس الدولة الأموية عبد الرحمن الأول –"شاب مقدام" كما وصفه بإعجاب أستاذ في جامعة ييل[494]- وضع المعايير لما كان سيتبع في ظل الحكم الأموي. يسجل المؤرخ المسلم "المقري" أن عبد الرحمن الأول، وهو "رجل ورع"، هدم كنيسة سانت فنسنت القديمة، التي كانت المركز الروحي لكاثوليك المدينة. ثم استخدم الحاكم المسلم مواد الكنيسة المهدمة وكذلك المواد المتخلفة عن مبانٍ تعود للرومان والقوط الغربيين في بناء مسجد قرطبة الشهير على أنقاض كنيسة سانت فنسنت. بطريقة نموذجية بالنسبة للمقاربة الأكاديمية لإسبانيا الإسلامية، يتجنب موقع جامعة قرطبة بحذر ذكر تدمير عبد الرحمن للكنيسة الكاثوليكية: "الخليفة (كذا، كان في الواقع أميرًا؛ لأن الخلافة طبقّها فيما بعد عبد الرحمن الثالث) عبد الرحمن الأول أمر ببناء المسجد في 785 للميلاد في الموقع السابق لكنيسة سانت فنسنت التي بناها القوط الغربيون. (التوكيد مُضاف)[495]". وهذا كل ما يقوله موقع الجامعة عن ذلك. أسطورة التسامح الأموي تبقى دون مساس بشكل ملائم.

يخبرنا الرازي، أحد أوائل مؤرخي إسبانيا الإسلامية، أن كنيسة سانت فنسنت كانت المكان الوحيد المتبقي في قرطبة الذي بقي للمسيحيين من أجل العبادة. كان المسلمون قد استولوا على المدينة قبل سنوات ودمروا كل الكنائس الأخرى داخل قرطبة وحولها. بالمال الذي أعطاهم إياه عبد الرحمن الأول لتسليم كنيسة سانت فنسنت في عرض لا يمكنهم رفضه، أقام المسيحيون كنيسة أخرى خارج أسوار المدينة في المكان الوحيد الذي سُمح للمسيحيين بالبناء فيه.

حسب الرازي، ما فعله عبد الرحمن الأول بكنيسة سانت فنسنت كان جزءًا من سياسة الحاكم الأموي في تدمير المعابد وآثار القديسين "المشركين": "عن الرازي أنه لما افتتح المسلمون الأندلس، امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله عنه بالشام من مشاطرة الروم كنائسهم، مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحًا، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظيمة التي كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت، وابتنوا في ذلك الشطر مسجدًا جامعًا، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، واقتنع المسلمون بما في أيديهم، إلى أن كثروا، وتزيدت عمارة قرطبة، ونزلها أمراء العرب، فضاق عنهم ذلك المسجد، وجعلوا يعلقون به سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف وقصر أبوابها وتطامن سقفها، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض، ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس واستولى على إمارتها وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدنت به، فنظر في أمر الجامع، فذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى، وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم التي هُدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به، فتم الأمر على ذلك، وكان ذلك سنة ثماني وستين ومئة"[496]. يؤكد المقري، أنه بعد الفتح، دُمرت كل الكنائس داخل قرطبة وخارجها في الحال[497].

كما بحثنا في الفصل الأول، وكما يذكرنا المقري أيضًا، كان عبد الرحمن الأول يتبع نموذجًا تأسس في الفتوحات الإسلامية السابقة واستمر من قبل الفاتحين الإسلاميين في وقت لاحق[498]. في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا المسيحيين تولى المسلمون روتينيًا من أجل الصلوات مبنى داخل موقع ينتمي إلى أهم معبد مسيحي في مدينة استسلمت بسلام. (في المدن التي قاومت، سرعان ما كان المنتصرون المسلمون يهدمون المعابد المسيحية ويحولونها إلى مساجد). في نهاية المطاف تزايد عدد السكان المسلمين وتناقص عدد السكان المسيحيين، بشكل شبه حتمي، لعدة أسباب: تحول المسيحيون إلى الإسلام للفرار من وضعية الذمي، فقوانين الزواج الإسلامية سمحت للرجال المسلمين أن يتزوجوا من نساء مسيحيات بشرط تنشئة الأولاد كمسلمين، وعاقبت الرجال المسيحيين بالموت إذا ما زنوا بامرأة مسلمة أو تزوجوها، كما عزز تعدد الزوجات خلق عدد كبير من العائلات. عندما أصبح عدد العائلات المسلمة كبيرًا إلى حد كاف وبالتالي "احتاجوا بسهولة إلى فضاء أكبر من أجل العبادة" تولى المسلمون زمام الموقع المسيحي برمته وهدموا المعبد المسيحي، فككوه وبنوا مسجدًا.

كان هذا مصير العديد من المباني المسيحية. في أوائل القرن الثامن في دمشق، هدم الخليفة الأموي الوليد كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان العظيمة لبناء "الجامع الكبير" في دمشق أو (الجامع الأموي). كنيسة آيا صوفيا الرائعة في القسطنطينية "إسطنبول اليوم" قد تكون أشهر مثال عن معبد مسيحي تحول إلى مسجد، مع أنها لم تُهدم: السلطان التركي العثماني وخليفة الإسلام محمد الثاني أمر بتحويل آيا صوفيا بمجرد احتلال المدينة في 1453. قام الفاتحون المسلمون بتلوين وتدمير كل الأيقونات المسيحية المهينة وأزالوا جميع الصلبان من داخل وخارج الكنيسة، وطوقوا آيا صوفيا بأربع مآذن لا تزال شاخصة حتى اليوم. كاتدرائية القديس يوحنا في أفسس المشهورة بامتلاكها قبر الرسول يوحنا، تم تحويلها مباشرة إلى مسجد من قبل الأتراك المسلمين المتسامحين في 1330 للميلاد. بعد الفتح الإسلامي الدموي لقبرص من قبل الأتراك عام 1571، كنيسة القديس نيكولاس في منطقة فاماغوستا والتي تعود إلى الطراز القوطي للقرن الرابع عشر حيث تُوج ملوك لوزينيان في قبرص كملوك للقدس، تحولت إلى مسجد. يستمر اليوم تخريب الكنائس المسيحية في قبرص، ونهبها وتمزيقها في الجزء من الجزيرة اليونانية الذي احتلته تركيا بالقوة في 1974[499]. في القرن السابع الميلادي هدم الفاتحون المسلمون لشمال إفريقيا التي يقطنها المسيحيون اليونانيون العديد من الكنائس لبناء مساجد.

أستاذ معجب باللغة العربية في معهد لندن للشرق الأوسط في جامعة لندن يصف هذه الإجراءات بأنها ليست مناورات للهيمنة وإنما أمثلة على التسامح، بما أن المسلمين كانوا -منذ فترة على الأقل- على استعداد لمشاركة المواقع الدينية مع المسيحيين (كما سنرى لاحقًا، هذه أسطورة كررها المؤرخون) ولاستخدام مواد البناء العائدة للكنائس المدمرة. يعطي مثالًا آخر عن هذا التسامح تحول جزء من القصر الملكي الفارسي في طيسفون إلى مسجد[500]. يلاحظ خبير أكاديمي آخر في تاريخ العصور الوسطى والإسلامية عند المراجعة المتحمسة لكتاب هذا العالم أن "الدروس القيمة لهذه الحقبة "الفتوحات الإسلامية" لا تتعلق بالاستبداد والتعصب وإنما بكيفية حراك الإسلام في عالم تعددي[501]. العديد من العلماء في العالم الناطق بالإنجليزية، بما في ذلك المتخصصون في العصور الوسطى في إسبانيا مثل كينيث ب وولف Kenneth B. Wolf رددوا أن المسلمين شاركوا "أولًا" كنيسة سانت فنسنت بالإضافة إلى المعابد المسيحية الأخرى.

لكن كما أشار عالم الآثار بيدرو مارفيل Pedro Marfil وعلماء إسبانيون آخرون أن "البحث الأثري لا يقدم أي دليل على المشاركة"، في الواقع، من غير المحتمل أن يكون المسلمون قد شاركوا كنائس المسيحيين قبل تحويلها إلى مساجد، ببساطة بسبب الاختلاف بين الدينين[502]. المسلمون المتشددون لن يصلّوا وسط الأيقونات والمنحوتات التي يعتبرونها أوثانًا أو أمام الصليب الذي يعتبرونه تجديفًا.

الأرجح، أن يستولي المسلمون على خزانة أو مبنى مجاور، أو أن يشيدوا مبنى طينيًا ملحقًا قبل أن يهدموا الكنيسة لبناء مسجد، لكن هذا لن يشكّل مشاركة.

وحشية الأمويين:

حتى لو تمكن الإسرائيليون والفلسطينيون من إنجاز سلام عملي، فإنهما سيظلان محاطين بعالم إسلامي بعيد جدًا عن أندلس عبد الرحمن وذريته. من الناجع تذكر ما كانت عليه غرناطة وقرطبة ذات مرة، ومع ذلك فهذا أمر مزعج أيضًا.

هارولد بلوم، أستاذ العلوم الإنسانية في ستيرلنج بجامعة ييل، من مقدمته لكتاب: زخرفة العالم: كيف خلق المسلمون، اليهود والمسيحيون ثقافة التسامح في إسبانيا في العصور الوسطى :The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain، *María Rosa Menocal*، *(New York: Little, Brown and Company, 2002), xv*

تشرح Maribel Fierro المستعربة الإسبانية الأقل حماسًا:

عمد حكّام الأندلس، الأمويون منهم بشكل خاص إلى القطع الجزافي لرؤوس أسرى الحرب، وتكبد آلامًا عظيمة نقل تلك الرؤوس إلى العاصمة، بوصفها رموزًا لبسط قوتهم وإخضاع أعدائهم. المصدر الذي سجل انخراط الموحدين في نفس الممارسة حرص على الإشارة إلى تشابه هذه الممارسة مع تلك المتبعة في زمن الخلفاء الأمويين. كان قطع رؤوس الأعداء المهزومين بعد المعركة ممارسة عسكرية متأصلة جيدًا في الأندلس وتظهر عمومًا بوضوح في السلوك العسكري الإسلامي في الحرب في الروايات الموجودة في الأنواع الأدبية المختلفة، فضلًا عن السجلات والكتيبات الخاصة بالسلوك الحربي[503].

وهكذا عندما هُزم إسماعيل ابن حاكم إشبيلية، "قُطع رأسه على الفور، بشكل تلقائي، وحُمل إلى ملقة، ليُقدم إلى إدريس بن علي"[504].

بالكاد بعد مرور عام على قيام عبد الرحمن بإطاحة الحاكم الإسلامي عام 756، واجه تمردًا من الفهري، أمير المسلمين في توليدو، العاصمة السابقة لمملكة القوط الغربيين. سيكون هذا واحدًا من العديد من الانتفاضات التي سيواجهها الملك الأموي خلال فترة حكمه. حاصر عبد الرحمن طليطلة المتمردة لكنه لم يتمكن من التغلب على دفاعاتها. قبل أن يرفع الحصار، قطع رأس ابن الفهري ورماه بالمنجنيق فوق الجدار كإنذار للأب.

بعد أن وسّع جيشه بالعديد من المحاربين الأفارقة العبيد، عاد عبد الرحمن بعد عام، وهذه المرة استثمر المدينة بشكل فعّال حيث خان السكان الجائعون الفهري وأرسلوه مع أتباعه المقربين إلى عبد الرحمن. حلق الحاكم الأموي رؤوس السجناء ولحاهم وألبسهم خرق الصوف وطاف بهم على ظهور الحمير في المدينة ثم صلبهم علانية. بعد هزيمة انتفاضة قادها الحاكم الإسلامي السابق يوسف في 758 أمر عبد الرحمن الأول بعرض رأس يوسف في قرطبة، يخبرنا المقري "سُمر الرأس تحت القوس الرئيس للجسر". ثم أمر بقطع رأس نجل يوسف أيضًا، وأمر "أن توضع الرؤوس على رمحين تحت بوابة القصر الملكي". ابن آخر ليوسف وُضع في زنزانة ثم خُنق.

في 763 واجه عبد الرحمن غزوًا عباسيًّا من شمال إفريقيا. وبحسب المقري "وفي سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعيًا لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي إشبيلية، فقاتله أيامًا ثم انهزم العلاء، وقُتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقها سرًا، ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء". فارتاع المنصور لذلك وقال: "ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر".

تضمنت الاضطرابات الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية صراعات مزمنة بين حاكم اليوم والنبلاء العرب. بوصفه لاجئًا في أرض فتحها العرب المسلمون لم يستطع عبد الرحمن أن يثق ثقة مطلقة بالنبلاء العرب والجيش. لقد أحضر جنودًا مدربين تدريبًا خاصًّا لم يكن لديهم روابط قبلية أو أسرية وبالتالي كان ولاؤهم للحاكم المسلم فقط: محاربون عبيد غير عرب ومرتزقة من البربر. باستخدامه هذا لجيوش العبيد والمرتزقة الموالين له فقط كان ينهج ممارسة شائعة لدى الحكّام في الإمبراطورية الإسلامية. "بهذه الطريقة" يكتب المؤرخ العربي في القرن الحادي عشر ابن حيان "جمع عبد الرحمن جيشًا من العبيد والبربر يصل إلى نحو أربعين ألف رجل، تمكن بواسطته من البقاء منتصرًا في كل نزاع مع قبائل الأندلس العربية"[505]. ومع ذلك، كان صراع السلالات من هذا القبيل بحيث إن عبد الرحمن الأول لم يتمكن من الركون إلى الراحة أبدًا: بين عامي 779 و783 أعدم عددًا من الناس، بمن فيهم أبناء الإخوة المشتبه بتآمرهم.

فرض الأمويون عقوبات قاسية على أهل الذمة الذين تجرؤوا على الإعلان عن معتقداتهم الدينية جهرًا. في القرن التاسع أكد العالم ابن القاسم أنه إذا قال مسيحي "ديننا خير من دينك؛ لأن دينك حقًّا هو دين الحمار" فيجب أن يُعاقب[506]. القاسم استشهد برأي الإمام مالك أنه يجب قتل الكافر عندما يسب النبي. في القرن ذاته، شرح العالم محمد أنه تمامًا مثلما لم يسمح الإسلام

للذمي بقتل المسلم أو سرقته، كذلك لم يسمح له بالإساءة إلى النبي؛ لأنه إذ يفعل ذلك ينتهك، أي "الكافر المُجدف"، ميثاق الحماية الممنوح للذمي.

في عام 919 استشهد رئيس القضاة الأمويين المتسامحين في قرطبة بالعقوبة التي فرضتها الشريعة الإسلامية المعاصرة على امرأة مسيحية أُدينت بقولها علانية أن يسوع هو الله وأن مُحمدًا كاذب ويدّعي النبوة: "من سب الله عز وجل أو سب رسوله (ص) من مسلم أو كافر، قُتل ولا يُستتاب"[507].

كان الحاكم عبد الرحمن الثالث في القرن العاشر (الاسم يعني خادم الله) وهو أول أموي أندلسي يعلن نفسه خليفة، قد نال إعجاب العلماء الغربيين بشكل خاص كما في هذا الوصف الحماسي "التمدد الإقليمي والإنجازات الثقافية للإسلام الإسباني بلغا ذروتهما في ظل الحكم المبهر والناجح لهذا الملك المجتهد"[508].

في الواقع، كان النجاح السياسي لعبد الرحمن الثالث مُلازمًا وخاضعًا لشبكته الاستقصائية من الجواسيس وعلى ممارسته واسعة النطاق لقطع الرؤوس وصلب المسلمين الزنادقة والسجناء المسيحيين والأعداء السياسيين.

كما قال عالم إسباني: "كان نشاط قطع الرؤوس المُعزز في ظل حكم عبد الرحمن الثالث مفضوحًا"[509]. علاوة على ذلك، تأسس "إنجازه الثقافي" على الثروة المجموعة من خلال الضرائب المختلفة (بما في ذلك الجزية) المفروضة على أهل الذمة المسيحيين واليهود وعلى النهب الذي تحصل عليه من غاراته الدورية على الممالك المسيحية.

المؤرخ المسلم ابن حيّان أشاد بعبد الرحمن الثالث بحماس كما فعل العلماء الغربيون في القرنين العشرين والحادي والعشرين، ولكن ليس دائمًا لنفس الأسباب. أشاد ابن حيّان بالحاكم الأموي، من بين أسباب أخرى، بسبب من محاكم التفتيش القاسية ضد الزنادقة التي أقامها في قرطبة:

ثم استمر الدين بعد رسول الله على قيامه وسده، في دول الخلفاء الراشدين الذين امتثلوا سبيله، فأقاموا رسوم السُّنّة، وأحرزوا وظائف الديانة، وأطفؤوا نار الفِتنة، ودمغوا الفرق الخارجة، وشحنوا الرافضة، واستذلوا بالثقاف المارقة، وجادلوا عنه، وجاهدوا بسيف الله عن الله، وحملوا الحق على الباطل فأزهقوه، إن الباطل كان زهوقًا. ووعوا كل بدعة فلم تدخل على الأمة شُبهة، حتى كانت دولة الطائفة الزائغة والعصابة الباغية من (آل) العباس، ففشت البدع وكثُرت النِّحل ووقعت المحن، إذ حلّوا النظام وأهملوا الزِّمام وخففوا الوطأة عن رقاب أهل الجهالة والزيغ والضلالة، فانحل شدهم ووهي عقدهم وتغيرت نِعمهم وآلت الأمور عندهم باختلاف المذاهب إلى ما أعضل دواؤه وطال بلاؤه، وحملت الصحف على الأيام شنيع ذكره، وعصم

الله بمنة منه وفضله أهل الأندلس وسَلّم لهم دينهم من الآفات ومُستكره الخِلاتِ بصادق نيات الخلفاء الماضين من سلف أمير المؤمنين رضوان الله عليهم. في حفظهم دين الله واستبصارِهم في حماية حريمه، فلم يفشُ باطلُ ولا شاع هوى، وانتقى الله –وله الشكر واقيًا والحمد كثيرًا- أمير المؤمنين الذي رضي به للخلافة، فأصبح بنعمة الله التي نعترف بالعجز عن شكرها مقتفيًا لآثار الخلفاء آبائه والأئمة من سلفه، قائمًا بالكتاب، مُعلنًا بالسُّنّة، مؤثرًا لهما، مُجاهدًا عليهما. ونصرُ الله وكنفه وتوفيقه يصحبه، فلا ينجم للشيطان قرنُ إلا (قحمه)، ولا يُرفع له عَلَم ضَلال إلا وضعه، ولا يظهر له باطل إلا محقه، حتى ألَّف الله به الأمة وكفاه بأحسن الكفاية وبسط بطاعته في الأقطار الأمن والطمأنينة، ومد له باليُمن والغِبطة والنماء والسعادة في انفساح الدولة، فحطت إلى مصره الأمم، وأثنت عليه الألسن، وتبارى أهلُ المشرق في تفيؤ ظله الممدود، والاعتصام بحبله المشدود والحِيام على حوضه الورود واكتناف عدله المبسوط، فأمن بلده واغتبط قصده واستفاض العلم منه، وعز أهله، فعُرِف فضله وكمل. وتُنوفِس فيه من آفاق الأرض إلى مُستقره ومستودعه وحيث يصحُ العمل والتوفيق لمنتحله، ونفى البدع عنه، فتجمع منه في قاعدة مملكته ما لم يكن قبله، وكَملت على ذلك آلات الآداب في زمانه. وهو مع ذلك لا يزال مُوكِل النفس والهمة يتفقد مصالح الأمة، ويتعهد أمور الديانة باحثًا عن سنن المسلمين وطرائقهم ومَواطِن اجتماعهم في مساجدهم ومحافلهم بمن نَصبهم من ثِقاتهم وعيون بِطانته ووكلهم بمُباطنةِ الطويات وكشف السريرات، فكانت الأعمال معروضة عليه وخفيات السرائر مكشوفة له، ومطويات بنات فكر البر والفاجر مُنجِيات لعلمه، والباطن والظاهر من مذاهب العوام موضوعان بين يديه، ونِعم الله في كل ذلك تتواصل له بتجدد الدين وقِوام شرائعه ووضوح مهايعه وتواضع الرقاب لتعظيمه وسلامة القلوب من الإلحاد فيه، وتردده غضًّا في القلوب لا يسأم، وجديد على جدة الأيام لا يمل، وكتاب الله عز وجل محفوظ على أحسن تلاوته وأسلم حُروفه وترك العناد والتجادل فيه والتزام الحكم به والرجوع إليه. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، بإدخال الخاص والعام في شُوارهم، وما يجري بينهم على مكثوف السُّنة ومشهود ما حُمل عن كبير الأئمة مالك بن أنس، إمام أهل المدينة رضي الله عنه، من الروايات المتفقة والأحاديث المنقولة بصحتها على ألسن الصحابة نُجوم الأمة الهادية، فطابت بذلك هذه المدينة وتزكى أهلها من نزعة أنزع إمام، قعد بمنتحليه وقام، وقلّد النظر في شأن من اتُّهم بهذا أو تكلم به صاحب مدينته عبد الله بن بدر مولاه، أمره بالتنقير عنهم والقصر لآثارهم وطلب الدلائل عليهم والإيقاع بمن صح لديه أنه منهم أو مُتول لهم، فتجرد ابن بدر لهم وأغلظ لمن عثر عليه منهم، فجرت لهم في ذلك خُطوب يطول القول فيها[510].

بمحاكم التفتيش التي أقامها، ردد الحاكم الأموي عبد الرحمن الثالث صدى الأساليب القاسية التي انتهجها الخليفة العباسي المأمون (786-833) الذي طور

محاكم التفتيش الإسلامية كطريقة للتصدي للفلسفة اليونانية التي واجهها الإسلام[511].

لكن الردة وعقوبة الإعدام المصاحبة لها أصابت عائلة عبد الرحمن من الداخل: قتل قريبه إبراهيم بن أحمد بن عبد العزيز لممارسته المسيحية سرًا[512]. أرسل عبد الرحمن جيشًا ضد "نبي" مؤثر يُدعى حميم وأتباعه المتكاثرين (الذي تأثرت بدعته بالمسيحية ربما) دمر قوات المرتد وعاد برأسه إلى قرطبة ليُعرض علنًا[513].

حسب ابن حيّان اضطلع الخليفة عبد الرحمن الثالث بتشكيل محاكم التفتيش ضد الزنادقة المساري *masarri* (أتباع رجل الدين الغنوصي ابن مسرة) في أوقات مختلفة (952، 957،956) آمرًا العلماء بقراءة التصريح التالي في جميع مساجد الأندلس:

ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره، ويُرسله في بدوه وحضره، وأن يُنفذ عهوده إليك وإلى سائر قواده وجميع عمّاله بها، يُقرأ على منابر المسلمين ولا يُحرم القاصي بأعمال الداني من تطهير هذا الرجز وتمحيصه وكفاية المسلمين شبهة وفتنة، فلم تُحل الديار ولا تعفت الآثار ولا استحق البلاء على قوم ولا أهلك الله أمة من الأمم إلا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل للسُّنة والاعتداء في القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، صلوات الله عليه وسلم، هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك، وانشره في أسماع رعيتك، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك، وابثث فيهم عيونك، وطالب فيهم غورهم جهدك، فمن تجلى بطبقتهم أن انتسب إليهم وقامت عليه البينات بذلك عندك فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم وأسماء الشهود عليهم ونصوص شهاداتهم ليعهد باستِجلابهم إلى باب سدته، ليُنكلوا بحضرته، فيذهبُ غيظ نفسه ويشفى حر صدره[514]..

"بوابة السُّدة" هذه أو "بوابة العتبة" كانت واحدة من أقواس مداخل القصر المشهور لعبد الرحمن الثالث في مدينة الزهراء. تغفل الروايات العلمية الحديثة المُقرّظة عن هذا القصر واقعة أن عبد الرحمن عرض بشكل روتيني على هذه البوابة المزخرفة لمكونات الشعب القرطبي المذعورة الأجساد المصلوبة والرؤوس المقطوعة لأعدائه.

في سحقه للمعارضة، اضطهد عبد الرحمن الثالث أي مسلم اتبع مذهبًا إسلاميًا غير المالكية، وبذلك أمكن للمالكية أن تبقى مهيمنة[515]. ربما كان هذا هو سبب قتل عبد الرحمن الثالث لابنه عبد الله الذي أظهر تفضيلًا للشافعية[516].

في الواقع، كان جميع الحكّام الأمويين حريصين على إجازة الأعمال والمؤلفين الذين اعتبرهم رجال الدين المالكيون الأندلسيون أصوليين والترويج لهم وحمايتهم.

بحسب ابن حيان، كان من واجب سلسلة السلطة التنفيذية الإسلامية، من الخليفة إلى القضاة فرض الشريعة وبالتالي تصحيح السلوك الإسلامي للجمهور[517]. كما أشار الباحث عبد المجيد تركي وآخرون، لعبت الأصولية المالكية في هذه السلسلة السلطوية دورًا عقائديًا رسميًا في السلالة الأموية[518].

يعطي ابن حيّان مثالًا جيدًا على معاملة عبد الرحمن الثالث للسجناء المسيحيين:

وكانت النصرانية ناقضةً عهد الذمة، قد انحشدت إليه وتحصنت فيه، فأحدقت العساكر فيه من جميع جهاته، فأمر الناصر لدين الله بمناهضتهم والجد بهم والتضييق عليهم، فأبلغوا في ذلك ونصبوا المجانيق، على مرتقى لهم لم تصل منه حجارتها إلى الكفرة، وكانوا في أول المنازلة لهم يبرزون إلى الحرب ويُظهرون المدافعة عن حريمهم، حتى عضتهم الحرب فمزقتهم، وفللت غربهم، فبادروا بالاستغلاق في دار حصنهم، وتمادى التضييق عليهم والإحاطة بهم حتى أخذهم الجهد وأشفوا على الهلاك، فاستغاثوا الناصر لدين الله ضارعين إليه في تأمينهم على أن يُسلموا الحصن.

ثم هُدمت قصابه، وحُطت أسواره، وألقيت أحجاره في النهر، وأمر فبني موضع الكنيسة فيه مسجد جامع[519]. موت هؤلاء البرابرة خلده الشاعر عبيد الله بن يحيى بن إدريس (واحد من بين العديدين من المثقفين المتملقين الذين كانوا يعملون لحساب الأمويين) قائلًا:

فتى من رآه والرماح شوافر   وخيلٌ إلى خيلٍ بأبطالها تردي

رأى أسدًا وردًا يخب إلى الوغى وربتما أربى على الأسد الورد

ومن ألبس الله الخلافة نعمة   به فأتت نعمى فجّلت عن العد.

لكن "عبد الرحمن" ينوّع أساليبه في القتل بشكل مبدع. كانت عمليات الصلب المشهدية بدلًا من القطع البسيط للرؤوس فعّالة بشكل خاص عندما يفشل الجنود في أداء واجبهم. يصف ابن حيّان أحد هذه الطقوس بعد الهزيمة الساحقة التي ألحقتها قوات مسيحية بعبد الرحمن في قشتالة وليون (939) (بعدها قرر الخليفة "الناجح بشكل مبهر" بشكل متعقل ألا يقود الجهاد بنفسه مرة أخرى). يروي المؤرخ كيف عاد الحاكم الأموي إلى منزله وأمر بناء عليّة في الطابق العلوي من أحد أجنحة القصر:

"ذلك أن الناصر لدين الله شرع، في وقت حُلوله من غزوته هذه، في ابتناء العليّةِ التي رفعها فوق الخزانة المنسوبة إلى الذنب، عن يمنى السطح الموفي على باب السُّدة القبلي، الأكبر من أبواب القصر، الشارع في المحجة أمامه، رسمها مشرفة

وفصّلها على عشرة أبواب متناسقة وجُمعت عليها الأيدي، وكملت سريعًا وجلس فيها لاعتراض الجُند يوم مِنىً من هذه السنة، وقد أمر بإصلاح عشرة جذوع من عالي الخشب للتصليب، وإقامة كل خشبة منها أمام باب كل باب من تلك العِليّة، راع الناس شأنها، ولا يعلمون المُراد بها، فاحتفلوا إلى المكان أجمع ما هم.

فلما أقبل العرض، أمر صاحب المدينة بالقبض على عشرة من وجوه فرسان الجند، الذين سارعوا الانهزام يوم الخندق، كانوا قِيامًا في الصف، سّماهم وأمر بإعلائهم فوق الخشب بعينها، فتولاهم الأشراط لحينهم، وشدوهم مُصلّبين بأعاليها، فمثلوا للحين بذراها، يستغيثونه ويسترحمونه ويستقيلونه، وهو يزداد عليهم غيظًا وسُبًا لهم وتعريفًا بحيدتهم عنه يوم حاجته إليهم، ويقول "انظروا إلى هذا الخلق الضعيف –يشير إلى جموع العامة النظارة حولهم- هل أعطونا المقادة وصاروا لنا خولًا ومادة إلا لذبنا عنهم وحمايتنا لهم. فإذا نحن ساعدناهم وساويناهم في الجبن عن عدوهم، والتمكين من نواصيهم، فأي فضل لنا عليهم، إن كنت أريدُ سلامة مهجتي في تضييع حريمهم. فلا أتاحها الله، ذوقوا وبال أمركم. وقد صم أذنه على تنصلهم واعتذارهم وتعديدهم لسالف بلائهم، فلم يثن عما عزم عليه من تعذيبهم والتمثيل بهم، فأمر بطعنهم والقضاء عليهم، فابتزوا جميعًا لوقتهم، تُسمع استغاثتهم ثم ارتفع عن مكانه"[520].

يصف ابن حيّان رعب شاهد من هذا الصلب الجماعي، وهو رد فعل كان بلا شك مما نوى عبد الرحمن على إثارته:

"ولزمني جمع الناس الحفيل بالمكان الذي صُلبوا فيه بظهر الطريق، فلم يكن لي منفذ في زحامهم، فقعدتُ بالأرض حاشية منهم، غاضًا بصري، مُستطيرة جوانحي لهول ما طرفته عيني، وضممتُ ثيابي على مخلاة، كنتُ أوعيتُ فيها أشياء من حرفتي، لأتجر بها في موسم العيد، فلبستني من هول المقام وصراخ المعذبين غاشية أذهلتني، اغتنمها مني لصُّ فطن بي، فاستل مخلاتي، فلما انجلت غاشيتي فقدتها، فعجبتُ من بون ما بين فؤادي وفؤاد سارقي في الضعف والقوة، وأضحى يومنا ذلك يوم هول، ذعر الناس دهرًا".

كان الصلب مفيدًا ايضًا ضد معارضي حكم عبد الرحمن. في وقت مبكر من حكمه 913، أمر عبد الرحمن الثالث بصلب المتمرد محمد بن يوسف الياني على باب القصر الملكي في قرطبة[521]. كان هذا، كما يكتب ابن حيّان، بداية فترة الصلبان العديدة، في عهد الحاكم الأموي.

الموت قد لا يُنقذ العدو من الصلب. بعد موت ابن حفصون، وهو متمرد ومرتد إلى المسيحية، نبش عبد الرحمن الثالث جثته وصلبه وعرضه كمسيحي. هذا النوع من الصلب بعد الموت لم يتوقف عندما انتهى عهد "التسامح" الأموي. اتبع المرابطون

هذه الممارسة الأموية. نبشوا جثة قاضي مالقا "الحسين" وصلبوها وأخذوا الرأس إلى مراكش عاصمتهم لعرضها. بصورة مماثلة، نبش الموحدون جثة المتمرد ابن حمدين وصلبوها وعرضوها[522].

يأسف ابن حزم أن عبد الرحمن الثالث كان من بين عدد من الخلفاء الفاسدين الذين أسلموا أنفسهم للمتعة "جسدًا وروحًا"[523]. تحكي الراهبة هروتسفيثا فون غاندرشيم Hrotsvitha von Gandersheim (935-1001) في قصيدة لها قصة الشغف المثلي للخليفة الأموي برهينة كاثوليكي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، بيلايو (لاحقًا القديس بيلايو)، وأمر عبد الرحمن بقطع رأس بيلايو بعد تعذيب متكرر لأن الصبي رفضه[524].

يروي ابن حيّان عدة قصص شيقة عن الأهواء الشخصية الأخرى لعبد الرحمن الثالث. تحكي إحداها عن حرقه لوجه عبدة جنسية جميلة تجرأت على رفض تقدماته:

أقول: ما سمعتهُ من المشيخة الدانية بفتنتهم من تلك الدولة من فظيع سطوات الناصر لدين الله لمن في حمايته من النساء في سره، المطابقة لما كان يبديه منها في الرجال في جهره، ما حملوه عن خواص من أكابر خدمه الخصيان ساكني داره ومُشاهدي غيبه، أن جارية من عِليات حظاياه المعتدات بعلاقته، كان في خُلقها بأو لا توفيه به حق تعاظمه، خلت به يومًا من أيام أنسه بالشراب بروضة الزهراء، جالسة إلى جنبه والكأس قد عملت فيه، فألح على مُحَياها باللثم والعضّ حتى كُلِّفت من فعله، فكسرت طرفها وثنت جيدها عابسة سروره، فأثارت من غضبه ما أمر الخصيان من أجله بملكها وإدناء الشمعة من وجهها وإحراق محاسنها وطمسها... بعينه حتى/ خمشوا وجهها وأساؤوا إحراقها وقضوا عليها، فكانت من أقبح فعلاته.

قصة أخرى تتعلق بالإعدام الوحشي لعبدة جنسي أهانت الخليفة:

وقد حكى عنه أبو عمران سيّافه الذي أنظره بعدته، أنه استدناه ليلة إلى مجلسه بقصر الناعورة وقد بات فيه يحيى بسيفه ونطعه، فدخل بآلته إليه في مجلس شرابه، فوجده جالسًا القرفصاء، ليثًا على براثنه وجارية كالمهاة محبوسة في أيدي الخصيان إلى ناحية تسترحمه، فيرد عليها أغلظ رد، ثم قال "دونك الفاسقة يا أبا عمران، فأضرب عُنقها". فتأبيتُ مؤامرًا على العادة فقال لي: "اضرب، قطع الله يدك، وإلا فضع عنقك". فأدناها الخادم إلي وقد شمّر غدائرها وكشف عن عنقها، قال: فضربتها ضربة فأطرتُ رأسها، وسمعتُ لوقع الشفرة صليلًا لم أعهده، ولا عاينتُ شيئًا اعترضه، فرُفع جسد الجارية ومسحتُ سيفي في نطعي وطويته وانطلقت به، فلما دخلتُ حجرتي وفتحتُ النطع لاح لي فيه در ثاقب النور فاخر

الجرم خلاله حصباء ياقوت (وزبرجد يترقرق) كالجمر، جمعته في كُمي وبادرتُ بإدخاله إلى الناصر لدين الله، فلم يكُ بأسرع من أن صرفه إلي وقال لي "لم يخف علينا مكانه، واعتمدنا نفعك به، فخذ مباركًا لك فيه". قال "فمنه اكتسبتُ داري هذه"، بقوله لمحدّثه.

يخبرنا ابن حيّان أيضًا عن استخدام عبد الرحمن للأسود في ترهيب سكان قرطبة:

أقول: ومما رعب الناصر لدين الله الناس به من فظيع المخاوف اتخاذه الأسود إرهابًا لعذابه، وذلك من أفعال الجبابرة الملوك بالمشرق، ذهب إلى اقتفاء أثرهم فيها، فاستدعاه من قبل ملوك العدوة. إذ ليست من سباع الأندلس ولا لها فيها أعمار ولا أنسال. وذلك من مفاوزها[525].

يصف ابن حزم بعبارات غير مُبهجة حلقات أخرى من حياة عبد الرحمن الثالث، بما في ذلك الاستخدام الهزلي المفترض لأطفال سود مُعلقين كأثقال موازنة من بئر:

وما كان عبد الرحمن الناصر لدين الله بالبعيد من جَد جَده الحكم بن هشام في انهماكه في المعاصي والتباسه بالريب وعبثه في الرعايا واستهتاره باللذات وتغليظ العقوبات وتهوينه بالدماء. فهو الذي علّق أولاد السودان في ناعورة قصره، بدلًا من الأقداس الغارفةِ للماءِ فأهلكهم واستركب رسيس الماجنة مُضحكته وموكبه بسيف وقلنسوة وهي عجوز سوء فاجرة، إلى مناكير كانت له الله أعلم بها[526].

عن طريق الخراب والدمار:

فضّل الأمويون أن يكونوا متسامحين دينيًا وأن يقبلوا الأديان الأخرى.

تيموثي سي هول، دليل الأبله الكامل لتاريخ العالم.

The Complete Idiot's Guide to World History *Timothy C. Hall, (New York: Alpha, an imprint of the Penguin Group, 2008), 80*

الحكم الأول، من بين الأسلاف الأمويين لعبد الرحمن الثالث، من يستحق الذكر لوحشيته المُجدية التي سهلها جيش هائل من العبيد والمرتزقة (كان حارسه الشخصي من المحاربين المسيحيين المأجورين) الموالين له فقط دون القادة الآخرين أو طبقة العلماء. وبحسب المؤرخ ابن القوطية، تمكن الحكم بنجاح من استئصال طائفة إسلامية مهرطقة في الجزيرة الخضراء من خلال ذبح سكان المدينة[527]. في عام 805، كان هذا الحاكم الأموي اللامع، الورع جدًا (وسّع

مسجد قرطبة وجعل الجهاد حربًا مقدسة لا محاولة لتحسين نفسه ضد الكفار المسيحيين) والذي أحب الشعر والفنون، قد صلب اثنان وسبعين عالمًا بتهمة التآمر عليه.

في وقت سابق من عام 797 نفذ الحاكم الأموي المشهور قطع رؤوس "فوسو" (خندق عميق وواسع ويكون بالغالب جافًا أو مملوءًا بالماء) الشهير الذي محا من خلاله نخبة طليطلة المسيحية المشاغبة التي اعتنقت الإسلام. يصف ابن حيّان مكيدة الأمير المبتكرة:

وأمر عمروس الحجاب بالإيعاز إلى من وافى منهم، بأن يكون دخولهم من آخر بابي القصبة المحدود لدخولهم من قدامها، وخروجهم على بابها الآخر من ورائها، فرقًا من ازدحامهم واغتِصاص القصر بهم. وليتقدموا إلى ممسكي دواب رُكبانهم بتحويلها إلى باب الخروج راقبين خروجهم فترتب ذلك كله.

وتكفل رجال عمروس بإحكامه، وقد أقام السيافون على شفير تلك الحفرة، التي أعدها بجوف القصر لرميهم، مُصلتين سيوفهم مُشمرين عن سواعدهم، يُجاء إليهم بزمرة بعد زمرة منهم، فيضربون أعناقهم، ويقذفون في الحفرة أجسادهم، حتى أتى القتل فيهم على آلاف.

ولم يرتفع عنهم وقد اعتلى النهار بهم، إلا بإشعار رجلٍ فطنٍ منهم وافى في أُخريات الناس، ولم يكن لقي في مجيئه أحدًا منصرفًا من الناس، فارتاب بذلك وقال لمن حوله: يا هؤلاء ما فعل جيراننا الذين تقدموا بُكرة؟ ثم رفع رأسه فبصر ببخار الدم مُصّاعدًا في الهواء، فنادى في الناس "جُمعتم والله بضعف عقولكم يا أهل طليطلة، وهذا السيف يعمل فيكم عمله منذ غُدوة. هذا والله بُخار الدم لا بُخار الأطعمة". وولى منصرفًا. فكان السبب في إشعار الناس. وتوقّف من بقي منهم عن ورود المنيّة. فذُل أهل طليطلة بعد هذه الوقعة. وهانوا وألقوا بأيديهم إلى طاعة الأمير الحكم[528].

بين عامي 851 و859 قتل الحاكمان الأمويان عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول ما يقرب من خمسين مسيحيًا "شهداء قرطبة". كان بعض من هؤلاء الشهداء من أهل الذمة. آخرون عديدون كانوا قد ولدوا في عائلات مُسلمة كانت مسيحية في السابق (العائلات المولدية) والتي تحولت الآن رغم ذلك إلى الكاثوليكية مرة أخرى وأعلنوا ألوهية يسوع وزيف نبوة مُحمد. بالرغم من أن قطع الرؤوس كان وسيلة الإعدام المفضلة لديه إلا أن محمد الأول استخدم طرقًا أخرى أيضًا: الراهبة لورا أُلقيت في مرجل رصاص منصهر (تنويع على محاولة الإمبراطور الروماني دوميتيان قتل القديس يوحنا في مرجل من الزيت المغلي)، الراهب العجوز إرميا جُلد حتى الموت، وخُوزق الجندي الشاب سانسو.

على الرغم من أن معظم العلماء اليوم لا يجادلون في أدلة المصدر الأساسي عن عمليات القتل الوحشية التي ارتكبها الأمويون ضد هؤلاء المسيحيين إلا أنهم يشيرون إلى "تطرف الشهداء" وليس إلى "تطرف الحكّام الأمويين" المُفترض أنهم متسامحون والذين أمروا بذبحهم. لقد وصفوا هؤلاء المسيحيين الذين جرى إعدامهم بأنهم "متعصبون" و"مثيرو شغب" و"ناحرو أنفسهم". يوحي المصطلح الأخير، في جوهره، كما جادل بعض العلماء، أن الكاثوليك طلبوا "الموت" عن طريق القيام صراحة بأشياء يُعاقب عليها الإسلام بوضوح. لقد تحولت "حادثة شهداء قرطبة" إلى نسخة علمية من "لوم الضحية". على سبيل المثال، يدّعي أحد أساتذة تاريخ العصور الوسطى الأوروبية أنه "بقدر ما اضطهد مسلمو قرطبة المسيحيين بنشاط، فإنهم فعلوا ذلك بعد الاستشهاد وليس قبله، لذلك كانت حركة الشهداء على الأرجح سبب سوء المعاملة أكثر مما كانت ردًا عليها"[529]. يُشير مؤرخ آخر إلى أن "حساسياتنا المعاصرة" و"الموضوعية القصوى" تمنعان أي إعجاب بالمسيحيين وأي اشمئزاز من قتلتهم المسلمين.

كما أظهر تعامل عبد الرحمن الثالث مع المرتدين، كان القمع الأموي قاسيًا بشكل خاص ضد المخالفين المسلمين. بوصفه جزءًا من نظام الأمويين الفعال للرقابة الاجتماعية، كان المُحتسب "موظف ديني نافذ" يراقب مدن إسبانيا الإسلامية، مُطبقًا الشريعة الإسلامية في الأنشطة اليومية، بما في ذلك السوق. كان العنصر المركزي في وظيفة المحتسب ينطوي على إعلام الحكّام الأمويين عن أي تخريب محتمل من قبل الجماهير. يخبرنا الخشني "المؤرخ المسلم" أن محمد الأول قد أمر محتسبه أن يكون قاسيًا وأن يلجأ عند الضرورة إلى البتر والصلب، دون الحاجة إلى طلب إذن لتنفيذ هذه العقوبات. وهكذا كلما كان المتهمون بارتكاب جريمة يمثلون أمام محتسب قرطبة إبراهيم بن حسين بن عاصم كان يقول للمتهم: "جهز وصيتك"[530].

من بين خلفاء الأمويين الأكثر دموية ولكن أيضًا أنجحهم كان القائد المقتدر محمد بن أبي عمير المعروف للمسلمين بـ"المنصور" وللكاثوليك بـ Almanzor[531]. في أواخر القرن العاشر، نصّب نفسه وصيًا على عرش الخليفة الطفل هشام المؤيد، آخر الأمويين. استأجر الغاصب المزيد من المرتزقة البربر من إفريقيا وطبّق ديكتاتورية عسكرية شرسة مدعومة بجيش ضخم.

المسلم المتدين "المنصور" نفذ ما يقرب من ستين حملة جهادية ناجحة وأمر ألا يُجمع الغبار عن ثيابه بعد كل حملة ضد المسيحيين المكروهين لُيدفن تحت هذا الغبار المجيد عند موته. بالإضافة إلى بناء المزيد من القصور وزيادة دعم الفنون باستخدام ثروة اليهود والمسيحيين، أحرق المنصور الكتب المهرطقة وأرهب المسيحيين بنهب وإحراق سرقسطة، أوسما، زامورا، ليون، أستورجا، كويمبرا،

سانتياغو دي كومبوستيلا وأماكن أخرى. في عام 985 أحرق أسفل مدينة برشلونة واسترقّ كل من لم يقتلهم.

بنى المنصور إضافة هائلة لمسجد قرطبة بمواد الكنائس المهدمة، التي أمر بنقل بقاياها إلى قرطبة على رؤوس الأسرى الكاثوليك[532]. أمر العبيد المسيحيين بحمل أجراس كاتدرائية سانتياغو دي كومبوستيلا إلى قرطبة، حيث كان يُصار إلى تذويبها وتحويلها إلى مصابيح للمساجد. يخبرنا المؤرخ المُعجب المقري أن المنصور هو صاحب الإضافة الشهيرة لمسجد قرطبة التي عمل العبيد المسيحيون من قشتالة و"بلاد الكفر الأخرى في بنائها تكبلهم السلاسل، بدلًا من المسلمين، رافعين على هذا النحو من شأن الدين الحق وساحقين الشرك بالله"[533].

سار المنصور على خطى الحاكم الأموي عبد الرحمن الثالث في حميته الدينية. خلال فترة حكمه نفذ اضطهادًا شرسًا وحرائق كتب ضد الانحرافات اللاهوتية والفلسفة اليونانية التي قد تساهم فيها. كجزء من انقلابه ضد الخليفة الطفل هشام المؤيد، تحالف مع العلماء المالكين الأندلسيين وشرع بدعمهم في عداوتهم للهرطقة. وبحسب المؤرخ صاعد الأندلسي (1029-1070) أثبت المنصور مرة أخرى تقواه الدينية بإصداره الأمر للعلماء بالحرق العام لجميع الأعمال الفلسفية في مكتبة الخلافة[534]. يشرح الأندلسي: "إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤسائهم، وكان كل من قرأها متهمًا عندهم بالخروج من الملة ومظنونًا به الإلحاد في الشريعة فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية في الأندلس".

توفي المنصور عام 1002 أثناء الجهاد ضد أحد المواقع الروحية للكاثوليكية الإسبانية، دير سان ميلان دي لا كوجولا. يخبرنا مؤرخ مسلم مجهول أن المنصور أعرب حين وفاته عن أسفه لعدم قيامه بالمزيد لإحباط الاسترداد المسيحي: "فلو ألهمني الله إلى تخريب ما تغلبتُ وجعلتُ بين بلاد المسلمين والنصارى مسيرة عشرة أيام فيافي وقفارًا، فيصعب الوصول على النصارى إلى بلاد المسلمين إلا بعد الجهد والمشقة"[535].

قطع الرأس والصلب في إسبانيا الإسلامية والغرب:

بلغ الحكم الأموي أوجه مع العهد الناجح بشكل مذهل لعبد الرحمن الثالث... على الرغم من الاضطهاد العرضي، سُمح للأقليات اليهودية والمسيحية أن تلعب دورها الكامل في مجتمع متسامح متعدد الطوائف.

, *ed.*Grove Encyclopedia of Islamic Art and Architecture *Jonathan M. Bloom and Sheila S. Blair (Oxford: Oxford University Press, 2009), 372*

موسوعة غروف للفن والعمارة الإسلاميين، أ.د جوناثان بلوم، وشيلا س. بلير (أكسفورد، مطبعة جامعة أكسفورد، 2009) 372.

لم يصلب المسيحيون الإسبان أعداءهم. كان قطع رأس المهزوم متواترًا بين النورمانديين والسلتيين، وعرضيًا لدى الأمم الأخرى[536]، لكن استخدام الصلب بوصفه عقوبة إعدام توقف في أوروبا الغربية مع تنصير الأرض. كما رأينا، مع ذلك، وصلت عمليات الصلب وقطع الرؤوس في إسبانيا الإسلامية إلى أبعاد غير مسبوقة.

كما أوضحت المستعربة ماربيل فييرو Maribel Fierro والمؤرخون فرانشيسكو غارسيا فيتز ,Francisco García Fitz وخوسيه مانويل رودريغو غارسيا José Manuel Rodriguez García أن روايات المسلمين الأندلسيين عن قطع الرؤوس لم تقدمه بوصفه ممارسة مسيحية على نحو مميز، من جهة أخرى، قدمت روايات المسيحيين الإسبان قطع الرؤوس كممارسة إسلامية مميزة[537]. بعبارة أخرى، لم تربط أي من المصادر الكاثوليكية أو الإسلامية بثقافة الممالك الكاثوليكية، في حين ربطته المصادر الكاثوليكية بثقافة إسبانيا الإسلامية. لم يكن "قطع رؤوس المسلمين الأعداء" كما تكتب فييرو وفيتز "نمطًا عامًّا من السلوك لدى حكّام قشتالة وليون كما أنه لا يشير إلى إرادة الإبادة العنيفة للسكان المسلمين".

قد تعود هذه الاختلافات إلى غياب النصوص الدينية المسيحية التي تبرر قطع الرؤوس كشكل من أشكال القتل. قطع رؤوس المسلمين نفذه بعض القادة العسكريين المسيحيين في إسبانيا العصور الوسطى ضد المسلمين، لكن قطع رؤوس أعداء المسيحية لم يكن من تعاليم العهد الجديد المسيحي. على النقيض من ذلك، كما تشير المستعربة فييرو، كان للثقافة الإسلامية تقليد نصيّ ديني طويل يُنظر إليه على أنه يبرر قطع رؤوس الأعداء الخطرين للدين الحق[538].

طبعًا، من الممكن تمامًا، كما يؤكد اليوم العديد من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية، أن هذه النصوص التي تشدد على قطع رؤوس أعداء الدين المهزومين "مجازية" في الواقع، لكن الحقيقة ذات الصلة هي أنه على مدار تاريخ إسبانيا الإسلامية، فسر العلماء والحكّام هذه النصوص الدينية الإسلامية حرفيًا لا مجازيًا، وتصرفوا وفقًا لذلك.

كما تشير فييرو، يبدو أن "الممثلين الرئيسين للعرق العربي في الأندلس، الأمويين والعباسيين (عائلة عربية حكمت أجزاء من الأندلس بعد سقوط خلافة قرطبة) كانوا

صائدي رؤوس عظماء. لقد قطعوا رؤوس أخطر المتمردين وعرضوها علانية، وهو فعل قام به كل من المرابطين والموحدين على حد سواء، ولاقى في النهاية بعض الدعم الشرعي في المادة "الإسلامية الدينية" التي تتناول التمرد، بحسب هؤلاء الفقهاء الذين دافعوا عن سياسة قاسية تجاه المتمردين، مثل الفقيه الحنفي السرخسي "توفي عام 1096""[539].

قام بعض القادة المسيحيين الإسبان بقطع رؤوس المسلمين في أثناء الحرب، لكن الحكّام المسلمين الذين انتهجوا قطع الرؤوس ضد إخوانهم المسلمين أكثر حتى مما ضد المسيحيين، تفوقوا عليهم[540]. هذا الاختلاف الأخير قد يُعزى إلى حالة الخضوع بالنسبة للمسيحيين، مثل أهل الذمة في إسبانيا الإسلامية، مما قلل من خطر ثوراتهم وعددها[541].

مع ذلك، تأييدًا للاستخدام الواسع لقطع الرؤوس والصلب والخوزقة وغير ذلك من أساليب القتل القاسية من قبل الحكّام الأندلسيين يمكن للمرء استخدام السياق التاريخي: ابتليت الأندلس ذات التنوع الثقافي والتعددية بصراعات دينية، عرقية، سياسية واجتماعية، لذلك ينبغي على الحكّام الناجحين أن يطبقوا قوة وحشية وعارية للحفاظ على المكان من التفكك، وهو ما حدث في نهاية المطاف.

لذلك كان يمكن تشجيع القادة المسلمين في ممارستهم الكثيفة لقطع الرؤوس والصلب تبعًا لحاجتهم إلى السيطرة على المرجل المغلي الذي كانته الأندلس "متعددة الأعراق" و"متعددة الأديان". الفشل في القيام بذلك، قد يكلفهم رؤوسهم، من بين أمور أخرى. بعد كل شيء، يمكن أن يكون الإرهاب الهائل أداة سياسية فعالة، وفي الأندلس عملت هذه الأداة لصالح أنجح حكامها[542]. في المقابل، لم تثر الممالك الكاثوليكية الأكثر انسجامًا دينيًا وعرقيًا المشاكل ذاتها لحكامها وبالتالي لم تشجع الحلول الجذرية ذاتها[543].

النساء في إسبانيا الإسلامية

ختان الإناث، الرجم، الحجاب والاستعباد الجنسي

لمدة قرن من الزمان، ناقش العلماء كيف أصبحت أدوار النساء المسلمات في الأندلس أكثر حريةً بشكل ملحوظ من تلك الموجودة في معظم العالم العربي.

جون دبليو فوكس وندى مرتضى الصباح، وسليمان ن. خلف: "الإثنوغرافيا وثقافة التسامح في الأندلس"، هارفارد، Middle Eastern and Islamic Review *(2006), 146*.

كان تسعة وتسعون بالمئة من السكان أميين، في أوروبا المسيحية، وحتى الملوك لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة. (في هذه الأثناء في إسبانيا الإسلامية) كان ثمة نساء مغربيات طبيبات ومحاميات وأستاذات.

Golden —*John G. Jackson, "The Empire of the Moors," in*
, *ed. Ivan van Sertima, Professor of Africana*Age of the Moor
Studies at Rutgers University (New Brunswick, NJ:
Transaction Publishers, 1991), 86

جون ج. جاكسون، "إمبراطورية المغاربة"، "في العصر الذهبي للمور" أ.د إيفان فان سيرتيما. أستاذ الدراسات الإفريقية في جامعة روتجرز.

حاول العلماء، في تصويرهم إسبانيا الإسلامية كنموذج للتسامح والتعددية الثقافية، إظهار أن النساء المسلمات في الأندلس تمتعن بدرجة مذهلة من الحرية، خصوصًا لدى مقارنتها بالنساء في الأراضي المسيحية في الوقت نفسه، ولكن مثل الكثير مما يتعلق بإسبانيا الإسلامية، فإن هذا الادعاء لا يصمد أمام التدقيق.

لا ينصبّ اهتمام هذا الفصل على مناقشة ما إذا كانت التعاليم الإسلامية "الحقيقية" تتضمن الارتداء الشرعي للنساء المسلمات للحجاب وأشكال أخرى من غطاء الوجه أو الشعر أو تقييد المرأة المسلمة لأنشطتها العامة أو الرجم حتى الموت للزانية الحرة المتزوجة وختان الإناث.

بدلًا من ذلك، يفحص هذا الفصل التعاليم والممارسات الإسلامية الفعلية في إسبانيا في العصور الوسطى وفقًا للمذهب المالكي في الفقه الإسلامي الذي سيطر على هذا العالم المسلم لمعظم تاريخه.

ختان الإناث (الخفاض):

للإسلام تقليد فخور بالتسامح. نراه في تاريخ الأندلس وقرطبة أثناء محاكم التفتيش.. وبالمثل هو مهم للدول الغربية لتجنب إعاقة المواطنين المسلمين من ممارسة الدين على النحو الذي يرونه مناسبًا على سبيل المثال، من خلال إملاء ما يجب أن ترتديه المرأة المسلمة. لا يمكننا تمويه العداء تجاه أي دين وراء ادعاء الليبرالية.

خطاب الرئيس باراك أوباما في جامعة القاهرة، 4 يونيو 2009.

كان ختان المسلمة "الخفاض أو التقليل" شرعيًا وبديهيًا وجديرًا بالثناء في الأندلس. من الغريب أن هذه الممارسة الثقافية لم يُشر إليها في التواريخ العلمية العامة عن إسلام الأندلس. حتى أفضل الدارسين قد تجنبوا الأمر بتعقل[544]. ومع ذلك يمكن العثور على العديد من الأمثلة بسهولة في الوثائق القانونية المعاصرة التي تجعل من ختان الأنثى أكثر وضوحًا.

أثناء مناقشة ضرورة الوضوء الكامل قبل الصلاة بعد الجماع الجنسي تجمع أطروحة مالك التأسيسية الشرعية، الموطأ، أمثلة عدة توجب التطهير الديني بعد أن يكون "جزءُ مختون" قد لامس أو اخترق "جزءًا مختونًا آخر"[545].

"وحدثني عن مالك، عن أبي النضر، مولى عمر بين عبيد الله، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: أنه قال، سألتُ عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ما يوجب الغُسلَ؟ فقالت: هل تدري ما مثلُكَ يا أبا سلمة؟ مثلُ الفروجِ، يسمعُ الديكة تصرخُ، فيصرخُ معها. إذا جاوزَ الختانُ الختانَ فقد وجب الغُسلُ".

قال مالك، في رجل وقع بامرأته في الحج، ما بينه وبين أن يدفع من عرفة ويرمي الجمرة: إنه يجب عليه الهدى، وحجٌّ قابل. قال: فإن كانت إصابته أهله بعد رمي الجمرة. فإن عليه أن يعتمر ويُهدي. وليس عليه حج قابل.

قال مالك: والذي يفسد الحج أو العمرة. حتى يجب عليه في ذلك، الهدى في الحج، أو العمرة، التقاءُ الختانين. وإن لم يكن ماء دافق.

يمكن للمرء أن يُلاحظ كيف يعتبر الموطأ ختان الأنثى أمرًا عاديًا جدًا، أمرًا مُسّلمًا به في الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى، حتى إنه يذكر الأجزاء الجنسية "المختونة" في سياق الكلام عن شيء آخر. هل تم ختان معظم النساء في الأندلس؟ ربما: كم عدد الآباء (أو الأمهات) الذين لا يريدون لفتاتهم الصغيرة أن تكبر لتكون امرأة شريفة في مجتمع يعتبر ختان الإناث شرفًا؟ وكم هو قليل عدد الفتيات اللواتي يملكن القوة الجسدية أو القناعة لرفض الختان في مجتمع تمر

فيه كل فتاة صغيرة بطقوس العبور هذه؟ ربما تكون الإناث الوحيدات اللواتي ربما حاولن المقاومة هن الرقيق الجنسيات البالغات غير المسلمات، اللواتي عشن في الأراضي المسيحية على الأغلب، حيث كانت الممارسة ممقوتة[546]. كما سنرى، حكم مالك بأنه حتى الرقيق الجنسيات اللواتي كن يرغب السيد في الاحتفاظ بهن كان يمكن ختانهن.

منذ موطأ مالك المرجعي وأطروحات مالكية أخرى، التي اعتبرت ختان الإناث أمرًا مُسلمًا به وأوصوا به بوصفه شرفًا، اتبع الفقهاء المالكيون في الأندلس هذا التعليم، كما فعلت كل كتيبات الشريعة الإسلامية الأندلسية في الواقع، حتى تلك المستخدمة على نطاق واسع بين المدجنين *mudéjares* (المسلمون تحت السيطرة المسيحية في القرن السادس عشر الذين سمح لهم الحكّام المسيحيون بممارسة دينهم) والموريسكيين (المسلمون تحت السيطرة المسيحية الذين أُعطوا في القرن السادس عشر خيار التحول إلى المسيحية أو مغادرة إسبانيا، والذين استمر العديد منهم في ممارسة الإسلام سرًا).

وهكذا فإن الدليل المالكي الفقهي "التفريع" المستخدم على نطاق واسع في الأندلس والمترجم إلى الجاميادو في أواخر القرن السابع عشر، حكم أن الختان "سُنة" (إلزامي) بالنسبة للرجال وشرف للنساء[547]. علاوةً على ذلك، اعتبر التفريع، مقتفيًا أثر الموطأ، ختان المرأة أمرًا مُفروغًا منه عند طلب التطهر قبل الصلاة إذا تلامس "العضوان المختونان" (المكروهان)[548].

الأطروحة المؤثرة "رسالة" للمرجع المالكي القيرواني تعتبر أيضًا ختان الإناث مكرمة وجديرًا بالثناء (النص بين قوسين جزء من الاقتباس):

الخِفاضُ للنساء مكرُمةٌ. (الخفاض هو قطع ما على فرج الأنثى كعرف الديك.. اخفضي ولا تنهكي فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج)[549]. تؤكد رسالة القيرواني على الرغبة في ختان الإناث في قسم الرعاية الشخصية "الفِطرة": الختان للرجال سُنة، والخِفاض للنساء مكرمة.

وبحسب دليل القيرواني الشرعي "كتاب الجامع": يجعل مالك السيد المسلم في الحقيقة مسؤولًا عن ختان الرق التي ينوي الاحتفاظ بها. يقول مالك: "ومن ابتاع أمة فليخفضها، إن أراد حبسها، وإن كانت للبيع فليس ذلك عليه"[550]. كما كتب القيرواني أن النساء فقط، بحسب مالك، من يجب أن يقمن بطقوس ختان الإناث.

بالنسبة "للرسالة" عمل المرجع التشريعي العظيم الشافعي، الذي ينتمي إلى "قريش" قبيلة الرسول ذاتها، والذي درس على المالكي قبل أن يشرع في تأسيس مذهبه التشريعي الخاص، كان ختان الإناث إجباريًا[551]. صحيح مسلم غير المالكي (مجموعته من الأحاديث) يعتر ختان الإناث أمرًا مفروغًا منه[552].

في مجموعة أبي داوود الموثوقة من السُّنة النبوية، يُقال إنه نصح بقطع "معتدل" للإناث، وهو ما من شأنه أن يجعل الجنس أكثر إمتاعًا[553]. ستقوم النساء بختان النساء، بما أن الرجال ممنوعون من رؤية الأعضاء التناسلية للنساء ليس زوجاتهم أو إمائهم الجنسيات بالطبع[554].

يُلاحظ مترجم حديث للنصوص الإسلامية أنه "لا يجوز الخلط بين الختان التقليدي للمسلمين وبين ما يُمارس اليوم، المنتشر في أجزاء من السودان وإفريقيا والمعروف باسم الختان الفرعوني. السابق هو عملية بسيطة جدًا لا تنطوي على إلحاق ضرر بالمرأة عند إجرائها من قبل ممارسين مؤهلين بشكل مناسب. الأخير "أي الختان الفرعوني" تشويه بغيض بشكل خاص"[555].

عالم مالكي شهير من قرطبة، القرطبي (القرن الثالث عشر) أكد أن "بالنسبة لإخواننا في المالكية، ودائمًا في أثر رسول الله، كان الختان سُنة بالنسبة للرجال ومُستحسنًا بالنسبة للنساء. يردد القرطبي رواية أبي داوود عن امرأة في المدينة كانت تختن النساء، قال لها النبي إن الختان يجب ألا يكون كليًا بل جزئي. يذكر القرطبي نسخة أخرى من هذا الحديث، حيث الختان الجزئي أفضل لأنه يجعل لون البشرة أكثر وضوحًا وهو يفيد الرجال[556].

الأطروحة القانونية المجهولة من القرن الرابع عشر *Leyes de Moros* المكتوبة بالإسبانية ليستخدمها المدجنون mudéjares تتبع أيضًا هذه التعاليم المالكية: "الختان للرجال سُنة، والخِفاض للنساء مكرُمة". وهكذا حتى في الأراضي المسيحية، استمرت الشريعة الإسلامية في جعل ختان المرأة "شرفًا". تعليقًا على هذه الأطروحة العائدة للقرن الرابع عشر، تشيد المستعربة سهى عبود حجار بـ"التسامح الحكيم" للحكّام المسلمين الذين أعطوا المسلمين في ظل السيطرة المسيحية "الحق في أن يحكموا أنفسهم وفق قوانينهم الخاصة"[557].

كما هو الحال في مذاهب الفقه الإسلامي في العصور الوسطى، كان ختان الرجل سُنة، وخلال فترة معينة في تاريخ الأندلس، أصدرت السلطات الإسلامية قرارًا بالختان القسري للذكور المسيحيين أيضًا[558].

تستشهد المستعربة مانويلا مارين Manuela Marín بنصوص عدة مختلفة من الأندلس –غافلة على ما يبدو عن النصوص التي فحصناها– تُظهر أن ختان الإناث كان مفروغًا منه. على سبيل المثال، في السيرة الذاتية للعالم الشرعي ابن اليباد (Ibn al-Yabbad)*(توفي 934)، سئل ابن اليباد إن كان على المرء أن يتوضأ بعد "لقاء الختانين دون قذف" وهو وضع تمت معالجته أيضًا، كما رأينا، في نصوص عدة من المذهب الشرعي المالكي.

مناقشات اليوم حول إن كان الإسلام قد شرّع في الواقع ممارسة ختان الأنثى أم لا، أو إن كانت تلك ممارسة ما قبل إسلامية احتفظ بها الإسلام، أو إن كانت ممارسة لم يقبلها محّمد وطبقها رجال الدين اللاحقون، لا علاقة لها بواقعة القبول بها من قبل المذهب المالكي في الفقه وبالتالي القبول بمنطق ممارستها في الأراضي التي حكمها المذهب المالكي حتى القرن الحادي والعشرين.

الرجم (rajm):

الحقيقة أنه في زمن الخلفاء العظماء كان مركز العالم الإسلامي شديد التسامح.

Carly Fiorina, former Hewlett-Packard CEO and 2016 GOP
Real Time with Bill*candidate, on HBO's* [559]*presidential*
[16]*, January 9, 2015*Maher

كما في حالة ختان الإناث، لم تتحدث التواريخ العلمية لإسبانيا الإسلامية عن الممارسة الثقافية لرجم الأنثى "المحصنة" (مسلمة حرة عاقلة تزوجت بطريقة صحيحة وقد أقامت علاقة جنسية مع الزوج بطريقة سليمة)[560]. كان من المفترض أن تستمتع النساء المسلمات الأندلسيات المتزوجات الحرات بالجنس بشكل كامل، ولكن ضمن حدود المؤسسة الزوجية، كما كان من المفترض أن يستمتع الرجال المسلمون بالجنس فقط مع زوجاتهم أو رقيقهم الجنسي. (رسالة، 40.19).

لذلك، وفقًا للنصوص والكتيبات الشرعية المالكية، فإن الجما ع الجنسي لامرأة مسلمة (أو، نظريًا على الأقل، لرجل مسلم) خارج الزواج يُشكل زنا يُعاقب عليه بالرجم علنًا حتى الموت إن كانت المرأة مُحصّنة، أو ثمانين جلدة علنية على الأقل، بالإضافة إلى النفي لمدة عام، إن لم تكن كذلك[561]. هكذا نقرأ في موطأ مالك أن الزانية المُحصّنة يجب أن تُرجم، على الرغم من أن هذه الأطروحة الشرعية تأخذ بعين الاعتبار بشكل مدروس إمكانية أن تكون المرأة حاملًا، في هذه الحالة يجب أن يتوقف رجمها إلى حين ولادتها:

مالكعنيعقوب بن زيد بن طلحةعن أبيهزيد بن طلحةعنعبد الله بن أبي مليكةأنه أخبرهأن امرأة جاءت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرته أنها زنت، وهي حامل، فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: اذهبي حتى تضعي; فلما وضعته جاءته، فقال رسول الله] ص [127 :-صلى الله عليه وسلم- اذهبي حتى ترضعيه، فلما أرضعته جاءته، فقال: اذهبي فاستودعيه قال: فاستودعته، ثم جاءت فأمر بها فرجمت[562].

يصر موطأ مالك بحصافة أنه، وفقًا لتعاليم رسول الله، أنه لا يجوز رجم المرأة الحامل إلا بعد وضعها وإرضاعها الطفل بما فيه الكفاية:

عن مالكأنه بلغه؛ أنعثمان بن عفانأتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر. فأمر بها أن ترجم، فقال لهعلي بن أبي طالب: ليس ذلك عليها، إن الله -تبارك وتعالى- يقول في كتابه (وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا**) (الأحقاف: 15) وقال (**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة**) (البقرة: 233) فالحمل يكون ستة أشهر. فلا رجم عليها، فبعثعثمان بن عفانفي أثرها، فوجدها قد رُجمت**563**.**

تؤكد رسالة القيرواني المالكية على التعاليم الإسلامية وتشرح معنى مصطلح "مُحصّنة" (جميع التعليقات الموجودة بين قوسين هي جزء من الاقتباس):

ومن زنى من حُرٍّ مُحصّنٍ رُجم حتى يموت. والإحصان أن يتزوج امرأة نِكاحًا صحيحًا ويطأها وطئًا صحيحًا.

فإذا لم يُحصَّن جُلد مئة جلدة وغرّبه الإمام إلى بلد آخر وحُبس فيه عامًا.

وعلى العبد في الزنا خمسون جلدةً. وكذلك الأمة وإن كانا متزوجين، ولا تغريب عليهما ولا على امرأةٍ.

ومع ذلك فإن دليل المالكي "التفريع"، المستخدم على نطاق واسع في إسبانيا الإسلامية، ينص على أنه ليس فقط المحصّنة الزانية فقط من يجب أن تُرجم، ولكن يجب رجم الإماء المتزوجات اللواتي زنين أيضًا[564].

خبير المذهب المالكي في الفقه الإسلامي في القرن الثاني عشر في إسبانيا، القرطبي ابن رشد (معروف لدى علماء الغرب فقط بوصفه الفيلسوف العظيم Averroes) يؤكد أن عقوبة الزنا في حالة المرأة المُحصّنة يجب أن تكون الرجم، وأنه لا حاجة لحفر حفرة من أجل العقاب (بينما، وفقًا للشافعي، يجب أن تُحفر حفرة لرجم امرأة، وليس من أجل الرجل)[565].

كتاب *Le yes de Moros* المكتوب في القرن الرابع عشر كدليل للمسلمين في ظل السيطرة المسيحية، يقتفي أثر التعاليم المالكية فيما يتعلق برجم الزناة: "إذا وجد مسلمان متزوجان في حالة زنا، يجب رجمهما حتى الموت" (CLXVIII).

لكن الإدانة بالجماع غير القانوني يجب أن تتبع قواعد معينة لتجنب الظلم المُحتمل كما تشير رسالة القيرواني:

ولا يُحدُّ الزنا إلا باعتراف، أو بحملٍ يظهرُ أو بشهادة أربعة رجال أحرار بالغين عُدُولٍ يرونه كالمرود في المكحلةِ، ويشهدون في وقتٍ واحدٍ، وإن لم يُتمّ أحدهم الصفة حُدَّ الثلاثةُ الذين أتمّوها.

بما أن القرآن 2:24 قد حدد أن الزاني والزانية يجب أن يُجلدا، أوضحت رسالة الشافعي أن هذا الفرض يبقى صحيحًا فقط في حالة المسلمين البالغين غير المتزوجين الأحرار، بينما في حالة المتزوجين "المحصّنين" فإن الحديث الذي أمر مُحمد بموجبه برجم الزاني والزانية أبطل فقط الجلد ونفي الزناة واستبدل عقوبة كهذه بالرجم[566].

حددت الأطروحات الشرعية التي استخدمها المسلمون في ظل الهيمنة المسيحية أنه، عندما يزني مسلم متزوج مع مسلمة متزوجة وثمة أربعة من الشهود المسلمين ممن رأوا الزنا، فيجب رجم المسلمين الزناة، وإذا لم يكن أي منهما متزوجًا فيجب أن يجلدا مئة جلدة ونفي الرجل لمدة عام وإبقاؤه في السجن بينما يكون في المنفى، والرجل يجب أن يجلد جالسًا وعاريًا فيما تُجلد المرأة جالسةً ومغطاة، ولكن ليس كثيرًا بحيث لا تشعر بالجلدات[567].

يجب تعذيب المرأة الحامل العزباء التي تقول إنها أُجبرت على الجماع إذا لم تتمكن من إثبات ما تدعيه، رجل يرتكب اللواط مع امرأة يجب تعذيبه، وإن كانت متزوجة يجب قتله، ولكن لا يجب معاقبة المرأة إذا صرخت بأنها تتعرض للاغتصاب أو إذا كانت نائمة أو فقدت عقلها أو كانت دون الثانية عشرة من العمر، كما لا تُعاقب المرأة التي تمارس الجنس مع ذكر لم يبلغ بعد.

حجاب المرأة المسلمة في الأندلس:

تشير الأبحاث التي أجراها المستعربون مثل María Luisa Ávila ماريا لويزا أفيلا إلى أن أنشطة الرقيق التي يستخدمها، بتعمد أو من دون تعمد، علماء الدراسات الإسلامية ومؤرخو العصور الوسطى الذين يتحدثون بحماس عن الحرية "النسبية" أو "الدور الحر" للمرأة في الأندلس مقارنة بباقي العالم الإسلامي، ليست تمثيلية لأن "المكانة الشرعية والوضع الاجتماعي للرقيقات "العبدات" كان مختلفاً كليًّا عن ذاك الذي تمتعت به المرأة الحرة"، لذلك "لا يمكن اعتبار نشاطهن في المجتمع نموذجيًّا للمرأة الأندلسية بأي شكل"، وهي نقطة ربما ضيّعها العديد من المعلقين[568].

تستشهد المستعربة الإسبانية مانويلا مارين Manuela Marín بحالة من قرطبة الأموية في القرن العاشر مأخوذة من سيرة الفقيه الأندلسي الشهير الطيبي (940-1018) التي توضح الاستخدام الموصوف لحجاب الوجه للمحصّنة (امرأة مسلمة حرة سليمة العقل متزوجة زواجًا مكتملًا) في إسبانيا في ظل الشريعة

الإسلامية (وضع المحصّنة كان الوضع العادي لامرأة مسلمة سليمة العقل ومؤهلة للزواج في إسبانيا الإسلامية لأن المرأة المسلمة الحرة كانت تتزوج عادةً بمجرد بلوغها وحتى قبل ذلك، مع أن جِماع العرس لا يمكن أن يحدث قبل بلوغها)[569].

كانت الشخصيات الرئيسة في هذه الحالة امرأة وثلاثة ذكور كان أحدهم فقيهًا. كان هذا الفقيه يحظى بمكانة عالية بوصفه مستشارًا شرعيًا، كما تروي الوثائق، من قبل "المحجبات اللواتي بقين في منازلهن، وكن ينتمين إلى عائلات محترمة".

تشير هذه الجملة إلى الممارسة الصحيحة للمرأة المسلمة المحترمة: البقاء في بيتها، وارتداء الحجاب عند الخروج إلى الأماكن العامة. يستمر السرد، أحضر عالم (عالم مسلم، وبالتالي عالم في الدين، جمعه: علماء) زوجته وابنه إلى هذا الفقيه الشهير. يروي العالم القصة: ذهبتُ إليه لأطلب شهادة موثقة بخصوص زوجتي وابني. ما إن جلس العالم طلب الفقيه من الولد، كان لا يزال طفلًا، أن يجلس أيضًا، لكنه لم يطلب إلى المرأة أن تجلس، ثم توجه الفقيه إلى الطفل وأشار إلى المرأة الواقفة وسأله: من تلك المرأة؟ أجاب الولد: إنها أمي، ثم يشرع الفقيه في تدوين الشهادة الموثقة. تنتهي الحلقة بشعور العالم بالرضا عن الطريقة التي عالج فيها الفقيه هذه الحالة.

تسلط هذه الحلقة الضوء على حالة أنثى مُحصّنة في الأندلس. على الرغم من حقها في أن تتملك وترث وأن تتلقى الملكية كمهر إلا أنها كانت تحتاج إلى وكيل، وهو الزوج في هذه الحالة، من أجل أن تقوم بالمعاملات القانونية، كما هو منصوص عليه في المذهب المالكي. علاوة على ذلك، لم يُطلب إلى المرأة الجلوس أمام الرجال: بقيت واقفة، بخلاف الرجال. لم يكن لها أن تتحدث عن نفسها، واحتاجت إلى ذكر، حتى لو كان ولدًا، ليتحدث بالنيابة عنها. كانت بحاجة إلى شهادة من ابنها الذكر للتأكد أنها أمه؛ امرأة، والتي كان من غير الممكن التعرف عليها، بسبب ارتدائها للحجاب.

بحسب التفريع، الدليل المالكي الشرعي الذي كتبه الفقيه ابن الجلاب (القرن العاشر)، والذي استُخدم على نطاق واسع في إسبانيا في العصور الوسطى لدرجة الالتزام به سرًا من قبل المدجنين، لم يكن يجب على الحرة أو المحصّنة أن تمشي برفقة رجل، ما عدا شخصًا ممنوعًا عليها الزواج به شرعًا (قريب لها مثلًا) ويجب ألا تمشي وحدها، ولكن فقط برفقة نساء أخريات[570].

قيّدت رسالة القيرواني المستخدمة على نطاق واسع الحرات والنساء المحصّنات إلى المنزل وشددت على الحياء الشرعي: "ولا تخرجُ امرأة إلا مُستترة فيما لا بد لها منه من شُهود موت أبويها أو ذي قرابتها أو نحو ذلك مما يُباح لها". "ولا تحضر من ذلك ما فيه نوح نائحة أو لهو من مزمار أو عود أو شبهه من الملاهي

الليلية إلا الدف في النكاح، وقد اختُلف في الكبر". "ولا يخلو رجلٌ بامرأة ليست منه بمحرم، ولا بأس أن يراها لعذر من شهادة عليها أو نحو ذلك أو إذا خطبها، وأما المُتجالَّةُ فله أن يرى وجهها على كل حال".

تُظهر المستعربة الإسبانية كريستينا دي لابوينتي Cristina de la Puente أن نصوصًا مالكية شرعية أخرى من الأندلس نصت على وجوب حجاب المرأة سواء كانت حرة أو مُحصّنة متى ما غادرت منزلها وأنه بإمكانها مغادرة منزلها فقط بإذن الزوج ولأسباب عاجلة فقط[571].

تقدم مانويلا مارين Manuela Marín أمثلة من قرون ومستويات ثقافية مختلفة توضح الوضع المُحجّب للمسلمات الحرات في الأندلس. يسجل أحد الأمثلة من سجلات البلاط الأموي في قرطبة القرن التاسع محادثة بين الوزير محمد بن مبصر والعالم الأدبي أبو الحكم. "وحدثني بعض الأدباء قال: سأل المنذر بن عبد الرحمن محمد بن مُبشِّر الوزير في بعض مجالسه: كيف تأمر المرأة، بالنون الثقيلة، من غَزَا يغزو؟ فأجَالَ ابن مُبشِّر فيها فكره، فلم يتجه له جوابها، فقال له: يا أبا الحكم، ما رأيتُ أشنع من مسألتك! الله يأمرها أن تقرَّ في بيتها، وأنت تريد أن تأمرها بالغزو"[572]. يُظهر هذا المثال كيف كان إبعاد المسلمين للمرأة عن الأماكن العامة جزءًا من النظام الأخلاقي للبلاط الأموي واعتُبر قِصاصًا دينيًا.

الرسوم التوضيحية في *El libro de ajedrez* of Alfonso X (الذي حكم بين 1252-1284) تُظهر نساء القرن الثالث عشر المسلمات محجبات يغطين وجوههن من أعينهن إلى أسفل، أيديهن مغطاة أيضًا، وأجسادهن ملفوفة في أردية سابغة، في تناقض صارخ مع النساء المسيحيات مع بلاط ألفونسو العاشر نفسه، اللواتي صُورن بوجوه سافرة وأجساد غير ملتحفة[573].

النساء اللواتي قد يجرؤن على التنقل بشعر مسترسل وأثواب وجواهر صارخة هن الرقيق الجنسيات، الحرة أو المُحصّنة كانت سترتدي غطاء الرأس أو الثوب الشرعيين[574]. تشهد العديد من الوثائق على ذلك. كان ارتداء أزياء أنيقة وجواهر ذهبية في الأماكن العامة في إسبانيا الإسلامية عدا عن كونه غير لائق، سلوكًا قد تقوم به الرقيق الجنسيات، لا الحرّات أو المحصّنات[575].

حتى الرقيق، مع ذلك، يمكن أن يعاقبن إن لم يرتدين الحجاب بشكل لائق: تبعًا للرسالة، رفض مالك بشدة خروج الرقيق سافرات، قال "اضربوا الرقيق إن فعلت ذلك". وقال "ولا يلبسُ النساءُ من الرقيق ما يَصِفهن إذا خرجن"[576].

نهى "التفريع" من بعد مالك النساءَ عن إسدال شعورهن عند تنظيفه أثناء الوضوء: كان يكفي رمي الشعر بالماء وفرك الماء فوق فروة الرأس باليدين[577]. في

الواقع نصح الفقهاء المالكيون الإسبان المسلمة الحقة بإبقاء شعرها قصيرًا، كما ورد في رسالة القيرواني:

ويُنهى النساء عن وصل الشعر (من المكروه أن تحلق المرأة شعرها، ويُقال إنه حرام لأنه تشويه. بل تقصّر شعرها). والأصل في ذلك ما رواه أبو داوود أن النبي مُحمد قال: "لا حلق على النساء، وإنما عليهن التقصير، فيكره لهن الحلق؛ لأنه بدعة في حقهن, ولأنه مُثلة"[578].

لم يكن بإمكان المسلمات الأندلسيات اللعب بحمام السباحة، حتى لو كن مرتديات ملابس كاملة، كما يتوهم اليوم بعض الأكاديميين الغربيين واسعي الخيال. كما أوضح التفريع أن النساء لا يستطعن الذهاب إلى الحمامات العامة، بصرف النظر عن ارتدائهن لملابس كاملة إلا في حالة النزيف المرضي أو حاجة ماسة أخرى[579]. كما رأينا أكدت رسالة القيرواني المالكية بالمثل على عدم خروج النساء إلى الأماكن العامة إلا في الظروف الاستثنائية.

الدليل القانوني *Suma de los principales mandamientos y devedamientos de la ley y çunna, por don Içe de Gebir, Alfaquí Mayor de la aljama de Segovia*، المكتوب في 1492، يفرض قيودًا مماثلة: "يمكن السماح للمرأة المسلمة برؤية الأقارب الذين لا يمكنها تزوجهم (فيما لو كانت عزباء) والذهاب إلى المسجد خلال اليوم وإلا الأماكن التي لا يرقى إليها الشك، واللهو مع النساء الأخريات اللواتي لا يوجد معهن رجال، لكن فقط أثناء النهار وفقط مرة واحدة خلال الأسبوع"[580]. مما له دلالة أن هذه القوانين استخدمها المسلمون في الأراضي التي استعادها المسيحيون للتو، حيث كان يمكن للنساء المسيحيات ولوج الفضاء العام بسهولة أكبر بكثير.

مجموعة الأحاديث التي رواها البخاري والتي تحظى باحترام كبير تتضمن تلك التي أشار إليها مالك والمتعلقة بالحجاب الذي يغطي حتى وجوه الحوريات في الجنة واللواتي سيستقبلن الرجل الذي قتل في الجهاد:

عنأنس بن مالكرضي الله عنه: أنَّأمَّ الرُّبَيِّعوهيأُمُّ حارثة بن سُراقة أتتِ النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (يا نَبيَّ الله، ألا تُحدِّثُني عنحارثة وكان قُتِلَ يوم بَدرٍ، أصابَهُ سهمُ غَرْب (لا يعرف من أي جهة رُمِيَ به) فإن كان في الجنة صَبَرتُ، وإنْ كان غير ذلك، اجتَهَدتُ عليه في البكاء؟ قال صلى الله عليه وسلم :ياأُمَّ حارثةإنها جِنانٌ في الجنَّة، وإنَّ ابنَكِ أصاب الفِردَوسَ الأعْلَى)[581].

أثنى مالك على عائشة صغرى زوجات النبي بسبب ارتدائها الحجاب حتى أمام رجل أعمى: "قال الإمام مالك رحمه الله: دخل على عائشة رجل أعمى فاحتجبت منه فقيل لها: يا أم المؤمنين إنه أعمى؟ فقالت لكني أنظر إليه"[582].

يمكن العثور على السُّنة ذات الصلة أيضًا في سنن أبي داوود المذكورة كثيرًا في الرسالة وكتيبات المالكي الأخرى: "روىأبو داودعنابن عمررضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إنها ستفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتًا يقال لها الحمّامات "حمامات ساخنة" (وجد العرب الحمامات للمرة الأولى في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية "البيزنطية")، فلا يدخلنها الرجال إلا بالأزر، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء"[583].

في بعض ممالك الطوائف قد تذهب المُحصّنات إلى الحمّام في أيام مُخصصة للنساء، ولكن فقط من أجل القيام بالوضوء اللازم لصلواتهن، أو في حالة المرض، وحتى عندئذ يمكن أن يُمنعن من الذهاب من قبل أزواجهن[584].

لكن التراخي في الشعائر الدينية بين بعض حكّام ملوك الطوائف، الذي هلل له كثير من العلماء بوصفه دليلًا على التنوير في الأندلس، لم يكن فضيلة في نظر العلماء أو السكان عمومًا. أثر هذا التراخي بين الحكّام على عادة ارتداء حجاب الوجه بين النساء في البلاط الملكي. مؤرخًا لحكم إدريس بن يحيى (العلي) في القرن الحادي عشر في مملكة الطوائف مالقا، يرثي المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أبي الحميدي من قرطبة أنه من بين نقاط الضعف الأخرى التي جعلت إدريس غير صالح للحكم وهبطت به في النهاية إلى الزنزانة كان لامبالاته بظهور زوجاته سافرات في حضور ضيوفه[585].

مسألة عزل المرأة المسلمة في الأندلس، كما لاحظت مارين، غير متوقعة. في كل من الشريعة والممارسة الإسلامية المالكية في العصور الوسطى خوّل الوضع الاقتصادي والاجتماعي الأعلى استقلالية وسلطة أقل في الواقع في الميدان العام (ما يعتبره علماء الغرب عمومًا "حرية"). وعلى العكس، كلما كانت طبقة المرأة وتقديرها الاجتماعي أقل كانت عزلتها وتمييزها المجتمعيين أقل بوجه عام[586].
كانت مكانة المرأة المسلمة تعتمد على مكانة زوجها أو والدها، أو سيدها، في حال الرقيق الجنسي "المحظية".

لا يمكن أن يعزى حجاب وجوه النساء أو حتى القماش الملفوف بإحكام حول الرأس، حول الوجه والرقبة وتحت الذقن، والذي يعتبر سمة تاريخية للمرأة المسلمة الصحيحة، على ما ينحو بعض العلماء الغربيين، إلى تأثير الإمبراطورية الرومانية المسيحية "البيزنطية" بعد غزو الإسلام العسكري للشرق الأوسط المسيحي في القرن السابع الميلادي، بدلًا من ذلك، الحجاب مُشتق من تأويل -سواء كان صوابًا أو خطأ- آيات قرآنية وربما أيضًا من عادات البدو.

تشير الدلائل من الرسوم والوثائق إلى أن الحجاب الإسلامي لكل النساء البالغات خارج منازلهن أو في حضور رجال ليسوا أقربائهن المباشرين لا يمكن أن يكون

تقليدًا لممارسات في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية؛ لأن النساء اليونانيات في الإمبراطورية لم يكن يغطين وجوههن عادةً بحجاب أو أي شيء آخر. تكشف أعمال فنية أن إمبراطورات مسيحيات يونانيات، بعضهن حكم الإمبراطورية وحدهن، أظهرن شعرهن الغزير تحت تيجانهن[587]. علاوة على ذلك يشير أستاذ الفن البيزنطي بجامعة هارفارد Ioli Kalavrezou إلى أن "سعادة العديد من نساء النخبة بالعروض الفاخرة، التي ارتدين فيها الفساتين الطويلة الأرجوانية البراقة المخشخشة بالذهب.. لم يكن شعرهن مغطى وكان مُصففًا إلى أعلى، مُنسقًا ومُثبتًا بطبقات من الأقماط والمشابك المتداخلة"[588]. قد ترتدي النساء الأكبر سنًا أو الأرامل أو المتزوجات حجابًا فوق رؤوسهن في الأماكن العامة، لكن ليس في منازلهن حتى بحضور رجال آخرين غير أزواجهن، حتى عندما كن يتحجبن في الطريق، كن يغطين الرأس فقط وليس الوجه، والنساء الأصغر سنًا، غير المتزوجات، المتأنقات، الثريات والمتعلمات كن يرتدين تسريحات متقنة لتتناسب مع الملابس الفاخرة والجواهر باهظة الثمن[589]. رسم توضيحي لمخطوط يوناني قروسطي من القرن الثاني عشر يُصوّر حفل زواج أرثوذكسي مع امرأة ملكية جالسة تعرض شعرها حتى الرقبة مع إكليل فقط حول صدغيها[590]. وفي بلاط الإمبراطورية الرومانية اليونانية كانت النساء من الطبقة العليا يشاركن في "حفلات الاستقبال المختلطة للرجال والنساء"[591]. يكتب Kalavrezou: "كانت الإمبراطورة Irene Doukaina إيرين دوكينا تتبع زوجها أليكسوس الأول في الحملات، زوجات أو بنات إمبراطوريات أخريات حكمن مدنًا مختلفة في القرن الرابع عشر. عقدت السيدات الارستقراطيات صالونات أدبية اختلطن فيها مع الرجال بحرية في القرن الحادي عشر كما في القرنين الثاني عشر والرابع عشر: Anna Komnene آنا كومنين مع دائرتها من المثقفين الذين ناقشوا الفلسفة مثال ساطع"[592]. يمكن إضافة العديد من الأمثلة الأخرى.

أكدت هذه الثقافة اليونانية المسيحية على التمتع بالاستحمام، وفي بدايات الإمبراطورية اليونانية المسيحية كان هناك حمّامات مختلطة[593]. في القسطنطينية وحدها كان هناك 9 حمامات عامة كبيرة و153 حمامًا خاصًا في القرن الخامس الميلادي. قبول الكنيسة الأولى بالحمامات بوصفها جزءًا طبيعيًا من الحياة استمر في إفادة الإمبراطورية، حتى إنه كان هناك حمامات رهبانية في الإمبراطورية اللاحقة. كان الرجال والنساء يذهبون إلى الحمامات في أيام منفصلة[594].

لقد كان أيضًا مجتمعًا يمكن للمرأة فيه أن تكون، في ظل الظروف المناسبة، متعلمة جيدًا وحتى مثقفة. كانت النساء الأرستقراطيات يحظين بتعليم جيد. ثمة أطروحة موجودة حول التوليد من تأليف شخص يحمل اسمًا نسويًا يونانيًا، ميترودوراس Metrodoras[595].

اليونانية المتعلمة Anna Komnene (مواليد 1083- القسطنطينية وتوفيت في 1153 كيشاروتومين) قامت بتأليف عملٍ تاريخي شعري عظيم لا يزال موجودًا، *Alexiad*the *الألكسياد*، حيث تأثير القصائد الملحمية اليونانية مثل الإلياذة واضح [596]. (أوروبا غير اليونانية في العصور الوسطى، ستحظى في النهاية بأمثال الراهبة Hildegard von Bingen هيلديغارد فون بينغن وMarie de France ماري دي فرانس وChristine de Pisan كريستين دي بيسان). باختصار لم تكن الإمبراطورية الرومانية المسيحية "مجتمعًا مُحجّبًا"[597].

قد يُقارن المرء هذا الانفتاح النسبي في أدوار المرأة العامة في الثقافة المسيحية اليونانية مع سماح مالك للرجل برؤية شعر امرأة أخرى غير زوجته "أو جاريته" فقط في ظل ظروف غاية في الدقة. قال مالك: "ليس على الرجل ينظر إلى شعر امرأة ابنه أو شعر أم امرأته بأس"[598]. تبعًا للمدونة، إذا ما خرج جزء من شعر المرأة من تحت حجابها أثناء الصلاة فيجب أن تبدأ الصلاة من جديد[599]. ردًّا على سؤال حول ما إذا كان يمكن: "للرجل أن ينظر إلى شعر امرأة غير مسلمة تخدم كمربية لطفل مسلم (شيء غير مرغوب في حد ذاته) أجاب مالك بشكل جاف "لا يرضيني""[600]. قد يكون الحجاب الإسلامي للوجه استجابة للظروف الفريدة للحياة في شبه الجزيرة العربية، المختلفة عن تلك الموجودة في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. قد يُغير البدو على بعضهم من أجل النساء، لذلك قد يساعد إخفاء شكل ووجه المرأة في حمايتها من الاختطاف[601]. كما أن عادة الحجاب قد تكون استجابة للحاجة إلى إخفاء ما كان يعتبر الجزء الأكثر إيروسية من المرأة، أي الفم. في العديد من الأماكن في شبه الجزيرة العربية حتى اليوم، يكتب الأنثروبولوجي Lois Grant Beck: "يُنظر إلى الحجاب وعزلة النساء بوصفهما "حماية مُحبة" تطورت في الماضي كنوع من التكيف مع الحياة في الصحراء عندما كانت الغارات البدوية تشكل خطرًا على النساء اللواتي جسدن الشرف والنقاء في الأسرة والقبيلة. من نواح قليلة تبدو حياة النساء متردية بسبب هذه "القيود"، وفي الواقع كلما ارتفع المستوى الاجتماعي للمرأة، تم إخفاؤها وحمايتها بعناية أكبر"[602].

انعدام حرية المرأة المسلمة في الفضاء العام في الأندلس:

رأينا للتو القيود العديدة التي فرضتها الشريعة الإسلامية على النساء، بدءًا من الأوامر التفصيلية المتعلقة بالطهارة الطقسية. في المسائل القضائية كانت شهادتهن غير مقبولة في الأمور المتعلقة بالدم المُراق، في حالات أخرى، كانت قيمة شهادتهن تعادل نصف تلك الخاصة بالرجل المسلم[603]. وبعد فإن الإيمان بـ"حرية النساء" المسلمات في الأندلس لا يزال شائعًا بين العديد من العلماء. في الواقع، معظم النساء "المتعلمات" المذكورات في المصادر الإسلامية كن من الرقيق. هذا هو الحال بشكل خاص في الفنون "الدنيوية" مثل الأدب، الطب، الغناء والصناعات اليدوية، لكن المستعربة ماريا لويزا أفيلا تشير إلى أن الرقيق لم ينخرطن في تلك الأنشطة بدافع من إرادتهن الحرة وإنما كانعكاس لوضعهن كعبيد وكنتيجة "للتدريب المتخصص" الذي خضعن له[604]، لكن أفيلا تتابع:

لم تكن المرأة الحرة حرة حقًّا عندما كان الأمر يتعلق بتعلم علم أو آخر. مع عدد قليل جدًّا من الحالات المعزولة، لم يكن التكوين الثقافي للحرة (امرأة مسلمة حرة) في معظم الوقت سوى البقايا التي خلفتها بيئتها العائلية. نجد دائمًا خلف تلك النسوة المتعلمات والدًا كان يتمتع بتأثير ثقافي: الفقيهات (الخبيرات في الشريعة الدينية) كن بنات للقضاة (القضاة المسلمين) أو للفقهاء المشهورين، راويات الحديث (اللاتي حفظن الحديث) كن بنات لبعض الخبراء في الحديث، الطبيبة الوحيدة التي نعرف بشأنها كانت تنتمي إلى عائلة ابن زهر المشهورة. يجب أن نتجنب السماح لأنفسنا بالإعجاب بهاته النساء المتعلمات البالغ عددهن مئة وست عشرة.. العديد منهن مذكورات فقط بسبب الروابط العائلية، وأخريات بسبب من كتابتهن بعض الأشعار الذكية، كان ثمة العديد من الناسخات، وأخريات ذُكرن فقط لأنهن كن جزءًا من طُرفة ما عن الشخصيات الذكورية البارزة.

تختتم أفيلا: "التظاهر بأن النساء العربيات من أصل إسباني تمتعن بالحرية، بسبب هذا الدليل، غير ملائم. على العكس من ذلك، من المنطقي الاستدلال من الدليل أنه في الفضاء الاجتماعي الذي تحركت فيه تلك النساء "المتعلمات"، بصرف النظر عن الرقيق، كانت حياتهن تمضي داخل دائرة الأسرة وكانت علاقاتهن مقيدة بأهاليهن والنساء الأخريات".

تلاحظ أفيلا في مكان آخر: "على الرغم من وجود حالات غير منتظمة لنساء يبدو أن أنشطتهن تشير إلى استقلالية معينة وحرية -المثال الأكثر شهرة هو ذاك الخاص بالشاعرة ولادة– فإن كل المؤشرات التي تدل على حرية النشاط بالنسبة للنساء الأندلسيات الحرات مقصورة على المجال المنزلي"[605]. كانت ولادة بنت أمة جنسية من أصل أجنبي، ربما تكون ورثت عاداتها منها، ولم تتزوج أبدًا، وبالتالي لم تصبح محصّنة أبدًا.

ومع ذلك، يبدو العديد من علماء العصور الوسطى المتمرسين غير مدركين للتمييز بين الرقيق، وبين المحّصنة والحرة، وقد أدلوا بتصريحات حول حرية النساء في الأندلس لا تصمد أمام التدقيق[606].

ثمة نصوص تشير إلى أن بعض النساء حققن سمعة طيبة بوصفهن راويات للحديث[607]. على سبيل المثال، يبدو أن شهدة الكاتبة تكلمت عن حديث البخاري، لكن الاستماع إلى ما لديها لتقوله لا يجب أن يكون مقبولًا من العلماء الأندلسيين، لأنه، كما يشير إغناز جولد تسيهر، أن أولئك الذين حضروا حديثها (الذي ربما حدث من وراء الستارة) كذبوا بشأن القيام بذلك[608].

مرة أخرى كما تلاحظ أفيلا، فإن بعض هؤلاء "المحدثات" المتعلمات تحدثن من وراء الستارة إلى الرجال الموجودين في الغرفة لتجنب مخالفة الضوابط الإسلامية ضد الاختلاط بالرجال أو رؤيتهن من قبلهم. لم يكن على بعض النساء الأخريات التواري خلف الستائر لأن "معلميهم كانوا آباءهن وإخوتهن وكان أبناؤهن المريدين الوحيدين"[609]. من الواضح أن مسلمة حرة واسعة الحيلة في الأندلس، في ظل ظروف معينة، قد تكون قادرة على التغلب على بعض القيود المفروضة على أنشطتها العامة التي فرضتها وجهات النظر الدينية لمجتمعها، لكن هذا ينطبق على أي مجتمع مقيد.

علاوة على ذلك، تصحح المستعربة الإسبانية Teresa Garulo تيريزا جارولو الإيمان واسع الانتشار بالحرية الاجتماعية للشاعرات المسلمات في الأندلس:

قادت معطيات معينة في سير ولادة ونزهون وحفصة الراكونية البعض إلى الاعتقاد أن الشاعرات تمتعن بحرية كبيرة في الاختلاط مع الشعراء الذكور، لكن على الرغم من أن العديد من المؤرخين أيضًا رددوا نظريات H. Pérès الذي يقر أنه في الأندلس، وبسبب من التأثير المسيحي، أصبحت المعايير الإسلامية التي تميل إلى إبقاء النساء في المنزل أكثر حرية، ولذلك تمتعت المرأة العربية - الإسبانية، كما يتبين من الحالة الملموسة للأميرة ولادة، بحرية غير معروفة للمسلمين الشرقيين، يبدو بدلًا من ذلك، كما تشير M. Marín أنه "من الفتح إلى نهاية خلافة قرطبة، على الأقل في الأوساط الاجتماعية التي ندرسها، لم يكن يمكن للمرأة أن تختلط بحرية برجال لم يكونوا من أفراد عائلتها". بشكل أكثر تحديدًا: إذا ما سلمنا بالمعطيات التي توفرها سير النساء الشاعرات في الأندلس، اللواتي كن ينتمين في الغالب إلى الطبقات العليا، لا نرى أنه كان هناك مثل هذا الاختلاط الحر وبدلًا من ذلك نرى العديد من المؤشرات على العكس. نجد فقط حفصة الراكونية، نزهون، ولادة، وبنت ابن السخان Ibnat Ibn as-Sakkan وقد كانت متقدمة في العمر (حسب بعض المصادر)، يسمع المرء، بالإضافة إلى استخدام الحجاب، أن تلك النساء حين وصول رجال ليسوا من عائلتهن، كن

ينسحبن وراء الستار أو يستقبلن رجالًا متواريات خلف ستارة، مثل ريحانة التي اتبعت في هذه الموضة صفوف الأديب أبو عمرو الداني[610].

لأن النشاط الشعري يمكن أن يتم في العزلة، والاستخدام الفني للكلمات كان تقليديًّا شكلًا فنيًّا مقبولًا في الإسلام، لم تتعارض كتابة القصائد من حيث المبدأ مع الدين؛ لذلك كتبت بعض النساء المسلمات الحرات الشعر في منازلهن، ودائمًا في حالة انفصال عن الرجال الذين لم يكونوا أقاربهم المباشرين[611].

نظرًا للقيود التي يفرضها الفقه الإسلامي والمجتمع على الأنشطة العامة للمرأة، نادرًا ما كانت تلك الشاعرات ينتقلن خارج الفضاء المنزلي، وفقط لأغراض محددة للغاية ومحجبات بشكل صحيح[612]. لنفس الأسباب، ما لم تكن تلك النساء من الإماء ما كن ليتمكّن من لقاء الشعراء الرجال ومناقشة الأدب. بعضهن، تراسل مع الشعراء الرجال رغم ذلك.

لصالح الحرية المفترضة للنساء، اقتبس بعض العلماء الغربيين من ابن حزم الذي كتب: "علمتني النساء القرآن، قرأن لي الكثير من الشعر، ودربنني على الخط"[613]، لكن مرة أخرى، نساء مثل اللواتي يتحدث ابن حزم عنهن لم يكن مُحصّنات وإنما رقيق جنسيات خبيرات في حريم الخليفة، حيث سُمح للأطفال المترعرعين في البلاط، مثل ابن حزم، باللعب معهن.

توجز كلمات الفقيه المالكي العظيم ابن رشد "Averroes" حالة النساء المسلمات ومرة أخرى تدحض التصور السائد اليوم أن النساء تمتعن "بحرية" كبيرة في الأندلس:

وإنما زالت كفاية النساء في هذه المدن (مدن الأندلس)، لأنهن اتُّخذن للنسل دون غيره وللقيام بأزواجهن، وكذا الإنجاب والرضاعة والتربية، فكان ذلك مُبطلًا لأفعالهن [الأخرى]. ولما لم تكن النساء في هذه المدن مهيئات على نحو من الفضائل الإنسانية، كان الغالب عليهن فيها أن يُشبهن الأعشاب، ولكونهن حملًا ثقيلًا على الرجال صِرن سببًا من أسباب فقر المدن. وبالرغم من أنهن ضِعف عدد الرجال، فإنهن لا يقُمن بجلائل الأعمال الضرورية، وإنما ينتدبن في الغالب لأقل الأعمال كما في صناعة الغزل والنسج عندما تدعو الحاجة إلى الأموال بسبب الإنفاق، وهذا كله بيّن بنفسه[614].

في الواقع، كان الحياء في حالة المرأة الحرة في الفقه المالكي أمرًا مهمًّا جدًّا بحيث إن الرجل كان بوسعه رؤية زوجه المستقبلية فقط إذا لم تكن قد بلغت سن الرشد. كان لُمحمد السبق بزواجه من عائشة وهي بعد في السادسة من عمرها[615]. نقرأ في أحاديث البخاري:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "تزوجني النبي -صلي الله عليه وسلم- وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة.. فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين".

عنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلُعَبُهَا مَعَهَا، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانِي عَشْرَةَ.

جاءت الأحاديث الصحيحة العديدة ومختلفة الرواة (وليس فقط هشام بن عروة) بأن النبي صلى الله عليه وسلم عقد على عائشة -رضي الله عنها- وهي بنت ست سنين، ودخل بها وهي تسع سنين.

عن عائشة رضي الله عنها: تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري، فوفى جميمة، فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي، ثم أخذت شيئًا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن وأصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

وعنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللهَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ [أَي: يتخفين] مِنْهُ فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي.[616]

يتضح مما سبق أنه على الرغم من أنه يمكن للرجل أن يتزوج فتاة قبل بلوغها، لكن لا يمكن إتمام الزواج إلى حين بلوغها: مرة أخرى يُعطي مُحمد سابقة بزواجه من عائشة، كما يشر البخاري، عندما كانت في السادسة من عمرها، مع تأجيله للقران إلى حين بلوغها[617].

العبودية الجنسية للإناث في الأندلس:

الكونية، التي دافع عنها الأنبياء منذ زمن طويل منذ نوح، إبراهيم وموسى، وأُعيد تأكيدها من قبل المسيح باسم الدين الجديد، وتحققت في الإسلام، في النموذج الأندلسي في إسبانيا، هي ميزة ثابتة في النموذج الفلسطيني (وهذا من شأنه أن يلغي إسرائيل) الذي يمكن أن يعيش فيه اليهود والمسيحيون والمسلمون مرة أخرى وفي ظل حمايته. (التشديد مُضاف).

حسن حنفي رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، مُقتبسة بوصفه "شارحًا رائدًا في الإسلام المعاصر

حول المصالحة بين الإيمان والعقل" في آرثرهرتسبرغ، مجادلات يهودية (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 224،1992).

في الفقه المالكي "إن أحسن ما سمع في الأمة يقع بها الرجل، وله فيها شرك. أنه لا يُقام عليه الحد. وأنه يلحق به الولد. وتقوم عليه الجارية حين حملت. فيعطى شركاؤه حصصهم من الثمن. وتكون الجارية له. وعلى هذا النحو، الأمر عندنا".[618]

أصبحت الأندلس في ظل حكم الأمويين مركزًا لتجارة وتوزيع العبيد: إماء جنسيات شابات، أحيانًا بعمر 11 عامًا، ذكور أطفال تم خصاؤهم ليكونوا خصيانًا في الحريم، ذكور أطفال نشؤوا في الثكنات ليكونوا عبيدًا محاربين، ذكور أطفال استُخدموا كدمى جنسية للأثرياء والأقوياء (كما في حالة "حب" عبد الرحمن الثالث للصبي المسيحي بيلايو)[619]، رجالٌ استخدموا كخدم أو عمال، لكل استخدام ممكن تصوره تم بيع وشراء كائنات بشرية من كل الأعمار والأجناس.

يعتمد ثمن العبد على عرقه وجنسه وعمره ومقدراته[620]. كان العبيد البيض، وخاصة الشقر، الذين غالبًا ما تم أسرهم في غزو الأراضي المسيحية، الأعلى قيمة. في سنة 912، خلال العصر الذهبي للخلافة الأموية في قرطبة، كان ثمن العبد الأسود 200 درهم من الفضة. فتاة سوداء من النوبة قد يصل ثمنها إلى 300 دينار من الذهب. الفتاة البيضاء غير المتعلمة تكلف ألف دينار من الذهب. فتاة بيضاء تتمتع بالقدرة على الغناء تكلف 14000 دينار. كان هناك 3750 عبدًا في بلاط عبد الرحمن الثالث، وحريمه كانوا يعدون 6300 امرأة، وتضمن جيشه 13750 عبدًا محاربًا. تحكي وثيقة من القرن الثاني عشر عن الحيل التي استخدمها بائعو العبيد في أسواق النخاسة: "كان التجار يطلون وجوه الإماء ذوات البشرة الداكنة لتبييض وجوههن فيما كانت السمراوات يوضعن في محلول لأربع ساعات لتشقيرهن، بينما وُضعت المراهم على وجوه وأجساد العبيد السود لجعلها "أجمل". يخبر التاجر الإماء أن يتصرفن بشكل مغناج مع الرجال المتقدمين في السن ومع الرجال الخجولين بين المشترين المحتملين لتسعير رغبتهم. يطلي التاجر أطراف أصابع العبيد البيض باللون الأحمر، ويطلي بالذهبي الأطراف الخاصة بالعبيد السود ويُلبسهم جميعًا ملابس شفافة، اللون الوردي مخصص للرقيق الأبيض واللونان الأصفر والأحمر مخصصان للرقيق السود".

تُظهر رسالة من القرن الثالث عشر للفقيه أبو بكر البردعي كيف ينظر مسلم محترم في الأندلس إلى الأمة الجنسية بوصفها مصدرًا للحب[621]. شعر الكاتب

السرقسطي مثال جيد عن هذا: "شعر حب أندلسي محبب" أثنى عليه العديد من العلماء الغربيين غافلين عن سياقه الثقافي البغيض: إذ يدور حول الإماء الجنسيات لا حول حرات الأندلس أو محصناتها المتقوقعات اللواتي تجولن منقّبات من الرأس إلى أخمص القدمين[622].

غصّ الحريم في العالم الإسلامي (لم يكن الحريم مؤسسة مسيحية، على النقيض مما يُكتب أحيانًا، لأنه لم يكن ثمة حريم في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية)[623] بالأسيرات من الأراضي الأجنبية: نساء بيض من بلاد فارس وكردستان والإمبراطورية الرومانية المسيحية، من إسبانيا المسيحية وأرمينيا، ونساء أدكن لونًا من إثيوبيا والسودان والهند. كان لهارون الرشيد ألف من الإماء، للمتوكل أربعة آلاف، ولعبد الرحمن الثالث أكثر من ستة آلاف، المعتمد الإشبيلي الذي أطاح به المرابطون ترك وراءه حريمًا من ثمانمئة امرأة بينهن الزوجات والإماء والخادمات المنزليات. تروي الكاتبة المغربية فاطمة المرنيسي:

وقد أصبحت مستودعات الحريم أمكنة عليا للترف، حيث كانت النساء الجميلات من العالم يتمتعن بثقافات ومهارات في معارف مختلفة، مما يعتبر بطاقة رئيسة لإغواء وإبهار الخلفاء والوزراء. من أجل إغواء الرجال هذا لم يكن يكفي تفتير الأهداب، بل كان لا بد من إدهاشهم في الميادين التي تبهرهم، كالتنجيم والرياضيات والفقه والتاريخ ويُضاف إلى ذلك كله الشعر والغناء. ولم يكن للفتيات الجميلات الغارقات في المحادثات الجادة أي حظ في صعود نجمهن، أو في دوامه على الأقل، وكانت المحظيات المفضلات يعلمن ذلك تمامًا، فيحطن أنفسهن بمعلمين مؤهلين لذلك[624].

علق ابن حزم على الانقطاع الكلي لأولئك النساء للإغواء الجنسي بوصفه السبب الكامن خلف مختلف مهاراتهن: "....."[625]. إن نجحت تلك الفتيات الماهرات جنسيًّا في أن يصبحن مفضلات لأسيادهن، فيمكن أن يكون لديهن خادمات.

جادل بعض المتخصصين الأكاديميين المهرة أنه من خلال السماح للإماء بتعلم المهارات التي تزيد من جاذبيتهن الجنسية في أعين أسيادهن ومنحهن قدرًا أكبر من الحرية نسبيًّا في الفضاء العام عززت العبودية الجنسية في ظل الإسلام فعليًّا تحرير النساء[626]. شبّه مقال نُشر في نيويورك تايمز تآمر الرقيق الجنسيات من أجل السلطة في الحريم بنضالات النساء الغربيات في عالم الشركات[627].

كانت الجهود الأخرى للتقليل من أهمية ظاهرة العبودية الجماعية في الإمبراطوريات الإسلامية بمثابة أعاجيب للبراعة الأكاديمية[628]. هكذا، دفاعًا عن العبودية في الإمبراطورية الإسلامية المملوكية يقدم باحثو دراسات القرون الوسطى وجهة النظر الرسمية بين المتخصصين:

من المهم أن نفهم أن الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى كان لديها موقف مختلف تجاه العبودية عن ذاك الذي بدا في أوروبا الغربية. كان العبيد يُعاملون بشكل أفضل وكان وضعهم محترمًا تمامًا. علاوة على ذلك، فرص العمل المفتوحة أمام المملوك الخبير، ومستويات المعيشة الأعلى المتوفرة في الشرق الأوسط الإسلامي، كانت تعني أنه غالبًا ما كان هناك القليل من المقاومة لاعتباره مملوكًا بالنسبة لشعوب آسيا الوسطى وجنوب شرق أوروبا. العديد من نساء القبجاق التركيات، إماء وحرات، وصلن في أعقاب مجندين من المملوك، جالبات معهن بعضًا من تقاليد آسيا الوسطى في المساواة بين الجنسين[629].

يمكن للمرء أن يتخيل بالتأكيد حشود الفتيات والصبية في اليونان وصربيا وآسيا الوسطى يصيحون طالبين أن يؤخذوا من عائلاتهم ليُصار إلى ختانهن، ليصبحوا عبيدًا جنسيين، أو ليتم خصاؤهم ليحرسوا الحريم مثل الخصيان، أو في حالات أخرى، ليتم تربيتهم في ثكنات ليصبحوا جنودًا عبيدًا لا يعرفون الخوف. أو يمكن للمرء أن يتخيل الاهتمام ذاته بين الشباب المصري بـ"مهنة" العبد، الأمر الذي يجعل من غير الضروري بالنسبة للحكّام المماليك في مصر غزو أراضٍ أجنبية للحصول على عبيد بدلاء أو شرائهم من أسواق النخاسة.

ولكن بصرف النظر عن المشكلة الإنسانية الأساسية التي ينطوي عليها كل هذا، يتغاضى البروفيسور عن أنه في الواقع، كما أشار كل من برنارد لويس ودانيال بايبس، ثمة فئتان أساسيتان من الناس في الإسلام، العبيد وغير العبيد. لهذا السبب سرعان ما تم تثبيط استعباد المسلمين في بداية الإسلام وحُرّم في النهاية[630]. إزاء هذا التمييز (الاسترقاق أو بيع النفس في سوق النخاسة كان غير مشرِّف وهذا ما يجعله غير منسجم مع كونك مسلمًا) كان الباقي مجرد نقاشات أكاديمية حول كيفية تعامل مختلف الإمبراطوريات الإسلامية (أو مختلف الإمبراطوريات والثقافات الغربية) مع هذه العادة الفارقة: "بشكل أكثر إنسانية" أو "أقل إنسانية"، "بمزيد من الرقي" أو "على نحو أقل رقيًا"، "مع إمكانية أكبر للرفاه" أو "احتمال رفاه أقل"، "إمكانية إنجاب أطفال قد يصبحون حكّامًا"، "عبيدًا محاربين، وهو ما ينطوي على مكانة أعلى" إلخ. لم يكن ثمة شيء أفضل فيما يخص "العبودية" في ظل إسلام العصور الوسطى: كان نظامًا مبنيًا على نهب البشر وامتهانهم في أسواق النخاسة.

كان وجود الإماء –مسيحيات أُسرن غالبًا في الحرب أو جُلبن إلى السوق- كشاعرات ومغنيات وراقصات وأديبات و"طبيبات" وغيرها من المهن شائعًا في جميع أنحاء العالم الإسلامي وليس في الأندلس فقط. كان شائعًا مثل الذكور العبيد، مرارًا وتكرارًا من أصل مسيحي، الذين تم استخدامهم كجنود[631]. كل من الذكور والإناث العبيد -العسكريين، الجنسيين وأنوا ع أخرى- والعبيد المحررين

"ولي" شكلوا بشكل مثير تاريخ الإسلام، ثقافيًا، واجتماعيًا واقتصاديًا وعسكريًا ووراثيًا[632].

ابن حزم نفسه ذو الأصل المسيحي الأوروبي (إسباني) كتب أن معظم الخلفاء العباسيين في الشرق الأوسط وجميع الحكّام الأمويين في الأندلس كانت أمهاتهم من الإماء[633]. العديد من أولئك الأمهات كن من أصل قوقازي. المؤرخ العربي ابن القوطية ذو الأصل الأوروبي المسيحي (القوط الغربيين) أكد أن أحفاد سارة "القوطية" وهي زوجة ملكية مسيحية، كانوا أكثر شهرة وهيبة في المجتمع الإسلامي الأندلسي من أبناء زوجها المسلم من نساء أخريات (في الشريعة الإسلامية، أبناء الرجال المسلمين من نساء غير مسلمات يجب تنشئتهم كمسلمين)[634].

كما تلاحظ المستعربة سيلا ديل موزال أن الأمويين على وجه التحديد ثمنوا جدًا النساء الفرنسيات والغاليسيات الشقراوات أو ذوات الشعر الأحمر كرقيق جنسيات[635]. مؤسس السلالة الأموية في إسبانيا، المولود في الشرق الأوسط، عبد الرحمن الأول (حكم بين 755-788) كان أشقر، هشام الأول (حكم بين 788-796) كان ناصع البياض وشعره ضارب إلى الحمرة، محمد الأول (حكم بين 852-886) كان وردي الوجه، عبد الله بن محمد (حكم بين 888-912) كان أبيض البشرة، وردي الوجه، أزرق العينين، أشقر الشعر، الخليفة عبد الرحمن الثالث (حكم 912-961) كان أبيض البشرة، وردي الوجه، أزرق العينين، وصبغ شعره باللون الأسود ليبدو أكثر "عربية" لرعاياه، الخليفة الحكم المستنصر الثاني (حكم 961-976) كان شعره ضاربًا إلى الحمرة والخليفة هشام الثاني (حكم منذ 976 بشكل مختلف كدمية حتى اغتياله عام 1013) آخر حاكم أموي ونجل أمة جنسية من إقليم الباسك (مغنية محترفة مارست تأثيرًا كبيرًا على والده) كان أشقر، أزرق العينين، ولحية ضاربة إلى الحمرة[636].عبد الرحمن الخامس المُستظهر (اغتيل في قرطبة 1024) والذي حكم لفترة وجيزة بعد موت المنصور، كان أشقر، وابنًا لأمة جنسية[637]. مؤسس سلالة النصريين في غرناطة والمفترض أنها عربية، محمد بن نصر (توفي 1273) كان يُسمى الأحمر بسبب لحيته الحمراء. في البداية، كان غزاة الأندلس في الغالب من الرجال؛ لذلك، كما تشير المصادر العربية، فإن ممارسة إنجاب الأطفال من المسيحيات الإسبان ربما بدأت عندما اتخذ ابن موسى من الملكة إجيلو (إجيلونا) أرملة الملك رودريغو ملك القوط الغربيين زوجة له من بين زوجاته العديدات[638].

لم يتوقف الوجود الغربي في نسل الحكّام المسلمين عند وصول البربر الموحدين: إذ كان الخليفة الموحد أبو يوسف يعقوب بن يعقوب بن عبد المؤمن بن علي (توفي 1198) ابنًا لأمة مسيحية[639]. وبالمثل نعرف أن أحد ملوك مملكة الطوائف

بغرناطة، محمد بن يوسف نصر (توفي 1310) اتخذ المسيحية الأسيرة حاكمة مدينة بيدمار، ماريا خيمينيز، كإحدى زوجاته وكان له منها عدة أطفال[640].

قدّر المستعرب الإسباني جوليان ريبيرا Julián Ribera أنه، وكنتيجة لذلك الجماع الجنسي مع القوقازيات المسيحيات، رأى كل جيل من الحكّام الأمويين انخفاضًا في مركّبه الوراثي العربي بمقدار النصف، لذلك سيكون للأموي الأخير هشام الثاني (976-1013) ما نسبته 0.09 بالمئة من الجينات العربية في تركيبه, استنتج ريبيرا أنه كان لدى الحكام الأمويين من الجيل الثاني في الأندلس بالفعل جينات أوروبية أكثر من الجينات العربية، وأن عملية مماثلة من التزاوج المتزايد من الناحية الهندسية بين المسلمين والمسيحيات الإسبانيات أو حفيداتهن المسلمات في نهاية المطاف يجب أن تخفف على نحو دراماتيكي التركيب الجيني غير الأوروبي لعامة السكان في الأندلس وأن هذا العنصر الأوروبي المسيحي مع حبه الأعظم المفترض للحرية الفردية واحترامه الفرد البشري بوصفه نقيضًا للجماعة، ساهم مرة أخرى في الحرية المتعاظمة المفترضة التي تمتعت بها النساء في إسبانيا الإسلامية على عكس مناطق الأمة الأخرى[641]. أيًّا كان ما قد يظنه المرء في خاتمة ريبيرا الأخيرة المتخيلة في ضوء ما نعرفه الآن عن الحالة الفعلية للنساء المسلمات في الأندلس، فمن غير المُستبعد أن العملية التي يصفها كانت لتؤثر على الأندلس ثقافيًا واجتماعيًا. كتب المؤرخ ابن الخطيب في القرن الرابع عشر واصفًا سكان غرناطة بأنهم ذوو "بشرة بيضاء"[642]. كان المستعرب فيليبي مايلو سالغادو قد أشار إلى أن الدراسات الجينية الحديثة تُظهر أن الوجود الجيني للسكان من الشرق الأوسط وبربر شمال إفريقيا في السكان الإسبان الحاليين هو في الحد الأدنى[643].

كان هذا هو التأثير الثقافي للرقيق الجنسي القوقازي من الأراضي المسيحية على إسلام العصور الوسطى بحيث إن كلمة *kiz* التركية التي تعني "الفتاة"، "الأمة"، "المحظية"، قد أصبحت تعني أيضًا "المرأة المسيحية" في الاستخدام الإسلامي[644].

بصورة متناظرة، الكلمة العربية *sakaliba* (المشتقة ربما من الكلمة اليونانية Σλάβος أو سلافيين) في إشارة إلى الشعوب ذات الشعر الأشقر أو الأحمر، أصبحت تشير إلى الأطفال أو العبيد البالغين من شرق وشمال أوروبا، الذي لعبوا دورًا رئيسًا في جيوش وسياسات دول المسلمين[645]. مؤرخ القرن العاشر والجغرافي ابن حوقل كتب أن اسم *sakaliba*, في إسبانيا وكذلك "Slavs" قد أُعطي لكل العبيد البيض من أصول أجنبية، ليس فقط من شمال وشرق أوروبا ولكن أيضًا من غاليسيا المسيحية وشمال إسبانيا، لومباردي، بلاد الفرنجة وكالابريا الذين سكنوا القصور والحريم والجيوش ولا سيما حراس الحكّام الأندلسيين[646]. كما يشير محمد معواك Mohammed Meouak أستاذ

الدراسات الإسلامية في جامعة قادش، شكل هؤلاء العبيد البيض المتأسلمين في قرطبة الأموية معظم الكوادر الإدارية في القصور والبلاطات الأموية[647]. كما الرجال المحررين، حاز بعض من هؤلاء "السلاف" السلطة وأصبحوا ملوكًا لمالك الطوائف بعد اضمحلال خلافة قرطبة.

كان تأثير الإماء القوقازيات على الحكّام المسلمين للشرق الأوسط مهمًّا بنفس القدر. كما لاحظ ابن حزم، أن أمهات معظم الخلفاء العباسيين في الشرق الأوسط كن إماءً من القوقاز من أصول يونانية وبلقانية وفارسية غالبًا. في مصر، شكّل العبيد الأتراك والمنغوليون والقوقازيون (الشركس، الجورجيون، اليونانيون أو الروم، الفرنجة) وأصول أخرى سلالة المماليك، التي استمرت لأجيال عديدة[648]. مع الاستيلاء النهائي على القيادة المملوكية من قبل الشركس، أصبحت كلمة *mamluk*بالعربية "مملوك" تشير إلى أي سلافي أبيض ذكر[649]. في الإمبراطورية العثمانية، الجسم الأكثر حسمًا وتأثيرًا في الجيش، الإنكشاريون، كان يتألف من الأطفال الأوربيين من أراضي اليونانيين والبلقانيين المسيحية والذين نشؤوا كمحاربين مسلمين أشاوس.

التجارة الضخمة المتمثلة في أسر العبيد السود أو البيض أو استجلابهم كانت سمة ثقافية لإسبانيا الإسلامية، كما كانت سمة للعالم الإسلامي عمومًا. بلغت التجارة العربية بالعبيد السود الأفارقة نسبًا هائلة مع نمو الإمبراطورية الإسلامية وقادت إلى ثورات عدة. خصص المؤرخ الفارسي الطبري إحدى رسائله التاريخية لإحدى ثورات السود تلك: بين عامي 869 و883 ثار مئات الألوف من البانتو (الزنج) في جنوب العراق، وتم إخماد أعمال الشغب التي قاموا بها بصعوبة بالغة من قبل الخليفة العباسي[650]. صورت لوحات المسلمين في متحف توبكابي Topkapi مُحمد (بقي مكان وجهه فارغًا امتثالًا للشريعة الإسلامية) مع العبيد السود[651].

في الواقع، كان المحاربون الإسلاميون روادًا في عبودية السود الأفارقة[652]. مع أن الإسلام لم يعلن تفوق أي جماعة عنصرية، فقد اعتبر كل من العرب المسلمين والبربر المسلمين في شمال إفريقيا أنفسهم مختلفين عن السود الذين تم استعبادهم ومتفوقين عليهم[653]. كانت تجارة الرقيق الأسود من إفريقيا، الذكور بالدرجة الأولى أحيانًا والإناث في أحيان أخرى، هائلة في الأراضي الإسلامية[654]. يذكر كتاب البيان المغرب أن موسى حين عاد من إفريقيا محملًا بالكنوز المنهوبة من إسبانيا في النصف الأول من القرن الثامن، كان قادرًا أن يعطي كل محارب مسلم منتصر من محاربيه عبدًا أسود وأمة سوداء[655].

في سياق دراسته لمساهمات المجموعات البشرية المختلفة في الحضارة، يوضح القاضي الأندلسي من طليطلة سعيد الأندلسي (توفي 1070) وجهات النظر التي

لم تكن مألوفة حول السود الأفارقة: من جهة أخرى، بالنسبة لتلك الشعوب التي تحيا قرب خط الاعتدال ووراءه إلى حد العالم المأهول في الجنوب، يجعل الوجود الطويل للشمس في أوجها الهواء ساخنًا والغلاف الجوي رقيقًا. وبسبب هذا تصبح أمزجتهم ساخنة، وأخلاطهم نارية، لونهم أسود وشعرهم خشنًا. وهكذا فهم يفتقرون إلى ضبط النفس وثبات العقل، ويهزمهم الجهل والحماقة والتقلب. هكذا هم السود الذين يعيشون في أقصى الأراضي الإثيوبية، والنوبيون، والزنوج وما شابه[656].

رؤى كهذه عن الأفارقة السود في الإمبراطورية الإسلامية في العصور الوسطى لم تكن مقصورة على الأندلس. كتب ابن الفقيه الكاتب في القرن العاشر أن العرب في العراق كانوا متفوقين على السلافيين والسود لأن الشمس طهتهم بشكل صحيح: لم يكن السلافيون مطهوين جيدًا لذلك فإن لونهم يتراوح بين "الأشقر، الأصفر البرتقالي، الناصل والأبرص"، بينما تم طهي السود أكثر من اللازم وبناء عليه "احترقوا مع بقائهم في الرحم أكثر من اللازم، لذلك خرج الأطفال شيئًا ما بين الأسود، الحالك، النتن، الآسن، والشعر المجعد، بأطراف غير متساوية، مفتقرين إلى العقل، فاسدي العواطف، مثل الزنج، الإثيوبيين وغيرهم من السود الذين يشبهونهم. العراقيون ليسوا نصف مخبوزين ولا محترقي القشرة وإنما بينهما"[657]. يقول مثل عربي "الأسود إذا جاع سرق وإذا شبع زنا"[658].

العمل الأدبي الأشهر الذي أنتجته الخلافة الإسلامية، ألف ليلة وليلة، والمعروف أيضًا باسم الليالي العربية، (على الرغم من أن معظم حكاياته من أصل فارسي وهندي ويوناني) تثبت خوفًا ثقافيًا مماثلًا من الذكر الأسود. السرد الساحر الذي يؤطر الحكايات يركز على اكتشاف اثنين من الحكّام أن زوجتيهما تمارسان الجنس مع عبيد سود. كلا العبدين الأسودين تم وصفه بعبارات غير مغرية للغاية، أحدهما صُور بينما يهبط الشجرة ليمارس الجنس مع الملكة. الحاكم الشاب يذبح زوجته وعشيقها الأسود. شقيقه الأكبر، السلطان، يقتل زوجته، وعشيقها الأسود وكل من في الحريم. لمعاقبة النساء بشكل عام، يشرع في ممارسة الجنس كل ليلة مع عذراء شابة مختلفة منتزعة من السكان العاجزين: بعد ليلة الحب يأمر بقطع رأسها في الصباح.

استمر هذا لمدة ثلاث سنوات، إلى أن استنفد الفتيات العذراوات لمملكته. ثم تسحره واحدة من مئات العذارى اللواتي مارس الجنس معهن -الابنة البكر لوزير له- بقصصها وموهبتها، فيعفو عنها، وينتهي كل شيء على ما يرام[659].

لم تكن التجارة بالرقيق الأبيض بعيدة جدًا عن التجارة بالعبيد السود: تشير التقديرات أنه منذ عام 1530 إلى عام 1780 تم تداول ما بين مليون و1.25 مليون رقيق أبيض في الأراضي الإسلامية، مأخوذين من سواحل البحر الأبيض

المتوسط، اليونان، البلقان، أرمينيا، بلاد فارس، والأراضي السلافية من بين بلاد أخرى[660].

لاحظ الجغرافي من القرن العاشر ابن حوقل أن العبيد كانوا أحد الصادرات الرئيسة للأندلس: "وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه، وربما حمل شيئًا منه إلى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري، والغلمان الروقة من سبي إفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة، وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس؛ لأنهم عند قربهم منها يُخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود والصقالبة قبيل من ولد يافث"[661].

في الأندلس الأموية وما بعدها، كان ثمة طبقة من الإماء الأكبر سنًا اللواتي كن جزءًا من تجارة العبيد، مشاركات فيها بوصفهن مدربات، مشتريات وبائعات للرقيق الجنسي المُتخيل في أطروحة ابن حزم المشهورة عن "الحب" (طوق الحمامة) أو (*El collar de la paloma* كما هي معروفة بالإسبانية) ولاحقًا في كتابات العلماء الغربيين السذج الذين يجهلون على ما يبدو الواقع القذر وراء هذا الكتاب "عن الحب" الذي حظي بإعجاب كبير[662].

لا شيء إطلاقًا يمكن مقارنته من حيث الكم والنوع بهذه التبادلات الاستثنائية للعبودية البشرية التي حدثت في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى. كان هناك عبيد في أوروبا المسيحية أيضًا، لكن لا شيء يداني أعدادهم في الأراضي الإسلامية. محاولات استخدام القنانة في العصور الوسطى بوصفها مكافئة "مساوية" للعبودية في العالم الإسلامي لا تعمل على مستويات عدة، بما في ذلك دور الأقنان المحدود في الجيوش ولدى طبقات النبلاء والمحاربين في أوروبا. علاوة على ذلك، الأقنان، الذين كانوا فلاحين، لم يكن ممكنًا بيعهم أو شراؤهم. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك أقنان إطلاقًا في أماكن مثل قشتالة: كما لاحظ العالم القانوني رامون بيرالتا Ramón Peralta أن قشتالة كانت أساسًا في العصور الوسطى أرضًا للملكية المجانية بالنسبة للفلاحين و hidalgos(النبلاء) الباحثين عن المغامرة على الحدود الجنوبية البرية[663].

كان الحريم ممتلئًا طبعًا بالرقيق الجنسي الذين حرسهم عبيد سود ولم يكن الخصيان البيض جزءًا من النسيج الاجتماعي للإسبانيا المسيحية أو أوروبا.

يذكر بعض العلماء الغربيين الناسخات في الأندلس، أو نساء كن يعملن كطبيبات[664]، لكن كما لاحظت ماريا لويزا أفيلا أن مثل أولئك النساء كن في الغالب من الرقيق -وعادة ما يكن عبدات مسيحيات- بما أن المُحصّنة لم يكن يسمح لها زوجها بمغادرة المنزل لمباشرة أنشطة كهذه، في حين أشارت مانويلا مارين إلى أن النساء الموسرات لم يكن يفترض بهن العمل حتى في المنزل، حيث

يقوم العبيد بالعمل اليومي[665]. من المنطقي أن نفترض، مع ذلك، أن بعض النساء المسلمات قد عرفن على الأقل كيفية إجراء الجراحة اللازمة لختان الإناث، بما أن الرجال كانوا ممنوعين من النظر إلى الأعضاء التناسلية للنساء إن لم يكن زوجاتهن أو عبداتهن الجنسيات.

توجد في الأندلس سجلات عديدة عن المهارات الفكرية للرقيق الجنسيات. في القرن الحادي عشر، على سبيل المثال، كان لدى الحاكم هذيل 150 أمة جنسية تدربن على الغناء والرقص، لكن بعضًا منهن أصبحن مشهورات أيضًا بسبب معرفتهن العلمية والأدبية[666]. يمكن أن يكون للجارية الجنسية المُدربة بشكل صحيح في بلاط حاكم أندلسي "غرفة عمليات" أكثر من المحصّنة لا سيما إذا كان البلاط "فنيًا" أو "فكريًا" أو متطورًا بطريقة أخرى. أو قد يستفيد العبد ذو الميول التربوية إلى العلم من ميول سيده ووضعه. بالإضافة إلى ذلك، قد تقوم المرأة المسلمة من الطبقة الدنيا الأقل دخلًا بالضرورة بعمل ما خارج المنزل، مثل الغزل أو الحياكة، كما لاحظ ابن رشد، أو كبائعة في السوق المحلية، كل ذلك من شأنه أن يمنحها الفرصة لتوسيع مجال نشاطها، وإن كان دائمًا ضمن حدود الممارسة الإسلامية المعاصرة، لكن لن تكون أي من هذه النساء محصّنة على النحو الصحيح، تلك التي ستعزل نفسها عن طيب خاطر في منزلها وترتدي الحجاب أمام أي شخص ليس زوجها، أو نساء العائلة المقربات أو رجال العائلة المقربين جدًا[667].

توفر قوانين السوق في إشبيلية في القرن الثاني عشر مزيدًا من المعلومات عن حالة المرأة بشكل عام. لا تنطبق هذه القوانين على الحرة أو المحصّنة حقًا، المقدر لها أن تبقى في المنزل ما لم تكن أسرتها أو زوجها على استعداد لفقدان الشرف أو أسوأ:

لا يجلس النساء على ضفة الوادي في فصل الصيف، إذا ظهر الرجال فيه.

يجب ألا يخلو حجّام بامرأة في حانوته، إلا أن يكون في السوق وفي موضع يُنظر إليه وترمقه الأبصار.

يجب ألا يترك أحد يتسور في شيء لا يحسنه، ويوقف كل أحد على صناعته، لا يتسور فيها إلا بعلم، لا سيما النساء، فالجهل والخطأ فيهن أكثر.

لا يُخالط النساء في البيع والشراء إلا ثقة خيّر، قد عرف الناس خيره وأمانته، ويرقب على ذلك أهل الصنائع. قطعُ الطرّازات عن السوق واجب، فإنما هي قحابٌ.

لا يمشي الرجال والنساء، في أيام العيد، على طريق واحد عند جواز النهر.

لا يجلس متقّبل الحمام للنساء، فإنه موضع تمتع وزنى. لا يكون متقبل فنادق التجار والغرباء امرأة: فذلك عين الزنى. لا يكون دلّال الدور شابًا، إلا شيخًا عفيفًا، قد شُهر خيره.

يجب أن يُنهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق، والتحلي للنساء بزينتهن، وينهين عن السر بينهن، والفرح ولو أُذنَّ على ذلك، يجب أن تُنهى الراقصات أن يكشفن رؤوسهن[668].

الانتهاك غير المُستبعد للأعراف الإسلامية من قبل عدد غير محدد من الحرات والمُحصّنات في إسبانيا الإسلامية سيكون أكثر تواترًا خلال أنظمة الحماس الديني الفاتر وبالتالي ضعف السيطرة السياسية، كما هو الحال في ممالك الطوائف، والذي "أي الانتهاك" غالبًا ما يتم الإشادة به اليوم[669]، ولكن الذي وسم من وجهة نظر سياسية ودينية حضيض الحكم الإسلامي في إسبانيا، كما أشار العلماء وقتذاك، وكما لا يزالون يفعلون اليوم. أوقات ضعف الصلاح الإسلامي هذه دفعت العلماء الأندلسيين في الواقع إلى الترحيب بغزوات السلالات المتزمتة مثل المرابطين والموحدين.

باختصار، إن رؤية عشرات المسلمات الحرات المرصعات بالجواهر يمشين في الأندلس بشعور طويلة منسابة وفساتين حريرية أنيقة يعرضن أجسادهن المتماوجة الشبقة بينما يستمتعن بالحياة بحرية في الأماكن العامة ويعملن كشاعرات ومُحاضرات ومعلمات وناسخات وطبيبات وما إلى ذلك، تحت الأنظار المتسامحة والمبتهجة للرجال المسلمين هي خيال أكاديمي غربي رَغَبيّ في أحسن الأحوال، وقراءة مهنية رثة للأدلة التاريخية في أسوأ الأحوال.

حالة النساء المسلمات في العصور الوسطى مقارنةً بحالة النساء المسيحيات:

كعالمة أنثروبولوجيا أمضت عقودًا في إجراء الأبحاث حول نساء في مجتمعات مختلفة في الشرق الأوسط ومعهن، وجدتُ نفسي مضطربة بشكل متزايد من هوسنا بالنساء المسلمات.. تصوير النساء المسلمات بوصفهن مُساءً إليهن يجعلنا ننسى العنف والظلم فيما بيننا. صورتنا النمطية عن النساء المسلمات تصرفنا أيضًا عن المشكلة الشائكة المتمثلة في أن سياساتنا وأفعالنا في العالم ساعدت في خلق الظروف (القاسية أحيانًا) التي يعيشها الآخرون البعيدون. في النهاية، يسمح لنا إنقاذ النساء المسلمات بتجاهل التشابكات المعقدة التي نتورط فيها جميعًا ويخلق استقطابًا يضع النسوية في جهة الغرب فقط.

ليلى أبو لغد، أستاذ دراسات الأنثربولوجيا والمرأة والنوع الاجتماعي في جامعة كولومبيا، ومؤلفة كتاب: هل تحتاج المسلمات إلى إنقاذ؟ (كامبردج، ماساشوستس، مطبعة جامعة هارفرد 2013).

الفروق بين النساء المسلمات في إسبانيا الإسلامية والنساء المسيحيات في إسبانيا المسيحية في وصولهما النسبي إلى الميدان العام يمكن ملاحظتها في المستويات العليا من السلطة وكذلك في المستويات الأدنى من الحياة اليومية.

إذا بدأ المرء من القمة، لم تصبح أي امرأة في الأندلس أميرة أو خليفة ولم يكن ذلك ممكنًا لها. الجهود لإيجاد نساء مسلمات أندلسيات في مناصب السلطة السياسية كشفت فقط عن أمهات، زوجات، أو إماء كان لهن تأثير مختلف على السلوك المهيمن للأبناء والأزواج والأسياد[670]. هذا النوع من التأثير يمكن له أن يحدث بالطبع، ويحدث، في أي مجتمع إسلامي أو غيره. علاوة على ذلك، ألقى المؤرخون المسلمون باللوم على تأثير النساء في انحطاط السلالات، وحذر المفكرون المسلمون منه[671].

في المقابل، كما يشير المؤرخ هنري كامين Henry Kamen، كانت إسبانيا الكاثوليكية واحدة من المناطق في أوروبا حيث حقوق النساء الملكية والسياسية مضمونة لمنحهن دورًا سياسيًا، لذلك لم يكن ثمة تحيز إطلاقًا ضد الحاكمات ولا ضد توارثهن للألقاب النبيلة[672]. على عكس الوضع في إسبانيا الإسلامية، كان يمكن للنساء في الممالك الكاثوليكية على أعلى مستويات المجتمع أن يتمتعن بسلطة متعاظمة في الميدان العام، في ظل الظروف المناسبة.

حتى قبل ذلك، في إسبانيا القوط الغربيين، ما نعرفه عن ملكات القوط الغربيين يشير إلى "دينامية وأهمية كبيرتين"[673].

"أصبحت بعض الملكات الإسبانيات الكاثوليكيات الحاكمات الوحيدات لأراضيهن. حتى عندما لم يكن يحكمن وحدهن، بل بالاشتراك مع الزوج، عملت الملكات الكاثوليكيات الإسبانيات، وربما أكثر من غيرها في دول أوروبا الغربية، مع الملك في ديناميكة تكاملية.. كانت تعاقدية بالأساس"[674].

كانت إيزابيلا الأولى من أشهر الحاكمات الكاثوليكيات، ملكة قشتالة وليون (1451- 1504) التي كان عليها التغلب على معارضة أتباع مرشحة أخرى للملكية، خوانا لا بيلترانجا *la Beltraneja*Juana التي أصبحت في النهاية حاكمة قوية مثل زوجها. كما يقول المثل الإسباني "*Tanto monta, monta tanto, Isabel como Fernando*" (بقدر ما هو مهم، إيزابيل مثل فرديناند). كان ثمة آخريات قبل إيزابيلا. حكمت Toda Aznárez (مواليد 895) نافارا مع زوجها Sancho Garcés El Grande سانشو غارسيس إل غراندي وبعد وفاته حكمت بالاشتراك مع ابنها، تآمرت، عقدت ونكثت بالتحالفات، وسافرت إلى قرطبة مرارًا للتحدث إلى عبد الرحمن الثالث[675]. العمدة سانشيز Sánchez (توفي 1066) آخر كونتيسة في قشتالة، نجت من الكمين الذي أسفر عن مقتل

زوجها Sancho Garcés III، وقامت بالانتقام لقتله وبنت عددًا من الأشغال العامة. أوراكا قشتالة (التي حكمت وحدها بين 1109 و1126) قاتلت ضد جيوش عدة، وقادت جيوشها إلى الحرب بنفسها، كان لديها الكثير من العشاق على ما يُقال، ويذكرها الناس كملكة قوية، حتى لو لم تكن محبوبة على نطاق واسع. الملكة بيترونيلا من أراغون Petronila (1136-1173) حكمت مع زوجها حتى وفاته، ثم تنازلت عن العرش لصالح ابنها.

من بين حكّام أراغون، ماريا دي لونا Maria de Luna(1357-1406) التي أظهرت أنه يمكنها التعامل مع سياسات البلاط، والغزوات والانتفاضات والمشاكل المالية وحتى حماية الجالية اليهودية. خايمي الأول من أراغون أقر أنه يعتمد على مشورة ومساعدة ملكته فيولانت Violant (1235-1251). كوستانزا ابنة قشتالة، حكمت كاتالينا من لانكستر (1374-1418) كملكة قشتالة وليون لمدة عشر سنوات بعد أن فقدت زوجها وأثناء حداثة ابنها، كانت تتناول الطعام وتشرب الخمر بحماس كأي فرد من حاشيتها على ما يُقال. كان ليونور لوبيز دي كوردوبا (1352-1427) أحد مستشاريها الموثوقين، ابنة مارتين لوبيز دي كوردوبا، رجل البلاط والجندي لدى بيدرو الأول رجل قشتالة القاسي، التي كتبت مذكرات رائعة وإن كانت غير مكتملة عن حياتها. في مملكة أراغون، حكمت الملكات مع ملوكهم أو في غيابهم. وبالمثل ماريا من قشتالة (حكمت 1421-1423 و1432-1453) وخوانا إنريكيز Juana Enríquez (حكمت 1461-1477) كن ملكات فعالات في غياب أزواجهن.

أما بالنسبة للنساء اللواتي ينتمين إلى مستوى اجتماعي أدنى من مستوى الملكات، تشير السجلات الباقية من المدن الحدودية المُستعادة في الممالك الكاثوليكية إلى حرية مماثلة في العمل. وصول أولئك النساء الكاثوليات إلى الفضاء العام وتأثيرهن عليه لا يمكن العثور على نظير له أو حتى ما يقاربه لدى المسلمات الحرات المتزوجات في أي مدينة مسلمة خلال العصور الوسطى[676].

استفادت أولئك النساء المسيحيات، العديد منهن من قشتالة، من الحرية المتعاظمة الممنوحة لكل من الرجال والنساء من قبل النظام القضائي الفريد لهذ المملكة الكاثوليكية، وهو نظام نشأ وعكس تركيبة سكانية تتألف إلى حد كبير من فلاحين؛ جنود مستقلين بشدة ومعتمدين على أنفسهم ونبلاء مستعدين بشكل دائم للقتال على المناطق الحدودية[677]. هذا النظام القانوني في قشتالة، بديناميكيته السياسية واللغوية، وارتباطاته الاجتماعية ربما وجد نظيره الوحيد في أوروبا في تطور القانون العام الإنجليزي.

امرأة كاثوليكية من الطبقة الأرستقراطية ورثت سيادة مدينة، سيتم تعيينها ملكيًّا *Señora de villa* (سيدة المدينة). مثل هذه المرأة ستكون حاكمًا غائبًا يمكن لها

أن تسمي بيروقراطييها المحليين وضباطها العسكريين لإدارة المدينة وجمع الإيرادات[678].

يمكن لامرأة كاثوليكية صاحبة القطاعات المشاركة بالفعل في سياسة المجالس المحلية. بحسب Heath Dillard: "يجوز لها أن تعرب أحيانًا عن رأيها في الاجتماعات الأسبوعية لمجلس أصحاب الإقطاعات حيث تناقش أمور الشأن العام وتصدر بيانات مهمة. ملاحظات قليلة فقط قد نجت عن نساء في القرنين العاشر والحادي عشر اضطلعن بدور فعال في الدفاع عن امتيازات مجتمعاتهن ضد الغرباء. فرضت مستوطنة Navarrese الصغيرة غرامة على النساء لمهاجمة نساء أخريات خارج وخلال التجمع"[679].

عملت النساء الكاثوليكيات المتزوجات في جميع أنواع الأعمال التجارية مثل المخابز، حيث كان من المفروض أن تتعامل زوجة الخبّاز () *hornera*مع الزبونات[680]. يكتب ديلارد Dillard:

"كانت الأفران والمخابز مثل النهر أو الينبوع، وجهة يومية لجميع أنواع النساء في المدينة، لكن زوجات وبنات مالكي العقارات اللواتي يمكن الاعتماد عليهن كن في كثير من الأحيان المخبرات الوحيدات اللواتي يمكن أن تصغي إليهن المحكمة عن ممارسات البيع الخادعة، عن الدفع والإكراه، أي اضطراب آخر قد يحدث في المكان"[681]. يمكن للنساء أن يعملن كساقيات في حانات *taverneras*أزواجهن، على الرغم من أن عمل المرأة كنادلة كان يعتبر أدنى من عملها في مخبز أو فرن[682]. يمكنهن أن يعملن في المتاجر وكبائعات في السوق لمختلف أنواع البضائع[683]. يمكنهن أيضًا أن يعملن في الحقول:

قامت النساء في البلدات بإدارة ممتلكاتهن الخاصة وكن يشرفن على رعاية المحاصيل والقطعان خارج الأسوار في منطقة .alfoz. وجدت أخريات عملًا في الأنشطة الزراعية، أو كما هو الحال في المهن والحرف الحضرية، أكملن مهن رجالهن. على الرغم من أن بعض أولئك النسوة ربما عشن في المدينة، إلا أن العديد منهن كن نساء قرويات وفدن إلى المركز البلدي المسور لمجتمعهن ليؤدين مهام متنوعة: من أجل السلامة في وقت الخطر، من أجل الأعمال القانونية في المحكمة، للاحتفال بعيد أو حضور قداس عندما لا يكون هناك أحد في القرية، أو ربما لاختتام يوم عملهن في البيع بتوقف عند الحمامات. بعض نساء القرية كن مستأجرات ريفيات من قاطني المدن اللواتي من الواضح أنهن قمن بأعمال مزرعة روتينية. ومع ذلك، كانت العمالة الزراعية مدفوعة الأجر شائعة في المدن، وفي Cuenca عامل حراثة مأجور، كانت خدماته لصالح مدير مزرعة لمحاصيل الحبوب، ساعدته زوجته وامرأة أخرى استأجرها في أعمال الحصاد[684].

يصف *Libro de buen amor* (كتاب الحب الفاضل) واحد من الأعمال الأدبية العظيمة في إسبانيا العصور الوسطى من تأليف خوان رويز Juan Ruiz، رئيس كهنة هيتا Hita (نحو 1283-1350) قروياتٍ مسيحياتٍ يعملن في جبال sierras في إسبانيا ويكسبن عيشهن عن طريق نقل الرجال عبر الأنهار.

يمكن للنساء امتلاك الأراضي الزراعية والعمل كراعيات بقر ومزارعات. ديلارد مرة أخرى:

الطابع الزراعي الأساسي للقاعدة الاقتصادية للعديد من المدن كان يعني أن نساء المدن كن غالبًا ما يشاركن في المهن الزراعية ولكن في كثير من الأحيان كمديرات لملكيتهن الزراعية التي يمتلكونها أو يؤجرونها للآخرين أو يزرعونها بأنفسهم. نساء توليدو في القرن الثالث عشر لم يمتلكن فقط الكروم والحدائق وأراضي المحاصيل وبساتين الزيتون أحيانًا ولكن أيضًا الأكواخ والمطاحن والحظائر وأعمال الملح والأصول الإنتاجية الأخرى في الأراضي الشاسعة للمدينة. كانت النساء هنا يعملن في مهن ريفية متنوعة، ويكسبن عيشهن من المشاريع الريفية على الرغم من أنهن يعشن داخل توليدو.. عملت العديد من النساء بالشراكة مع أزواجهن في صيد الأرانب والطحن والبستنة وخاصة في الزراعة وحصاد العنب والمحاصيل الأخرى. كانت العديد من نساء المدن المتزوجات والأرامل، مثل أولئك اللواتي كثيرًا ما تضمن لهم المدن حيازات الكفاف الصغيرة من الأصول الزوجية، منخرطات في العمل الزراعي، ليس كعاملات أو رائدات أعمال وإنما كمنتجات للمواد الغذائية لتزويد الأقبية الخاصة بهم وعملاء البلدية. شاركت النساء في صناعة الثروة الحيوانية، كمالكات وليس كراعيات للحيوانات، على الأقل بالنسبة للقطعان والماشية الثمينة تجاريًا التي ترعى أساسًا في مشاعات المدينة وفي جبال alfoz. النساء كما الرجال تعاقدن مع الرعاة ورعاة البقر وفق اتفاقيات تنص على أن يتلقى الرعاة نصيبًا من الجلود أو الجبن أو الصوف بمثابة أجر.. نساء القرية في البلدية، على وجه الخصوص، يؤدين العمل الزراعي والعديد منهن ينبغي أن يكن نشأن مع فتيات الطرق الوعرة لجبال خوان رويز اللواتي كن رعاة أبقار وأفراس[685].

عمل النساء المسيحيات كراعيات أبقار مدوّن في الشعر الغنائي للسيرانيلا الشهيرة لشاعر عظيم آخر من إسبانيا العصور الوسطى Íñigo López de Mendoza، ماركيز سانتيلانا (1398-1458) ("*Moza mas fermosa no vi en la frontera / que aquesta vaquera de la Finojosa*").

لم يكن من الممكن تصور هذا النوع من الحياة بالنسبة للحرة أو المحصّنة بسبب مستواها الأعلى من الاحتشام في الحياة اليومية. كان يمكن للنساء الكاثوليكيات أن يكن حاضرات في كنيستهن الرعوية بعد صلاة السبت أو قداس الأحد

ليشهدن "استدعاء الجار" أو "الإعلانات عن أرض للبيع" أو "الإخطارات بالتغيرات في عقود الزواج" ومسائل أخرى ذات أهمية محلية تتطلب الإشهار[686].

هيمنت نساء البلدات الكاثوليكيات على بعض القطاعات العامة: نساء المدن تجمعن في المواقع التي كانت بمثابة نقاط محورية لكثير من عمل المرأة والحياة الاجتماعية والتبادل النسائي. سيجد أي رجل وفد إلى هنا أنه محظور من الدخول إلى حد ما، وبالتأكيد خارج الحدود المرسومة، وبلا شك سيشعر بشيء من الحرج. كن مشمولات معًا بـ"فضاء" أو "مضمار" نسوي داخل بلدية من العصور الوسطى. يمكن تحديد أماكن لقاء نساء المدن هذه في الجمارك التي تحدد السياقات التي يُتوقع من النساء فيها أن يكن بمثابة شهود على النزاعات المعروضة على المحاكم البلدية في مجتمعات أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر[687].

لم تكن شهادتهن من الناحية القانونية تعادل نصف شهادة الرجال كما هو الحال في الفقه المالكي، وإنما كانت تساويها، رغم أن بعض البلدات كانت لديها أنظمة محلية جعلت شهادتهن أقل أهمية. علاوة على ذلك، في التجارة والمسائل المحلية التي تتطلب كفاءة أنثوية مثل النزاعات التي تشمل الينابيع والمخابز والغزل وغيرها من الأماكن والمهن المماثلة، كانت شهادة المرأة مفضلة. وتشير الأدلة حسب ديلارد "أن كلمة امرأة موثوقة ستكون مُفضلة على أي حال على كلمة رجل ماكر وفاسد وغير جدير بالثقة"[688].

كما في حالة المدن الإسلامية، تم تخصيص أيام معينة للنساء الكاثوليك للذهاب إلى الحمامات العامة، كما تم تخصيص أيام لليهود والمسلمين أيضًا[689]، لكن النساء الكاثوليكيات لم يكن لديهن محاذير دينية تتعلق بدنسهن من قبل غير الكاثوليك وضد مغادرتهن المنزل للذهاب إلى الحمامات وبالتالي يمكن من حيث المبدأ مشاركة الحمامات مع النساء اليهوديات والمسلمات اللواتي قد يجرؤن على التواجد في تلك المرافق.

أولى القصائد الغنائية المسجلة باللهجة الإسبانية في العصور الوسطى كانت jarchas "الخرجة" التي ربما أوجدتها نساء ذميات مسيحيات في ظل الحكم الإسلامي –مستعربات – وهي على الأرجح مظهر من مظاهر القصيدة الغنائية الإسبانية معروف باسم *villancicos* "فيلانسيكو"[690].

الخرجة عبارة عن قطع قصيرة تعبر في كثير من الأحيان عن الحب للحبيب الذكر. تُؤلف الخرجات بالعربية الأندلسية والعربية الفصحى والرومانسية المستعربة –هذه الأخيرة مكتوبة بأحرف عربية أو عبرية-[691]. تظهر دائمًا في نهاية نوع من القصيدة مؤلف ومكتوب بالعربية، *muwassaha* /*الموشح*. لخلق تأثير جمالي

معين، ضمّن مؤلفو الموشح، هذه القصائد الغنائية الشعبية التي تعود للعصور الوسطى "الخرجة" في موشحاتهم العربية مثلما ضمّن العديد من الشعراء الغربيين (عزرا باوند وت. س. إليوت) مقاطع من لغات أجنبية في قصائدهم. من الممكن، رغم ذلك، ألا يكون الموشح ذاته من أصل عربي، وإنما على نسق الفيلانسيكو الإسباني أيضًا، وبالتالي في نهاية المطاف، من أصل مسيحي. في الواقع، تبعًا للمؤرخ العظيم ابن خلدون، كان مبتكر الموشح (وربما مبتكر النوع العربي من الشعر الذي يُدعى الزجل) مقدم دي كابرا وهو شاعر من القرن العاشر من أصل ذمي "مستعرب"[692].

في النهاية، يجب أن نتذكر أن العديد من النساء في الأديرة الواقعة في الأراضي المسيحية، مثل القديسة اليونانية Kassia (805-810، نحو 865) والألمانية هيلدغارد فون بينغن (1098-1179) والقديسة الإسبانية تيريزا من أفيلا (1515-1582) حققن مستويات عالية من الإبداعية[693]. في الموسيقى لم يكن لدى إسبانيا المسيحية معادل معروف للراهبة اليونانية Kassia أو الراهبة الألمانية هيلدغارد فون بينغن المؤلفتان العظيمتان في العصور الوسطى. نعلم، مع ذلك، أن الراهبات الرئيسات في إسبانيا، مثل هيلدغارد في ألمانيا أو Kassia في اليونان واللواتي تم انتخابهن من قبل مجتمع الراهبات، عرفن القانون الكنسي، وعملن مثل الرئيسات التنفيذيات اليوم، كمسؤولات تنفيذيات عن عمليات تجمع الراهبات. رئيسات دير الراهبات في أكبر الأديرة في إسبانيا العصور الوسطى، وأيضًا في الأراضي الأخرى في أوروبا المسيحية، كن نساء متميزات، كان لديهن من السلطة والتأثير داخل الكنيسة وخارجها كما لدى رؤساء الدير، حتى إن بعض أولئك النسوة ظهرن في مجالس الكنيسة في العصور الوسطى[694].

يمكن للمرء أن يختتم هذا الفحص لظهور المرأة في الفضاء العام في إسبانيا في العصور الوسطى بتقييم مُقارن آخر. كان أحد الجوانب المثيرة للاهتمام في السلطة السياسية الرسمية بين الحاكمات الكاثوليكيات في الممالك الإسبانية، كما لاحظت Theresa Earenfight أن النساء عمومًا من اللواتي تمتعن بسلطة سياسية عليا لم يظهرن لمعاصريهن المسيحيين بوصفهن استثناءً: ماريا ملكة قشتالة، ملكة تاج أراغون (حكمت كاتالونيا بصفتها جنرالًا رسميًا "ليوتانت جنرال" لأكثر من عقدين من 1420 إلى 1423 ومرة أخرى من 1432 إلى 1453، أثناء غزو زوجها ألفونسو الخامس ملك تاج أراغون (1416- 1458) وحكمه مملكة نابولي. قد تبدو حياتها المهنية شاذة بالنسبة لنا، لكنها كانت في الواقع غير استثنائية بالنسبة لمعاصريها[695]. أشار Joseph F. O'Callaghan في مدونته القانونية *Las Siete Partidas* وأطروحات قشتالية أخرى إلى أن الملكية بالنسبة للملك القشتالي ألفونسو العاشر كانت وظيفة تعاونية بين الملك

والملكة[696]. هذا الدور السياسي للملكات في إسبانيا المسيحية، كما رأينا، كان له سابقة بين ملكات القوط الغربيين[697].

القبول التاريخي الأكبر لدور عام أكبر للنساء في إسبانيا المسيحية قد يمكن عزوه في نهاية المطاف إلى الثقافة والقانون لدى القوط الغربيين والأهمية النسبية العامة للنساء في العصور الوسطى النصرانية، ليس فقط في الغرب المسيحي بملكاته العديدات، ولكن أيضًا في أراضي المسيحيين اليونانيين والروس مع إمبراطوراتهم وزوجات قياصرتهم العديدات[698].

الحقيقة حول "العصر الذهبي" للجالية اليهودية

اعتُبر عصر الحكم الإسلامي في إسبانيا (القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر) العصر الذهبي ليهود إسبانيا. ازدهرت الحياة الفكرية والروحية وخدم العديد من اليهود في البلاطات الإسبانية. كان التوسع الاقتصادي اليهودي لا نظير له.

Jewish Virtual Library*Rebecca Weiner, "Sephardim,"*

ريبيكا وينر، "السفارديم"، المكتبة الافتراضية اليهودية.

كما تشير النقوش epigraphs التي تتخلل هذا الفصل كان ثمة اعتقاد شائع أن الإسلام منح للجالية اليهودية في إسبانيا، المكونة إلى حد كبير من اليهود السفارديم، درجة كبيرة من الحرية والتسامح[699].

وفقًا لهذا الرأي، فإن الحياة المثالية لليهود في إسبانيا انقطعت بسبب غزو المرابطين والموحدين "المتعصبين" ولاحقًا من قبل الممالك المسيحية "غير المتسامحة" خلال فترة الاسترداد الإسباني. ومع ذلك، فإن حقيقة الأمر هي أن الحياة التي تمتع بها السفارديم، داخل مجتمعاتهم وخارجها، كانت مليئة بالقيود قبل وقت طويل من غزو المرابطين والموحدين، وأن الممالك الكاثوليكية أصبحت في نهاية المطاف مكانًا تلجأ إليه العائلات اليهودية. وكما أشار مؤرخ الإسلام برنارد لويس "فإن العصر الذهبي للمساواة في الحقوق كان أسطورة، والإيمان به كان نتيجة وليس سببًا لتعاطف اليهود مع الإسلام"[700].

لقد عانى اليهود كثيرًا في ظل قوانين مملكة القوط الغربيين[701]؛ لذلك ليس من المستغرب، كما تخبرنا كلا المصادر الإسلامية والمسيحية في العصور الوسطى، أن الجالية اليهودية دعمت الغزاة المسلمين وحتى إنهم حرسوا المدن الكاثوليكية الكبرى التي غزاها المحاربون المسلمون وسهلوا بالتالي التقدم السريع للقوات الإسلامية[702]. استمرت الجالية اليهودية في التعاون مع الحكّام المسلمين، وعملوا كقوة موازنة للأغلبية السكانية الكاثوليكية الخاضعة. كان لتحالف المصلحة هذا سابقة في الفتوحات الإسلامية الأولى للأراضي المسيحية للإمبراطورية الرومانية اليونانية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا[703]. سابقة أخرى كانت قد نشأت في الحروب بين بلاد فارس والإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية[704].

تنويعات على هذا النوع من التحالف، الذي لا علاقة له بالمعتقدات الأساسية للأطراف المتحالفة، يمكن العثور عليها لدى العديد من الجماعات المُهمشة منذ العصور القديمة وحتى الوقت الحاضر. في القرن السادس عشر، فضّل الفاتح الإسباني هرنان كورتيز الحلفاء الهنود لا سيما التلاكسكالان Tlaxcalans في صراعه ضد المكسيكيين (الذين يُشار إليهم غالبًا باسم الآزتيك). في القرن العشرين فضّلت السلطات الاستعمارية البلجيكية في الكونغو أقلية التوتسي على المجموعات الأخرى، في الجزائر، منح المستمرون الفرنسيون اليهودَ الجزائريين وضعًا "متفوقًا" لموازنة الأغلبية المسلمة، وعملت الولايات المتحدة مع Montagnard Hmong ضد الماركسيين اللينينيين في جنوب شرق آسيا[705]. في الآونة الأخيرة، في حرب 2003 في العراق، فضّلت الولايات المتحدة وقوات التحالف الأغلبية الشيعية ضد السُّنة والقاعدة، والأكراد ضد كليهما، وبعد ذلك لفترة الميليشيا السنية على الميليشيا الشيعية.

هذا التفسير السياسي البسيط قد تم تجاهله حتى من قبل العلماء المتمرسين الذين اندهشوا من "التسامح" الذي أظهره الفاتحون المسلمون تجاه اليهود مقارنة بالمعاملة التي تلقاها اليهود في ظل النصرانية[706]. لم يعامل المسلمون اليهود على أنهم حلفاء؛ لأن ذلك يناقض تعاليم الإسلام: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ". في الواقع، كانت النصوص الإسلامية تقدّر المسيحيين أكثر من اليهود، كما جرى التعبير عنه في الجزء المشهور المعادي لليهود في القرآن: "لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ". لتجنب مخالفة تعاليم إسلامية كهذه، اعتبر الحكّام المسلمون اليهود بأنهم جماعة "تابعة". من الصحيح إذًا، أن الجالية اليهودية عاشت ظروفًا حياتية أفضل في ظل الفاتحين المسلمين في إسبانيا مقارنة بالكاثوليك القوط الغربيين. من الصحيح أيضًا، نتيجة لذلك، أن اليهود الأندلسيين ازدهروا لبضعة قرون وأنتجوا مخرجات ثقافية رائعة[707].

لكن لا شيء من هذا كان يعني أن إسبانيا الإسلامية مثلت منارة للتسامح. فرناندو دياز استيبان، أستاذ اللغة العبرية وآدابها في جامعة كومبلوتنسي بمدريد لاحظ أن الجموع المسلمة استاءت من تأثير الجالية اليهودية وبروز نجاحها المادي، لا سيما بالنظر إلى أن هذه الأقلية الحضرية إلى حد بعيد كانت متعلمة جيدًا ومزدهرة نسبيًّا إذا ما قُورنت بالفقراء وجماهير الفلاحين الأميين من غير اليهود[708]. ساهم هذا الاستياء بالعديد من أعمال الشغب والمذابح والاغتيالات والطرد المعادية لليهود، وأدى في نهاية المطاف إلى تدهور حاد في مكانتهم خلال حكم الموحدين. يشير برنارد لويس إلى أن السكان اليهود تحولوا بحلول القرنين

الرابع عشر والخامس عشر من الأراضي الإسلامية إلى الممالك الكاثوليكية بحثًا عن حياة أفضل، متبعين نمط هجرة عام أصبح من خلاله أولئك الذين يعيشون في الأراضي المسيحية أغلبية للمجتمع اليهودي العالمي[709].

شعب "الحماية":

السنوات بين 900 و1200 في إسبانيا وشمال إفريقيا معروفة على أنها "العصر الذهبي" العبري، ظهر نوع من النهضة اليهودية ناجم من اندماج العالمين الفكريين للعرب واليهود. راقب اليهود نظراءهم العرب عن كثب وتعلموا أن يكونوا علماء فلك، فلاسفة، علماء وشعراء. في ذروته، قبل نحو ألف عام تقريبًا، قدم العالم الإسلامي مساهمة ملحوظة في العلوم، ولا سيما الرياضيات والطب. بغداد في أوجها وكذلك جنوب إسبانيا بنوا جامعات وفد إليها الآلاف. أحاط الحكّام أنفسهم بالعلماء والفنانين. روح الحرية سمحت لليهود والمسيحيين والمسلمين بالعمل جنبًا إلى جنب.

Francis Ghiles, "What Is Wrong with Muslim Science," Nature*, March 1983*

فرانسيس غيليس، "ما الخطأ في علم المسلمين". Nature*, March 1983*.,

نص المذهب المالكي في الفقه الإسلامي، المدرسة المهيمنة في الشريعة الإسلامية في إسبانيا في العصور الوسطى، على أن اليهود يجب أن يدفعوا الجزية للحكّام المسلمين، لم تكن ضريبة الاقتراع السنوية تلك ثمنًا لكونهم ذميين فقط، لكنها كانت أيضًا علامة على مهانتهم إزاء الإسلام[710].

بوصفهم ذميين، كان اليهود تحت إشراف موظف إسلامي من "*Kitabatu-dh-dhimma*" أو "مكتب الحماية"[711]. سُمح لليهود بممارسة دينهم وحكم أنفسهم وفقًا لقوانينهم الدينية، ولكن فقط داخل حدود مجتمعاتهم. لمنع تمدد اليهودية، نادرًا ما كان يُسمح ببناء معابد يهودية جديدة. يجب أن تكون المباني اليهودية أقل ارتفاعًا من المباني الإسلامية. لا يجوز لليهود أن يحملوا أسلحة. يجب ألا يركبوا الخيول. يجب عليهم إظهار الاحترام للمسلمين. يجب عليهم عدم الإدلاء بشهادة ضد مسلم. لا يجب أن تؤخذ حياة المسلم لقاء حياة اليهودي (لكن يمكن أن تؤخذ حياة اليهودي لقاء حياة المسلم). يجب ألا ينتقد اليهود الإسلام، مُحمد أو القرآن. يجب ألا يقوموا بالتبشير. يجب ألا تكون لديهم علاقات جنسية مع امرأة مسلمة أو الزواج منها (على الرغم من أن الرجل المسلم يمكنه الزواج من يهودية ولكن يجب تنشئة أطفاله كمسلمين). يجب على اليهود ألا يرتدوا زيّ الرؤساء المسلمين أو العلماء أو النبلاء. يجب ألا يرتدوا بطريقة فاخرة تسيء إلى المسلمين الأكثر فقرًا. يجب ألا يعتبروا المسلمين عبيدًا أو خدمًا. يجب أن يرتدوا علامة

مميزة على ملابسهم، عادة ما تكون شريطًا أصفر أو شارة أو قبعة بحيث لا يمرون كمسلمين. يجب عدم استخدام أدوات الطعام التي يستخدمها اليهود. لا يجب على المسلم أن يحيي أولًا يهوديًا أو مسيحيًا. مُجمل هذه الشروط وأخرى غيرها، والتي سُمح لليهود أن يعيشوا في ظلها ويزدهروا في إسبانيا الإسلامية، كانت جزءًا من الذمة الإسلامية أو "تفويض الحماية".

عكست هذه القيود القانونية وشكّلت مواقف جموع المسلمين تجاه اليهود. أجمع علماء الإسلام على التأكيد على أن الذمي يجب ألا يوضع في مناصب ذات سلطة على المسلمين. هذه القوانين كانت تهدف إلى إبقاء الكفار في مكانهم وواعين لمكانتهم الثانوية.

كما هو الحال في المجتمعات الأخرى، لم يتم دائمًا تنفيذ القيود القانونية ضد الأقليات في إسبانيا الإسلامية، وفي بعض الأحيان تم تجاهلها تمامًا من قبل الحكّام المسلمين. بالفعل، في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث، تبوأ الطبيب وعالم اللاهوت اليهودي حسيدي (أبو يوسف ابن إسحاق بن عزرا بن شبروت) (توفي 970 للميلاد) منصبًا نافذًا بحكم الأمر الواقع كوزير خارجية للخليفة وكان فاعلًا كمتبرع وحام للجالية اليهودية[712]، لكن مرة أخرى، الإشارة إلى أن القانون كان غير نافذ بالكاد يمكن اعتباره حجة؛ لأنه يمكن قول الشيء ذاته عن أي نظام قضائي بما في ذلك تلك الأنظمة ذات النواهي والعقوبات الأقسى[713].

كان لدى الحكّام المسلمين العديد من الأسباب لتجاهل الأوامر الدينية أحيانًا، لكن أيًا من هذه الأسباب لم يكن ذا صلة بـ"التسامح" في إسبانيا الإسلامية. كانت الاعتبارات كليًا سياسية وعملية. لقد درسنا للتو الحاجة إلى استخدام الجالية اليهودية كحليف (خادم) ضد المسيحيين المدحورين الأكثر عددًا في البداية. كان هناك اعتبار مهم آخر وهو أن اختيار موظفين من بين القياديين اليهود، في عالم إسلامي مُحاط بالتنافسات العرقية والطبقية والدينية والسياسية، وفر للحكّام المسلمين ليس فقط المهارات الإدارية والدعم المالي ولكن أيضًا الولاء والاعتماد على النوايا الحسنة لأولي الأمر غير موزعي الولاء بين العلماء وعائلات مسلمة أخرى. استمر الحكّام المسلمون في تفضيل الجالية اليهودية طالما كان ذلك مفيدًا سياسيًا واقتصاديًا.

تفاقم تجاهل الحكّام المسلمين للقانون الديني مع ضعف السلطة والزخم الإسلامي. الحواجز القانونية ضد الهيمنة اليهودية لم تعد ملحوظة خاصة بعد انحطاط خلافة قرطبة في أوائل القرن الحادي عشر. خلال صعود ممالك الطوائف، حققت الجالية السفاردية عمومًا وقادتها على وجه الخصوص، مناصب في السلطة لم يسبق لها مثيل في إسبانيا الإسلامية، على الرغم من أن المستعرب الإسباني فيليبي مايلو سالغادو قد لاحظ أن دور الوزراء اليهود (كبار

المسؤولين الذين خدموا الحاكم المسلم) مثل صموئيل ابن نغريلة (الأمير) كان مبالغًا فيه من قبل الدارسين الحريصين على الترويج لـ"العصر الذهبي" للحياة اليهودية[714]. تزامنت فترات ضعف الإيمان والقوة الإسلامية مع فترات ازدهار اليهود. حتى في ذلك الحين، مع ذلك، كان يمكن للظروف أن تؤثر بشكل سلبي على وضع اليهود، غير الآمنين دائمًا بسبب اعتمادهم في نهاية المطاف على محاباة حاكم مسلم معين[715].

حتى في ممالك الطوائف، لم يكن كل حاكم مسلم مغرمًا بالجالية اليهودية. ملك غرناطة محمد بن نصر (قتل في عام 1350) أثنى عليه المؤرخ الخطيب بسبب (أنه فرض على أهل الذمة اليهود واجب حمل علامة تجعلهم معروفين ومنفصلين بحيث يتوجب عليهم دفع ضرائبهم "الجزية" عن التعايش الاجتماعي[716].

أظهر العديد من عمليات الطرد والمذابح انعدام الأمن في الحياة اليهودية. تم طرد اليهود من قرطبة في عام 1013 وتمت مصادرة ثرواتهم كعقاب على انحيازهم إلى زعيم مسلم مهزوم في واحد من الصراعات الطاحنة المتكررة لممالك الطوائف.

الجالية السفاردية في قرطبة –التي كانت تضم الحاخام الشاب صموئيل بن نغريلة (993- 1055) الذي سيصبح الأقوى بين القادة اليهود والمعروف بكنيته العبرية نجيد HaNagid (الأمير)- فرت إلى غرناطة، طليطلة وسرقسطة والأراضي الكاثوليكية[717]. في 1039 في مملكة سرقسطة داهم حشد من المسلمين قصر الوزير اليهودي وقتلوه بعد اغتيال الوالي المنذر[718]. في 1066، بعد سنوات قليلة من موت الأمير، قتل السكان المسلمون المشاغبون في غرناطة ابنه الوزير الحاخام جوزيف بن نغريلة في مذبحة دمرت جالية السفارديم في المدينة[719]. تتحدث مصادر إسلامية عن أعمال شغب أخرى معادية لليهود في ممالك الطوائف بما في ذلك قرطبة مرة أخرى عام 1135[720].

ما يمكن أن يحدث في الأندلس للأفراد اليهود البيروقراطيين بغض النظر عن مكانتهم العالية، يتضح من خلال وزير يهودي للمعتصم بن صمادح ملك مملكة الطوائف في ألميريا (1051-1091). رأى الفقيه (رجل دين مسلم خبير في الفقه الإسلامي) عبد الله بن سهل بن يوسف في حمّام يمرح في صحبة فتى مسلم. الفقيه الذي رُوّع بما رآه ضرب الوزير على رأسه بحجر فقتله. ثم سار الفقيه بعيدًا ولم يُعاقب على فعلته[721].

كانت الجماهير المسلمة مستاءة من النفوذ والازدهار اليهوديين، اللذين أثارا كذلك حسد الحاشية المسلمة. لم تكن مثل هذه الرؤى غير شائعة في إسبانيا الإسلامية. حتى الحاخام صموئيل بن نغريلة تعرض للإهانة من قبل التجار

المسلمين كلما دخل الوزير القوي عبر بوابات غرناطة[722]. في حياته تصدى ابن نغريلة أيضًا على الأقل لمؤامرتين في البلاط ضده[723].

انتقد العالم ابن إسحاق (توفي 1067) حاكم غرناطة لتفضيله الجالية اليهودية. تعكس قصيدته الساخرة التي تطرح قضايا سياسية ودينية، وجهات النظر الأندلسية الشعبية بخصوص "قوة اليهود":

أَلا قُـل لِصِـنـهـاجَـةٍ أَجـمَـعـيـن

بُـدورِ النَـدِيِّ وَأُسـدِ العَريـن

لَقَـد زَلَّ سَـيِّدُكُـم زَلَّةً

تَـقِرُّ بِها أَعيُنُ الشـامِتـيـن

تَـخَـيَّرَ كـاتِـبُهُ كـافِـرًا

وَلَو شـاءَ كـانَ مِنَ المُسـلِمـين

فَـعَـزَّ اليَهـودُ بِهِ وَانـتَـخَـوا

وَتـاهـوا وَكانوا مِنَ الأَرذَلين

وَنـالوا مُـناهُم وَجازوا المَدى

فَـحـانَ الهَـلاكُ وَمـا يَشـعُرون

فَـكَـم مُـسـلِمٍ فـاضِـلٍ قـانِـتٍ

لِأَرذَلِ قِـردٍ مِـنَ المُـشـرِكـين

وَمـا كـانَ ذَلِكَ مِـن سَـعـيِهِـم

وَلَكِـنَّ مِـنّـا يَـقـومُ المُـعـين

فَهَـلّا اِقـتَـدى فـيـهُـمُ بِـالأُلى

مِنَ القـادَةِ الخـيـرَةِ المُتَّقين

وَأَنـزَلَهُـم حَـيـثُ يَستـاهِـلونَ

وَرَدَّهُــم أَســفَـلَ الســافِـلـيـن

وَطـافـوا لَدَيـنـا بِإِخـراجِهِـم

عَــلَيــهِـم صِـغـارٌ وَذُلٌّ وَهَـون

وَقَـمّوا المَـزابِـلَ عَـن خِـرقَـةٍ

مُــلَوَّنَــةٍ لِدِثــارِ الدَفــيــن

وَلَم يَـسـتَـخِـفّوا بِـأَعـلامِـنـا

وَلَم يَستَطيلوا عَلى الصالِحين

وَلا جـالَسـوهُـم وَهُـم هُـجنَـةٌ

وَلا واكَـبـوهُـم مَـعَ الأَقـرَبـين

أَبــاديــسُ أَنـتَ اِمـرُؤٌ حــاذِقٌ

تُـصـيبُ بِظَـنِّكَ نَـفسَ اليَـقـين

فَكَـيفَ اِختَـفَـت عَـنكَ أَعيانُهُم

وَفي الأَرضِ تُضرَبُ مِنها القُرون

وَكَــيــفَ تُــحِـبُّ فِـراخَ الزِنـا

وَهُـم بَـغَّضـوكَ إِلى العـالَمـيـن

وَكَـيـفَ يَـتِـمُّ لَكَ المُـرتَـقـى

إِذا كُـنـتَ تَـبـنـي وَهُـم يَهدِمون

وَكَـيـفَ اِسـتَـنَـمـتَ إِلى فـاسِـقٍ

وَقـارَنـتَهُ وَهُـوَ بِـيـسَ القَـريـن

وَقَــد أَنــزَلَ اللهُ فــي وَحــيِهِ

يُحَذِّرُ عَن صُحبَةِ الفاسِقين

فَلا تَتَّخِذ مِنهُمُ خادِمًا

وَذَرهُم إلى لَعنَةِ اللاعِنين

فَقَد ضَجَّتِ الأَرضُ مِن فِسقِهِم

وَكادَت تَميدُ بِنا أَجمَعين

تَأَمَّل بِعَينَيكَ أَقطارَها

تَجِدهُم كِلابًا بِها خاسِئين

وَكَيفَ اِنفَرَدتَ بِتَقريبِهِم

وَهُم في البِلادِ مِنَ المُبعَدين

عَلَى أَنَّكَ المَلِكُ المُرتَضى

سَليلُ المُلوكِ مِنَ الماجِدين

وَأَنَّ لَكَ السَبقَ بَينَ الوَرى

كَما أَنتَ مِن جِلَّةِ السابِقين

وَإِنّي اِحتَلَلتُ بِغَرناطَةٍ

فَكُنتُ أَراهُم بِها عابِثين

وَقَد قَسَّموها وَأَعمالَها

فَمِنهُم بِكُلِّ مَكانٍ لَعين

وَهُم يَقبِضونَ جِباياتِها

وَهُم يَخضِمون وَهُم يَقضِمون

وَهُم يَلبِسونَ رَفيعَ الكُسا

وَأَنتُم لِأَوضَعِها لابِسون

وَهُم أُمَناكُم عَلى سِرِّكُم

وَكَيفَ يَكونُ خَؤونٌ أَمين

وَيَأكُلُ غَيرُهُم دِرهَماً

فَيُقصى وَيُدنَونَ إذ يَأكُلون

وَقَد ناهَضوكُم إلى رَبِّكُم

فَما تَمنَعونَ وَلا تَنكِرون

وَقد لابَسوكُم بِأَسحارِهِم

فَما تَسمَعونَ وَلا تُبصِرون

وَهُم يَذبَحونَ بِأَسواقِها

وَأَنتُم لِأَطرافِها آكِلون

وَرَخَّمَ قِردُهُم دارَهُ

وَأَجرى إلَيها نَميرَ العُيون

فَصارَت حَوائِجُنا عِندَهُ

وَنَحنُ عَلى بابِهِ قائِمون

وَيَضحَكُ مِنّا وَمِن دينِنا

فَإنّا إلى رَبِّنا راجِعون

وَلَو قُلتَ في مالِهِ إنَّهُ

كَمالِكَ كُنتَ مِنَ الصادِقين

فَبادِر إلى ذَبحِهِ قُربَةً

وَضَحِّ بِهِ فَهُوَ كَبشٌ سَمين

وَلا تَرفَعِ الضَغطَ عَن رَهطِهِ

فَـقَـد كَـنَـزوا كُـلّ عِـلقٍ ثَـمـيـن

وَفَـرِّق عِـداهُـم وَخُـذ مـالَهُـم

فَـأنـتَ أَحَـقُّ بِـمـا يَـجـمَـعـون

وَلا تَـحـسِـبَـن قَـتـلَهُـم غَـدرَةً

بَـل الغَـدرُ فـي تَـركِهِم يَعبَثون

وَقَـد نَـكَـثـوا عَـهـدَنـا عِـنـدَهُـم

فَكَـيـفَ تُـلامُ عَـلـى الـنـاكِـثـين

وَكَـيـفَ تَـكـونُ لَهُـم ذِمَّةٌ

وَنَـحـنُ خُـمـولٌ وَهُـم ظـاهِـرون

وَنَـحـنُ الأَذِلَّةُ مِـن بَـيـنِهِـم

كَـأَنّـا أَسَـأنـا وَهُـم مُـحـسِـنـون

فَـلا تَـرضَ فـيـنـا بِـأَفـعـالِهِـم

فَـأنـتَ رَهـيـنٌ بِـمـا يَـفـعَـلون

وَراقِـب إِلَهَـكَ فـي حِـزبِهِ

فَـحِـزبُ الإِلَهِ هُـمُ الغـالِبـون. [724]

الموسوعي العظيم ابن حزم أشار إلى "اليهود" بوصفهم مفسدين للدين. جاء هذا التصريح في سياق رثائه لتفكك خلافة قرطبة وبروز ممالك الطوائف[725].

المستعربان إميليو غارسيا غوميز وإغناز غولدتسيهر أشارا إلى أن ابن حزم كان جزءًا من الأوساط الأدبية التي انتشر فيها هذا الجدال المعادي لليهود على نحو غير مسبوق ومن المحتمل أنه استند إلى الكتابات اليهودية القرائية المعادية للحاخامية وبالتالي المعادية للتلمود. بعبارة أخرى، لم تكن آراء ابن حزم بخصوص الجالية اليهودية فقط ذات أساس لاهوتي في الإسلام لكنها كانت تعكس أيضًا الظروف السياسية في إسبانيا الإسلامية[726].

ابن عباس الوزير العربي لحاكم مملكة الطوائف بألميريا كان يكره البربر ويحتقر اليهود[727]. كما اتهم الشعراء العرب في مملكة إشبيلية حكّام غرناطة بالإيمان "باليهودية" على الرغم من أنهم يسمون أنفسهم بربرًا[728]. آخر ملوك غرناطة من الأسرة الأمازيغية الزيرية عبد الله بن بلقين (1073- 1090) هاجم الحاخام جوزيف بن نغريلة بشدة في مذكراته مصرًا على الخيانة اليهودية للوزير ومحاباته لأبناء ملته اليهود، يبرر كل ذلك على الأرجح مقتل الوزير في المذبحة عام 1066[729]. جميع المصادر الإسلامية التي ذكرت المذبحة تتفق على تقدير عبد الله لليهود[730].

تُظهر الوثائق اليهودية من الأراضي الإسلامية في العصور الوسطى وجود كلمة غير موجودة في التوراة لكنها صُكت للإشارة إلى كارهي اليهود أولئك: *sone* "كاره"[731]. أثارت السرديات والأحاديث الإسلامية العداء لليهودية في العصور الوسطى. بحسب المؤرخ المسعودي (توفي 956)، ثمة حديث أن اليهود سمموا أبا بكر الخليفة الأول للرسول[732].

على الرغم من هذه المواقف العامة المعادية لليهود، كانت الجالية السفاردية تزدهر طالما استمر حكّام الممالك في استخدام الموظفين والمصرفيين وجامعي الضرائب اليهود ذوي الكفاءة. على سبيل المثال، بعد الهروب من مذبحة غرناطة عام 1066 خدم الحاخام إسحاق بن البالية كفلكي لدى حاكم إشبيلية المعتمد، وأصبح زعيمًا وحاميًا لجميع الجاليات اليهودية في المملكة، لكن المعتمد كان صاحب عمل عادل من كل الوجوه: إذ صلب سفيرًا يهوديًا أُرسل إليه من قبل الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون بسبب المطالب التي حملها الرجل[733].

ربما استخدم ملوك الطوائف الموظفين اليهود، مثل الأمويين من قبلهم؛ لأن ولاء هؤلاء الموظفين سيكون للحكّام أكثر مما سيكون للعلماء، أو للإسلام نفسه، ولأنهم لم يشكلوا تهديدًا للحكّام المسلمين الذين نظروا دائمًا وراء أكتافهم بحثًا عن الأعداء المحتملين. في غرناطة، أوقف العمل السريع للحاخام صموئيل بن نغريلة تمردًا على الحاكم باديس من بين صفوف البربر[734]. كما جلب ملوك الطوائف القادة اليهود الموهوبين في حين دعموا المثقفين والشعراء والفنانين من كل المعتقدات لتعويض ضعفهم السياسي والعسكري وتعزز هيبة محاكمهم[735].

استمرت المعاملة الإيجابية عمومًا من ملوك الطوائف تجاه اليهود في إثارة انتقاد العلماء. يشكو أحد المستندات المجهولة من القرن الحادي عشر أن "أمراء المؤمنين أسلموا أنفسهم إلى المتعة" في حين أحالوا سلطتهم إلى "اليهود"[736]. شكا المؤرخ ابن بسام، الباحث العربي في القرن الثاني عشر أن أحدًا أخبره أنه رأى الحاكم باديس مع وزيره اليهودي الحاخام جوزيف ابن نغريلة ولم يتمكن من معرفة من كان الحاكم ومن كان المحكوم[737].

تندب المصادر العربية بإصرار المكانة المهيمنة للجالية اليهودية في المستويات الإدارية لممالك الطوائف. لقد قدموا هذه السيطرة اليهودية المتصورة كتفسير لمختلف أعمال الشغب المعادية لليهود وحتى من أجل الانحطاط السياسي للإسلام[738]. المؤرخ ابن الكردبوس، متذمرًا من تأثير السفارديم في إشبيلية، ربط هذه "السطلة اليهودية" المفترضة بالخطر المتصاعد للاسترداد المسيحي: "ووكلوا أمور المسلمين إلى اليهود، فعاثوا فيها عيث الأسود، وجعلوهم حجّابًا ووزراء وكتّابًا، ويتطوف الروم في كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون"[739]. في وقت متأخر من عام 1492 عندما استسلم أبو عبد الله محمد الثاني عشر ملك غرناطة للملوك الكاثوليك أدرج في وثيقة الاستسلام فقرة تنص على أن "لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر، أو أن يُمنح أي سلطة أو ولاية عليهم"[740]. لا تبدو تصورات المسلمين هذه مختلفة عن تصورات بعض العلماء، الذين يركزون فقط على أوروبا الكاثوليكية في العصور الوسطى، التي تم تحديدها بوصفها من بين الأسباب الجذرية للتحيز والاضطهاد بحق اليهود في العصر الحديث[741]. في عام 1086 غزا المحاربون المسلمون البربر المتدينون (المرابطون) "المقيمين في الحاميات الحدودية"[742] إسبانيا من شمال إفريقيا. هدد الغزو في البداية رفاهية الجالية اليهودية. أيدت طبقة العلماء وجماهير المسلمين بشكل عام غزو المرابطين، جزئيًا بسبب استيائهم من تفضيل ملوك الطوائف للقادة اليهود. فر العديد من اليهود إلى الممالك الكاثوليكية. قاتلت الفرق اليهودية إلى جانب الكاثوليك تحت قيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة في معركة Zalaca (الزلاقة)، آخرون قاتلوا إلى جانب البربر المنتصرين.

تقدم هذه التطورات المزيد من الأدلة على أنه لم يكن ثمة شيء فريد من نوعه حول "التسامح" في إسبانيا الإسلامية: إذ وجدت الجالية اليهودية تدابير مماثلة في ظل الملوك الكاثوليك. احتل الوجهاء اليهود في الممالك الكاثوليكية مناصب مهمة في البلاط الملكي واستفاد السكان السفارديم عمومًا من مُحاباة الحكّام[743]. استفاد الملوك الكاثوليك مثل ألفونس السادس من الجالية اليهودية وقاموا بحمايتها. عند موت ألفونسو في عام 1109 كانت هناك أعمال شغب ضد الأحياء اليهودية حيث انفجر الاستياء المكبوت ضد الازدهار والتأثير اليهوديين[744].

نجت الجالية اليهودية من الغزو المرابطي، جزئيًا بسبب من مناورات القادة اليهود البارعة وبذخ مساهماتهم في خزائن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين (الذي لم يتمكن من هزيمته من المحاربين الكاثوليك سوى El Cid). بمرور الوقت سيستخدم المرابطون الموظفين اليهود أيضًا على الرغم من عداء العلماء لليهود. بعد موت يوسف بن تاشفين بدأ ابنه علي بن يوسف (1106-1143) في الاعتماد على الموظفين اليهود كمديرين ومصرفيين وجامعي ضرائب[745].

كان أهل الذمة المسيحيون (الذين كانوا أقلية في الأصل) أقل حظًا، والذين عانوا في ظل حكم المرابطين من الاضطهاد والطرد الجماعي إلى إفريقيا. في عام 1099 نهب المرابطون كنيسة غرناطة العظيمة. في عام 1101 فر المسيحيون من مدينة فالنسيا إلى الممالك الكاثوليكية. في عام 1106 قام المرابطون بترحيل المسيحيين من مالقة إلى إفريقيا. في عام 1126 وبعد فشل تمرد مسيحي في غرناطة، طرد المرابطون جميع سكان المدينة المسيحيين إلى إفريقيا. في عام 1138 أخذ ابن تاشفين جموعًا من المسيحيين معه إلى إفريقيا[746].

تعرضت اليهودية للخطر مرة أخرى في منتصف القرن الثاني عشر عندما اجتاح محاربون بربر مسلمون أكثر تقوى "الموحدين" (أولئك الذين يؤكدون على وحدة الله) إسبانيا تحت القيادة العسكرية لخليفتهم المرعب أبو يعقوب يوسف (حكم من 1163-1184). استولى يوسف على إشبيلية من حكّامها المرابطين عام 1147 وسرعان ما سقطت إمبراطورية المرابطين بأكملها في يد هؤلاء الغزاة البربر الجدد.

محاولين توحيد ميادينهم متعددة الثقافات والمتباينة أعطى الموحدون كلًا من اليهود والكاثوليك الخيار بين التحول إلى الإسلام أو الطرد إلى إفريقيا، كما سوف يفعل الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا مع الجالية اليهودية في 1492. كما سيحدث أيضًا في عام 1492 حيث اختار العديد من السفارديم التحول الكاذب من أجل البقاء في إسبانيا كما نصحهم الحاخام الأندلسي العظيم موسى بن ميمون وكما قد يكون فعل هو ذاته (أثناء إقامته في مصر كيهودي اتهمه الفقيه الأندلسي Ibn Maisha ابن مايشا بكونه مرتدًا عن العقيدة الإسلامية)[747]، لكن البعض ربما لم يستسلموا بلا مقاومة: اتهم المؤرخ المسلم "ابن صاحب الصلاة" الجالية السفاردية في غرناطة بقيادة الحاخام سهر بن رويز بن ضهري Sahr Ben Ruiz Ibn Dahri بفتح أبواب المدينة التي كان يسيطر عليها الموحدون آنذاك للزعيم الأندلسي "ابن همشك" (الذي قيل إنه من أصل مسيحي) نحو العام 1161[748].

أما بالنسبة لأهل الذمة الكاثوليك، فقد تم القضاء على من تبقى من أهلهم في غرناطة في أعقاب ثورة ضد الموحدين في عام 1164. تباهى يوسف بأنه لم يترك كنيسًا قائمًا أو كنيسة في الأندلس.

السفارديم الذين رفضوا التحول إلى الإسلام فروا إلى الممالك الكاثوليكية، إفريقيا والشرق الأوسط في حين فر من تبقى من الذميين الكاثوليك إلى الممالك المسيحية في حركة أنهت حياة أهل الذمة المسيحيين في الأندلس من ناحية واقعية[749].
سيعود العديد من أهل الذمة هؤلاء مع التقدم السريع لعملية الاسترداد، بعد

هزيمة الموحدين في معركة لاس نافاس دي تولوز Las Navas de Tolosa (16 يوليو 1212) من قبل الجيوش المشتركة لملوك قشتالة ونافار وأراغون الكاثوليك.

التعايش Convivenciaوالتسامح:

عاش اليهود في إسبانيا بسعادة وإنتاجية لمئات السنين قبل محاكم التفتيش والطرد عام 1492.

To Life! A Celebration of Jewish Being—*Harold S. Kushner, (Boston: Warner Books, 1993), 273, a high*and Thinking *school textbook*

سيكون من الصعب المبالغة في روعة الثقافة اليهودية في إسبانيا العصور الوسطى. إذ من خلال علاقتهم التكافلية مع الحكّام المسلمين ومن ثم المسيحيين استمتع اليهود من القرن الثامن وحتى العاشر (في الأندلس) ومن القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر (في إسبانيا المسيحية) بقدر من الاستقرار والحماية القانونية لم يحصلوا عليهما قط. ازدهروا اقتصاديًّا وديموغرافيًّا، وشكّلوا نسبة أكبر من السكان مما في أي دولة أوروبية أخرى. خلال بعض الفترات اعتبر اليهود إسبانيا دولة يهودية تاريخيًّا، ووطنهم الجديد. الحياة الفكرية اليهودية واللغة العبرية ولدا من جديد في إسبانيا. كان ثمة أعظم ازدهار للشعر العبري منذ الكتاب المقدس، واستُخدمت العبرية لأول مرة في الشعر الدنيوي.

*, ed.*Encyclopedia of Homosexuality—*"Jews, Sephardic," Wayne Dynes (New York: Garland, 1990)*

"اليهود، السفارديم"، موسوعة الشذوذ الجنسي. *نيويورك: جارلاند، 1990*

في إسبانيا الإسلامية، لم يكن ثمة "تعايش" و"تسامح" داخل الجالية اليهودية أكثر منهما خارجها.

حتى في أفضل الأوقات كانت اليهودية في إسبانيا الإسلامية محاصرة من قبل ديانتين قويتين شكلتا مصدرًا محتملًا للأفكار الهرطوقية، الردة وتسلل الممارسات الأجنبية. كما لاحظ كل من إدوارد كيسلر ونيل وينبورن في معجم العلاقات اليهودية المسيحية، أن القوانين اليهودية الدينية ساعدت عبر التاريخ المجتمع المعرض للخطر في الحفاظ على هويته من خلال خلق عقبات عملية من أجل تمثلها من قبل غالبية الأديان غير اليهودية[750]. جعلت هذه القوانين من التعايش مع المسلمين والكاثوليك في إسبانيا العصور الوسطى مسألة إشكالية في أحسن الأحوال.

بمنع السفارديم من اعتناق الإسلام أو المسيحية حافظت القوانين الدينية على الهوية اليهودية في مواجهة الاحتمالات الصعبة. استخدمت الجماهير اليهودية اللغة العربية والأسماء العربية كما فعل الكثير من أمهر العلماء والقادة. حالما اكتسب الاسترداد المسيحي الزخم والقوة، اعتمدوا لغة وأسماء الثقافة الكاثوليكية. مكّنت القوانين الدينية السفارديم الممارسين للشعائر بإخلاص من أن يصبحوا مُكرسين للعبادة، العائلة والمجتمع والرفقة وقادت إلى التأدب الروحي والمادي وكذلك النظافة[751].

عادة ما تجاهل العلماء المتمسكون بأسطورة التعايش أو تجنبوا هذه العوائق أمام الاتصال الاجتماعي اليومي مع أعضاء من معتقدات أخرى وبالتالي أمام التعايش. أغفلوا عن سلوك جماهير إسبانيا الإسلامية لمصلحة نماذج أكثر أو أقل سحرًا من المثقفين والشعراء والقادة من المسلمين أو اليهود أو المسيحيين أو شرائح من عامة السكان تبنت أو "تعلمت" من هذه الميزة أو تلك من ثقافة الآخر مثل اللباس، اللغة، التقنيات المادية أو الأشكال الشعرية. ولكن بقدر ما تعلق الأمر بجماهير السكان اليهود المأزومة أنجزت القوانين الدينية الغرض منها على الأقل في إبطاء التحول إلى الإسلام ثم إلى المسيحية لاحقًا.

في حين كانت النُّخب السفاردية تتفاعل مع أقرانها من المعتقدات الأخرى كلما لزم الأمر، كانت الجموع السفاردية تنفذ معاملاتها القانونية والتجارية قد الإمكان داخل مجتمعها[752]. لم يكن هذا الفصل فريدًا في تاريخ إسبانيا الإسلامية. لاحظت المؤرخة E. Mary Smallwood ماري سمولوود أن قوانين الطعام اليهودي في العصور القديمة ومحظورات يوم السبت منعت محاولات الرومان في إدماج اليهود في الوحدات الأجنبية للفيالق[753]. تبعًا لمؤرخ آخر David Stone Potter ديفيد ستون بوتر فشل الإمبراطور قسطنطين في محاولاته اللاحقة لجعل السلطات اليهودية تتولى واجباتها المدنية حتى لو تعارضت مع العادات اليهودية، في نهاية المطاف استثنى أحد القوانين تلك السلطات من أي عمل مدني يشمل العمل اليدوي[754].

كانت قوانين الاستبعاد اليهودية بحق غير اليهود تعكس قوانين الاستبعاد الإسلامية والمسيحية بحق اليهود وكذلك بعضهم ضد بعض. ولكن أيضًا يتوجب ملاحظة عدم التناظر في القوى الاجتماعية العامة والديموغرافية والسياسية للمجتمعات الثلاثة خلال العصور الوسطى. هذا يعني أن الظروف المعادية لليهود سادت في ظل الهيمنتين الإسلامية والمسيحية لكن المجتمع اليهودي لم يمارس الهيمنة في أي مكان. لم يكن الشك من قبل الجالية اليهودية "غير عقلاني" تمامًا، كما وصّف العلماء عادة هذه المخاوف "لماذا لا يمكننا جميعًا أن نكون على وفاق"[755]. الجزء الشهير من ملحمة "Cid" الإسبانية في القرن الثاني عشر التي يخدع فيها البطل بوقاحة مقرضي المال اليهود الشرفاء تجسد الموقف السائد في

ذلك الوقت في إسبانيا. تواجد "الثقافات الثلاث" خرب التعايش بدلًا من المساعدة في بلورته في إسبانيا الإسلامية[756].

بالطبع لم يتم اتباع القوانين الدينية اليهودية دائمًا، تمامًا مثلما تم تجنب القوانين الإسلامية والمسيحية في المجتمعات الإسلامية والمسيحية في إسبانيا. التحولات والتسربات من قبل المعتقدات والثقافات الأخرى حدثت حتمًا، وفقط عدد من الأفراد كان يمكنه أن يتشدق بالتعاليم الدينية. العلماء اليائسون من العثور على دليل يثبت التعايش أشاروا إلى حالات ليهود عصوا القوانين الدينية في إسبانيا الإسلامية. يستشهدون على سبيل المثال بفتوى من القرن الحادي عشر تسجل حالة تاجر يهودي دخل منازل المسلمين لبيع بضائعه، فتوى أخرى من القرن الحادي عشر توافق على قرار ثري يهودي أن يكون للمسلمين الفقراء نصيب من صدقته أيضًا، وتشير فتوى من القرن الخامس عشر إلى أن اليهود كانوا يوزعون الحلوى في عيد الفصح (قضت الفتوى بعدم جواز قبول المسلمين للحلويات)، لكن هذا "الدليل" تحديدًا جدير بالملاحظة لأنه يشير إلى استثناءات في سياق القوانين الدينية.

أيد المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى الممارسة العامة للقوانين الدينية اليهودية. في القرن الثاني عشر ذكر ابن بسّام أن نجارًا يهوديًا رفض استخدام أدوات كان يتعامل بها عامل مسلم في السابق، كما أشار الإدريسي إلى أن الجزء المركزي من مدينة لوسينا شغله يهود أثرياء جدًا ولم "يدخله المسلمون قط"[757]. مفيد أيضًا الإشارة إلى الفتوى المالكية من قبل السيوري (توفي 1067) المذكورة في الفصل الثالث، الفتوى تخص يهوديًا اشترى منزلًا في شارع مسلم: "استقر هناك وأزعج جيرانه بشرب الخمر وعمل الأشياء المنكرة الأخرى. بواسطة دلوه وحبله وإبريقه يستخرج الماء، مثل المسلمين، من بئر قريبة، ولذلك يرفض الجيران المسلمون استخدام البئر. ما لم يغير اليهودي سلوكه، حكمت الفتوى، فإن منزله سيؤخذ منه"[758].

كما رأينا فإن عددًا من المدن في إسبانيا الإسلامية كانت لها بوابات معينة مثل "باب اليهود" (*Bab al-Yahud*)[759]. المؤرخ S. D. Goitein س.د. جويتين أشار إلى أن أغلبية السكان اليهود في المدن الإسلامية في العصور الوسطى كانت متركزة في أحياء سكنية قليلة على الرغم من وجود منازل يهودية يمكن أن تتاخم منازل غير اليهود وكذلك يمكن أن توجد منازل لليهود في مناطق غير يهودية. مع توطد الحكم الإسلامي في إسبانيا الإسلامية، استمرت الجالية السفاردية في العيش بشكل عام في أحياء محددة داخل المدن الإسلامية. من وجهة نظر السلطات الإسلامية، سهّل هذا الفصل سيطرة المسلمين وقلّل من الاحتكاك بين اليهود والمسلمين والكاثوليك. من وجهة نظر الجالية اليهودية عكس هذا التوزيع رفاهية وجود معابد يهودية إلى جوار المساكن اليهودية وجعل ممارسة

القانون اليهودي بلا عوائق أكثر سهولة[760]. لم يرغب المسلمون أن يعيش اليهود في الأحياء الإسلامية، والعديد من اليهود إن لم يكن معظمهم لم يرغبوا في العيش هناك على أي حال. بسبب هذا الفصل، كما لاحظ Goitein، فإن الجماهير السفاردية في ظل الإسلام في العصور الوسطى لم تر أو تختبر الحياة الروحية للمجتمعات الدينية الأخرى[761].

عاش المجتمع اليهودي الإسباني في العصور الوسطى حياة مستقلة في *aljamas* (مجتمعات يهودية ذاتية الحكم) تحكمهم شريعتهم الدينية *Halakhah* (الهالاخاه). عاشت الجالية اليهودية أيضًا تحت سلطة مفسري وناقلي تلك الشريعة –الحاخامات الذين من طبقتهم جاء القضاة وقادة الجالية-[762]. كانت الحياة تدور حول الكنيس، ولم يكن ثمة تمييز بين القانون المدني والقانون الديني. كما في الإسلام (لكن ليس المسيحية) كانت كل القوانين دينية. كانت تلك القوانين تنطبق حتى على أكثر العلاقات دنيويةً سواء كانت شخصية أو بين شخصية أو جماعية، على النشاطات اليومية الفردية والعامة، على العلاقات الجنسية، وعلى الاتصال مع الجماعات غير اليهودية، وكان الحاخامات محكميّ تلك الشريعة ومتعهديها. بعبارة أخرى، عاش السفارديم في إسبانيا في ظل حكم الكهنة (هيروقراطية).

مؤرخ العصور الوسطى لويس أ. غارسيا مورينيو أكد على هذا النقص في الفصل بين السياسة والدين في المجتمعات اليهودية في إسبانيا. علاوة على ذلك، وكما يلاحظ بصدد *aljamas* في ظل القوط الغربيين "في اشتغالها، ستكون المجتمعات السفاردية ديمقراطية في المظهر وأوليغارشية في الواقع". يكتب غارسيا مورينيو أنه في قمة التسلسل الهرمي المكون من "مجلس الحكماء" الذي تعلوه المجموعة الحاكمة الصغيرة داخل ذلك المجلس، والتي يعلوها رئيس هذه المجموعة الصغيرة، ثمة زعيم آخر يدير شؤون الجالية بأكملها. تتمتع هذه الشخصية بمكانة بارزة داخل وخارج الكنيس. بثروة كبيرة وسلطة، وسيعمل كحامٍ أبدي وزعيم للجالية، ومنصبه قلما يُورث. لفت المؤرخ Yitzhak Baer يتسحاق باير الانتباه إلى هذه النخبة الحاخامية في إسبانيا في العصور الوسطى والمكونة من "الرجال الأغنياء والأقوياء المسيطرين على aljamas"[763]. هذا النوع من الزعيم اليهودي الذي وصفه باير وغارسيا مورينيو سيكون ممثلًا في إسبانيا الإسلامية في شخص الحاخام صاموئيل بن نغريلة (ولاحقًا في شخص ابنه جوزيف) في مملكة الطائف في غرناطة، والحاخام إسحاق ابن البالية في مملكة الطائف في إشبيلية، أو الطبيب وعالم القانون اليهودي حسيدي بن شبروت الذي خدم عبد الرحمن الثالث في قرطبة. في إسبانيا المسيحية، ربما كان المثال اللامع هو الحاخام إسحاق إبرافانيل الذي شغل منصب أمين الصندوق في عهد ألفونسو

الخامس ملك البرتغال ولاحقًا فرديناند الثاني ملك أراغون، والذي حاول دونما نجاح إقناع فرديناند بالعدول عن طرد الجالية اليهودية من إسبانيا في 1492[764].

كان القانون في الجالية اليهودية قاسيًا، وكان الحاخامات صارمين في أحكامهم. كأستاذ للدراسات اليهودية لاحظ ساشا ستيرن Sacha Stern أن الحاخامات في العصور الوسطى في إسبانيا أظهروا القليل من التسامح تجاه المخالفين للقانون والزنادقة وخاصة المرتدين[765]. الحاخام السفاردي اللامع صموئيل بن نغريلة تباهى بأن اليهود الأندلسيين "تحرروا من الهرطقة ما عدا قلة من البلدات قرب الممالك المسيحية، حيث يُشتبه أن بعض الزنادقة يعيشون في الخفاء. قام أسلافنا بجلد جزء من أولئك الذين يستحقون الجلد، وقد ماتوا من جراء ذلك"[766]. حين ذكر ابن نغريلة "بعض الزنادقة" كان يشير إلى القرائين الذين رفضوا "القانون الشفوي" وبالتالي مؤسسة وسلطة الحاخامات.

كما رأينا في حالة الإسلام الإسباني لدى مقارنته بالإسلام في الشرق، كانت اليهودية الإسبانية أكثر صرامة من أي مكان آخر، بما في ذلك شمال أوروبا. Daniel Jeremy Silver دانييل جيرمي سيلفر، أستاذ الدراسات اليهودية لاحظ: "فيما يتعلق بالليتورجيا (الشعِيرة، القداس، الطقوس)، أصر السفارديم على الأشكال والصيغ الموصوفة. كانت المدارس الإسبانية وريثة للتقليد الذي عارض، بشكل ثابت إلى حد ما، أي مرونة في صيغ الليتورجيا. عكس موسى بن ميمون هذا التقليد عندما قام بالتشريع"[767].

كما أشار المؤرخ يتسحاق باير فإن الحاخامات الإسبان في الأندلس وكذلك في الممالك المسيحية اضطهدوا القرائين بوصفهم زنادقة "في ظل حُكم المسلمين أُجبر القراؤون "من قبل اليهود الأرثوذوكس" على الانسحاب إلى المناطق الحدودية المتاخمة للأراضي المسيحية وفي النهاية لجؤوا إلى المدن المحصنة في قشتالة. الاضطهاد القاسي من قبل ثلاثة أجيال من الحاشية اليهودية الأرثوذكسية التي خدمت الملوك الكاثوليك، ألفونسو السادس وألفونسو السابع وألفونسو الثامن جعلهم يتفوقون هناك ونجحوا في تدمير الطائفة بمساعدة "السلطات الحاكمة""[768]. (أهمل المؤرخون عمومًا قصة تدمير المجتمع اليهودي القرائي وهو الموضوع الذي يتم استكشافه لاحقًا في هذا الفصل). الكراهية الدينية ضد المرتدين فاقمها الخوف المبرر من أن المخبرين جاؤوا من صفوفهم –الواشون الذين شكلوا تاريخيًّا، بمعرفتهم باليهودية ووضعها في خدمة السلطات غير اليهودية، طائفة من الأعداء الخطرين-. أشار العالم إسرائيل إبرامز إلى أنه "بالنسبة للمخبر لم يكن لدى يهود القرون الوسطى أدنى رحمة، كان خارج نطاق الإنسانية. كان الموت عقوبته ولم تكن عمليات الإعدام من هذا النوع نادرة الحدوث. الحاخامات العظماء في العصور الوسطى أرسلوا المخبرين إلى الموت بلا خوف وقضايا بهذه الوطأة حدثت في جميع أرجاء العالم اليهودي"[769].

الحاخام والفيلسوف العظيم موسى بن ميمون الذي عاش في ظل الحكم الإسلامي، أكد في تجميعه وتأويله للدين اليهودي أن اليهودي الذي يتحول إلى (مخبر) "moser" لا ضرورة لإحضاره إلى المحكمة وأنه يمكن أن يُقتل من قبل أي عضو في الجالية[770]. في ملخصه الهائل للشريعة الدينية ميشنا توراة (أو *Yad Hahazakah*، *اليد القوية*) يشرح ابن ميمون ضرورة مراقبة سلوك الناس: "تلتزم المحكمة اليهودية بتعيين الضباط الذين سيتجولون بين الناس في الاحتفالات والتحقق من الحدائق والبساتين وضفاف الأنهار ليروا أن الرجال والنساء لا يجتمعون هناك ليأكلوا أو يشربوا خشية أن يتصرفوا على نحو منافٍ للآداب العامة ويرتكبوا المعصية"[771].

الردود الحاخامية الباقية (الأحكام المتعلقة بالقضايا والممارسات الدينية والقانونية حيث تم استشارة الحاخامات) من الممالك الكاثوليكية تشير إلى الطبيعة القاسية للشريعة الدينية للجالية اليهودية في إسبانيا العصور الوسطى. في أواخر القرن الرابع عشر في قشتالة كان للحاخامات سلطة إنزال حكم الإعدام بحق المخبرين ومن ثبتت إدانتهم بارتكاب جرائم القتل والزنا[772]. يمكن أن تشمل الأحكام الحاخامية "عقوبات متدرجة" على شكل قطع الأطراف بما يتناسب مع خطورة المخالفات (يد واحدة أولًا، ثم اليد الأخرى، ثم قدم، وهلم جرا). في أحد الفتاوى الشرعية، وافق الحاخام المحترم على نطاق واسع Asher b. Yehiel أشير ب يحيئيل على قطع أنف امرأة يهودية أقامت علاقة جنسية مع رجل مسيحي. في حالة أخرى، وافق على أن "يُسحب لسان أحد المجدفين من فمه وأن يُقطع جزئيًا". كما أشاد الحاخام أشير بالقضاة في *kahal* إشبيلية (مجلس الإدارة اليهودي) لفرضهم عقوبة الإعدام على رجل يهودي لأنه حمل معلومات إلى الأغيار عن "اليهود والجالية اليهودية". في رسالة إلى الـ *aljamas* الإسبانية ذكر الحاخامان البرشلونيان يهوذا وإبراهام بن حسيدي أن ألسنة المخبرين اليهود الذين شجبوا كتاب موسى بن ميمون *Moreh (دلالة الحائرين)* أمام السلطات المسيحية قد قُطعت"[773].

في خطاب أرسله عام 1281 حث حاخام برشلونة سليمان بن أدرت حاخامًا في توليدو على "الانتقال من التدابير اللطيفة إلى الشديدة، ولتبدأ بالخطاب اللين، وإذا لم يكن ذلك مفيدًا، عليك بالتقطيع والجر وضرب الجماجم بالهراوة". وتوضح القضية المرفوعة أمام الحاخام أرديت هذه المقاربة النفعية للشريعة. "مستاءً من السلطات المجتمعية صاح رجل يهودي في الشوارع أمام المسيحيين أن اليهود يفرضون معدل فائدة أعلى مما يسمح لهم المرسوم الملكي". خلص أرديت، بعد استشارته أن الرجل يجب أن يُعتبر مخبرًا وبالتالي يستحق عقوبة الإعدام.

في فتوى تعود إلى عام 1310 وافق الحاخام يوم توب ب إبراهيم أصبيلي -Yom Tob b. Abraham Asbili من بلدة بيجار على قرار قاضٍ بقطع يد ولسان أحد

المخبرين. "القاضي هو أب الجالية" قال الحاخام وبالتالي لم يكن عليه اتباع الإجراءات المناسبة عندما يتوجب عليه "رعاية إصلاح النظام الاجتماعي واستئصال الفسق من الأرض وحماية التوراة بإحاطتها بسياج".

فقط في بداية القرن الخامس عشر بدأ الحاخامات في الممالك المسيحية بإظهار رأفة متزايدة في فتاواهم تجاه *anusim* مصطلح يشير إلى أولئك الذين ارتدّوا مرغمين. في ذلك الوقت كان المسيحيون قد استعادوا معظم إسبانيا، وربما كان العدد المتزايد من المتحولين إلى الكاثوليكية دافعًا لتساهل الحاخامات.

مؤرخ العصور الوسطى إنريكي كانتيرا مونتينيغرو Enrique Cantera Montenegro أيّد الأدلة المتضمنة في الفتاوى الحاخامية وفي تصانيف كهذه للشريعة الدينية مثل تلك التي قام بها موسى بن ميمون. وثّق مونتينيغرو قسوة العقوبات المفروضة في المجتمعات اليهودية في العصور الوسطى[774]. يكتب الحاخام صموئيل بن نغريلة في النصف الأول من القرن الحادي عشر في الأندلس مُجادلًا مرارًا وتكرارًا في إحدى قصائده أن الزوجة المتسلطة يجب أن تُضرب من قبل زوجها بجعلها تقبل سلطته وأن الزوجة الفضلى هي الزوجة الخاضعة والمُذعنة[775].

على الرغم من كل هذه الأدلة، فقد تردد بعض العلماء في الاعتراف بأنه خلال هذا "العصر الذهبي" للثقافة اليهودية، لم تكن السلطات اليهودية تتورع عن معاقبة المتجاوزين بالضرب والتشويه وحتى الموت تمامًا كما كان المعتقدان الآخران يفعلان. العلماء الذين أنكروا هذه الأدلة مرارًا جادلوا بأن عقوبة الموت لم تعد نافذة في أزمنة ما بعد التلمود. يتجاهل هذا الادعاء حقيقة أن السلطات اليهودية كان يمكنها حتى عام 1379 على الأقل، كما أشار مونتينغرو، إبرامز وآخرون، إذا ما توافر مبرر أن تدافع عن الصحة الاجتماعية للمجتمع موقعة عقوبة الموت دون تدخل من العالم الخارجي عادة[776]. وهو يتغاضى أيضًا عن أدلة سابقة أن المجتمعات اليهودية قد فرضت عقوبات شديدة على المرتدين: في *Lex Romana* القوط الغربيين الذي تم تبنيه في عام 506 كان حكّام القوط الغربيين قد جمعوا المراسيم التي تحظر اضطهاد اليهود المرتدين إلى المسيحية وفي القرن الرابع منع الإمبراطور قسطنطين اليهود من رجم المرتدين[777].

كما لاحظ الحاخام إيمانويل كوينت Emanuel Quint أنه في أواخر القرن السادس عشر ذكر الحاخام الإسباني العظيم Joseph Ben Ephraim Caro (1575-1488) جوزيف بن إفرايم كارو في مؤلفه القانوني المؤثر *Shulchan Aruch* أنه يمكن للمحاكم اليهودية (بما فيها تلك المحاكم التي يوجد فيها قضاة غير معينين) في حالات الضرورة أن توقع عقوبة الموت وأنها لا تحتاج إلى أدلة قاطعة للقيام بذلك[778]. سرد كارو عددًا من الحالات التي يمكن أن

يقتل فيها "المتعصبون لشريعة التوراة" اليهودَ المذنبين بمن فيهم المرتدين "الخطاة" و"المثابرين على الشر"[779]. في ميشنا توراة موسى بن ميمون كان مسموحًا لليهود المتعصبين كمجموعة قتل يهودي جدف بحق الاسم المقدس باسم إله مزيف "وثن" دون حاجة للقضاة[780]. يهودي عبد الأوثان دون أن يكون مرغمًا على ذلك يجب رجمه، حتى لو أعلن توبته، ما دام قد جرى إنذاره من قبل وكان ثمة شهود على شركه، خلافًا لذلك، كان يُعاقب فقط بـ"cut off" (karet) الذي كان يعني نفيه من الجالية اليهودية[781]. يهودي خلق صورًا من أجل الفن أو الجمال يجب جلده، وهو حظر جعل من كل رسم أو نحت تمثيلي تجديفاً[782].

في الأراضي الإسلامية التي كان يقطنها المسيحيون، "أوثان" كهذه يمكن أن تشمل لوحات وتماثيل السيد المسيح والعذراء والقديسين المسيحيين. كتب موسى بن ميمون أن المسيحية، مثل الإسلام، يمكن أن يكون لها دور "إيجابي" تلعبه في العالم (كلا المعتقدين يمكن أن يقودا الناس إلى المبدأ العام للإله الواحد، وهو ما من شأنه أن يفتح الطريق لقبولهم بمجيء المسيح)[783]. ومع ذلك، اعتبر المسيحيين عبدة أوثان لأنهم كانوا ثالوثيين، يؤمنون بألوهية مجرد إنسان "يسوع"، واللوحات والتماثيل المبجلة للقديسين ومريم العذراء. علاوة على ذلك، اعتبر المسيحية بدعة[784]. يلاحظ الحاخام إلياهو توجر Eliyahu Touger أن مصطلح "كنعاني"Canaanite في الإصدارات الخاضعة للرقابة وبالتالي المتاحة من الميشنا توراة هو البديل من قبل الرقيب: إذ إن النصوص الأصلية من الميشنا توراة تذكر "الرومان" (أي "الروم" أو مسيحيي الإمبراطورية الرومانية اليونانية) أو المسيحيين. يلاحظ الحاخام توجر أيضًا أن عمل موسى بن ميمون *Sefer HaMitzvot* سيفر هامتيزفوت (وصية إيجابية 187) (تنص على أن الكنعانيين لم يعودوا موجودين). وهو يضيف أن النص غير الخاضع للرقابة من عمل ميمون تعليقًا على الميشنا (*Avodat Zarah*1:3) يصف المسيحيين صراحة بأنهم عبدة أوثان ويحظر التعامل معهم"[785]. وعلى نحو مماثل، يشير أستاذ الدراسات العبرية نورمان روث Norman Roth أن ابن ميمون في الميشنا توراة غير الخاضع للرقابة يعتبر المسيحيين عبدة أوثان ويرفض صراحة مذهب التثليث[786].

لكن المسيحيين بالطبع سواء في إسبانيا كاثوليكية أو إسلامية لا يمكن أن يخضعوا لقانون يهودي قروسطي وعقوباته القاسية تجاه عبدة الأوثان لأنهم لم يكونوا عبدة أوثان يهود، وهي نقطة تغاضى عنها المجادلون المعادون لليهود ومجموعة متنوعة من المعادين للسامية عبر العصور[787]. النقطة الأساسية في كل هذا هي أن اليهود الذين يعيشون في المجتمعات الكاثوليكية كان عليهم توخي الحذر في عدم التصريح أنهم يعتبرون الأغلبية المسيحية التي تحيط بالجالية اليهودية عبدة أوثان. من شأن هذا أن يفسر بيان السلطة الإشكنازية في العصور الوسطى بلسان حاخامها تام Tam الذي صرّح بينما كان يعيش في أرض

كاثوليكية، أن المسيحيين ليسوا عبدة أوثان. في الأراضي الإسلامية، قد لا يكون هذا الاحتراس ضروريًا.

جيرالد بليدشتاين، خبير في موسى بن ميمون والشريعة اليهودية لاحظ أن أحد مخاطر القَرّائيّة بالنسبة لموسى بن ميمون كان على وجه التحديد أنها يمكن أن تقود اليهودي إلى المسيحية "البدعة الحقيقية"[788]. موسى بن ميمون ضمّن يسوع الناصري وأتباعه اليهود، المسيحيين الأوائل، بين الهراطقة اليهود (*minim*) والمرتدين الذين يتوجب قتلهم[789]. كما أشار إلى يسوع بوصفه نبيًّا دجالًا تم إعدامه بشكل صحيح: "يسوع الناصري الذي طمح أن يكون المسيح وأعدم من قبل المحكمة"[790]. (في إحدى الملاحظات: يصحح الحاخام تويجر موسى بن ميمون: "لم ينفذ اليهود الإعدام في الواقع، لأن الصلب ليس من أساليب الإعدام في التوراة. بدلًا من ذلك، بعد الحكم عليه بالإعدام، يسلمه مجلس اليهود سَنهيدرين Sanhedrin إلى السلطات الرومانية التي تعدمه باعتباره متمردًا ضد الحكم الروماني")[791]. لاحظ نورمان روث أن الأطروحات الجدلية والشعر اليهوديين في إسبانيا الإسلامية في العصور الوسطى لم يهاجما الإسلام كثيرًا، وهو الذي عاشت الجالية السفاردية بين أتباعه، وإنما المسيحية غالبًا، على الرغم من أن القليل من السفارديم عاشوا في إسبانيا الكاثوليكية في ذلك الوقت[792].

كراهية موسى بن ميمون للمسيحية واضحة في ميشنا توراة: "هل يمكن أن يكون ثمة عثرة أعظم من المسيحية؟ كل الأنبياء تكلموا عن المسيح باعتباره فادي إسرائيل ومخلصها، الذي سيجمع شتاتهم ويقوي التزامهم بالوصايا Mitzvot. على العكس من ذلك، تسببت المسيحية بقتل اليهود بالسيف، بتشتيت من تبقى منهم وإذلالهم، بتحريف التوراة، وفي جعل أغلبية العالم تقع في الخطأ وتخدم إلهًا غير الرب"[793].

لكن ربما كانت كراهية موسى بن ميمون للعرب المسلمين أكبر من كراهيته للمسيحيين. في رسالته إلى اليمن سمي مُحمد بـ"المجنون" وذكّر اليهود أنه "بالنظر إلى كثرة ذنوبنا ألقى الله بنا وسط هذا الشعب، العرب، الذين اضطهدونا بشدة، ومرروا الشرائع التمييزية والمشؤومة ضدنا، كما حذّرنا الله: "لأنّه لَيْسَ كَصَخْرِنَا صَخْرُهُمْ، وَلَوْ كَانَ أَعْدَاؤُنَا الْقُضَاةَ. لأَنَّ مِنْ جَفْنَةِ سَدُومَ جَفْنَتَهُمْ، وَمِنْ كُرُومِ عَمُورَةَ. عِنَبُهُمْ عِنَبُ سَمٍّ، وَلَهُمْ عَنَاقِيدُ مَرَارَةٍ"[794].

مما لا ريب فيه أن موسى بن ميمون شخصية معقدة ومثيرة للجدل. في زمنه، أدان بعض الحاخامات عمله الميشنا توراة لتبسيطه القضايا القانونية المعقدة لجعلها في متناول غير المتعلمين وحتى الخصوم، ولعدم وجود مراجع تكشف عن مصادره[795]. في النصف الأول من القرن الثالث عشر، خالف الحاخامات في شمال فرنسا مقاربات موسى بن ميمون للنصوص اليهودية المقدسة ولجعله

الشريعة اليهودية سهلة المنال على نطاق واسع بالنسبة لغير المكلفين بالمعرفة الحاخامية ومنعوا اليهود من قراءة *Moreh Nebuchim* (دلالة الحائرين)، هذا المنع تم الرد عليه بمنع مضاد من قبل حاخامات بعض المدن الإسبانية مثل (سرقسطة) ضد هؤلاء الذين ربما تكلموا ضد موسى بن ميمون[796]. كنتيجة محتملة لهذا "الجدل الميموني" أحرقت السلطات المسيحية في مونبلييه كتاب موسى بن ميمون *Moreh Nebuchim* ظاهريًا بتحريض من حاخامات مونبلييه مثل سليمان بن إبراهام ويونان بن إبراهام جيروندي[797]. السلطات اليهودية الحديثة اعتبرت ميشنا توراة (جنبًا إلى جنب *Shulchan Aruch* (المائدة المنضودة) لجوزيف كارو) انعكاسًا لفهم استثنائي للشريعة اليهودية، فهم مشروط تاريخيًا بخلفية قروسطية كانت اليهودية تقاتل خلالها من أجل البقاء.[798]

لكن النقطة الأساسية هي أن رؤى موسى بن ميمون التشريعية، أيًا كانت مزاياها أو عيوبها، كان لها وزن كبير لدى الجالية السفاردية في إسبانيا القرون الوسطى في ظل الإسلام وفي ظل المسيحية[799]. في ميشنا توراة قدم بطريقة مكثفة ما كان يعتقد أنه الشريعة اليهودية كما جرى تأويلها وتطبيقها تقليديًا في إسبانيا[800]. هذه الشرائع الدينية، كما فسرها ودونها ابن ميمون، جعلت من التفاعل اليومي مع غير اليهود أمرًا صعبًا.

هذه الواقعة وحدها يمكنها أن تطيح بأسطورة التعايش. موسى بن ميمون حكم صراحة بعدم جواز تناول الطعام أو الشراب مع غير اليهود[801]. اليهود الممارسون يجب ألا يشربوا الحليب الذي ينتجه غير اليهودي، رغم أن الجبن قد يكون مقبولًا إذا أملته الضرورة[802]. يجب على المرء ألا يأكل الكراب، سرطان البحر، المحار أو الأخطبوط أو لحم الخنزير أو مشتقات الدم من بين أشياء أخرى، وهي محظورات جعلت من تناول الطعام مع غير اليهود مرة أخرى محفوفًا بالمخاطر الدينية وبالتالي غير مستحسن. يلاحظ Blidstein أن، مزج اللحم بالحليب، بالنسبة لموسى بن ميمون، كان تمثيلًا لنوع من التفكير "الكافر" الذي يستحق أن يعاقب بالإعدام[803]. الأواني المُشتراة من غير اليهود يجب تنظيفها تمامًا من الاستعمال الوثني قبل استخدامها[804]. كان دخول متجر غير يهودي خطيئة إذا كان متجر كوشر kosher متاحًا[805]. أظهر Goitein أن خطابات ووثائق تشريعية من التجار السفارديم في الأراضي الإسلامية في العصور الوسطى تعكس مدى تأثير هذه التشريعات حتى على المعاملات التجارية إذ جعلتها أكثر صعوبة[806]. يشير ستيرن وهربرت آلان دافيدسون أن الالتزام "*mitzvah*"بتناول الطعام، بما في ذلك الخبز، المُحضّر وفقًا لإجراءات كوشر kosher، يملي أن على السفارديم تجنب تناول الطعام والشراب مع غير اليهود كما عبر موسى بن ميمون عن ذلك "من خلال العلاقات الجنسية المحظورة والتحفظات على الطعام، جعلنا الله قديسين وفصلنا عن الوثنيين"[807].

كما منعت تعاليم موسى بن ميمون اليهود من الزواج من غير اليهود[808]. الخوف الجماعي بشأن التفاعل الجنسي مع "الآخر" أملى عددًا من المحظورات والعادات المأذونة شرعًا. في الواقع، منع موسى بن ميمون الطعام والشراب مع غير اليهود جزئيًا لأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى الزواج المختلط[809]. الأوامر بمنع الزواج المختلط، وهي عبارة عن جزء من مجموعة كبيرة من القوانين التفصيلية المتعلقة بالزواج والأسرة والجنس، يبدو أنها كانت فعالة للغاية: تظهر مجموعة ضخمة من الوثائق اليهودية التي تعود للقرون الوسطى والمعروفة باسم *Cairo Genizah* أن ليس ثمة أي مثال عن زواج مختلط في مجتمع السفارديم المتوسطي في مدينة كبيرة تحت السيطرة الإسلامية[810]. ساعد هذا القانون الديني في درء تهديد الاستيعاب والتحول الديني من خلال الحفاظ على النسب والتلاحم الداخلي، الذي دائمًا ما يكون في خطر بالنسبة لأي أقلية داخل المجتمع[811].

لكن تلك الأوامر كانت أيضًا بمثابة حاجز بين الجالية اليهودية والطوائف الأخرى، على الرغم من الانتهاكات العرضية لكل من التشريع اليهودي والمسيحي في الممالك المسيحية[812]. في البلاد الإسلامية، تُظهر وثيقة القاهرة جنيزة *Cairo Genizah* من عام 1065 كيف تعرضت امرأة من السفارديم لمشاكل خطيرة من السلطات اليهودية والإسلامية لممارستها الجنس مع طبيب مسيحي[813]. يشير ستيرن بأن المرأة اليهودية كانت ممنوعة من لقاء رجل غير يهودي حتى لو كانت زوجته موجودة، وهذا افتراضٌ يضمر أن الرجل غير اليهودي على استعداد للزنى على الرغم من وجود زوجته[814].

تؤكد فتاوى حاخامية أخرى من إسبانيا المسيحية على مركزية تعاليم موسى بن ميمون. الحاخام يهودا بن آشر من طليطلة (1269-1343) حكم بأن المرء يجب أن يبلغ السلطات اليهودية عن أي رجل يهودي يجامع امرأة وثنية، وأن المخالف يجب أن يُطارد من قبل الغيورين وأن يُنبذ من الجالية[815]. كتب الحاخام أيضًا أن "نسل" الشعب اليهودي كان مقدسًا جدًا بحيث لا يجب تلطيخه عبر الاتصال بالوثنيين، وهذا يعني أن "البغايا اليهوديات" رغم كونهن مصدرًا للخطيئة، إلا أنهن لا يزلن مفضلات عن البغايا الوثنيات[816].

بشكل عام، كان يُنظر إلى غير اليهود بأنهم يتمتعون بأخلاق أسوأ بكثير. وهكذا، بالنسبة لموسى بن ميمون "يجب على كل إسرائيل أن تتذكر باستمرار أن القسوة والصفاقة من مزايا "الوثنيين غير المختونين" وليس من نسل إبراهيم، أبينا"[817]. هذا التعليم فرض إلزامًا أن يكون "اليهودي" مثالًا للآخرين، وبالتالي جعله مُطالبًا على نحو أعظم بأخلاق الجالية اليهودية[818].

الأوامر الإقصائية لموسى بن ميمون في ميشنا توراة أكدها عمومًا الحاخام الإسباني جوزيف كارو في *Shulchan Aruch* شولحان عاروخ "المائدة

المنضودة" (1565) الذي ادعى أنه يتبع رأي الأغلبية بدلًا من رأي سلطة واحدة. تبعًا لـ"المائدة المنضودة" أن يكون المرء ضيفًا على شخص لا يحافظ على قوانين النظام الغذائي ليس أمرًا مستحسنًا، إلا إن كان الرفض يمكن أن يخلق عداوة، لا يجوز ترك أواني الطعام في منزل غير يهودي خشية أن يتم استخدامها، حتى لو أُعطيت الأواني لغير يهودي من أجل إصلاحها، فإن الخوف من تدنيسها يتطلب التشاور مع الحاخام في الأمر، يُمنع شراء الخمر أو الطعام من مصادر لا تمتثل للشرائع اليهودية، يحرم شرب الخمر (المصنوع من العنب) إذا لمسه شخص غير يهودي، الطبخ في قِدرٍ قريب من قِدر غير يهودي كان أمرًا محفوفًا بالمخاطر لأن الطعام في القِدر الآخر يمكن أن يلّوث قِدر اليهودي، مما يجعل الطعام هناك غير صالح للأكل[819].

قوانين إقصائية أخرى في كتاب كارو *Shulchan Aruch* كان دافعها أيضًا الخوف من الآخرين. كان ممنوعًا رسم لوحة لإنسان أو الاحتفاظ بصورته في المنزل، أو حتى صورة لملاك، أو الاحتفاظ في المنزل بصورة لأي وجه ما لم تكن مشوهة أو غير مكتملة كما في الصورة الجانبية (البروفايل). كان ممنوعًا التحديق في الأصنام ولو من أجل جمالها. يجب البقاء على مسافة أربعة أذرع على الأقل من معابد غير اليهود وآلهتهم الزائفة "أوثانهم" ويجب ألا يتعامل المرء مع غير اليهود في معابدهم. يجب على المرء ألا ينطق أسماء أعياد غير اليهود التي تحمل اسم "صنم". يمنع إقراض المال مع الفائدة "الربا" لليهود الآخرين مع أنه كان مسموحًا بالنسبة لغير اليهود[820]. يجب عدم تعليم الأطفال من قبل غير اليهود أو رعايتهم في منازلهم[821].

كما سنرى في الفصل التالي، القوانين التي حكم بموجبها الكاثوليك الذميون أنفسهم كانت تتضمن عددًا من قوانين الإقصاء المماثلة بدافع الخوف من "الآخرين".

تدمير المجتمع القرّائي:

في أفضل حالاتها، أعطت الثقافة اليهودَ قدرًا أكبر من الحرية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية أكثر مما عرفوه في أي مجتمع قروسطي (غير مسلم) آخر.. رغم محدداته، وُصف التعايش بأنه القضية المميزة في تاريخ الأندلس، وأدى إلى نهضة كبيرة في الأدبين العربي والعبري وفي التعليم، وفي الازدهار المبكر للثقافة الإسبانية.

The Dream of the Poem: Hebrew Poetry *Poet Peter Cole,* *(Princeton, NJ* from Muslim and Christian Spain, 950–1492 *Princeton University Press, 2007), winner of the R. R.*

*Hawkins Award from the Association of American Publishers, and praised by the literary critic Harold Bloom for giving "the I have encountered" ("The Lost*convivencia *best account of ., June 28, 2007)*New York Review of Books*Jewish Culture,"*

تم إهمال قصة المجتمع اليهودي القرّائي في التواريخ العامة لإسبانيا في العصور الوسطى، وعادةً ما يُفسر اختفاؤها، عند ذكرها، على أنه انحلال ذاتي طبيعي لطائفة غير مهمة. الوثائق المتاحة تقول خلاف ذلك.

لم تكن الجالية السفاردية في إسبانيا في العصور الوسطة متجانسة. كما لاحظ Yitzhak Baer يتسحاق باير أن نزاعات داخلية مختلفة عصفت باليهودية الإسبانية. كافح أتباع القبالة ضد مناهضي القبالة، والنخبة الحاخامية (المؤلفة من الرجال الأغنياء والأقوياء الذين يسيطرون على aljamas " Aljamaهو مصطلح من أصل عربي يستخدم في الوثائق الرسمية القديمة في إسبانيا والبرتغال لتعيين مجتمعات المور واليهود الذين يتمتعون بالحكم الذاتي والذين يعيشون تحت الحكم المسيحي في شبه جزيرة إيبيريا") والتي ربما طورت ميولًا دنيوية وعلمانية، واجهت انتقادات من الحاخامات الأكثر ولاءً للتقاليد اليهودية[822]، لكن مثل هذه النزاعات لم تؤثر على البنية الأساسية للحياة الدينية. القرّائية (التي دعاها خصومها الأرثوذكس في العصور الوسطى "طائفة" أو "بدعة" في أحسن الأحوال، والذين بدورهم تمت الإشارة إليهم بـ"الربانيين" منذ القرن العاشر) مثلت أخطر تهديد داخلي لوحدة اليهودية الإسبانية في العصور الوسطى[823].

بدأت هذه الحركة الدينية اليهودية في الشرق الأوسط وانتشرت من هناك إلى الأراضي الأخرى. ربما تأسست من قبل عنان بن ديفيد نحو 760، وقد زُعم أنها عودة إلى الشكل الحقيقي للحياة اليهودية[824]. كلمة قرّائي *Karaite* مُشتقة من الكلمة العبرية *Karaim* وتعني "مريد الكتاب المقدس". لم يقبل القرّائيون وسطاء في فهمهم للشريعة المكتوبة (التوراة بشكل أساسي أو أسفار موسى الخمسة أو ما يسميه المسيحيون العهد القديم). وفقًا للأرثوذكسية اليهودية، سلّم موسى الشريعة الشفوية إلى حكماء مختارين في حين سلّم الشريعة المكتوبة من أسفار موسى الخمسة للشعب اليهودي، كانت الشريعة الشفوية مُكملة للشريعة المكتوبة، لكن القرّائيين رفضوا سلطة الشريعة الشفوية، التي كتبها الحاخامات بين القرنين الثالث والسادس[825]. اختلف القرائيون مع اليهود الأرثوذكس بشأن جوانب عديدة أخرى تتعلق بالمعتقدات الدينية والممارسة العائدة للعصور الوسطى. على سبيل المثال، أطروحة *Eshkol ha- Kofer* التي كتبها المفكر القرّائي Judah ben Elijah Hadass يهوذا بن إيليا هداسي، والمكتوبة في القسطنطينية المسيحية، رفضت التلمود واعتبرت يسوع نبيًّا أصيلًا[826]. كما احتفظ القرّائيون بتقويم ديني مختلف، ومنعوا زواج الأرمل من أخت زوجته المتوفاة أو من زوجة أخيه، وعلى

عكس اليهود الأرثوذكس رفضوا ممارسة الجنس بين المتزوجين يوم السبت بوصفها تدنيسًا[827]. كما لاحظ ناثان شور وغيره من المؤرخين غير القرّائيين، أنه بحلول أوائل القرن الثاني عشر أصبحت القرّائية "مؤثرة تمامًا في إسبانيا"[828]. دانيال ج. لاسكر Daniel J. Lasker أستاذ الفكر اليهودي في جامعة بن غوريون يؤكد أنه بحلول القرن الثاني عشر في إسبانيا "كان هناك مجتمع قرّائي حقيقي يعيش جنبًا إلى جنب السكان اليهود الأرثوذكس"[829]. كسبت القرّائية عددًا متزايدًا من المتحولين اليهود تحت قيادة سعيد بن الطرس (Cid Ibn Altaras) ومن ثم زوجته (بعد وفاته) المعلمة (لم تُمنع النساء القرّائيات من الخدمة في المناصب الدينية، على عكس اليهودية الحاخامية القروسطية).

لذلك، أصبحت القرّائية خطرة في نظر قادة اليهود الأرثوذكس في العصور الوسطى. حاخامات مثل يهوذا هاليفي Judah Halevi (توفي 1141) وإبراهام بن عزرا Abraham Ibn Ezra (توفي 1167) ويهوذا بن بلعام Judah Ibn Balaam (أواخر القرن الحادي عشر) ويهوذا بن برزلاي البرغلوني أو البرشلوني Judah ben Barzillai al-Bargeloni(أوائل القرن الثاني عشر) وجوزيف بن يعقوب بن صدّيق Joseph Ibn Zaddiq (توفي 1149) وزرحيا هاليفي Zerahiah Halevi (أواخر القرن الثاني عشر) ويهوذا الحريزي Judah al-Harizi (توفي 1235) رأوا أن من الضروري أن يكتبوا ضد القرّائية. كما كتب موسى بن ميمون ضد القرّائية وساهم في ارتحالها عن مصر. كان على استعداد لقبول عودة التائبين القرّائيين إلى حظيرة اليهود الأرثوذكس، لكنه حث على التصفية الجسدية لغير التائبين، وأوصى يهود اليمن أن يحذوا حذو الحاخامات الإسبان في التعامل مع القرّائية[830].

كتب دانيال ج. لاسكر "أصبح يُنظر إلى القرّائية على أنها تهديد حي ودؤوب لليهودية الأرثوذكسية في ذلك الوقت"[831]. بما أن الكتابات الجدلية للحاخامات المعادين للقرّائية فشلت في إقناع المتمردين الهراطقة، اتخذ القادة الأرثوذكس إجراءات أكثر حسمًا. مثلما تباهى الحاخام صموئيل بن نغريلة، استأصل الحاخامات في الأندلس القرّائية من بلاد المسلمين بنجاح. لجأت القرّائية عندها إلى الأراضي الحدودية للممالك الكاثوليكية. في عهد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون (1072-1109) استخدمت الحاشية اليهودية الأرثوذكسية، من بينها جوزيف سيديليوس طبيب الملك، تأثيرها على العاهل الإسباني للحصول على مراسيم بطرد القرّائين من المدن القشتالية[832].

توارى العديد من القرّائين عن الأنظار، وظلوا في قشتالة كقرائين سريين. من دونما رادع، تحصل القادة الأرثوذكس على فتاوى جديدة ضد القرّائين من ألفونسو السابع (1126-1157) وألفونسو الثامن (1158-1214). عندما استعاد ألفونسو السابع كالاترافا فوّض على المدينة أحد جباة ضرائبه، الحاخام يهوذا بن

يوسف بن عزرا من طليطلة، الذي أقنع الملك الكاثوليكي باضطهاد القرّائين. وفقًا للمؤرخ إبراهيم بن داوود (1110-1180) طلب الحاخام عزرا من الملك ألا يسمح لليهود الهراطقة أن يفتحوا أفواههم في كل أرض قشتالة، وأن الملك أجاب الطلب وتم إخضاع الهراطقة الذين توقفوا عن رفع رؤوسهم [833]. في ظل حكم ألفونسو الثامن، الحاخامات جوزيف بن الفخار (المعروف أيضًا باسم جوزيف فارسول، أو Ferrizuel أو ربما أيضًا Cidellius) والحاخام Todros Abulafia (تودروس هاليفي) وابنه جوزيف استخدموا نفوذهم لقمع الهراطقة[834]. بعد ذلك، تباهى الحاخام جوزيف قائلًا: "أبي وسيدي سعيد الذكر، سار في إثر أجدادي في حماسه لإخراج رجس الزنادقة من مقاطعتنا حتى نجح في تدمير حصونهم والنيل من مجدهم ولم يبق من يوم غضب الرب أثر عندما نفذ الحكم عليهم وعلى كتبهم[835]. في القرن الثالث عشر أشار الحاخام والشاعر المشهور يهوذا بن سليمان الحريزي Judah ben Solomon al-Harizi (1165 طليطلة- 1225 حلب) إلى القرّائين باعتبارهم "حشرات أخلاقية"، "منشقين"، "مسوخًا"، "مشوهين"، "لصوصًا" و"طائفة سقيمة" على النقيض من الأرثوذكس الذين وصفهم بأنهم "مؤمنون" و"رضيون"[836].

بحلول ذلك الوقت، كانت القرّائية قد انتهت عمليًا في إسبانيا. مع ذلك، خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر كتب الحاخام القبالي الشهير موسى دي ليون (1250-1305) رسالة يطلب فيها اضطهاد عدد قليل من القرّائين الذين تمكنوا من البقاء على قيد الحياة بطريقة ما في بورجوس الكاثوليكية[837]. ربما استمرت مجموعات صغيرة من القرّائين في عيش حياة غير مستقرة في كاتالونيا المسيحية حتى القرن الخامس عشر[838]. لكن تدمير المجتمع القرّائي الإسباني كان شاملًا لدرجة أن أيًّا من كتاباتهم لم تبقَ، والاسم الكامل لواحد فقط من مفكريها Said Ibn al-Taras (سيد بن التاراس) قد تم حفظه. كل ما هو معروف عن القرّائية الإسبانية يأتي من الكتابات الرافضة لحاخامات القرون الوسطى أو من مراجع متفرقة في النصوص الإسلامية والمسيحية[839]. كما لاحظ باير، أنه بعد هزيمة القرّائية في القرن الثاني عشر، لم تنطوِ الخلافات الدينية اليهودية الداخلية، مهما كانت مريرة، على مساءلة مبدأ التقليد الحاخامي مرة أخرى[840]. تشكل القرّائية اليوم جزءًا ضئيلًا جدًّا من اليهودية. نقاشاتها المعادية للحاخامية، مع ذلك، يتردد صداها في اليهودية المسيانية[841].

من السهل اليوم إدانة اليهودية التقليدية في العصور الوسطى من أجل قضائها على القرّائية الإسبانية. تحقق ذلك بتكلفة بشرية، لكن القرّائية استهدفت التسلسل الهرمي والعقيدة الأساسية للأرثوذكسية: الحاخامية والشريعة الشفوية. علاوة على ذلك، وكما أدرك موسى بن ميمون، كان يمكن للقرّائية أن تفتح الطريق أمام اليهود الطيبين ليسقطوا في أحضان بدعة يهودية أسوأ: المسيحية. من وجهة نظر

اليهودية التقليدية في العصور الوسطى، إذًا، كان الدين الحق مهددًا في جوهره، وبعد الفشل بإقناع الزنادقة بالتخلي عن معتقداتهم الخاطئة وإعادة الانضمام إلى المجتمع اليهودي التقليدي، كان يمكن للقوة فقط أن تشل تهديدهم. وهكذا -مرة أخرى من وجهة نظر الأرثوذكسية في حينه- أنقذ تدمير القرّائية في إسبانيا مستقبل اليهودية التقليدية.

الحالة المسيحية

من ذميين إلى مندثرين

في ظل المسار الطبيعي للأحداث، كانت الممارسات المسيحية (في ظل الأمويين) مسموحة إلى حد بعيد. تم تثبيط العروض العامة المتباهية بالإيمان مثل المواكب وقرع الأجراس، على الأقل في العاصمة، لكن لم يتم تهديد الكنائس أو الأديرة بشكل مباشر.

—*Hugh Kennedy, Professor of History in the Department of Languages and Cultures of the Near Middle East of the* Muslim Spain and Portugal: A Political*University of London,* *(London: Routledge, 1996), 48*History of al-Andalus

هيو كينيدي، أستاذ التاريخ في قسم اللغات والثقافات في الشرق الأوسط بجامعة لندن، إسبانيا الإسلامية والبرتغال: تاريخ سياسي للأندلس (لندن، روتليدج، 1996)، 48.

في عهد عبد الرحمن الثالث كان تسامح المسلمين تجاه من يُسمّون بأهل الكتاب عاليًا، وكان التفاعل الاجتماعي في المستويات العليا سهلًا ومستمرًا.

Jane I. Smith, Associate Dean for Faculty and Academic Affairs at Harvard Divinity School, "Islam and Christendom," *, ed. John L. Esposito,*The Oxford History of Islam*in* *University Professor as well as Professor of Religion and International Affairs and of Islamic Studies at Georgetown University (Oxford: Oxford University Press, 1999), 318*

جين آي سميث، العميد المشارك للشؤون الأكاديمية في كلية اللاهوت بجامعة هارفارد، في "الإسلام والمسيحية" في تاريخ أكسفورد للإسلام، تحرير جون إسبوزيتو، أستاذ جامعي وأستاذ الدين والشؤون الدولية والدراسات الإسلامية في جامعة جورج تاون (أكسفورد، مطبعة جامعة أكسفورد، 1999)،318.

ذات مرة في منتصف القرن الثامن، هجر شاب جريء يُدعى عبد الرحمن منزله في دمشق، قلب الشرق الأدنى للإسلام وانطلق عبر صحراء شمال إفريقيا بحثًا عن ملجأ... كان هذا فصلًا في ثقافة أوروبا، عندما عاش اليهود والمسلمون والمسيحيون جنبًا إلى جنب، على الرغم من ذلك غذت خلافاتهم المستعصية

وعداواتهم المزمنة ثقافة معقدة من التسامح.. لم يسمح النظام الإسلامي الجديد لليهود والمسيحيين بالبقاء على قيد الحياة فقط، وإنما قام عمومًا بحمايتهم تبعًا لتكليف قرآني.

María Rosa Menocal, R. Selden Rose Professor of Spanish and Portuguese and Director of Special Programs in the The Ornament of the World:*Humanities at Yale University,* How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of *(New York: Little, Brown, 2002),*Tolerance in Medieval Spain *5, 11*

ماريا روزا مينوكال، أستاذ كرسي *R. Selden Rose* للغة الإسبانية والبرتغالية ومدير البرامج الخاصة للعلوم الإنسانية في جامعة يال، حلية العالم: كيف خلق اليهود والمسلمون والمسيحيون ثقافة التسامح في إسبانيا في العصور الوسطى (نيويورك، ليتل براون، 2002)، 5،11.

أطلق المسلمون على المسيحيين الإسبان –القوط الغربيين، الذين ظلوا بعد الفتح الإسلامي كمسيحيين خاضعين للهيمنة الإسلامية بدلًا من الهروب إلى الشمال- *Nazarenes* (نصرانيين)، *rumies* (روميين، إشارة إلى سكان الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية)، *al-hamra* (الحمر، بسبب لون بشرتهم الأبيض الوردي)، *mushriks* (المشركين)، *elches* (الكفّار)، *kafirs*، *isawis* (الإيساويين، أتباع يسوع)، *agemies* (البرابرة)، *kuties* (القوطيين)، *aduw* (عدو الله، أعداء الله)، عبدة الأصنام/ الصلبان/ الأوثان، *muahid* (المرء في ظل اتفاق الإخضاع)، وبشكل أعم أهل الذمة (المستفيدون من عقد "الحماية")[842]. اسم مهين استُخدم للإشارة إلى المسيحيين في الكلام الشعبي "خنزير"، كما دعى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين (توفي 1106) الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون (1040-1109) مرتين وفقًا للمؤرخ الإسلامي عبد الواحد المراكشي (1185-1230)، العالم الفارسي الكبير ابن قتيبة (توفي 889) والمعروف جيدًا في الأندلس يذكر كلمة "خنازير" التي تُطبق على المسيحيين بدعابة في أطروحته في الحديث[843]. إسم واحد لم يستخدمه مسلمو الأندلس للإشارة إلى المسيحيين وهو "المستعربون"[844]. كما أن مسيحيي الشمال لم يسموا المسيحيين الذميين في الجنوب بـ"المستعربين". كما أشار المؤرخ Miguel Ángel Ladero Quesada ميغيل آنخيل لاديرو كيسادا سموهم *Spani* أي الإسبان[845].

فقط بعد عام 850 وُجد اسم المستعرب، عندما بدأ أهل الذمة المسيحيون بالفرار (أو "الهجرة" كما يفضل بعض علماء الدراسات الإسلامية بلباقة) من حياتهم الطيبة المفترضة في ظل الأمويين إلى الممالك المسيحية الشمالية. كان هؤلاء

الذميون السابقون قد احتفظوا بالممارسات والطقوس القديمة الغنية التي سبقت الفتح الإسلامي. بالنسبة لمسيحيي الشمال، بدا هؤلاء الذميون السابقون غرباء. تحدث اللاجئون بلهجة رومانسية قديمة لم تتغير كثيرًا منذ عام 711. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يعرفون العربية، والعديد منهم كان لهم أسماء عربية. أظهروا علامات أخرى على أنهم عاشوا خاضعين لحكم المسلمين لأجيال. بدأ المسيحيون الشماليون، مقتفين أثر هؤلاء الذميين السابقين أنفسهم ربما، يطلقون على هؤلاء اللاجئين "muztarabes"، "muzarabes"، "almozarabes" أو "mozarabes" المشتقة جميعها على الأرجح من الكلمة العربية *mustarib*، أو "مُعرّب". في النهاية اعتمد العلماء كلمة "*Mozarab*" ليس فقط للدلالة على المسيحيين الذميين الذين فروا إلى الشمال، ولكن أيضًا المسيحيين الذميين الذين ظلوا تحت الحكم الإسلامي[846].

بالرغم من اسمهم، لم يكن "المستعربون" عربًا بأي شكل. لقد حاولوا، في الواقع، الحفاظ على دينهم ولغتهم وعاداتهم -بعبارة أخرى ثقافتهم- لعدة قرون وفي ظل ظروف سياسية واجتماعية ودينية بالغة الصعوبة. في وقت متأخر من القرن التاسع، كان لدى القديس يولوجيوس القرطبي مكتبة كبيرة حيث أنتج نسخة من *De natura rerum* للقديس إيزيدور الإشبيلي. بينما كانوا يراقبون تدهور كنائسهم وأديرتهم وتدميرها أحيانًا، احتفظ أهل الذمة بذكرى مملكتهم المسيحية المفقودة. هكذا كانت *Chronica mozarabica* لعام 754 لا تزال تشير إلى هذه الأزمنة السعيدة عندما كانت طليطلة التي يحكمها القوط الغربيون مدينة ملكية (عندما كان الأسقف الورع أوجينيو على رأس مدينة طليطلة الملكية..)[847].

مع ذلك، امتثل أهل الذمة حتمًا للثقافة المهيمنة وتبنوا لغة وبعض عادات المسلمين المهيمنين. كان الخيار الوحيد المتاح أمام الرومان – الإسبان، والقوط الغربيين، إن لم يصبحوا ذميين ويدفعوا الجزية أو يفروا للنجاة بحياتهم، هو اعتناق الإسلام. العديد من المسيحيين تحولوا بالطبع.

في الأندلس أشار المسلمون إلى المتحولين إلى الإسلام بـ *musalima* أو *asalima* وإلى أحفاد هؤلاء المتحولين باسم المولدين (المفرد: مولّد، بالإسبانية: مولدي) وهي كلمة مشتقة من لغة مربّي الماشية وتعني "الهجين" أو "المُختلط"[848]. بعبارة أخرى، كان يُنظر إلى حفيد المتحول بوصفه "هجينًا" و"مختلطًا" مختلفًا عن المسلمين العرب الأنقياء. الباحث في الشريعة الإسلامية فيليبي مايلو سالغادو أشار إلى أن التفاوت الاجتماعي للموالي في الشرق الأوسط (موالٍ جمع مولى، غير عربي اعتنق الإسلام، غالبًا عبد سابق، يبقى مرتبطًا بحاميه المسلم العربي بعلاقة الولاء والتبعية) قد أسفر عن بروز الحركة التي أدت إلى سقوط السلالة الأموية في دمشق وصعود السلالة العباسية التي دعمها الموالون الفرس[849]. كما

سنرى، فإن التفاوت الاجتماعي للمولدين، أحفاد المسيحيين السابقين في الأندلس، من شأنه أن يسبب مشاكل مماثلة للسلالة الأموية في قرطبة.

بحلول نهاية القرن الثاني عشر، ونتيجة للهروب أو "الهجرة" إلى الأراضي المسيحية، والطرد إلى
شمال إفريقيا والإعدامات، والتحول إلى الإسلام كان السكان الذميون المسيحيون قد اختفوا إلى حد كبير من الأندلس[850]. عندما دخل المسيحيون غرناطة في 1492 لم يكن هناك ذميون مسيحيون في المدينة.

كما سنرى، تأثرت ثقافة الذميين المسيحية بالثقافة الإسلامية السائدة، كما شكّلت ثقافة الذميين المسيحيين الذين فروا إلى شمال إسبانيا (المستعربين) ثقافة الممالك الكاثوليكية في شمال إسبانيا.

السكان الخاضعون:

التسامح المحدود ولكن الحقيقي الذي تمتع به المسيحيون مستفيدين من ازدهار قرطبة، قد يفسر لماذا لم تحظَ حركة (الشهداء) بدعم شعبي أوسع. ببساطة، أحبت أخوية يوليجيوس المسيحية الأشياء كما كانت عليه. إسحاق وأرجيميريوس وسانكتيوس لم يكونوا المسيحيين الوحيدين المزدهرين في قرطبة. وهؤلاء الذين كانوا يقومون بعمل جيد بالكاد أرادوا أن تُهدد الجماعات المسيحية المتعصبة آفاقهم المهنية.

A Vanished World: Muslims, Christians, and —*Chris Lowney, (New York: Oxford University Press,*Jews in Medieval Spain *2006), 61–62*

كريس لوني: عالم متلاشٍ: المسلمون والمسيحيون واليهود في إسبانيا في العصور الوسطى (نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، 2006)، 61-62.

اعتبر المسلمون في إسبانيا في العصور الوسطى أن الإسلام هو الشكل النهائي والأكثر كمالًا من أشكال الوحي الإلهي. كانوا يعتقدون أيضًا أن "أهل الكتاب" – اليهود والمسيحيين- انحرفوا عن تعاليم كتابهم المقدس بطرق مختلفة جعلتهم أقل شأنًا دينيًا من المسلمين الذين حفظوا الإيمان الحق. بالنظر إلى هذه القناعة بالتفوق، يمكن بالكاد القول إن الإسلام في إسبانيا في العصور الوسطى كان متسامحًا مع الأديان الأخرى. لمنع المعتقدات الأخرى من الطعن في التفوق الديني وبالتالي السياسي والاجتماعي والثقافي للإسلام سعى الحكّام ورجال الدين إلى المحافظة على كل نوع من الهيمنة على "أهل الكتاب".

في بعض الظروف، تولى أهل الذمة المسيحيون بالطبع مناصب افتراضية ذات سلطات متفاوتة حتى مع بقائهم غرباء. جنّد النظام الإسلامي المسيحيين المهرة للعمل كبيروقراطيين أو جنود للسبب نفسه الذي جنّد من أجله الموظفين اليهود المهرة؛ لأنهم سيكونون مخلصين للحاكم المسلم فقط ولأنه لم يكن لديهم ولاء لخصوم سياسيين محتملين وهم مدينون للحاكم بحالتهم الجيدة، والحاكم الذي كان يفتقر إلى معتقد ديني قوي قد يتحول أيضًا إلى المسيحية التي كان يشعر تجاهها بتعاطف شخصي. غالبًا ما يتم تقديم هذا "النجاح" كدليل على أن الحياة المسيحية في ظل الإسلام كانت واعدة. ولكن كما كان الحال بالنسبة لليهود الذين تولوا مناصب ذات سلطة افتراضية في ظل الحكّام المسلمين، اقتصر هذا النجاح على النخب ولم يمتد إلى الجماهير. علاوة على ذلك – حدث هذا بالرغم من، المحاذير الإسلامية، ومن خلال معارضة مباشرة لها وقد خلق الاستياء بين العلماء والسكان المسلمين.

هذه المحاذير (النواهي) الإسلامية، وافتراض التفوق الإسلامي الذي نجمت عنه هذه المحاذير، هي الأمور الحاسمة التي يجب فهمها عند النظر في حالة المسيحيين في إسبانيا الإسلامية. بالتأكيد، لم تُطبق الشريعة الإسلامية في كل مكان وزمان، كما في أي نظام تشريعي آخر، فالنفعية والضرورة والمحسوبية والرشوة وعدم الكفاءة والسياسات وعوامل أخرى يمكن أن تغير الناتج، لكن الجلي أن الشريعة الإسلامية في العصور الوسطى في إسبانيا فرضت شروطًا مهينة على أهل الذمة المسيحيين لضمان بقاء السلطة المطلقة في الأيدي المناسبة. كانت هذه القيود ناجحة تمامًا في أداء الغرض منها، على الأقل لعدة قرون.

بموجب المؤسسة الإسلامية للذمة (أمر أو عقد "الحماية") كان على مسيحيي الأندلس أن يدفعوا ضريبة خاصة "الجزية" مقابل "حماية" يُتوخى منها، كما تبين النصوص التشريعية المالكية، تذكيرهم بخضوعهم. يُعلن موطأ مالك: "الأن الصدقة إنما وُضعت على المسلمين تطهيرًا لهم وردًا على فقرائهم. ووضعت الجزية على أهل الكتاب صَغَارًا لهم"[851]. لذلك يجب دفع الجزية بطريقة مُذلة:

الذمي، واقفًا، يقدم المال لجابي الضرائب المسلم الذي يجلس في موضع أعلى فوق ما يشبه العرش، ربما كان هذا البيروقراطي المسلم يمسك الذّمي من حنجرته قائلًا له: "أيها الذمي، يا عدو الله، ادفع الجزية التي تدين لنا بها مقابل الحماية والتسامح اللذين نقدمهما لك"، ربما يقلّد المسلمون الآخرون الحاضرون جامع الضرائب، وينتهرون الذّمي الذي رافقه أهل الذمة الآخرون. ينبغي لكل مسلم أن يقبل بهذا المشهد المسلي إن أراد الاستمتاع به[852].

كجزء من نظام الذمة، "ضابط الحماية" المسلم ينظم كل الشؤون المتعلقة بالمسيحيين.

كان "نظام الذمة" إذًا "ابتزاز حماية" لصوصيًا "ادفع لقاء الحماية وإلا" وكان ذلك مفيدًا جدًا للحكّام المسلمين. حمو مُحمد ورفيقه والخليفة الثاني عُمر (الخليفة العادل والورع حتى إنه عُرف بالفاروق "الذي يميز بين الصواب والخطأ") أوضح أن نظام الابتزاز هذا كان مُربحًا: كان أهل الذمة أكثر إنتاجية بالنسبة للمسلمين من العبيد لذلك يجب أن يبقوا "محميين" بوصفهم ذميين بدلًا من تصنيفهم كعبيد بالتحديد لأن المسلمين يمكن أن يعيشوا على حسابهم على نحو أفضل بكثير. بعد الاستشهاد بآية من القرآن الكريم:"قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" حذر عُمر أتباعه:

سَمُّوهُمْ وَلَا تُكَنُّوهُمْ، وَأَذِلُّوهُمْ وَلَا تَظْلِمُوهُمْ، وَإِذَا جَمَعَكُمْ وَإِيَّاهُمْ طَرِيقٌ، فَأَلْجِئُوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهَا[853]*

لقد كان انتصارًا رائعًا ورائدًا للبلاغة الإسلامية في العصور الوسطى أن كلمة ذميّ التي تعني "المستفيد من عقد الحماية"[854] "الذمة" –أي فرد "محمي" أو "مستفيد"- قد تم اختيارها لتعريف الضحية العاجزة لنظام الابتزاز المبني على أساس ديني.

إلى جانب الذمة استخدم الفاتحون استراتيجيات أخرى مستوحاة من الشريعة الإسلامية لضمان الهيمنة الإسلامية. انظر في بعض الأوامر من الكتيبات التشريعية المستخدمة في إسبانيا الإسلامية. يجب جلد مسلم اغتصب امرأة مسيحية حرة، في حين يقتل مسيحي اغتصب مسلمة حرة[855]. من قذف مسلمًا حرًا بالغًا عفيفًا بالزنا أو اللواط فعليه الحد، فإن كان حرًا جلد ثمانين جلدة، وإن كان عبدًا جُلد أربعين جلدة، مسلمًا كان أو كافرًا. ولا حد على من قذف عبدًا أو كافرًا ولا صبيًا صغيرًا ولا مجنونًا ولا خصيًا[856]. كان يحق للمسلم كامل الدية (تعويضًا عن الإصابة أو الوفاة ربما) لكن لم يكن يحق للمسيحي سوى نصف الدية[857]. في حين سُمح للمسيحي باعتناق الإسلام، كان ممنوعًا على المسلم، تحت تهديد عقوبة الموت، أن يعتنق دينًا آخر[858]. والكفارة في قتل الخطأ واجبة، ولا كفارة في قتل عمد ولا كافر ولا عبد، وهي عتق رقبة مؤمنة[859]. شهادة الرجال المسيحيين أو النساء المسيحيات لم تكن مقبولة في أي مسألة قانونية تتعلق بالمسلمين فقط[860]. يمكن أن يكون للمسلم عبد مسيحي، لكن لا يمكن للمسيحي أن يكون له عبد مسلم، يمكن للمسلم أن يعاشر أمة مسيحية، لكن لا يمكن للمسيحي أن يعاشر أمة مسلمة[861]. يمكن للمسلم أن يستخدم من أجل وضوئه ماءً سبق أن استخدمه رجل مسلم في حالة نجاسة، لكن ليس ماء استخدمه من قبل رجل مسيحي؛ لأن تلك المياه ستكون ملوثة[862]. لا يُنصح بالمرأة المسيحية كمرضعة لأنها ستكون ملوثة بلحم الخنزير والنبيذ[863].

يمكن الاستشهاد بالكثير من الأمثلة الأخرى. يجب ألا يبادر المسلم بالتحية عند لقاء مسيحي[864]. على القاضي المسلم ألا يستخدم مسيحيًا كحاجب[865]. يجب على المسلم أن يُطعم مسلمًا فقيرًا لكن لا ينبغي له أن يُطعم مسيحيًا فقيرًا[866]. كان على المسلم، في لحظة ما، أن يُحرر عبيدًا مسلمين، لكنه ليس مُلزمًا بتحرير عبيد مسيحيين[867]. يمكن للرجل المسلم أن يتزوج مسيحية حرة، رغم أن ذلك ليس مُستحسنًا، في حين لا يمكن للمسيحي أن يتزوج أو يعاشر مسلمة، سواء كانت حرة أم لا، تحت طائلة الموت. أولاد الرجال المسلمين والنساء المسيحيات يجب أن ينشؤوا كمسلمين، وهي أداة غير ناجعة تمامًا لزيادة تدهور عدد السكان المسيحيين وتعاظم عدد المسلمين[868]. السيد المسلم لعبد مسيحي يمكن أن يزوجه لأمة مسيحية يملكها سيد مسلم، لكن إن اعتنقت المرأة الإسلام كان يُمنع على العبد المسيحي أن يُعاشر الأمة المسلمة الآن[869]. لا يمكن للمسلم أن يتزوج من عبدات مسيحيات لكن يمكنه الزواج من عبدات مسلمات[870].

احتفل المسلمون بدينهم علانية، لكن المسيحيين لم يكن لهم أن يعقدوا مواكب في الشوارع ويجب أن يحتفلوا بدينهم بتحفظ داخل كنائسهم وأحيائهم[871]. في قرطبة الأموية، كان ممنوعًا على المسيحيين المشي بين قبور المسلمين لأن وجودهم قد يلوث قبور المسلمين. الماء والغذاء والملابس والأواني التي لمسها مسيحي ملوثة. في أواخر القرن الخامس عشر في الأراضي التي يسيطر عليها المسيحيون أعلنت الشريعة الإسلامية للمدجنين (المسلمين في ظل الهيمنة المسيحية): "ماءُ مسه كافر، شارب خمر، قطة أو كلب لا يمكن استخدامه من أجل الوضوء، لا تتبنَّ طرق التحدث، آداب أو عادات النصارى، ولا لباسهم ولا تلك الخاصة بأهل المعاصي"[872]. يمكن بناء مساجد جديدة وإصلاح القديمة بحرية، لكن نادرًا ما كان بإمكان المسيحيين أن يبنوا كنائس جديدة أو حتى إصلاح الكنائس القديمة وقطعًا ليس دون إذن المسلمين. يمكن للمساجد أن تنتصب بفخر في المدن الإسلامية لكن الكنائس المسيحية يجب ألا تتحدى المساجد بالانفتاح على الطرق الرئيسة. يمكن للمساجد والمباني الإسلامية الأخرى أن تكون عالية بقدر ما هو ممكن من الناحية المعمارية، لكن لا يمكن لكنيسة كاثوليكية أو المباني المسيحية الأخرى أن تعلو فوق المباني الإسلامية. المساجد لا يمكن تحويلها إلى كنائس، لكن الكنائس يمكن، وقد تم تحويلها في كثير من الأحيان إلى مساجد. يمكن للمؤذن أن يدعو إلى صلاة المسلمين بصوت عالٍ، لكن لم يكن بوسع المسيحيين أن يقرعوا أجراس كنائسهم. كان يمكن للمسلمين التبشير، لكن ذلك لم يكن ممكنًا للمسيحيين. يمكن للمسيحيين أن يخضعوا لأحكام الشريعة الإسلامية إذا أرادوا ذلك، لكن المسلمين كانوا ممنوعين من فعل العكس. لا يستطيع المسيحيون أن يعرضوا الصلبان على أنفسهم. لا يمكن للمسيحيين عرض صلبانهم في الخارج أو أعلى كنائسهم. لم يكن يمكن للمسيحيين أن يعرضوا فنًا تشخيصيًا على الجدران الخارجية لكنائسهم كما لم يكن بمستطاعهم ارتداء ملابس شبيهة

بملابس المسلمين. يجب على المسيحيين ارتداء علامات مميزة. يجب على المسيحيين الوقوف في وجود المسلمين.

لا يمكن للمسيحيين ممارسة السيادة السياسية بأي شكل من الأشكال. يجب على المسيحيين ألا يحملوا أسلحة. لا يجوز لهم ركوب الخيول في المناطق الإسلامية، وهو حظر ملحوظ كرره الأتراك المسلمون أثناء احتلالهم اليونان، حيث لم يكن بوسع الرعية الأرثوذكس اليونانيين ركوب الخيول، وإنما الحمير فقط، وكان عليهم الركوب بشكل جانبي حتى يتمكنوا من النزول بسهولة والركوع أمام المسلمين[873]. لاحظ الإمام مالك متفقًا مع الخليفة الثاني عمر: "أرى أن يُلزم النصارى المناطق، وقد كان يُفعل بهم ذلك قديمًا، وأرى أن يُلزموا الصغَار، وكتب عمر أن يركبوا على الأكف عرضًا"[874]. خلال فترة معينة من الحكم الأموي في إسبانيا، فرضت السلطات المسيحية الختان القسري على الذكور المسيحيين"[875].

إلى هذه الأساليب في قمع الذميين عمدًا وإذلالهم يجب على المرء أن يضيف الضرائب التي يمكن للحكام المسلمين فرضها اعتباطيًّا لتتراكم فوق الجزية، بدافع من حاجة الحكّام الدائمة للمال من أجل الحفاظ على أسلوب حياتهم المتفاخر، الشعراء، والمثقفين والعبيد والقصور والحريم وبرامج زخرفة المدن[876]. حتى المستعربون الإسبان المتعاطفون مع إسبانيا الإسلامية يدركون أن الإجراءات القاسية التي سجلها الفقيه ابن عبدون في إشبيلية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تتفق مع تعاليم الفقه المالكي في العصور الوسطى فيما يتعلق بالطريقة الصحيحة لإبقاء أهل الذمة في "حالة من الذل والإذعان أو التمييز المُتحمّل"[877].

باختصار، على عكس ما هو شائع، فإن مؤسسة الذمة في إسبانيا الإسلامية لم تكن سخية في منح المسيحيين الاستقلال الديني. لقد حدّت في الواقع من ممارساتهم الدينية بطرق عدة، وجردت المسيحيين الخاضعين من أي إمكانية لبلوغ السلطة السياسية. متقلصين في النهاية إلى وضع الأقلية، رأى أهل الذمة المسيحيون أعدادهم تتناقص ببطء نتيجة للتحولات "اعتناق الإسلام" التي مثلت وعدًا بالخلاص من القيود المُذلة للتشريعات الإسلامية والضرائب الخاصة وكنتيجة أيضًا للتشريعات الإسلامية التي -على سبيل المثال- أجبرت أطفال رجل مسلم وأم مسيحية أن ينشؤوا كمسلمين، والتي سمحت للرجل المسلم أن يكون له أطفال مما يربو على أربع زوجات والعديد من الإماء بقدر استطاعته[878].

كان وضع المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي في إسبانيا الإسلامية مُشابهًا للحالة المفترض أنها "مُعتدلة" للأرثوذكس اليونانيين *raya* في ظل الحكم التركي الإسلامي: على حد تعبير المؤرخين John S. Koliopoulos و.Thanos M Veremis فقد تم التسامح مع المسيحيين الأرثوذكسيين اليونانيين طالما قبلوا

المكانة الدنيا "للرعية" وطالما كانوا مستعدين لطاعة الحاكم الذي فرض عليهم تلك المكانة المتدنية"[879].

وهكذا فإن "تسامح" الأندلس الذي نال الكثير من الثناء كان جزءًا من النظام الإمبريالي الإسلامي لفصل المسيحيين وإخضاعهم. كان يمكن للمسيحيين ممارسة دينهم، ولكن فقط بشروط الإسلام. ظل رجال الدين والحكّام المسلمون مسيطرين بفعالية على الأمور الدينية ولأن الدين أحاط بكل شيء ظلوا مسيطرين بفعالية على كل شيء.

نظام "الحماية" في الواقع كان نظام تسخير واستعباد. كل التفاصيل المرهقة للتمايز والإخضاع العملي اليومي نبعت من الافتراضات العامة للهيمنة الدينية وبالتالي السياسية للإسلام وعُززت بها.

بدأت الفتوحات الإسلامية في العصور الوسطى هذه العملية من الإخضاع بطريقة ممنهجة تمامًا. بعد أن تكون القوات الإسلامية قد غزت مكانًا، واختارت عاصمة، كانوا يتوقفون خلال تقدمهم من أجل إخضاع المغلوب[880]. جميع أشكال التمايز والاستعلاء المختلفة بما في ذلك تكثير المساجد والقيود على الكنائس والعبادة المسيحية العامة، عززت التحول والأسلمة دون حاجة إلى اللجوء إلى التحول القسري، بينما في الوقت نفسه كانت تعزز سلطة الفاتحين.

كان للاستعمار الإسلامي حليف آخر تمثل في الحاجة الملحة لاستخدام اللغة العربية. كانت اللغة العربية لغة النصوص الإسلامية المقدسة والطقوس المصاحبة؛ لذلك، كان على المتحولين أن يتعلموا اللغة العربية التي عززت من التثاقف، لكن اللغة العربية حلت تدريجيًّا محل لغة أهل الذمة المستعمَرين الذين ظلوا مسيحيين؛ لأن هؤلاء الذميين وجدوا أن من الضروري التحدث باللغة العربية وقراءتها وكتابتها في معاملاتهم التجارية والسياسية والاجتماعية. في الواقع، من أجل جعل حيواتهم أكثر سهولة في مجتمع يهمين عليه المسلمون، تبنى أهل الذمة المسيحيون أسماء عربية وحتى ارتدوا ملابس مثل المسلمين عندما تمكنوا من ذلك.

كما لوحظ في الفصل الأول، تبنى الفاتحون المسلمون التكتيك الاستعماري الشائع بإعادة تسميتهم للقرى والبلدات والمدن والمعالم الجغرافية ومنحها أسماء عربية جديدة. في إسبانيا غيروا اسم الأرض *España*- المشتق من الاسم اللاتيني *Hispania* واللاتينية المتأخرة *Spania*- إلى الأندلس، وهي على الأرجح تحريف للكلمات اليونانية "جزيرة أتلانتس" Ατλαντίσ νησος[881].
وبالتالي، يُظهر تاريخ الفتوحات الإسلامية انحدارًا سريعًا في لغات السكان الخاضعين. في القرن السادس عشر، بعد الاسترداد، تفاخر موريسكي –مسلم من المفترض أنه تحول إلى المسيحية- بأن "المصريين والسوريين والمالطيين

والسكان المسيحيين الآخرين يتكلمون ويكتبون ويقرؤون باللغة العربية"[882]. في الشرق الأوسط، اختفت اللغات ما قبل الإسلامية فعليًا، باستثناء الفارسية. في شمال إفريقيا، تم تهميش الثقافات واللغات البربرية بسرعة. في إسبانيا الإسلامية، كان اليهود يتكلمون ويكتبون العربية مرجحينها على العبرية. بمرور الوقت وبالرغم من جهودهم للحفاظ على ثقافتهم، أصبح أهل الذمة المسيحيون مُعربين باعتمادهم اللغة العربية، والملابس العربية متى ما كان مسموحًا.

استراتيجية الهيمنة ذات الفاعلية الأكبر تمثلت في تحويل المتاع الثقافي الأهم للمستعمَرين: دور عبادتهم. تحويل المعابد المسيحية إلى مساجد كان معيارًا مُحبطًا وسمة للهيمنة في الفتوحات الإسلامية. استُخدمت هذه الاستراتيجية في القرنين السابع والثامن في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وهي أراضٍ كانت مسيحية إلى حد بعيد لقرون عديدة في ظل الإمبراطورية الرومانية اليونانية[883]؛ لأن الإسلام لن يسمح لأي معبد مسيحي أن يعلو فوق مسجد، تحولت البازيليكا اليونانية الرائعة في مدن الشرق الأوسط المسيحي وشمال إفريقيا إلى مساجد. أفضل مثال على ذلك هو الجامع الأموي الكبير في دمشق والذي شُيد في موقع البازليكا اليونانية للقديس يوحنا المعمدان التي تم هدمها وتفكيكها في أوائل القرن الثامن.

ومثلما حدث، مسجد دمشق الرائع البناء بناه وزينه عمال ومعماريون من الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. حتى مآذنها، وفقًا للجغرافي الفارسي ابن الفقيه (903) كانت في الأصل أبراج مراقبة في البازيليكيا اليونانية للقديس يوحنا المعمدان. كل هذه التأثيرات تعلل المظهر "البيزنطي" للمسجد[884]. كما بنى عمال ومعماريون يونانيون مسجد الخليفة عمر في القدس (المسجد الأقصى) في عام 688 ومسجد العمران الأقدم في القاهرة[885]. في القرون الأولى للإسلام سعى الحكّام المسلمون إلى نسخ المعالم العمرانية الخارجية للكنائس المسيحية في مساجدهم لغرض صريح هو تقزيم تلك الكنائس[886].

إذا ما أبدت مدينة مسيحية مقاومة عسكرية، فإن تحويل المعابد المسيحية إلى مساجد يحدث سريعًا بعد الاستيلاء على المدينة. يسجل الواقدي المؤرخ المسلم من القرن التاسع أنه خلال غزو مصر حولت القوات المسلمة كنيسة قبطية إلى مسجد في مدينة حيث قاومت القوات اليونانية[887]. بعد فترة وجيزة من نزول القوات المسلمة في إسبانيا، احتلوا المدينة القديمة Carteya كارتيا، معقل القوط الغربيين، ودمروا كنيستها وبنوا في تلك البقعة مسجدهم الأول. بعد الاحتلال الإسلامي، اختفت كارتيا من التاريخ[888]. نفذ الفاتحون المسلمون الاستراتيجية ذاتها في جميع أنحاء إسبانيا.

يتجلى أفضل مظهر لاستراتيجية الهيمنة هذه في المسجد الأموي في قرطبة، الذي كان كاتدرائية قرطبة منذ القرن الثالث عشر. كما رأينا، تم بناء هذا المسجد المشهور في القرن الثامن بعد أن دمر الأمير عبد الرحمن الأول كنيسة سان فنسنت القديمة، الكاتدرائية الرئيسة في قرطبة. سُمح للمسيحيين الذين بقوا بلا كنيسة، ببناء كنيسة أصغر ولكن خارج أسوار المدينة. تؤكد التحقيقات الأخيرة من قبل علماء الآثار مثل بيدرو مارفيل أن مسجد قرطبة شُيد بأعمدة، وتيجان أعمدة وغيرها من المواد البارزة التي تم تفكيكها من الكنائس المسيحية والمباني الرومانية بما في ذلك كنيسة سانت فنسنت[889].

لم تتوقف هذه العملية عند عبد الرحمن الأول. حينما تشير السجلات التاريخية إلى الكنائس المسيحية في إسبانيا، يكون ذلك لتتباهى بتحويلها إلى مساجد أو بتدميرها التام كرمز للهيمنة الإسلامية على المشركين، كما كان يُسمى المسيحيون لأنهم صلوا وركعوا أمام الأيقونات وتماثيل مريم العذراء ويسوع المسيح والقديسين والملائكة وكذلك الصليب[890]. تم تدمير الكنائس كجزء من اضطهاد المسيحيين في عهد الحاكم الأموي محمد (حكم 852-886)[891]. في أواخر القرن العاشر، كان المنصور مُضرم حرائق سيئ الصيت للكنائس المسيحية خلال حملاته العسكرية، وإضافاته إلى مسجد قرطبة، كما أخبرنا المقري، بُنيت بمواد الكنائس المهدمة التي جُلبت إلى قرطبة على رؤوس الأسرى المسيحيين[892]. حتى أواخر عام 1195 كان المسلمون خلال حملاتهم العسكرية لا يزالون يحولون الكنائس المسيحية في الأراضي الإسبانية المحتلة إلى مساجد كعلامة على الهزيمة والامتثال المسيحيين[893]. يؤكد المؤرخون المسلمون، أن تدمير الكنائس المسيحية والتماثيل والآثار المسيحية، يُشبه الجزية، إذ كان القصد منه إذلال "أهل الكتاب" والتأكيد على الهيمنة الإسلامية[894]. قد يُسمح للمسيحيين المُتضرعين بإصلاح مباني كنائسهم المتداعية، ولكن فقط عندما يلائم ذلك الحكّام المسلمين. نتيجة لذلك، كان منح الإذن للذميين المتواضعين لإصلاح معابدهم فعالًا بنفس القدر في تذكير المسيحيين بأنهم باقون دائمًا تحت رحمة محتليهم.

كما يشهد العديد من المؤرخين المسلمين، رافق التابعون الجيوش الإسلامية التي غزت إسبانيا للإشراف على أسلمة الإقليم[895]. كان التابعون قديسين تمتعوا بمكانة عظيمة لأنهم تدربوا على يد الجيل الأول من صحابيي النبي. كانوا مسؤولين عن الإشراف على الجانب الديني في كل فتح إسلامي، مثل تأسيس المساجد وتأهيلها الصحيح وكذلك توزيع الغنائم والأراضي حسب المبادئ الإسلامية. هؤلاء الرجال، فقط بعد بضعة أجيال من مُحمد وتعاليمه الشخصية، سيشرفون على العملية الأولى التي أزاح الإسلام من خلالها الثقافة المسيحية من السلطة في إسبانيا.

بعد انتصار المسلمين على الكفار، كان أمر بقاء المسيحيين المهزومين على قيد الحياة أو موتهم متروكًا تمامًا للزعيم المسلم. تذكر من الفصل الرابع، رواية ابن حيّان عن قيام أحد ضباط عبد الرحمن الثالث بقطع رؤوس مئة سجين مسيحي في قرطبة على مرأى من المسلمين الخارجين من المسجد بعد صلاة الجمعة[896].

كانت العبودية البديل الطبيعي الآخر للمسيحيين الذين تم أسرهم في المعركة. مع أن النساء والأطفال لا ينبغي قتلهم، إلا أنه يمكن استرقاقهم شرعًا.

التسامح بين أهل الذمة المسيحيين:

تمت معاملة كل من اليهود والمسيحيين الذين كانوا "أهل الكتاب" على نحو حسن، بصرف النظر عن الضرائب، وسُمح لهم بالعبادة بحرية، مع القليل من القيود؛ إذ لم يكن بوسعهم قرع أجراس كنائسهم. ارتدى اليهود والمسلمون والمسيحيون ملابس متشابهة، وحضر المسلمون غالبًا الاحتفالات المسيحية. هؤلاء المسيحيون الذين عاشوا بطرق عديدة مثل المسلمين كانوا معروفين باسم المستعربين، المشتقة من الكلمة العربية *musta'rib* مستعرب وتعني مُعرَّب.

موجز تاريخ الأندلس، على الموقع الإلكتروني المزدحم *http:// home.earthlink.net/~lilinah/Library/HistoryAndalus.html*

لم تعد هناك ثقافة تسامح فيما بقي من المجتمع المسيحي في إسبانيا الإسلامية أكثر مما كان يوجد في المجتمعين الإسلامي أو اليهودي[897]. مثل الطائفة السفاردية اليهودية، حكم أهل الذمة أنفسهم من خلال قوانين إقصائية بدافع الخوف من "الآخرين". استمرت هذه القوانين من زمن حكم القوط الغربيين في إسبانيا.

بعد تحول الملك ريكارد إلى الكاثوليكية (تم التحويل رسميًا عندما عقد مجلسًا كنسيًا ثالثًا عظيمًا في توليدو عام 589)، أضاف قانون القوط الغربيين أحكامًا ضد البدعة الوحيدة المعروفة في المملكة قبل الغزو الإسلامي: الآريوسية، التعاليم المسيحية للقس آريوس. (كان ريكارد قد تحول من الآريوسية). حظر قانون القوط الغربيين استخدام العقيدة الآريوسية في الكنائس ومنع الآريوسيين من شغل المناصب العامة. كما عاقب نظام القوط الغربيين بالنفي الأساقفة الآريوسيين السابقين، الذين تمردوا عسكريًا على التاج بالتواطؤ مع نبلاء القوط الغربيين: تم نفي بعض الأساقفة داخليًا (إلى دير مثلًا) وأرسل بعضهم الآخر إلى إفريقيا[898]. من الجدير بالملاحظة أن عقوبة الموت لم تكن جزءًا من قانون القوط الغربيين العقابي بحق الهراطقة الآريوسيين.

تضمن قانون القوط الغربيين أيضًا العديد من القواعد ضد الجالية اليهودية، كان القصد منها جعل هذه الجالية تختفي في النهاية. وضعت هذه الأحكام اليهود على أساس غير متكافئ بالنسبة للكاثوليك[899]. بعد تحول ريكارد أصدر المجلس الثالث في توليدو (589) والمجالس اللاحقة عددًا من الشرائع التي أعادت صياغة القوانين القديمة المتعلقة باليهود وخلقوا شرائع جديدة. حقيقة أن أهل الذمة المسيحيين، في ظل الحكم الإسلامي، لم يعد يمكنهم تطبيق جميع شرائع القوط الغربيين السابقة المعادية لليهود لم تساهم في التعايش المتناغم، أفضل ما يمكن توقعه كان نوعًا من التأقلم على مضض.

هنا مرة أخرى، كما هو الحال في جميع الأنظمة التشريعية، لم تكن هذه القوانين تُطبق في كل مرة في مملكة القوط الغربيين وفي كل مكان. مرارًا وتكرارًا، يجد المرء مجالس كاثوليكية تتناول قضايا كان من المفترض أن تحلها شرائع المجالس السابقة، مثل انتهاك المسيحيين للقوانين ضد اليهود[900]. مؤرخ العصور الوسطى لويس أ غارسيا مورينيو جادل بأن الانتهاكات تشير إلى أنه لم يكن ثمة معاداة مُعممة للسامية بين السكان المسيحيين؛ لأن المسيحيين من كل الأحوال الاجتماعية كانوا مستعدين لحماية اليهود على الرغم من الشرائع، كما أشار أيضًا إلى أن العديد من القوانين كانت موجودة في ظل الآريوسية القوطية، قبل تحول ريكارد إلى الكاثوليكية[901]. عندما غزا المسلمون إسبانيا في أوائل القرن الثامن، وجدوا أن الجالية اليهودية لا تزال قوية بشكل كاف، على الرغم من كل القوانين الشاقة لإجبارهم على التحول، ليصبحوا حلفاء في غزو العالم المسيحي؛ لذلك لا بد أن العديد من القوانين القوطية المعادية لليهود كانت معلقة بمرور الوقت، أو أنها لم تكن منفذة بشكل جيد أو مطبقة بطريقة مرنة أو أنها لم تكن مطبقة بسبب الرشوة[902] أو أنها خلافًا لذلك لم تكن فعالة تمامًا.

مع ذلك، من المهم فهم هذه القوانين لأنها تشير إلى الإطار القانوني غير المواتي الذي عاش فيه اليهود في إسبانيا القوطية. علاوة على ذلك، تعطي هذه القوانين فكرة عن الكيفية التي نظر من خلالها المجتمع المسيحي في إسبانيا الإسلامية، والذي أتبع التشريع القوطي، إلى اليهود عمومًا خاصة بعد اصطفافهم إلى جانب الغزاة وتمتعهم -لبعض الوقت على الأقل- بموقع التفوق. "سفر المزامير الذي ألفه حفص القوطي" (نتاج الأدب المستعربي في التأريخ العربي من القرن التاسع أو العاشر) مثال على العداء المزمن لبعض أهل الذمة المسيحيين تجاه الجالية اليهودية[903].

النظام التشريعي الذي حكم بموجبه أهل الذمة المسيحيون أنفسهم في إسبانيا الإسلامية تم جمعه في كتيبات بما في ذلك *Lex visogothorum* (506) و*Liber iudiciorum* (694). تضمنت قوانين القوط الغربيين أوامر قضائية ضد الارتداد عن المسيحية إلى اليهودية، ضد زواج اليهود من المسيحيين، ضد حماية

اليهود، وضد الأكل مع اليهود والعيش معهم في المنزل ذاته وضد الاستحمام في نفس الحمامات. منعت القوانين اليهود أيضًا من التبشير وشغل المناصب العامة، من امتلاك وشراء وبيع العبيد المسيحيين، إجراء الختان، الاحتفال بالأعياد اليهودية علانية، الاحتفاظ بالكتب اليهودية التي يُعتقد أنها تستخف بالمسيحية (بما في ذلك التلمود)، ممارسة قوانين النظام الغذائي، بناء معابد يهودية جديدة، واضطهاد المتحولين اليهود (المرتدين) إلى المسيحية[904]. فرض القوطيون ضرائب خاصة على اليهود أيضًا. كان الموت عقوبة مخالفة هذ القوانين في كثير من الأحيان.

يجب تعميد الأطفال المولودين من زواج مسيحي ويهودي. يشير هذا القانون إلى أن هذا التزاوج الممنوع أو المعاشرة غير الشرعية قد حدثا وإن نادرًا، قبل الغزو الإسلامي، على الرغم من المحظورات القانونية ضده. علاوة على ذلك، نصت شرائع المجالس المختلفة على أن الفتيات المسيحيات يجب ألا يتزوجن أو يكن عشيقات لهراطقة غير تائبين، يهود ومنشقين: على سبيل المثال، القانون الرابع والستون لمجلس طليطلة الثالث (589) والقانون الثالث والستون لمجلس طليطلة الرابع (633).

يمكن للمرء أن يلاحظ بعض أوجه الشبه بين المسلمين والمسيحيين واليهود في الممارسات الإقصائية. على سبيل المثال التشريع القوطي ضد الزواج المختلط لم يكن مختلفًا عن القانون اليهودي في العصور الوسطى، إذ رفض كلاهما كل أنواع الزواج المختلط. مع ذلك، حددت الشريعة الإسلامية استثناءً: سمحت للرجل المسلم بالزواج من مسيحية حرة. القانون القوطي الغربي الذي ينص على عقوبات جسدية بحق المتهودين *judaizantes* (الذين مارسوا اليهودية أو روجوا لها لكنهم كانوا أو أصبحوا مسيحيين) لم يكن يختلف في المغزى عن القوانين الإسلامية أو اليهودية ضد المرتدين والمبشرين والتي تنص على المقدار ذاته من العقوبات الجسدية أو حتى عقوبات أقسى بما في ذلك الإعدام. القانون الذي يفرض ضريبة خاصة على اليهود ثمة ما يعادله في الجزية لدى الإسلام، لم يكن ثمة ما يعادله في القانون اليهودي. القانون القوطي الغربي الذي كان يمنع اليهود من شغل مناصب عامة كان مشابهًا للقانون الإسلامي الذي يمنع غير المسلمين من تولي مناصب ذات سلطة على المسلمين. وهو يشبه القانون اليهودي الذي يمنع غير اليهود من شغل مناصب عامة في مملكة يهودية. أخيرًا، القانون القوطي الغربي الذي يمنع اليهود من امتلاك عبيد مسيحيين لم يكن يختلف عن القوانين الإسلامية التي تمنع غير المسلمين من امتلاك عبيد مسلمين والقوانين اليهودية التي تمنع غير اليهود من امتلاك عبيد يهود.

ولكن من الأهمية بمكان أن هذين القانونين اليهوديين الأخيرين (وغيرهما) كانا غير قابلين للتطبيق، لأن اليهود لم يكن لديهم مملكة خاصة بهم. كما رأينا، أن

الظروف المعادية لليهود التي كانت سائدة في إسبانيا في ظل السيطرة الإسلامية والمسيحية لم يكن لها بالضرورة ما يعادلها لدى الجالية اليهودية، التي لم تمارس أبدًا هيمنة مماثلة على المجتمعات الدينية الأخرى.

اختلف العلماء في محاولة شرح أسباب التشريع المعادي لليهود لدى القوط الغربيين[905]. يمكن إرجاع عدد قليل من القوانين إلى الإمبراطورية الرومانية، وخاصة بعد إعلان الإمبراطور ثيودوسيوس (وليس قسطنطين كما يُكرر عادة) المسيحية دينًا رسميًا في عام 380. جادل بعض العلماء أن التشريع يعكس خوف المسيحيين من الجاذبية الدينية لليهودية بالنسبة للمسيحيين أو لليهود المتحولين إلى المسيحية والذين ربما تعرضوا للإغواء أو أجبروا على الارتداد. وجهة النظر ذات الصلة تشرح القوانين باعتبارها انعكاسًا لوجهات النظر الشعبية القديمة لليهود بوصفهم قتلة يسوع (ومضطهدي المسيحيين الأوائل) والذين يجب أن يُسمح لهم، رغم ذلك، بالوجود كأمثلة على الحياة التعيسة التي تنتظر الناس الذين يرفضون يسوع. قد يرتبط بهذا المعرفة بتحالف اليهود مع الفرس في عهد ملك القوط الغربيين سيسبوث (612-621) ضد الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية والدور المحتمل لليهود في المذبحة التي وقعت بحق المسيحيين في القدس بعد أن سقطت المدينة في أيدي الفرس عام 614 (انظر الفصلين الأول والسادس)[906].

جادل علماء آخرون أن التشريع ساء فقط بعد اتهام ملك القوط الغربيين Egica إجيكا (687-702) لليهود بالتآمر مع إخوانهم في الدين في إفريقيا ليغزو المسلمون المملكة: فرض إجيكا استعباد جميع اليهود الذين لم يتمكنوا من إثبات أنهم مسيحيون. مرة أخرى، ربما كان إجيكا على علم بالتحالف بين اليهود والمسلمين في الفتح الإسلامي للشرق الأوسط المسيحي (طلب البطريرك Sophronius الحماية ضد اليهود كشرط لتسليم القدس للقائد المسلم). قد تكون مخاوف إجيكا مُستمدة جزئيًا من كتابات وأفكار عدو متحمس لليهودية السرية، المطران جوليان من توليدو (والذي جاء هو نفسه من عائلة من اليهود المخلصين ممن تحولوا إلى المسيحية وأصبحوا كبار الأساقفة في الكنيسة الكاثوليكية في مملكة القوط الغربيين بأكملها من 680 إلى 690)[907].

أعطى علماء آخرون تفسيرًا اقتصاديًا: أن الظروف الاقتصادية الميسورة لليهود (الذين، تمتعوا ببساطة وبحكم كونهم أساسًا من سكان الحضر بمستوى معاشي أعلى من معظم السكان الفلاحين المسيحيين) أثارت حسدًا غير مسيحي إلى حد ما. جادل آخرون بفرضية ذات صلة: استاءت الجماهير المسيحية من التأثير السياسي والاجتماعي الذي حققه بعض اليهود على الملكية والنبلاء. وفقًا لعلماء آخرين: كان القوط الغربيون عازمين على معالجة التفكك السياسي والاجتماعي للمملكة، وبالتالي، حاولت الملكية بالتعاون مع الكنيسة، بعد تحول ريكارد، خلق

ظروف صعبة من شأنها أن تدفع اليهود ليصبحوا مسيحيين من أجل تعزيز الوحدة والتماسك الاجتماعي للمملكة.

لكن علماء آخرين جادلوا أن القوط الغربيين في إسبانيا أظهروا أحيانًا، في عصرهم، احترامًا نسبيًا للمعتقدات الأخرى. أشاروا إلى أنه بموجب نصيحة القديس إيزيدور أوضح المجلس الثالث في توليدو(589) أن الهراطقة لا ينبغي أن يقتلوا وأن اليهود لا ينبغي أن يُجبروا على التحول (على الرغم من أن الهراطقة واليهود الذين ارتدوا عن المسيحية قد لُعنوا)[908]. وبالمثل، كان الأساقفة معارضين عمومًا للتحويل القسري، حتى إنه تم إعطاء بعض القادة اليهود فرصًا لاتهام أسقف باستخدام القوة والخداع لدفع اليهود إلى اعتناق الكاثوليكية. وقد أشار العلماء أيضًا إلى التعايش المفترض بين اليهود والمسيحيين في ميريدا، وهو التعايش المُصور في *Vidas de los santos padres emeritenses*. حتى إن الملك إجيكا، بوصفه جزءًا من مجلس توليدو السادس عشر، قد منح اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية الامتيازات غير العادية للنبلاء والشرفاء المسيحيين التي تعفيهم من الضرائب، لجعلهم مثالًا لليهود المتمردين في مزايا أن يصبح المرء مسيحيًا مخلصًا. يكتب غارسيا مورينيو:

ببساطة، من خلال الاعتراف بأنهم كانوا مسيحيين ومن خلال المشاركة علنًا في الاحتفالات المسيحية فإن هؤلاء المارانوس *marranos* (يهود تحولوا إلى المسيحية مُشتبه بأدائهم اليهودية سرًا) سيُعتبرون على قدم المساواة مع المسيحيين في كل شيء وبالتالي يمكنهم أن يُشاركوا بحرية في الأنشطة التجارية بما في ذلك التجارة الخارجية المربحة. كانت العقوبات محجوزة لهؤلاء الذين ارتدوا إلى "اليهودية" ولأولئك الذين رفضوا إبراز المظاهر الخارجية لإيمانهم. عوقبت المجموعة الأولى بتجريدها من كل ممتلكاتها، في حين تم استبعاد المجموعة الثانية من أي نشاط مُربح مما يعني ضمنًا التعامل مع المسيحيين، وكان عليهم دفع ضرائب خاصة، فضلًا عن ذلك، سوف يفقدون جميع الممتلكات التي ربما حصلوا عليها خلال الوقت الذي كان من المفترض أن يكونوا فيه مسيحيين، حيث من المفترض أن تُعطى تلك الممتلكات على الأرجح لمن يريده الملك. أولئك الذين تجاوزوا هذه القوانين سيصبحون عبيدًا للحكومة. أولئك المسيحيون الذين شاركوا في مثل هذه التجاوزات أو قاموا بحمايتها سيعاقبون بشدة، إذا كان نبيلًا سيتعين عليه أن يدفع غرامة كبيرة وقدرها ثلاثة جنيهات من الذهب، أو ثلاثة أضعاف قيمة المعاملة التجارية غير القانونية، إذا كان المسيحي من أصل متواضع يجلد مئة جلدة وتُصادر ممتلكاته على النحو الذي يحدده الملك[909].

بحلول العام التالي، كانت مقاربة إجيكا لتحويل اليهود قد ازدادت تصلبًا، عازمًا على تدمير تماسك الـ *aljamas* (المجتمعات اليهودية المتمتعة بالحكم الذاتي) أصدر مرسومًا يقضي بإجلاء واستعباد كل المارانوس ذوي الإيمان المسيحي

المشكوك فيه وتقسيم عائلاتهم. يعتقد بعض العلماء أن ابنه Witiza ويتسا (توفي 710 الذي تبعه رودريغو آخر ملوك القوط الغربيين) ربما عكس مرسوم إجيكا ضد اليهود[910]. تتحدث The*Chronica mozarabica* لعام 754 بشكل مؤكد عن منح ويتسا العفو للأشخاص المنفيين من قبل إجيكا، موافقًا على عودتهم كتابعين وإرجاع ممتلكاتهم المصادرة إليهم[911].

مع ذلك، مهما كان السبب وراء قوانين القوط الغربيين المعادية لليهود ووراء فشلهم النهائي في تحويل اليهود إلى المسيحية أو تمزيق المجتمعات اليهودية، فإن الحقيقة غير القابلة للجدل هي أن التشريع خلق حالة من العداء لمملكة القوط الغربيين. قاد هذا التشريع إلى العديد من حالات التحويل المزورة بين اليهود الذين أرادوا أن يبقوا في إسبانيا ويهربوا من القوانين ويبقوا على ممارستهم لليهودية سرًا. وساعد الاستياء في النهاية في اصطفاف الجالية اليهودية إلى جانب الغزاة المسلمين.

أما بالنسبة للسكان المسيحيين، فقد شجع التشريع وربما عكس مواقف سلبية تجاه الجالية اليهودية. من المرجح أن مثل هذه المواقف استمرت في ظل الحكم الإسلامي، حتى لو لم يعد من الممكن تطبيق التشريع القوطي. بعد كل شيء، استمر أهل الذمة المسيحيون في حكم أنفسهم وفقًا لقوانين القوط الغربيين، وقد تذكروا بالتأكيد الدعم الذي قدمته الجالية اليهودية للغزاة المسلمين وما نتج عن ذلك من تفضيل تمتع به بعض القادة اليهود (ولو لبعض الوقت). لم يساهم أي من هذا في التسامح والتعايش المشترك بين المسيحيين وأهل الذمة اليهود في إسبانيا الإسلامية.

التأثير الثقافي المسيحي:

في عهد عبد الرحمن الثالث، برز نوع من الثقافة الإسلامية المنفتحة على تيارات متعددة من التأثير والتكامل، غذت هذه التيارات ما يمكن أن يُسمى، تبعًا لمارشال ج. هودجسون، ثقافة إسلامية.

دليل إدنبرة للثقافة العربية بالإنجليزية: سياسات الأدب والثقافة الأنجلو عربي والعربي الأمريكي، *ed. Nouri Gana (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), 208*

الذميون الذين فروا إلى الممالك الشمالية المسيحية واجهوا بشكل متكرر قانون القوط الغربيين ذاته الذي حكموا أنفسهم بموجبه في ظل الإسلام. استمر قانون القوط الغربيين هذا بإعطاء القانون الإسباني معنى لقرون عديدة. تذكر أن *Fuero juzgo* (نحو 1241) كان بالأساس ترجمة للكتيبات القانونية القوطية في القرنين السادس والسابع. علاوة على ذلك، فإن "القانون الهائل ذا الأجزاء

السبعة" من قبل ألفونسو العاشر (انتهى في 1256) وإن كان يُقصد به أن يحل محل *Fuero juzgo* فقد تضمن التشريع القوطي بالإضافة إلى الأفكار الأرسطية، القانون الروماني، الكتاب المقدس، كتابات القديس أوغسطين وعناصر من *fueros* (القوانين والحقوق الممنوحة من قبل العاهل الإسباني إلى مناطق معينة من المملكة)[912]. وهكذا تم توحيد الكثير من سكان إسبانيا المسيحيين من خلال نظامهم القانوني وكذلك من خلال دينهم.

في الممالك المسيحية الشمالية، بنى أهل الذمة هؤلاء الكنائس والأديرة، وأحضروا معهم كتبًا قيمة من إسبانيا القوطية سابقًا. قد تكون بعض هذه الكتب خدمت كنماذج للعديد من جواهر فن العصور الوسطى: الإضاءات الاستثنائية التي رافقت الشروح التوراتية المكتوبة باللاتينية ولكن بخط قوطي من قبل الرهبان Beato de Liébana (القرن التاسع) وBeato of San Miguel de Escalada (القرن العاشر). كما أظهرت الباحثة في الإسلام والمسيحية Marie-Thérèse Urvoy أن هؤلاء "المستعربين" حافظوا على التقليد الروحاني للقوط الغربيين وأثروا وتأثروا بثقافة مسيحيي الشمال، وأضافوا إلى المساهمات الثقافية السابقة التي قدمها الإسبان – القوطيون، الذين فروا من الغزو الإسلامي الأساسي، إلى إسبانيا الشمالية وأوروبا[913]. يجادل بعض مؤرخي الفن بأنهم أثروا على الفن العظيم للرومانسيك الإسباني[914]. في هذه الأثناء أثرت ثقافة أهل الذمة المسيحيين على إسبانيا المسلمة حتى مع اختفاء تلك الثقافة تدريجيًا. يدين الحكّام المسلمون ومثقفوهم بالكثير ثقافيًّا وعرقيًّا وغير ذلك لإرث مملكة القوط الغربيين المسيحية[915]. مندهشين من الحضارة الأكثر تقدمًا التي واجهوها، فكك الغزاة العمارة الإسبانية – القوطية وقلّدوها. بالتأكيد كان الحال كذلك مع مسجد قرطبة الذي تم تشييده كما رأينا بمواد مأخوذة من المباني المسيحية والرومانية، وتضمن أقواسًا ومزايا عمرانية أخرى تحاكي التصميم القوطي. علاوة على ذلك، لا يزال المرء يجد عملة إسلامية مؤرخة في وقت متأخر من عام 730 تنسخ النقوش والتماثيل النصفية اللاتينية لملوك القوط الغربيين، ترجمت النصوص العربية وذيّلت كتاب القديس إيزيدور *Laudes Hispaniae*

وفي أواخر القرن الحادي عشر كان الجغرافي عبيد البكري لا يزال يستخدم النصوص الإيزوديرية[916]. وفقًا لابن خلدون، فإن الشكل الشعري العربي الكلاسيكي المشهور "الموشح" تم اختراعه نحو القرن التاسع من قبل الشاعر ذي الأصول الذمية المسيحية Muccadam de Cabra[917]. والشعر الشعبي لأهل الذمة المسيحيين في الرومانسية المستعربة (اللهجة الإسبانية القديمة التي استخدمها أهل الذمة المسيحيون في الأندلس والتي تُظهر التأثير المعجمي للغة العربية) أصبح جزءًا من هذا الموشح في ما يُسمى الخرجة (المقاطع الموجودة في نهاية الموشحات). بعض هذه الخرجات في الرومانسية المستعربة مكتوب باللغة العربية (وأحيانًا باللغة العبرية) مُظهرًا استمرار الرومانسية الإسبانية المنطوقة بين أهل الذمة المسيحيين[918].

امتد التأثير الإسباني – القوطي على إسبانيا الإسلامية إلى ما وراء الفن والعمارة. من الناحية العرقية بالكاد يمكن تسمية الأمويين عربًا لأن أمهاتهم كن في كثير من الأحيان من العبيد البلقانيات والسلافيات أو من النساء القوطيات أو الرومانيات الإسبانيات كما هو مذكور في الفصلين الرابع والخامس. كان لدى العديد من الأمويين بشرة وردية وشعر ضارب للحمرة[919]. كان العديد من مشاهير المثقفين المسلمين من نسل المسيحيين، مثل المؤرخ ابن القوطية، ابن امرأة قوطية، والعالم الموسوعي ابن حزم، حفيد مسيحي اعتنق الإسلام. كان مسلم مهرطق واحد على الأقل في الأندلس، ممن اضطُهد من قبل عبد الرحمن الثالث بقسوة، قد تأثر بكاثوليكية أهل الذمة[920]. وقد فحصنا بالفعل، في الفصل الأول، الدور الوسيط لأهل الذمة المسيحيين بين المجتمع الأكثر بدائية للغزاة المسلمين والحضارة المتفوقة للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية، ليس فقط في إسبانيا، ولكن أيضًا في وقت سابق، في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا[921].

تستمر الثقافة المسيحية لإسبانيا ما قبل الإسلام من خلال بعض الأشكال إلى يومنا هذا. مع تقدم الاسترداد استقر المسيحيون الذين فروا إلى الشمال في الأراضي التي استُردت حديثًا. اندمجوا أخيرًا بالسكان المسيحيين واضطروا إلى تبني الطقس الغريغوري للكنيسة الكاثوليكية. اليوم، بضعة آلاف من المسيحيين، معظمهم في طليطلة، ما زالوا يمارسون نسخة من الطقوس المسيحية القديمة لإسبانيا ما قبل الإسلام: الطقوس "المستعربة"[922].

ثقافة المقاومة:

ضمن إطار ثقافي مشترك يمكن تسميته عرب - أندلسي، عاشت الأقليات المسيحية واليهودية لفترة طويلة، ربما طوال الفترة موضوع المراجعة. أحبوا العملية المتناغمة من اعتناق الإسلام والاندماج مع الأغلبية... هذا دليل على روح التسامح التي وسمت تاريخ الأندلس.

*Rafael Valencia, "Islamic Seville: Its Political, Social, and , ed. Salma*The Legacy of Muslim Spain*Cultural History," in Khadra Jayyusi (Leiden: Brill, 1992), 138*

رافائيل فالنسيا، "إشبيلية الإسلامية: تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي". في تراث إسبانيا الإسلامية. تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي (ليدن: بريل، 1992) 138.

على الرغم من أن السكان الذميين المسيحيين كانوا قد اختفوا تقريبًا من إسبانيا الإسلامية مع اكتمال عملية الاسترداد، فإن المسيحيين لم ينسحبوا بلا قتال. يكتب مؤرخ القرن الحادي عشر ابن حيان أن مدينة إلفيرا Elvira القديمة (تحريف من الاسم الروماني – الإسباني *Illiberis*) وهي جزء من المنطقة التي تسيطر عليها غرناطة اليوم، كانت ذات يوم مأهولة إلى حد كبير من قبل أهل الذمة المسيحيين والمولدين وكانت مُعادية للإسلام[923]. في عهد المرابطين، تعاون بعض زعماء أهل الذمة في إلفيرا مع المحاربين المسيحيين خلال عملية الاسترداد ونتيجة لذلك نهب الغوغاء المسلمون كنيسة الحي تبعًا لفتاوى العلماء. تُظهر السجلات من أواخر القرن الحادي عشر المدن المسيحية التي اعتبرتها السلطات الإسلامية في مملكة الطائف في غرناطة تخريبية ربما. قام المرابطون بترحيل العديد من المسيحيين بشكل جماعي إلى شمال إفريقيا لعقابهم أو منع تعاونهم مع مُحاربي الاسترداد المسيحيين، أما الموحدون فقد خلصوا إلى أن التحويل القسري فقط يمكن أن يتولى مشكلة التعدد الثقافي التي طرحتها هذه المجتمعات المسيحية المشبوهة. نجت بعض الكنائس المسيحية في ويسكا Huesca حتى استعادت القوات المسيحية المدينة في 1096. حتى القرن الحادي عشر، بقي عدد قليل من الكنائس والأديرة في القرى الريفية في إسبانيا الإسلامية. تشير كل هذه التفاصيل إلى أن الثقافة المسيحية كانت تتقهقر فعليًا في ظل الهيمنة الإسلامية لكنها مع ذلك رفضت الموت[924].

تساءل بعض العلماء عما إذا كان يمكننا اعتبارها ثقافة كاثوليكية. في معالجته غير المتعاطفة للكاثوليكية الإسبانية يكتب "نورمان روث" أستاذ الدراسات العبرية والسامية أن "المسيحية المستعربة كانت هرطوقية عمومًا"[925]. صحيح أن بعض أهل الذمة أسلموا أنفسهم إلى أشكال هرطوقية من المسيحية، كما فعل إجيلانوس Egilanus، أسقف إيلفيرا وإيليباندوس Elipandus من طليطلة،

وكلاهما في القرن الثامن. يستشهد روث كدليل على انتشار الهرطقة بواقعة أن البابا سلستينيوس الثالث أمر رئيس أساقفة طليطلة في عام 1192 بإرسال كهنة "تعلموا باللاتينية والعربية" إلى شمال إفريقيا، إشبيلية، و"مدن إسلامية أخرى". لكن هذا الأمر يمكن أن يعكس ببساطة جهداً للتصدي للانخفاض في عدد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي وكذلك الاستمرار في تأكيد وتوسيع الإصلاح الغريغوري الذي كان يهتم بدعم استقلالية رجال الدين والنزاهة الأخلاقية (كان الإصلاح قد بدأ قبل أكثر من قرن من الزمان لكنه واجه صعوبات في الإنجاز في المناطق النائية للمسيحية الغربية)[926]. هذا الإصلاح هو حلقة مهمة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية يبدو أن روث غير مدرك لها.

الحقيقة هي أن معظم أهل الذمة المسيحيين كانوا أرثوذكس، مثلما أكد العمل الأخير لمؤرخ الإسلام في الغرب Cyrille Aillet وكما تشهد السجلات المسيحية من الشمال[927]. في بعض الحالات استشهد أهل الذمة المسيحيون من أجل معتقداتهم. وفي أحيان أخرى تمردوا ضد الهيمنة الإسلامية. في بعض الحالات شكلوا تحالفات مع المولّدين المتمردين أو ساعدوا مسيحيي الاسترداد (مستثيرين الطرد مثل أولئك الذين عاشوا في ظل المرابطين والموحدين).

في الواقع، كان هناك تاريخ طويل من تمرد المولّدين في إسبانيا الإسلامية. على الرغم من أن الوضع الإجتماعي المتردي كان ربما السبب الرئيس لسخطهم، فإن بعض الاضطرابات بين السكان المولدين ربما نشأت من واقعة أنه على الأقل بعض التحويلات إلى الإسلام كانت مرائية. عندما كانت الخيارات المتاحة هي المنفى، الإخضاع القسري، أو التحويل، لا بد أن بعض المسيحيين تظاهروا باعتناق الإسلام لكنهم استمروا بممارسة المسيحية سرًّا بوصفهم كاثوليكًا سريين. كما سنرى بعد قليل، أن المتمرد عمر بن حفصون في القرن التاسع كان مدعومًا من قبل المولّدين وأهل الذمة المسيحيين في مقاومته للحكم الأموي التي استمرت عقودًا ويبدو أنه مات كمسيحي. وفي فصل دام في منتصف القرن التاسع، كان من بين "شهداء قرطبة" المولّدين الذين نبذوا الإسلام علانية أو اعترفوا بأنهم كانوا كاثوليك سريين طوال الوقت.

حتى التحول الصادق لم يكن يضمن المساواة للمولّدين. كان العرب في قمة السلم الاجتماعي، مع البربر في الوسط يليهم العبيد المسلمون البيض المُحررون الذين أصبحوا موالي، ثم المولدين الذين انقسموا بدورهم إلى متحولي الجيل الأول والباقي احتلوا مرتبة أدنى فوق الذميين والعبيد فقط. بالطبع، لم يكن المولّدون راضين عن مكانتهم كمسلمين من الدرجة الثالثة أو الرابعة. ليس مثيرًا للدهشة أن المولدين "المختلطين" كان لهم تسمية عربية أخرى: *al-adhall* أو "الرعاع الأنذال"[928].

ساهمت العوامل الاقتصادية بقدر أكبر في زعزعة التناغم والازدهار والعصر الذهبي المفترض للأندلس الأموية. يلاحظ المؤرخ روبرتو مارين غوزمان أنه في ظل حكم عبد الرحمن الثالث وأسلافه الأمويين "لم يكن لدى بعض الناس في الأندلس سوى الحد الأدنى من الطعام والملبس والمأوى، وهم بالكاد تمكنوا من تحصيله شهرًا بعد شهر، خاصة إذا كان هناك بعض الضرائب والمساهمات غير العادية والغرامات وبعض الإلزامات مطلوبة من قبل الحاكم كل شهر"[929].

بالنظر إلى الازدراء الذي واجهه المولّدون من قبل العرب المسلمين والظروف الدينية والسياسية والاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها فليس من المستغرب أنهم دافعوا عن جدارتهم سواء من خلال الكتابة (الحركة الشعوبية) أو أنهم ثاروا أحيانًا ضد السلطات الإسلامية. لم تندلع ثورات المولدين فقط في إسبانيا وإنما أيضًا في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة أيضًا، مثل إيران[930].

حتى عينة صغيرة من ثورات المولدين في "العصر الذهبي" للأندلس تنقل درجة التقلقل بين أحفاد المسيحيين السابقين. يروي ابن حيّان كيف واجه الحاكم الأموي الحكم الأول في القرن التاسع مرارًا وتكرارًا تمردات المولّدين وكيف استجاب لها كل مرة بقسوة لا ترحم. في عام 805 صلب الحكم اثنين وسبعين قائدًا قرطبيًّا من المولدين على طول الضفة اليسرى للنهر الكبير Guadalquivir River[931]. في العام التالي سحق تمردًا آخر في المدينة وصلب القائد المولدي رأسًا على عقب. في ميريدا كان على الأمير أن يُخمد تمرد البرابرة (الاسم الذي يُطلق عادة على المسيحيين لكنه ربما ينطبق هنا على البرابرة) الذي استمر بين عامي 805 و813.

في توليدو في 797 أو 806 قادت اضطرابات المولدين الحكم إلى نصب فخ قُطعت فيه رؤوس مئات أو ربما آلاف الرجال الذين ينتمون إلى عائلات مولدية بارزة – مذبحة الخندق الشهيرة (*masacre*or *masacre de La Hoya del Foso*) لا يزال يُحتفل بذكراها في توليدو. في عام 814 أو ربما 818 استخدم الحكم جنود حاميته الخاصة لإخماد انتفاضة مولدية في أرابال (ضاحية) في قرطبة[932] ثم صلب ثلاثمئة من قادة التمرد وطرد عشرين ألفًا من عائلات قرطبة إلى شمال إفريقيا.

لم يكن الحكم وحده من واجه ثورات المولدين. ابنه عبد الرحمن الثاني واجه مشاكل مماثلة في عهده. محمد الأول وعبد الله والمنذر وعبد الرحمن الثالث كانوا من بين الحكّام الأمويين الذين واجهوا ثورات المولدين. في كثير من الحالات واجه الأمويون الثورات الأهلية باستخدام قوات مكونة من المرتزقة (بعض منها مسيحي)

وعبيد سود من مناطق إفريقية، وهو أسلوب لم يكن غير عادي بالنسبة للحكّام المسلمين الذين لا يستطيعون الاعتماد على ولاء رعاياهم[933].

لا عجب أن يكون شاعر عربي من القرن التاسع ممن استفاد بالطبع من رعاية الأمويين قد احتفل بابتهاج ببعض المجازر التي لحقت بالمولدين في إسبانيا الأموية:

كم ألجم السيف في أبناء ملحمة ما منهم فوق متن الأرض ديار

لما رأى الفتنة العمياء قد رحبت منها على الناس آفاق وأخطـار

كتائب تتبارى حـول رايـته وجحفل كسواد الليـل جـرار

فكم بساحتهم من شلـو مطـرح كأنه فوق ظهر الأرض إجـار

وكم على النهر أوصالًا مقسمة تقسمها المنايا فهي أشطـار[934]

واجه متمردو المولدين ردًا شرسًا ووحشيًا في كثير من الأحيان من الحكّام المسلمين في هذا العصر الذهبي للإسلام لكنهم استمروا. جسد عمر ابن حفصون، حفيد أحد معتنقي المسيحية هذا الإصرار. اتجه ابن حفصون إلى الجبال، حيث اعتبرته السلطات الإسلامية قاطع طريق في حين رآه كل من المولدين وأهل الذمة المسيحيين متمردًا مؤثرًا. من حصنه الجبلي في Bobastro في مقاطعة مالقة خاض حربًا لعدة عقود ضد السلطة الأموية. وفقًا للمؤرخ ابن عذاري المراكشي، أعلن الأمويون الجهاد ضد ابن حفصون الذي لم يستسلم حتى عام 916. ابنته المفترضة أو ربما حفيدته أرجينتا Argentea استشهدت بسبب معتقداتها المسيحية على أيدي الأمويين في قرطبة عام 931 وتم تطويبها في القرن العاشر من قبل الكنيسة الكاثوليكية بوصفها القديسة أرجنتيا[935].

بقي معظم المتمردين المولدين مسلمين ظاهريًا على الأقل، حتى لو تحالفوا مع أهل الذمة المسيحيين ومع الممالك الكاثوليكية الشمالية. كان ابن حفصون استثناءً، عاد إلى الكاثوليكية. عثر علماء الآثار على بقايا كنيسة مستعربة في Bobastro حصنه الجبلي لأربعين عامًا. بعد موت ابن حفصون، أمر الحاكم الأموي عبد الرحمن الثالث بنبش جثته والتأكد من دفنه حسب الطريقة المسيحية. عقابًا على ردته وتحذيرًا للمتمردين المرتدين المحتلين أمر الحاكم المسلم بنقل الجثة إلى قرطبة وصلبها علانية بين ابني ابن حفصون. لم تكن تلك المرة الأولى التي يحاول فيها عبد الرحمن الثالث (خادم الرحمن) ترويع أتباع ابن حفصون: كان يعرض على أبواب قرطبة بشكل روتيني الرؤوس والأجساد المخوزقة للمتمردين القتلى أو الأسرى[936].

قلل بعض العلماء من أهمية مسيحية ابن حفصون، التي كانت تقوض بشكل واضح، فكرة أن المسيحيين كانوا سعداء تمامًا كمتحولين أو ممارسين للمسيحية في ظل الحكم الإسلامي[937]، لكن إلى أن يتمكن المرء من إثبات أن السجلات الإسلامية كانت كاذبة وأن عبد الرحمن الثالث كان كاذبًا، وأن بقايا الكنيسة الكاثوليكية في Bobastro ليست بقايا كنيسة كاثوليكية وأن قرى وأحياء أهل الذمة المسيحيين لم تدعم ابن حفصون، فإن كل ما تبقى ضد مسيحية هذا المتمرد الشهير مجرد رأي. على أي حال، مع اقتراب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة في أوائل القرن الحادي عشر، كانت العقوبات القاسية بحق ثورات المولدين والتجزئة السياسية الأوسع للطوائف من عرب وبربر وعبيد قوقازيين قد محت أي شعور جماعي كان لدى المولدين ذات يوم بوصفهم أحفادًا متحولين إلى المسيحية.

كانت مشكلة أهل الذمة المسيحيين مختلفة. إذ من خلال إخضاعهم من قبل الإسلام، كانوا أكثر عرضة لتقديم المعلومات العسكرية والمساعدة المادية لجيوش الاسترداد المقتربة أو للمولدين من انخراطهم في تمرد مفتوح. حاول أهل الذمة المسيحيون الآخرون تحسين حالتهم من خلال خدمة الحكّام المسلمين كبيروقراطيين وحتى مرتزقة. (حرّمت الشريعة الإسلامية استخدام جيوش غير مسلمة، لكن الحكّام المسلمين وجدوا طرقًا لتبرير استخدامهم للجنود الكفار من خلال اعتبارهم "خدمًا"). ومع ذلك، فإن بعض أهل الذمة المسيحيين تحدوا الإسلام علانية حتى في القرون الأولى من الهيمنة الإسلامية. يذكر المؤرخ الإسلامي ابن عذاري تمردًا في باجة قبل 753، بقيادة عروة بن الولد، مدعومًا من قبل "أولئك الذين دفعوا الجزية" وهي إشارة ربما إلى أهل الذمة المسيحيين. وثار عليه عروة بباجة، فوجه إليه يوسف من هزمه وقتل أصحابه[938]. في ميريدا بين عامي 828 و834 ربما شارك أهل الذمة المسيحيون في أحد تمردات المولدين العديدة في إكستريمادورا Extremadura الإقليم المشهور باستعصائه[939]. يروي ابن عذاري أن عددًا كبيرًا من مسيحيي غرناطة فر لمساعدة الملك ألفونسو السادس على إعادة إسكان طليطلة، العاصمة القديمة لمملكة القوط الغربيين[940]. وبحسب ابن حيان، كانت طليطلة أكثر المدن تمردًا في إسبانيا (نسي المؤرخ المسلم هنا استخدام اسم الأندلس)[941]. من بين الانتفاضات الأخرى على الأمويين، كان هناك تمرد في طليطلة عام 852 كان الدافع إليه اضطهاد المسيحيين، سحقت القوات الأموية التمرد في نهاية المطاف[942].

شهداء قرطبة:

من الصعب تحديد الأهمية التاريخية (لمقتل شهداء قرطبة).. وربما تخبرنا هذه الحادثة القليل عن حالة ومواقف غالبية السكان المستعربين، رغم ذلك يُظهر (الحادث) تسامح وحصافة السلطات الإسلامية لكنه يثير الاهتمام الأخلاقي واللاهوتي حول نحر الذات المتعمد.

Hugh Kennedy, Professor of History in the Department of Languages and Cultures of the Near Middle East of the Muslim Spain and Portugal: A Political *University of London, (London: Routledge, 1996), 48*History of al- Andalus

هيو كينيدي، أستاذ التاريخ في قسم اللغات وثقافات الشرق الأوسط في جامعة لندن. إسبانيا المسلمة والبرتغال: تاريخ سياسي للأندلس (لندن، روتلدج، 1996)، 48.

لكن المثال الأكثر استثنائية لمقاومة أهل الذمة المسحيين كان واقعة شهداء قرطبة[943]. بين عامي 850 و860، في عهد الأموي عبد الرحمن الثاني، رجال ونساء، بعض منهم ينتمي إلى عائلات مسيحية اعتنقت الإسلام (مولدين)، تحدوا السلطات علناً من خلال التأكيد على إيمانهم المسيحي والسخرية من مُحمد. وصلت القصة إلينا من خلال كتابات آخر الشهداء، الراهب القديس أولوجيوس Eulogius، ومن خلال كتابات صديقه الراهب ألفاروس Alvarus الذي عاش الأحداث.

كان أول من مات شهيدًا راهب مثقف يُدعى Perfectus بيرفكتوس. في عام 850 بعد أن سافر من ديره القريب إلى مدينة قرطبة في مهمة ما، قابل هذا الذمي المسيحي بعض مسلمين كان يعرفهم، والذين سألوه أن يشرح لهم ما يظنه المسيحيون بالمسيح والنبي مُحمد. أخبرهم أن جوابه قد لا يعجبهم. عندما أصروا، طلب بيرفكتوس إليهم ألا يخبروا أحدًا بجوابه. شرع بالاستشهاد بمقطع من الإنجيل يعلن فيه السيد المسيح أن "العديد من الأنبياء الدجالين سيأتون باسمه" وأضاف بيرفكتوس أن المسيحيين كانوا يعتقدون أن مُحمد أحد هؤلاء الأنبياء الدجالين. ثم ذهب بيرفكتوس في طريقه. بعد بضعة أيام، رآه نفس المسلمين في المدينة، أشاروا إليه واتهموه أمام الجموع بإهانة الرسول. اعتُقل الراهب ووضع في السجن، مع ذلك، نفى خلال التحقيق أنه قال أي كلام مهين. الخطوط العريضة لهذه الحالة حتى هذه النقطة تتقاطع مع نمط حالات لمسيحيين عوقبوا بدعوى التجديف في البلاد الإسلامية حتى في أيامنا هذه[944]. أثناء وجوده في السجن، تخلى بيرفكتوس عن إنكاره السابق. أعلن صراحة لاهوتية المسيح ودجل مُحمد. تم قطع رأس بيرفكتوس علناً.

بحسب الروايات الموجودة للراهب ألفاروس شجب بعض التجار المسلمين مسيحيًا ذميًا يُدعى خوان لمحاولته زيادة مبيعاته عن طريق القسم بمُحمد. يخبرنا ألفاروس أن المسلمين كانوا يهزؤون بالمسيحية ويشتمون المسيحيين وأن حسد المسلمين كان سببًا لاتهام خوان. أدين الذمي عندما شهد العديد من المسلمين ضده، جُلد علناً، وطافوا به في الشوارع وأرسلوه إلى السجن.

لكن يبدو أن الحدث الحاسم كان حالة إسحاق. كان هذا الذمي المسيحي في الرابعة والعشرين من العمر حين تخلى عن مهنة مجزية في مدينة قرطبة لدخول الحياة الرهبانية. في عام 851 اتخذ قرارًا بالغ الأهمية أن يذهب إلى قرطبة ويعلن أمام القاضي أن مُحمدًا نبيٌّ دجال وأن الإسلام دينٌ باطل، كان يعرف أنه سيُعدم من أجل هذا التجديف. قُطع رأسه علنًا، وعُلقت جثته رأسًا على عقب على أحد بوابات قرطبة.

كان لهذه الأحداث تأثير على بعض أهل الذمة والمولدين الذين تبنوا ما يمكن تسميته اليوم بسياسة المقاومة اللاعنفية ضد الثقافة المهيمنة؛ تحدوا قوانين التجديف الإسلامية بالإعلان علنًا عن ألوهية السيد المسيح وزيف مُحمد كنبي، ورفضوا التراجع. تم إعدام ما يقرب من خمسين رجلًا وامرأة علانية، بعضهم قُطع رأسه وبعضهم الآخر سُلق حتى الموت. تم تعليق جثثهم رأسًا على عقب على بوابات المدينة لردع شهداء المستقبل، لكن يبدو أن هذا العرض لم يردع بقدر ما حفز الذميين المسيحيين والمولدين من الكاثوليك السريين. شهد كل يوم تطوع مسيحيين جدد للشهادة. تحولت السلطات الإسلامية عندها إلى إجراء مختلف: بدلًا من عرض جثث المسيحيين أحرقوها وألقوا رمادها في الوادي الكبير. عدد من هؤلاء الشهداء كان من المولدين الذين نبذوا علانية دينهم الإسلامي أو أعلنوا أنهم كانوا كاثوليكًا سريين، النوع الأسوأ من الردة وفقًا للشريعة الإسلامية في العصور الوسطى.

ردًا على موجة الشهادة المسيحية هذه، قام عبد الرحمن الثاني وفقًا لنصيحة العلماء بسجن القساوسة الكاثوليك ومصادرة ممتلكات المسيحيين ووضع سلسلة من التدابير من شأنها أن تجعل حياة جميع المسيحيين أكثر صعوبة. كانت تلك التدابير مماثلة للإجراءات الصارمة التي اتخذها الغزاة المسلمون لإخضاع المسيحيين المتمردين، كما هو موثق في *Chronica mozarabica* لعام 754 وغيرها من المصادر الإسلامية والمسيحية (انظر الفصل الأول). ثم مُهدًا بتصعيد الإجراءات ضد الذميين المسيحيين ضغط عبد الرحمن على الأساقفة الكاثوليك لعقد مجلس كنسي في قرطبة لمواجهة التصاعد المتزايد في حالات الاستشهاد[945]. تحت الضغط، أمر مجلس الأساقفة الكاثوليك بعدم احتذاء نموذج الشهداء. في النهاية، توقف الاستشهاد الطوعي.

من خلال إعلانهم لإيمانهم المسيحي صراحة وتأكيدهم الصريح أن مُحمدًا لم يكن نبيًا وأن يسوع المسيح هو ابن الله (كلا الأمرين تجديف بالنسبة للمسلمين) قاد شهداء قرطبة اعتداءً مجازيًا على الدين والثقافة الإسلاميين المهيمنين. حرر هذا التحدي العلني سنوات من الغضب والإحباط المسيحيين المكبوتين على الإخضاع الديني والاجتماعي والسياسي. كما مثل جهدًا يائسًا وغير فعال لوقف المد المتزايد للتثاقف الإسلامي الذي أدى إلى تآكل الثقافة المسيحية في إسبانيا.

لكن العلماء لا يصفون عادة التحدي المسيحي وفق المصطلحات أعلاه، بوصفه حالات شجاعة مفهومة من المقاومة الثقافية السالبة اللاعنفية من قبل أفراد مُهمشين وضعفاء، كما قد يسمي الأكاديميون أفعالًا مماثلة من قبل أي مجموعة خاضعة ما عدا المسيحيين. بقدر ما نعود إلى الوراء حتى Reinhart Dozy في القرن التاسع عشر وÉvariste Lévi-Provençal في مطلع القرن العشرين وامتدادًا إلى الوقت الحاضر، وصف العلماء عادةً أفعال شهداء قرطبة كقرارات حمقاء لمتعصبين دينيين، لمتمردين ورهبان جهلة وأتباعهم العميان. في تعليق تمثيلي وسم أحد العلماء مقاومة الذميين المسيحيين بأنها عمل "أقلية عنيدة، غير راغبة على الإطلاق بالعيش بسلام واحترام للإسلام"[946]. وجهات نظر هؤلاء العلماء المعاصرين كانت حاضرة بالفعل بين السلطات الكنسية المتعاونة في قرطبة: شهادات الرهبان أولوجيوس وألفاروس كانت مدفوعة جزئيًا بالحاجة إلى الدفاع عن الشهداء ضد القادة الكنسيين الذين فضلوا مواصلة حياتهم خاضعين للحكم الإسلامي لمصلحة السلام. هذه الرؤى غير المتعاطفة مع شهداء قرطبة يتردد صداها اليوم في الإغفال العلمي النسبي للمصادر المسيحية عن الفتح الإسلامي بوصفها شهادات عن الخسارة المسيحية – إغفالًا لـ *visión de los vencidos* (وجهات نظر أو شهادة المهزوم) ليس موجودًا، على سبيل المثال، في دراسات الفتح الإسباني للأمريكتين.

التضمين واضح: يجب على هؤلاء الناس أن يكونوا ممتنين لتسامح السلطات الإسلامية التي سمحت لهم بممارسة دينهم بكل سخاء. غير ذي أهمية الوضع المُذل الذي احتله الذميون المسيحيون وحتى المولدون في المجتمع الإسلامي والقيود القاسية التي عاشوا في ظلها والابتزاز والإذلال اللذين عانوا منهما من خلال الضرائب الخاصة "الجزية" المفروضة عليهم، تدمير كنائسهم القديمة، كما هو مسجل من قبل الراهبين أولوجيوس وألفاروس "شهادات تم إغفالها من قبل العلماء أو استبعدت بوصفها مبالغات متعصبين"[947] أو حتى العقوبات الأقسى التي واجهها المسيحيون لانتهاكهم الشريعة الإسلامية. تلك العقوبات تضمنت إجراءات جذرية مثل التطهير العرقي: تم طرد الذميين المسيحيين إلى إفريقيا مرارًا وتكرارًا، من مالقة في 1106، من غرناطة في 1126، ومن أجزاء أخرى من إسبانيا الإسلامية في 1138 و1170[948]. تضمنت العقوبات أيضًا، كما رأينا مرارًا، إعدامات بواسطة أكثر الأشكال إيلامًا وعلانية.

كانت هذه هي روح التعايش في إسبانيا الإسلامية، والتي حياها نورمان روث بوصفها "أحد الأشياء العديدة التي جعلت إسبانيا عظيمة، والتي يمكن لباقي أوروبا أن تتعلم منها من أجل فائدتها"[949].

الخاتمة

يبدو أن المؤرخين المعاصرين يتفقون على أن الغزو لم يكن مدمرًا أو قاسيًا بشكل خاص، وأن المسلمين تحديدًا –الذين كانوا على معرفة بكلا المعتقدين في الشرق الأوسط– قد تعلموا احترام المسيحيين واليهود بوصفهم "أهل الكتاب"، علاوة على ذلك، عاش الكثير من السكان المسيحيين لقرون يتمتعون بحقوق قانونية وحرية نسبية في العبادة.

Colin Smith, Professor of Medieval Spanish Literature at Cambridge University, President of the Modern Humanities Modern Language*Research Association, Editor of the* ,Católica, *and Commander in the Order of Isabel La* Review *(Warminster: Aris & Phillips,*Christians and Moors in Spain *1988), 1:10*

كولين سميث، أستاذ الأدب الإسباني في العصور الوسطى في جامعة كامبريدج، ورئيس جمعية أبحاث العلوم الإنسانية الحديثة ومحرر مجلة Modern Language Review و*Commander in the Order of Isabel La* *Católica*، المسيحيون والمور في إسبانيا (*Warminster: Aris & Phillips, 1988*)، 1،10.

الإسلام والغرب لهما جذور مشتركة ويشتركان في الكثير من تاريخهما. لا تنشأ مواجهتهما اليوم من خلافات جوهرية، ولكن من تصميم طويل ومتعمد على إنكار القرابة بينهما.

Richard W. Bulliet, Professor of Islamic History and Society The Case for Islamo-Christian*at Columbia University,* *(New York: Columbia University Press, 2004), vii*Civilization

ريتشارد دبليو بوليت، أستاذ التاريخ الإسلامي والمجتمع في جامعة كولومبيا، حالة الحضارة الإسلامية – المسيحية (*New York: Columbia University Press, 2004*) vii.

أظهر هذا الكتاب ملامح ثقافية نادرة لإسبانيا الإسلامية. لقد أثار إشكالية الأندلس، وأسفر عنها وعرّاها، وأبرز اختلافها "غيريتها" الضروري، وهو اختلاف أشار إليه خوسيه أورتيغا أي غاسيت José Ortega y Gasset وابن حزم (الذي ينحدر من عائلة ذات أصول مسيحية) الذي كان يعتقد أن الإسلام كان

موسومًا تحديدًا بطبيعته المعادية للمسيحية[950]. لم يكن هناك تعايش متسامح في إسبانيا الإسلامية وإنما تعايش قلق. لقد أظهر الكتاب أيضًا أن الأطر القانونية التي كانت الجماهير المسلمة واليهودية والمسيحية موجودة فيها عكست وشكّلت ليس فقط مواقفهم بعضهم تجاه بعض فقط وإنما أسلوب حياتهم داخل مجتمعاتهم الخاصة أيضًا.

إن تحليلًا ميكيافيليًا للغزو الإسلامي لإسبانيا يمكن أن ينسحب على ملاحظة إدوارد سعيد الألمعية: "يتضمن التفكير في التبادل الثقافي التفكير في الهيمنة والاستيلاء القسري: شخص ما يخسر، وشخص ما يكسب"[951]؛ لذلك فقد جادل الكتاب، من الناحية الثقافية فقط، أن غزو واحتلال واستعمار إسبانيا المسيحية خلال النصف الأول من القرن الثامن من قبل المحاربين الإسلاميين كان كارثة على السكان المسيحيين لأن الحضارة المسيحية، ما بعد الرومانية الناشئة قد وئدت في مهدها.

لم يكن السكان ما قبل الإسلام ذوي الأصل القوطي الروماني – الهسباني بحاجة لتمدينهم من قبل إمبراطورية إسلامية مهيمنة. كما رأينا في الفصل الثاني، كان مستواهم الحضاري في مطلع القرن الثامن أعلى كثيرًا من المحاربين المسلمين الذين كان معظمهم من بربر شمال إفريقيا غير المتعلمين الذين غزوا الأرض بقيادة بعض العرب الذين استفادوا أو كانوا في طور الاستفادة لاحقًا من مثل هذه الحضارات المتفوقة كالحضارة الرومانية اليونانية المسيحية "البيزنطية" والحضارة الفارسية الزرادشتية "التي تأثرت طويلًا بالمعرفة اليونانية" والحضارة الهندية الهندوسية التي -كما في حالات الفرس الزرادشتيين والسند الهندوسية البوذية- كان الغزاة المسلمون قد دمروها بالفعل أو كانوا في سبيل تدميرها في النهاية[952].

كان الفاتحون العرب المسلمون لبلاد فارس (إيران اليوم) بدوًا جُهلًا من الصحراء يتمتعون بمستوى حضاري أقل بكثير من ذاك الذي تتمتع به الإمبراطورية الفارسية الزرادشتية. كانوا مندهشين من المستوى الثقافي للفرس الزرادشتيين بقدر اندهاشهم من مستوى اليونانيين المسيحيين. كما لاحظ المؤرخ التونسي العظيم ابن خلدون (1332-1406): "إلا أن المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم مما لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتبًا كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالًا فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا. وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصًا وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي

وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب". كان هؤلاء المترجمون من الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية السابقة.

كما لاحظ ابن خلدون أن غالبية علماء المسلمين كانوا من غير العرب من الأمم المُحتلة، وأن معظمهم كان من الفرس[953]. عند حديثه عن الوجود الإسلامي في شمال إفريقيا كان ابن خلدون مندهشًا من حقيقة أن "كان عمرانها كله بدويًا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب فلم تكثر مبانيهم"، ولاحظ أيضًا أن "والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهوا"، لذلك يتابع "ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه في العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجًا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن. والله يحكم لا معقب لحكمه"[954].

الباحث في الإسلام Dominique Urvoy دومينيك أورفوي أشار إلى أن الخط العربي ربما اخترعه المبشرون المسيحيون من المدينة العربية التي جرى تنصيرها "الحيرة" في العراق القديم[955]. كان مؤرخ الفن Oleg Grabar أوليغ غرابر قد شرح تأثير الإمبراطورية الرومانية المسيحية اليونانية على المسلمين الأوائل الجهلة:

زود الفن البيزنطي الثقافة الجديدة بمفردات وأصول القواعد.. استعان المسلمون مرارًا وتكرارًا بالمَعين البيزنطي.. ذات مرة تم توبيخ معاوية (حاكم سوريا وأول خليفة أموي حكم بين عامي 661-680) من قبل الخليفة عُمر بن الخطاب لتبنيه الأساليب الوثنية للقيصر... أجاب معاوية بأن دمشق كانت مليئة وأن أحدًا منهم لن يؤمن بسلطته وقوته إن لم يتصرف ويبدو وكأنه إمبراطور.. لم يفهم المسلمون الأوائل أبدًا الفن البيزنطي تمامًا، لكن الظروف فرضته عليهم، ولم يكن لهم إلا أن يكونوا معجبين بوجوده[956].

مثلما لاحظ Robert M. Haddad وAptin Khanbaghi وLouis Milliot وعلماء آخرون أن أهل الذمة المسيحيين عملوا كوسطاء بين المجتمع الأكثر بدائية للغزاة المسلمين والحضارات المتفوقة للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية والإمبراطورية الفارسية الزرادشتية[957]. المؤرخ الفارسي المسلم ابن النديم (توفي في 990) شهد بأن "في إيران القرن العاشر، كان أغلبية الفلاسفة لا يزالون مسيحيين".

وبالمثل، كانت الحضارة الإسبانية الرومانية المسيحية في مطلع القرن الثامن متفوقة على حضارة الغزاة البربر من شمال إفريقيا: كما رأينا في الفصل الثاني، كان هؤلاء الغزاة أيضًا مذهولين من المستوى الثقافي للقوط الغربيين المسيحيين بقدر ما اندهش الغزاة العرب في وقت سابق بالمستوى الثقافي لليونانيين المسيحيين في شمال إفريقيا والشرق الأوسط. بالطبع، نادر هو الغزو المُستحق في تاريخ البشرية. هؤلاء السكان القوطيون الرومان الإسبان المسيحيون استحقوا أن يُحتلوا وأن يتم تنويرهم "تحضيرهم" من قبل الحكّام العرب ليس أكثر مما استحق سكان الأمريكتين أن يُحتلوا وأن يتم تنويرهم من قبل الأوروبيين المسيحيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أو مما استحق سكان الهند أن يُحتلوا ويتم تنويرهم من قبل المسيحيين الإنجليز في القرن الثامن عشر. حتى إن نقاشات "الاستحقاق" و"التنوير" يندر أن تجري الآن من قبل العلماء السائدين في حالة المكسيك، الأنكا، المايا، أو الهند بينما في حالة إسبانيا في عام 711 استمرت هذه النقاشات في الاستحواذ على كل المنشورات الأكاديمية والصحافة الشعبية (انظر المقتطفات خلال هذا الكتاب).

بدلًا من ذلك، يجب على المرء أن يأخذ منظورًا ثقافيًا أوسع للغزو الإسلامي. لم يكن قد مضى على وجود القوط الغربين في إسبانيا سوى بضعة قرون عندما انقطعت بشكل وحشي عملية التمثل بينهم وبين السكان الرومان الإسبان السابقين، لا سيما العملية الشاقة في تطوير ثقافة جديدة من الإرث الروماني الإسباني المسيحي والروماني اليوناني المسيحي "البيزنطي". ومع ذلك، تمكنت مملكة القوطيين في تلك السنوات الموجزة، العاصفة والتأسيسية من إنتاج ثقافة رائعة في زمانها ومكانها. يجب أن نذكر أن الكيان الإسلامي المولود حديثًا استغرق قرونًا عديدة، حتى مع استفادته من الثقافة القوطية الرومانية الإسبانية الموجودة في إسبانيا المسيحية ليرتكز عليها، بالإضافة إلى كل ما اكتسبه الإسلام في العصور الوسطى بالفعل من حضارات الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية وبلاد فارس والهند؛ ليطور العظمة الاستبدادية لخلافة قرطبة. بالكاد كانت الثقافة الإسلامية في إسبانيا استثنائية في المئة عام الأولى. يمكن للمرء أن يتخيل فقط ما كان لإسبانيا المسيحية أن تؤول إليه خلال مئة أو مئتين عام أخرى غير تلك، وخاصة مع تجارة متبادلة غير مهددة وغير منقطعة مع الحضارة العظيمة للإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. كما رأينا، عملت مملكة القوطيين كحافظة للثقافة الكلاسيكية في الظروف الصعبة التي تلت تفكك الإمبراطورية الرومانية الغربية (اللاتينية) المسيحية وكانت في طور إنشاء حضارة رومانية إسبانية قوطية جديدة خاصة بها، جزئيًا من خلال الاعتماد على الإرث الكلاسيكي للإمبراطورية الرومانية المحفوظ في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية.

فترات قليلة في التاريخ كانت أكثر تحريفًا من تلك التي كانت في إسبانيا الإسلامية. التسامح المُعلن الذي أبرزه الحكّام الأمويون جزء من هذه السردية، ويستمر العلماء في تكرار أن "وصف المسيحيين المستعربين واليهود بأنهم كانوا أقليات مُخضعة بكل هدوء تحت ضغط قوانين المسلمين هو خطأ بكل بساطة"[958]. لقد رأينا أن هذا التفسير لا يصمد أمام التدقيق، على الرغم من أنه يمكن شرحه عندما يكون المُفسِّر متأثرًا بالتركيز الانتقائي على بقايا ثقافة النخبة، أو بالمحسوبية النسبية المفروضة سياسيًا والعارضة دائمًا التي تمتعت بها الأقلية اليهودية ولو لبضعة قرون فقط.

لكن ثمة واقعة أساسية مفقودة في المناقشات والجدالات المتعلقة بتفاصيل حياة أهل الذمة المسيحيين في إسبانيا، وهي ما يُسمى المستعربون، وحول مقدار أو ضآلة استفادتهم من "التسامح" الإسلامي، أي إنهم كانوا بالتعريف مجموعة تابعة، سكانًا مهمشين من الطبقة الرابعة أو الخامسة في مجتمع هرمي، وضحايا نظام الابتزاز "الذمة"، الذي أعطاهم الخيار الذي يعطيه رجال العصابات لضحاياهم، ادفعوا لقاء الحماية أو غير ذلك؛ لذلك فإن القول إن المسيحيين ربما كانوا قانعين بوضعهم في إسبانيا، اليونان، أو أي مكان آخر تحت الحكم الإسلامي في العصور الوسطى مُتعذر أكثر من القول إن السود الأمريكيين ربما كانوا قانعين بمواطنيتهم الثانوية في ظل هيمنة البيض المتسامحين في مناطق معينة في الولايات المتحدة قبل حركة الحقوق المدنية في القرن العشرين أو ربما حتى قانعين بمعاملتهم من قبل ملاك العبيد في الجنوب الأمريكي قبل الحرب الانفصالية التي جعلتهم غالبًا "جزءًا من العائلة"[959]. في الواقع، كما تشير التسمية التي أطلقها المؤرخ ابن حيان القرطبي، كان المسيحيون في أسفل عالم إسلامي مُنضّد، احتل فيه العرب القمة، يليهم البربر، ثم العبيد البيض المسلمون المحررون، واحتل المولدون "المتحولون" (الذين علاوة على ذلك قُسموا إلى متحولين من الجيل الأول ثم باقي المتحولين) القاع[960]. وبالطبع المسيحيون، مرة أخرى بحكم التعريف، لم يكونوا جزءًا من الأمة الإسلامية بل كانوا مجرد موضوع للتسامح والحماية (وهي كلمة ذات معنى مشؤوم بالنسبة لأي شخص على دراية بابتزاز "الحماية") طالما لزموا أماكنهم بتواضع ودفعوا لقاء الحماية المذكورة، ضمن تكتيك للهيمنة استخدمه أيضًا المسلمون الأتراك خلال أربعمئة عام من إخضاعهم لليونانيين المسيحيين.

نظرًا للقوانين الدينية الإسلامية في العصور الوسطى، كان وضع التابع حتميًا في كل مكان في الإمبراطورية الإسلامية. كما لاحظ Robert M. Haddad في حالة المسيحيين السوريين في القرن العشرين، الذين عاشوا في ظل حكم إسلامي، إن كان منسجمًا حقًا مع شرائعه، يمكنه أن يؤكد فقط للمسيحيين الوضع الهامشي الذي طالما كانوا عليه على مدى ألف عام.[961]

لقد درس هذا الكتاب من كان الرابحون ومن كان الخاسرون في التسلسل الهرمي الجديد لإسبانيا الإسلامية. لولا المقاومة المسيحية والاسترداد النهائي، أولًا ضد الخلافة الأموية في قرطبة ثم ضد إمبراطوريتي البربر المرابطين والموحدين، كان يمكن لإسبانيا أن تكون اليوم امتدادًا لثقافات شمال إفريقيا والشرق الأوسط. وكما علق مؤرخ العصور الوسطى خوسيه إنريكي رويز دومينيك José Enrique Ruiz- Domènec: "الحدود بين إسبانيا والمغرب هي حدود العالم حيث ثمة الفرق الأكثر وضوحًا بين العالمين. لو انتهت معركة نافاس دي تولوز بالخسارة، لكانت الحدود على جبال البيرنييه. وعندها لن يكون بمقدور المرء أن يأكل لحم الخنزير أو يشرب البيرة. ربما كان اسم أحدهم حسين أو جمال أو بينظير، وربما لن يكون بمقدور المرء الخروج إلى الشارع دون ارتداء الحجاب"[962].

بعد الاحتلال الإسلامي في القرن الثامن، استغرق إسبانيا المسيحية سنوات عديدة لتطوير عظمة ثقافة العصور الوسطى المسيحية الخاصة بها بثراء شعرها الغنائي والقصصي وقوة فنها المعماري ونحتها الرومانسي والقوطي. استمرت هذه العملية خلال عصر النهضة والإصلاح الكاثوليكي المضاد، وبلغت ذروتها في "العصر الذهبي الإسباني" مع شخصيات أدبية مثل جارسيلاسو دي لافيجا، القديس يوحنا الصليب، سانتا تيريزا من أفيلا، فراي لويس دي ليون، ميجيل دي سرفانتس، لوب دي فيجا، تيرسو دي مولينا، لويس دي غونغورا، فرانشيسكو دي كيفيدو وكالديرون دي لابراكا، ومثل الرائد في القانون الدولي الكاهن الدومينكاني فرانشيسكو دي فيتوريا، ومفكرين في الحرية والغزو مثل الأسقف الدومينكاني بارتولومي دي لاس كاساس وخصمه المثقف الإنساني الكلاسيكي خوان جينيس دي سيبولفيدا، ومفكرين اقتصاديين وسياسيين وفلاسفة مثل الرهبان الدومينكان دومينغو دي سوتو، مارتين دي أزبيلكويتا، توماس دي مركادو، والكاهنين اليسوعيين لويس دي مولينا وفرانشيسكو سواريز ومؤلفين موسيقيين مثل خوام ديل إنسينا، أنطونيو دي كابيزون، غاسبر سانز، فرانسيسكو غيريرو، كريستوبال دي موراليس والكاهن توماس لويس دي فيكتوريا، ورسامين رائعين مثل دييغو فيلاسكيز وآل غريكو؛ هذا الأخير فنان من الشتات اليوناني المسيحي والذي بالكاد نجا من التدمير القاسي الذي استغرق قرونًا لحضارتهم من قبل المحاربين الإسلاميين المتمردين[963].

قائمة بالمراجع المختارة

يمكن الاطلاع على المعلومات الببليوغرافية الكاملة عن جميع الأعمال المذكورة في هذا الكتاب، بما في ذلك المصادر الأثرية والنقود، في الملاحظات على الفصول.

المصادر الأولية:

كثيرًا ما تم إهمال المصادر المسيحية من قبل المستعربين في دراساتهم عن إسبانيا الإسلامية. ومع ذلك فهي ذات قيمة بحد ذاتها (بعضها يوفر نقد الروايات وردود الفعل على الفتح الإسلامي)، وفي حالة *Chronica mozarabica* of 754 المصدر الأكثر مصداقية، ولكن لأنها تساعد أيضًا في التثبت والجدل أو إكمال التأكيدات الواردة في السجلات والسير الذاتية الإسلامية التي تكون أحيانًا دعاية شوفينية حول الأندلس والإسلام، كما أقر بذلك المستعرب الإسباني Jorge Aguadé في طبعته من كتاب التاريخ (*Kitab al-Tarij*, 78) "بشكل عام لم يكن التاريخ في العالم الإسلامي في العصور الوسطى سوى تخصص لخدمة العلوم الدينية والتقليد" و AF. Rosenthal, *History of Muslim Historiography* (Leiden: Brill, 1968), 42ff. لتسهيل البحث والاستشارة، عادةً ما يتم ترتيب العناوين والأسماء في العناوين أبجديًا وفقًا لتهجئتها في الإصدار واللغة المعينة التي تظهر فيها.

- *Abd al-Malik B. Habib (m.238/853):* *Kitab al-Tarij (La Historia)*. Edition and study by Jorge Aguadé. Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1991

- Abd al-Wahid al-Marrakushi. *Histoire des almohades*. Translated by Edmond Fagnan. Algiers: Adolphe Jourdan, 1893

- *Abu Muhammad Abd al-Wahid al-Marrakusi: Lo admirable en el resumen de las noticias del Magrib (Kitab al-Muyib Fi Taljis Ajbar al-Magrib)*. Translated by Ambrosio Huici Miranda. Tetuán: Editora Marroquí (Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Árabe), 1955

Vico, Jesús, and María Cruz Cors. “La moneda
, no. 169 (June 2008):*Gaceta numismática*visigoda.”
25–26.

. New York:*Byzantium and Europe*Vryonis, Speros.
Harcourt, Brace and World, 1967.

New York: W.*Barbarians to Angels*. Wells, Peter S.
W. Norton, 2008.

*Islamic Literature in Spanish and*Wiegers, Gerard.
Aljamiado: Yva of Segovia (f1.1450), His Antecedents
Leiden: Brill, 1994.*and Successors.*

*The Arab Contribution to Islamic Art:*Wigdan, Ali.
. Cairo:*From the Seventh to the Fifteenth Centuries*
Cairo American University in Cairo Press, 1999.

Wilken, Robert Louis. “Christianity Face to Face with
, January 2009, 19–26.*First Things*Islam.”

*The Rome That*Williams, Stephen, and Gerard Friell.
Did Not Fall: The Survival of the East in the Fifth
.. New York: Routledge, 1999*Century*

هوامش:

عن المؤلف:

داريو فرنانديز مويرا، أستاذ مشارك في قسم اللغة الإسبانية والبرتغالية في جامعة نورث وسترن. وهو عضو سابق في المجلس الوطني للعلوم الإنسانية، وحاصل على بكالوريوس من جامعة ستانفورد، وماجستير من جامعة بنسلفانيا، ودكتوراة من جامعة هارفارد. نشر العديد من الكتب والعديد من المقالات حول القضايا الثقافية والأدبية والتاريخية والمنهجية في إسبانيا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة.

الملاحظات

[1←]

-1هكذا تم وضع المنحة في خدمة المهمة الثقافية. سأل كولين سميث مؤرخ العصور الوسطى الإسباني سلفادور مارتينيز في الثمانينيات إن كان ثمة أي نص قد عزز وروج مفهوم "تعايش الثقافات" بين مختلف المجموعات الإثنية-الدينية التي سكنت إسبانيا في العصور الوسطى. سلفادور مارتينيز كان يعتقد أن ليس ثمة شيء كهذا، لذلك شرع في كتابة نص تمعن فترة معينة مناسبة لتعزيز التعايش.
H. Salvador .الاستشهاد بطلب سميث في
. في إسبانيا القرنMartínez ،La Conivencia
الثالث عشر: وجهات نظر ألفونسي (مدريد:
). يمكن العثور على2006، Ediciones Polifemo
سرد متعمق للرؤية الرومانسية لإسبانيا الإسلامية في مقال بقلم بيدرو مارفيل أستاذ علم الآثار بجامعة قرطبة. الرؤية الرومانسية لقرطبة بني أمية: طريق الخلافة: رحلة تاريخية ضخمة من قرطبة إلى غرناطة. Elجوليا سايز باردو دي بينيتو (غرناطة: مؤسسة
Legado Andalusí ،2005) ،205-12.

[2←]

- للاطلاع على نهج "الاتفاقيات السلمية"، انظر Alejandro García Sanjuán, *La conquista islámica de la peninsula ibérica y la tergiversación del pasado: Del catastrofismo al negacionismo* (Madrid: Pons, 2013) حيث هاجم "المقاربة الكارثية" لبعض العلماء مثل لويس أ. غارسيا مورينو وسيرافين فانجول بالإضافة إلى "النزوع الإنكاري" لإغناسيو أولاغوي وإميليو غونزاليس فيرين. غارسيا سانجوان يقبل فكرة الفتح، رغم أنه كان "سلميًا إلى حد كبير" كما يقول. "المقاربة السلمية" وصلت إلى خاتمتها المنطقية مع Olagüe في كتابه "*Les arabes n'ont jamais envahi l'Espagne* (Paris: Flammarion, 1969)" حيث جادل بأنه لم يكن هناك غزو ولكن بالأحرى هيمنة ثقافية لشكل من أشكال الدين (التثليث المسيحي) مقابل شكل آخر (التوحيد المسيحي). المقاربة السلمية أُعطيت نسخة مختلفة من قبل المستعرب الماركسي إميليو غونزاليس فيرين، الذي يجادل بأنه لم يكن هناك غزو وإنما هجرة مطردة للمسلمين من شمال إفريقيا، هذه الهجرة أصبحت مهيمنة في النهاية. انظر له "التاريخ العام للأندلس" (قرطبة،2006)، أطروحة فيرين ("النفي" بكلمات غارسيا سانجوان) التي كانت ناجحة للغاية في إسبانيا والعالم الأكاديمي المتحدث باللغة الإنجليزية، حيث إن إنكار فكرة الغزو يُسهل إنكار الفكرة المشينة عن الاسترداد المسيحي. بالنسبة لما يطلق عليه غارسيا "المقاربة الكارثية" انظر Serafín Fanjul، *Al-Andalus contra España: La forja del mito* (Madrid: Siglo XXI, 2000). النهج الأكثر منطقية هو نهج المستعرب Felipe Maíllo Salgado، *Acerca de la conquista árabe de España: imprecisiones, equívocos y patrañas* (Guijón: TREA, 2011).

[3←]

-تم التغاضي عن هذه النقطة حتى من قبل العلماء الجيدين الذين يفتقرون رغم ذلك إلى منظور عالمي مثل المستعرب *Al-Andalus: sociedad* ،Joaquín Vallvé Bermejo, (Madrid: Real Academia de la*e instituciones* .Historia, 1999), 60–62. في العديد من الفتوحات الأخرى (مثل احتلال الإنجليز للهند أو الفرنسيين للجزائر أو الرومان الإسبان من قبل القوط الغربيين) كان السكان معتادين بالفعل على رؤية المجموعات الحاكمة تأتي وتذهب، لكن Vallvé Bermejo يتغاضى عن حقيقة أن التغيير كان ملحوظًا بشكل أكبر مع الغزو الإسلامي لأنه استلزم وضع دين شامل وبالتالي أسلوب حياة –الإسلام- في موقع مهيمن إزاء البدائل. بالطبع كان للمسلمين وغير المسلمين تأثير بعضهم على بعض، ولكن يمكن قول الشيء ذاته عن العديد من الصراعات الحضارية الأخرى. في الولايات المتحدة، لا سيما في الجنوب الأمريكي، تم تشكيل البيض من خلال ثقافة العبيد المحررين في نهاية المطاف، وهؤلاء، بدورهم، تبنوا معظم أساليب الأسياد السابقين بما في ذلك لغتهم ومعتقدهم. في الأمريكتين، أثر الإسبان والهنود الأمريكيون على بعضهم بعمق: كان هناك زواج مختلط واسع الانتشار وكان هناك كتّاب وفنانون وسياسيون من الهنود الحمر والميستيزو ساهموا مع الإسبان في إنشاء حضارة جديدة. حتى في الهند، ورغم محاولاتهم للبقاء بمنأى عن التأثيرات، تأثر البريطانيون بالحضارة الهندية بينما تبنى السكان الأصليون الذين سُمح لهم بالحفاظ على دينهم وثقافتهم العديد من ممارسات الفاتحين بما في ذلك نظامهم البرلماني. في كل هذه الحالات، كانت هناك آثار مثيرة للاهتمام ثقافيًا وحتى جذابة. لا شيء من هذا، مع ذلك، يمكن أن يزيف حقيقة أن الثقافات في حراكها كانت مختلفة وأن بعضها كان مهيمنًا بينما كان بعضها الآخر مهيمنًا عليه.

*بانجلوسي: يتميز بالرأي القائل بأن كل شيء للأفضل في أفضل العوالم الممكنة: مفرط في التفاؤل. كان الدكتور بانجلوس المعلم القديم المتحذلق في رواية "كانديد" الساخرة لفولتير. كان Pangloss متفائلًا غير قابل للشفاء، وإن كان مضللًا، وادعى أن "كل شيء للأفضل في هذا العالم، أفضل العوالم الممكنة". كان مثابرًا جدًا على تفاؤله لدرجة أنه احتفظ به حتى بعد أن شهد وعانى من القسوة والمعاناة الشديدة. يأتي اسم "Pangloss" من كلمة pan اليونانية، وتعني "all"، وglossa، وتعني "اللسان"، مما يشير إلى اللمعان والثرثرة. (المترجم)

[4←]

- انظر John P. A. Ioannidis (مدير مركز ابتكار الأبحاث الفوقية في جامعة ستانفورد) "لماذا نتائج معظم الأبحاث المنشورة خاطئة؟" PLoSMed, 30 أكتوبر 2005 على 3Adoi%2F10.1371%2Fjournal.pmed.0020124 و"كيف تجعل المزيد من الأبحاث المنشورة صحيحة",PLoSMed,21 أكتوبر 2014 على http://www.

http://www.
org/article/info%3Adoi%2F10.1371%2Fjournal.pmed.1001747
انظر أيضًا أليكس ب بيرزوف "كيف تجعل العلماء ينشرون الحقيقة"، *Real Clear Science*، 21 أكتوبر 2014 على n/blog/2014/10/how_to_make_sure_scientists_publish_the_truth.html. أظهر Ioannidis أن معظم نتائج البحث العلمي المنشورة خاطئة، جزئيًا بسبب "مصالح وحوافز أصحاب المصلحة". مركز ابتكار الأبحاث الفوقية Metaresearch يستمر في تظهير المشكلة. انظر على سبيل المثال Benedict Carey بنديكت كاري "العديد من نتائج علم النفس ليست قوية كما يُدّعى"، نيوريورك تايمز، 27 آب 2015. سوف يُدرك أي شخص مُطلع على العلوم الإنسانية أن الوضع هناك قد يكون أسوأ بكثير على الأرجح، وأن قدرًا كبيرًا من البحث في العلوم الإنسانية يرتكز، في الواقع، على الاعتقاد أن ليس ثمة بحث "حقيقي" لتبدأ به. التحسينات التي اقترحها Ioannidis من أجل البحث العلمي قد تكون مفيدة في العلوم الإنسانية كذلك.

[5←]

5- Max Bazerman، ماكس بازرمان "جعل المنظمات أخلاقية"، مجلة هارفارد، تشرين الثاني، كانون الأول، 11-12-2014.

[6←]

6- نشأ هذا التعبير مع الناقد الأدبي الماركسي "فريدريك جيمسون" الذي تم الاستشهاد به على نطاق واسع والذي بدا أنه يعفي نفسه من هذا الضعف. انظر Reed Way Rasenbrock,"فريدريك جيمسون، خرافات العدوان"، *International Fiction Review* 8, no. 1 (1981): 78.

[7←]

- في دراسته البارعة لأسباب سقوط إسبانيا الإسلامية أورد المستعرب الإسباني Felipe Maíllo Salgado أسبابًا مهمة مع أنها غير كافية "تنوعها الإثني والديني" (عرب، بربر، ذوو الأصول الإسبانية –بعضهم أسلم، واستعرب آخرون، السلاف، الأفارقة السود... الخ. المسلمون واليهود والمسيحيون). انظر Felipe Maíllo Salgado، *De la desaparición de Al-Andalus* (Madrid: Abada, 2011), 11.

[8←]

[8] – أصبحت هذه الرؤية المبهجة لإسبانيا الإسلامية جزءًا من ظاهرة يمكن للمرء أن يسميها "الاستغراب"، تفسير سلبي شائع للغرب يبلغ ذروته في إنكار وجوده أصلًا "في هذه المقاربة يتم وضع الغرب دائمًا ضمن "علامات تنصيص" بوصفه بنية جوهرية على عكس الإسلام والرأسمالية وما إلى ذلك، التي من المفترض أنها موجودة بالفعل وليست بنية جوهرية. من أجل نقد واسع النطاق لهذا الموقف الأكاديمي انظر Ricardo Duchesne، فرادة الحضارة الغربية، ليدن، برلين، 2011. من أجل تاريخ موجز انظر، Ian Buruma وAvishai Margalit، *Occidentalism: The West in the Eyes of Its Enemies*، *(الغرب في عيون أعدائه)*.نيويورك، بنجوين، 2004. أشكر دانييل بايبس لتذكيري بمارتن كرامر وفحص برنارد لويس النقدي للدور الذي لعبه عدد من المستعربين اليهود في إشاعة صورة متحمسة لإسبانيا الإسلامية: مارتن كرامر، *The Jewish Discovery of Islam: Studies in Honor of Bernard Lewis* (Tel Aviv: The Moshe Dayan Center for Middle Eastern and African Studies, 1999). أفضل محاولة لفحص أصول هذا البناء الفكري المدهش هي على الأرجح محاولة Rosa María Rodríguez Magda، *Inexistente Al-Ándalus: de cómo los intelectuales reinventan el Islam* (Oviedo: Ediciones Nobel, 2008). التأويل الارتيابي سيتضمن رهاب المسيحية، الازدراء واسع النطاق للمؤرخين الأكاديميين تجاه المسيحية من بين الأسباب التي تقف وراء هذه البنية.

*الحاضرية: في التحليل الأدبي والتاريخي، تمثل النزعة التاريخية مباينة تاريخية للأفكار ووجهات النظر الحالية في تصويرات وتفسيرات الماضي. يسعى بعض المؤرخين المعاصرين إلى تجنب الانحناء في عملهم لأنهم يعتبرونه شكلًا من التحيز الثقافي، ويعتقدون أنه يخلق فهمًا مشوهًا لموضوعهم.

[9←]

- ممثل هذه النظرة المادية واسعة الانتشار عن الفتح الإسلامي هو Richard Hitchcock "ريتشارد هيتشكوك" في كتابه: *Mozarabs in Medieval and Early Modern Spain:* (Hampshire: Ashgate,*Identities and Influences* (2008. ما هو مُتاح من التوثيق المعاصر لا يبدو أنه يدعم الجدال العام بأن صدام المسلمين مع القوط الغربيين في شبه الجزيرة الإيبيرية في أوائل القرن الثامن كان يُنظر إليه بوصفه مواجهة دينية. بعبارة أخرى، لم يكن الأمر يتعلق بمقاومة الجيوش الإسلامية وهزيمتها للقوى المسيحية. بدلًا من ذلك، يمكن اعتبار الفتح والاحتلال كواحد من بين العديد من حلقات التوسع الإسلامي في القرن الأول الاستثنائي بعد وفاة مُحمد عام 632 م. لا يبدو أنه قد خطر لهذا المؤرخ أن الكلمة ذاتها "إسلامي" التي يستخدمها كنعت لكلمة التوسع، توجد بسبب دين يُدعى الإسلام، والذي يُعتبر بدوره سبب ذلك التوسع "الإسلامي" وأنه دون الإسلام ليس ثمة "مسلم" وبالتأكيد ليس ثمة توسع إسلامي. ما يتبع في وصف هذا المؤرخ للأشياء مفيدٌ بالقدر نفسه لأنه يعتمد على قراءات للقرآن الكريم ولكلمة الجهاد من قبل بعض المختصين اليوم: قد يكون هؤلاء العلماء أكثر أو أقل دراية بالمعنى الحقيقي للإسلام مما تعلمه العلماء المسلمون في القرون الوسطى الذين كانوا اقرب للإسلام وأصوله، لكن إمكانية التفسير الخاطئ هذه من قبل علماء المسلمين في القرون الوسطى لا تغير تفسيرات العصور الوسطى للجهاد على أنه واجب ديني لإجبار الكفار على تبديل دينهم أو الموت، أو كما في حالة المسيحيين واليهود، إعلان إسلامهم أو دفع الجزية أو الموت –كما يتضح من عدد لا يحصى من المستندات التي تعود إلى العصور الوسطى والتي تثني وتبرر بأشكال مختلفة الحرب على الكفار من أجل الدين الحق-. وهكذا يستنتج المؤرخ:"إن طلب الجهاد باعتباره حربًا مقدسة ليس بالتالي عاملًا دافعًا يتعلق بالصدام بين المسلمين والناس (لاحظ هنا تجنب كلمة مسيحيين في حالة المسيحيين)، الذين دحروهم في القرن الأول للإسلام على الأقل ليس فيما يتعلق بغزو شبه الجزيرة الإيبيرية واحتلالها لاحقًا. من أجل نقد لهذا النهج المادي انظر G. H. Bousquet, “Observations on the Nature and Causes of the Arab Conquest,” in Fred M. *The Expansion of the Early Islamic* .Donner, ed (London: Ashgate, 2008), 23–35*State*. من أجل نقد مقتضب للتفسير المادي للحروب الصليبية انظر Paul Crawford, “Four Myths about the Crusades,”

46, no. 1 (Fall 2011): 13–*Intercollegiate Review*
.22

[10←]

10_ المثل هو Castro's *España en su historia* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1954)، ترجم مؤخرًا كما يلي: *The Spaniards: An Introduction to Their History*, trans. Willard F. King (Berkeley: University of California Press, 1971) والذي اقتبستُ منه. لا يستشهد كاسترو Castro بأطروحات الشريعة الإسلامية في العصور الوسطى، ولا بعلماء الشريعة الإسلامية من إسبانيا أو من أي مكان آخر في عالم العصور الوسطى، ولا حتى بالعلماء المعاصرين في الشريعة الإسلامية، سواء الغربيين مثل (يوسف شاخت Joseph Schacht أو حتى إجناتس جولدتسيهر Ignaz Goldziher) أو المسلمين. لم يذكر أبدًا مؤسس المالكية، الإمام مالك ابن أنس. ذكرت مدرسة المالكية مرة واحدة فقط ضمن اقتباس لكلمات عالم آخر (230). ويطلق على القرآن "صرح للتسامح" (499). يبدو غير مدرك للمصطلح الشرعي "ذمي". حتى استخدامه للمؤرخين المسلمين قليل جدًّا. يذكر موسى بن ميمون عدة مرات لكنه لم يحلل أيًّا من نصوصه التشريعية ويبدو غير مدرك للميشناه توراة الأساسية (العمل الوحيد الذي ذكره لموسى بن ميمون هو دلالة الحائرين الذي يتم الاستشهاد به عادةً).

[11←]

*De la andalucía*Claudio Sánchez-Albornoz, 11-
(Barcelona: Rialp, 1983);*islámica a la de hoy*
Viejos y nuevos estudios sobre las instituciones
(Buenos Aires: Espasa*medievales españolas*
*La España musulmana:*Calpe, 1980), 3 vols.;
Según los autores islamitas y cristianos
medievales
Buenos Aires: Espasa Calpe,)
2 vols.; *Spain: A* ,(1973
Historical Enigma (Madrid:
Fundación universitaria
española, 1975); *España y el*
Islam (Buenos Aires: Editorial
sudamericana, 1943)

[13←]

- من أجل الهجوم الأكاديمي الضخم على غوغنهايم Gouguenheim انظر Paul-François Paoli, “L’historien à abattre,” *Le Figaro*, July 15, 2008, http://www.lefigaro.fr/actualite-france/2008/07/08/01016-20080708ARTFIG00553-l-historien-a-abattre-.php, and “Fatwa contre Sylvain Gouguenheim,” Newsgroup Archive, http://fr.soc.histoire.narkive.com/AonPwRCN/fatwa-contre-sylvain-gouguenheim.. للحصول على حساب موجز عن المبالغ الهائلة من الأموال التي أغدقتها الدول الإسلامية الغنية على الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية والعربية في الجامعات الغربية انظر Giulio Meotti, “Islam Buys Out Western Academia,” *Arutz Sheva: Israel National News*, June 23, 2012. دراسة أكثر تفصيلًا لنتائج هذا التأثير على البحث والتدريس الأكاديمي في مارتن كرامر، Martin Kramer, *Ivory Towers of Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America* (Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, 2001). الأمثلة التالية توضح الظاهرة: برنامج الدراسات الإسلامية في جامعة هارفارد يحمل اسم الأمير السعودي الوليد بن طلال بن عبد العزيز آل سعود، نتيجة المبالغ الطائلة من الأموال التي منحها الأمير له. مركز الدراسات الإسلامية في جامعة كامبريدج يحمل أيضًا اسم الأمير لأسباب مماثلة. في جامعة أدنبرة، مركز دراسة الإسلام في العالم المعاصر تم إنشاؤه أيضًا من قبل الأمير. في جامعة

لندن، البروفيسور تشارلز بورنيت، كرسي تاريخ التأثيرات الإسلامية في أوروبا في معهد واربورغ، شريك رئيس في FSTC "مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة". FSTC وجامعة خليفة سيخلقان مركز التراث للعلوم التفاعلية في الإمارات العربية المتحدة. انظر: http://muslimheritage.com/topics/default.cfm?ArticleID=1083#sec3, accessed August 1, 2012. إلى قائمة الجامعات التي هي الآن ممتنة لهذه العلاقة النزيهة مع الدول الإسلامية يمكن أن نضيف جامعة يال والتي أعلنت في ذكرى 11 سبتمبر أنها تلقت 10 ملايين دولار في 2015 من رجل الأعمال السعودي عبد الله كامل من أجل "تأسيس ما يأمل مسؤولو الجامعة أن يصبح أعلى مركز في البلاد لدراسة الشريعة الإسلامية.. قال مسؤولو الجامعة إن المركز سيعكس اهتمامًا متزايدًا في يال والمؤسسات الأخرى بالشريعة الإسلامية والتاريخ والثقافة". انظر ("Islamic Law at Yale: $10M," *Chicago Tribune*, September 11, 2015). المؤسسات الأصغر استفادت بدورها من هذا السخاء. هكذا فإن حرم لامبيتر بجامعة ويلز ترينيتي سانت ديفيس، التي أسسها في القرن التاسع عشر الأسقف الأنجليكاني ديفيد بورغس، يشبه الآن مسجدًا جميلًا. يشير المسجد إلى وجود عدد من الطلاب المسلمين الذين جذبهم قسم اللاهوت الشهير، والدراسات الدينية والإسلامية. وهي علامة أيضًا أن الشيخ خليفة حاكم أبو ظبي وحكّام البحرين وقطر يتبعون الأسقف ديفيد بوصفهم متبرعين للجامعة. هباتهم البالغة 1.8 مليون جنيه إسترليني تساعد في تمويل الدراسات الإسلامية في قلب ريف ويلز. انظر: *The*"Disappearing Worlds,"

Guardian, November 13, 2000., قد يشك المرء في أن جميع مراكز الدراسات الإسلامية هذه ستتولى نوع الفحص النقدي لموضوعها على غرار الفحص الذي أخضع أساتذة في ميادين أخرى مواضيعهم له، مثلًا، يسوع، العهد الجديد، أو المسيحية الأولى. يمكن أن تشمل هذه الأبحاث غير المحتملة ما يلي: كيف كان يُنظر إلى مُحمد بوصفه نبيًّا، تاريخيًّا؟ أو من خلال أي عوامل أو أحداث معقدة جرى تأليف القرآن وانتهى إلى اعتباره كلمة الله؟ هذه هي الأسئلة المفضلة التي يتم طرحها بشكل روتيني من قبل الباحثين الجامعيين الفضوليين حول يسوع والعهد الجديد، لكن خبراء الدراسات الإسلامية ربما فضلوا استقصاء إمكانية صنع الإسلام للكمبيوتر وآلات الطيران. المستعربون وخبراء الشرق الأوسط والخبراء الإسلاميون يمتلكون الآن ويسيطرون على كل المعرفة "المعتمدة" للتفاعل بين الإسلام والحضارات الأخرى. من أجل الظاهرة المهنية العامة انظر: Charles Derber, William A. Schwartz, and Yale Magrass, *Power in the Highest Degree: Professionals and the Rise of a New Mandarin Order* (New York: Oxford University Press, 1990). خوف مماثل من فقدان امتيازات السفر إلى بلد أبحاثهم وتدريسهم، وليس فقط التعاطف مع الاشتراكية الحقيقية ربما يكون السبب أيضًا في ندرة الانتقادات المباشرة للاتحاد السوفيتي في كتابات أساتذة جامعيين كانوا يتخصصون في "الدراسات السوفيتية". مثل هذه الحكمة يمكن العثور عليها اليوم بين المتخصصين في الجامعات الأنجلو امريكية حول كوبا (المتخصصين الكوبيي الأصل من سلالة مختلفة أحيانًا) الذين تبدو كتاباتهم غافلة عن السياسة-

استنكاف ملحوظ بالنظر إلى الدور الذي يلعبه النقد السياسي اليوم في الكتابة الأكاديمية المتعلقة بالولايات المتحدة والغرب عمومًا.

[15←]

*La quimera de al-Andalus*Serafín Fanjul, -
De la(Madrid: Siglo XXI, 2004); Salgado,
desaparición de Al-Andalus. الغريب أن أيًّا من هؤلاء
العلماء لم يفحص أو يذكر في هذه الأعمال أيًّا من النصوص
التي قمتُ بفحصها في هذا الكتاب، موطأ مالك، التفريع، المدونة
و*Leyes de moros* وبدايات ابن رشد.

[16←]

- ابن ظفر الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الأتباع، ترجمة: ر. حرير دكمجيان وعادل فتحي ثابت في "السلف العربي لمكيافيلي: ابن ظفر الصقلي"، *British Journal of Middle Eastern Studies*: 27, no. 2 (November 2000) 131. كان هذا المفكر المسلم ميكيافيليًا طليعيًا في الأدب.

[17←]

- من بين هذه الكتب الممتازة، Emmet Scott, *Mohammed and Charlemagne Revisited: The History of a Controversy* (Nashville, TN: New English Review Press, 2012);
Mark Cohen, *Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994; rept. with a new introduction, 2008).

كتاب جيد آخر لكنه يهتم بالعنف الواقع على الجالية اليهودية وليس بالعنف اللاحق بالمجتمع المسيحي، أو بالشرائع الدينية هو كتاب ديفيد نيرنبرغ، David Nirenberg, *Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996).

بحث جانينا سافران الجيد *Defining Boundaries in al-Andalus* (Ithaca: Cornell University Press, 2013) لا يذكر الرجم أو ختان الإناث أو الصلب أو قطع الرؤوس أو العبودية الجنسية.

Richard Fletcher's *Moorish Spain* (New York: Henry Holt, 1992) هو تاريخ عام جيد، لكنه لا يستفيد إلا بقدر ضئيل من المواد القانونية من المصادر الإسلامية واليهودية والمسيحية لا يخوض في ظروف تلك المجتمعات ولا يُظهر إلا القليل من التعاطف مع محنة أهل الذمة الكاثوليك.

كتاب سابق Thomas F. Glick's *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979) يُطبق بذكاء أحدث تقنيات التأريخ لكنه تغاضى عن القوانين الدينية الإقصائية للجالية اليهودية، ولم يتعامل مع الشريعة الإسلامية، ولم يأخذ في الحسبان أهمية الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية في تاريخ العصور الوسطى، متعقبًا ما يمكن أن يسميه المرء ظاهرة رهاب المسيحية الأكاديمية، وكان غير متعاطف مع محنة أهل الذمة المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي.

[18←]

- الاطلاع على المواد البيليوغرافية في كتب بعض العلماء الناطقين باللغة الإنجليزية
يكشف عن ندرة المراجع للمنشورات المكتوبة باللغة الإسبانية في المجلات العلمية الإسبانية
وحتى في دور التحرير الإسبانية بجميع أنواعها. تأثير الإقصاء مشابه لذلك الذي تم خلقه من قبل، على سبيل المثال، عالم ألماني متخصص بشكسبير (وهو حقل قام فيه الألمان بعمل جيد جدًّا) لكنه لم يعتمد كثيرًا على بحث النقاد الشكسبيريين المتحدثين بالإنجليزية. وخير مثال على هذه الظاهرة كتاب Richard Fletcher's *The Quest for the Cid* (New York: Alfred A. Knopf, 1990)، الذي قلما يشير إلى العلماء الإسبان باستثناء Ramón Menéndez Pidal الذي يستخدمه إلى حد كبير كغطاء للكتاب. يبدو أنه غير معروف لفليتشر أن مقاربته الخاصة لإزالة الغموض تجاه Cid تقع ضمن نطاق نمط طويل من الرهاب العلمي المتعلق بـ **El Cid**, الذي استقصاه Menéndez Pidal في الصفحات الأولى من كتابه *La España del Cid* (Madrid: Espasa-Calpe, 1947), 1:14–45.

[19←]

- يجب على القراء على وجه الخصوص تجنب "الحاضرية" المذكورة أعلاه، والتي تفسد الكثير من التعليم والبحث العلمي اليوم، والتي حذر نيتشه منها مؤرخي زمنه. للاطلاع على إساءة استخدام التاريخ اليوم انظر ,Gordon S. Wood *The Purpose of the Past: Reflections on the Uses of History* (New York: Penguin, 2008), 6: "العديد من مؤرخي اليوم لديهم نظرة ذرائعية للتاريخ ويرون أنفسهم أساسًا على أنهم نقّاد ثقافيون والذين يرغبون بالتلاعب بالماضي من أجل الحاضر". يستشهد Wood بفردريك نيتشه، *The Use and Abuse of History* (1873; New York: Cosimo, 2010), 10 "رؤاهم حيال الماضي تحيلهم إلى المستقبل، تشجعهم على تحمل الحياة، وتثير الأمل أن العدالة قادمة وأن السعادة خلف الجبل الذي يتسلقونه.. لا يعرفون أن أفكارهم وأفعالهم جد لا تاريخية على الرغم من كل تاريخهم".

[20←]

- هذا الأدب المُعاد تفسيره ضخم فعلًا ويستمر في النمو. حتى الفاتيكان ساهم فيه، انظر: Abderrazak Sayadi, "La sorgente feconda della razionalità musulmana," *L'Osservatore romano (Edizione quotidiana)*, March 13, 2009 الذي يجادل بأن الشريعة هي "انحراف" دون أي أساس ديني في الإسلام. يمكن للقارئ المهتم بالموضوع أن يبدأ بثلاثة كتب تجادل بأن الفقهاء الذكور (النوع الوحيد من الفقهاء) قد أساؤوا الفهم عبر القرون: Fatima Mernissi, *Le harem politique* (Paris: Albin Michel, 1987 الذي تُرجم *The Veil and the Male Elite: A Feminist Interpretation of Women's Rights in Islam*, trans. Mary Jo Lakeland [Reading: Addison-Wesley, 1991])، وBarbara Freyer Stowasser, *Women in the Qur'an, Traditions, and Interpretation* (Oxford: Oxford University Press, 1994)، وAsthma Barlas, "*Believing Women" in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an* (Austin: University of Texas Press, 2002).

Abdullahi Ahmed An-Naim, *Islam and the Secular State* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2008), يجادل أيضًا أن الإسلام لا يتعارض مع الحرية، الديمقراطية وما إلى ذلك. أيًّا من هذه الكتب لم يذكر مالك. في كتاب سابق، جادلت المرنيسي بأن النساء لديهن بالفعل السلطة في الإسلام، حتى أكثر من الرجال، بسبب من جنسانيتهن بالذات، وأن الشريعة الإسلامية التقليدية تحاول أساسًا السيطرة على تلك الجنسانية بحيث يبقى الرجال مصونين، انظر: Fatima Mernissi, *Beyond the Veil* (New York: John Wiley & Sons, 1975). من أجل الشكوك حول توافق الإسلام مع الديمقراطية الحديثة انظر: عالم الاجتماع والسياسي الإيطالي Giovanni Sartori, *Pluralismo, multiculturalismo e stranei: Saggio sulla societá*

[21←]

Le Traité des divergences du hadit d'Ibn -
), trans. Gérard *Qutayba (mort en 276/889*
Lecomte (Damascus: Institut Français de
A. J. انظر أيضًا تأكيد .Damas, 1962), 216b (p. 222)
(xxiii, "السنة لا القرآن، هي أعلى مثال معياري" Wensinck
.n5)

[22←]

- من الممكن نظريًا أن العلماء اليوم الذين يوسّطون القرآن بشكل مختلف عن الطريقة التي كان العلماء الأوائل يوسّطونه بها، قد فهموه على نحو أفضل، وأنهم على خلاف العلماء الأوائل، لم يحرفوا القرآن من خلال منشوراتهم لخدمة رغبتهم الخاصة في السلطة والمنافع السياسية أو بعض الاحتياجات الأخرى وبالتالي لم يخضعوا في تأويلاتهم للتأثير الذي أحدثته ظروفهم الاقتصادية -الاجتماعية والعرقية والجنسانية وغيرها.

[23←]

R. Arnaldez, “La guerre sainte selon Ibn -
*Études d’Orientalisme*Hazm de Cordoue,”
(Paris:*dédiées a la mémoire de Lévi-Provençal*
Maisonneuve, 1962), 2:445

[24←]

- لمناقشة مصداقية المصادر الإسلامية انظر: Maíllo ;*De la desaparición de Al-Andalus*Salgado, *España 702–719: La conquista*García Moreno, (Seville: University of Seville, 2013);*musulmana* .*La conquista*and García Sanjuán,

[25←]

Norman Roth, “The Jews and the Muslim -
38,*Jewish Social Studies* Conquest of Spain,”
*Arabic*no. 2 (Spring 1976): 151; Tarif Khalidi,
Historical Thought in the Classic Period
.(Cambridge: Cambridge University Press, 1994)
مُناقشًا عمن كتب التاريخ بالفعل أو كيف يمكن أن يكون الدين
الذي يدين به تأريخ لتأريخ آخر ذي أهمية لغوية عظيمة لكن
الناتج يعود إلى التضاؤل عندما يحاول المرء الحصول على فكرة
عامة عن مسار الأحداث.

[26←]

- في المقابل، يدرس توما الإكويني أرسطو في الترجمات المباشرة من اليونانية بتكليف من أسقف كورنثوس للروم الكاثوليك، ويليام أوف موربيك William of Moerbeke. يجب القول إن المحتوى الفلسفي الكثيف لنصوص أرسطو صعب للغاية حتى في اليونانية الأصل، وقد سببت أحيانًا مشاكل تخصصية في تلقيها عبر وسيط مزدوج، مما قاد إلى أخطاء من قبل ابن رشد، انظر قصة خورخي لويس بورخيس الرائعة "*La busca de Averroes*"، لكن يمكن دائمًا تبرير الخطأ أكاديميًا: بعد محاضرة لي حول هذا الموضوع، أشار أحد أساتذة اللغة الإسبانية والأدب المقارن خلال فترة المناقشة إلى أن تأويلات ابن رشد الخاطئة تستحق المديح لأنها "إبداعية للغاية".

[27←]

- Rafael Cano Aguilar, *El Español a través de los tiempos* (Madrid: Arco, 1999), 52–54. مثال جيد عن المصطلح الصائب سياسيًّا السائد الآن في الأوساط الأكاديمية هو، Olivia Remie Constable, ed., *Medieval Iberia: Readings from Christian, Muslim, and Jewish Sources* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1997).

[28←]

- وجهة النظر القياسية للقوط الغربيين هي أنهم كانوا شعبًا جرمانيًا. انظر من بين أعمال أخرى، Peter Heather, ed., *The Visigoths: An Ethnographic Perspective: From the Migration Period to the Seventh Century* (Woodbridge: Boydell Press, 1999). الرواية الأكثر كمالًا والأكثر قابلية للقراءة لتاريخ القوط الغربيين في إسبانيا من المحتمل أن تكون *Hispania tardoantigua y visigoda*, ed. Pablo C. Díaz Martínez, Clelia Martínez Maza, and Francisco Javier Sanz Huesa (Madrid: Istmo, 2007). من أجل الأصل البلطيقي المحتمل وليس الجرماني للقوط الغربيين انظر: Jurate Rosales, *Los Godos* (Madrid: Ariel, 2004); "El idioma que hablaron los godos," *La Torre del Virrey*, n3, Serie 6 (February 2010), Valencia, Spain, 1–12; "Las cuatro mentiras sobre los godos," Preprint of Universidad de Los Andes, Facultad de Letras y Educación, Mérida, Venezuela (July 2, 2008), 1–26. خدم القوط الغربيون كجنود للإمبراطورية الرومانية لعدة قرون. كانت لغتهم الهندو أوروبية، مثل اللاتينية. كان رؤساؤهم يتحدثون اللاتينية. في النهاية أصبح القوطيون مسيحيين مثل الرومان، وتبنوا شكلًا هرطوقيًا من المسيحية، الآريوسية.

[31←]

- لاحظ المؤرخ Joseph Perez أنه حتى وقت قريب، كان الكتالونيون يعتبرون أنفسهم إسبانًا. يكتب أنه في القرن التاسع عشر، أن الكاتالانيين كانوا فخورين بما كان يحدث في إسبانيا، أنه في القرن السادس عشر كان البرتغاليون والفالانسيون يكتبون بالإسبانية بشكل عفوي حسبما كتب Camões وGuillén de Castro. وأنه كان ثمة تقليد طويل من التوافق مع الثقافات الإقليمية. ويخلص إلى أن التخلي عن هذا التقليد شكّل خطوة ثقافية وربما سياسية إلى الوراء. المرجع السابق.

*Acerca de la conquista*Felipe Maíllo Salgado,
"arabe de Hispania: Imprecisiones, equívocos y
(Guijón: Trea, 2011) 13, n4. Maíllo*as* ñ*patra*
Salgado concurs that today's regionalistic
.)*ahistóricos*antagonisms are unhistorical (

[32←]

- انظر عمل علماء الآثار بجامعة ملقة Salvador Peña
“Alandalús, es ،Miguel Vega Martín و Martín
, December 15, *El Trujamán* decir, España,”
2000; Rafael Frochoso Sánchez, “Las
acuñaciones andalucíes del s. VIII,” in Luis A.
García Moreno and Esther Sánchez Medina,
Del Nilo al Guadalquivir II: Estudios sobre eds.,
(Madrid: *las fuentes de la conquista islámica*
Real Academia de la Historia, 2013), 178

[33←]

- تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، المجلد 28، السلطة العباسية أكدت، ترجمه وشرحه Jane Dammen McAuliffe (New York: State University of New York Press, 1995), 55; Masudi, *Les Prairies d'Or*, trans. Charles Pellat (Paris: Societé Asiatique, 1965), 2:263.

[36←]

- للاطلاع على إشادة المسلمين الدعائية للأرض في العصور الوسطى انظر Francisco Prado-Vilar, “Circular Visions of Fertility and Punishment: Caliphal Ivory Caskets from al-Andalus,” *Muqarnas* 14 (1997): 19–41

[37←]

- من أجل الاستخدام الرمزي والعملي للتعبير انظر: José
*¡Santiago y Cierra, España! El*Javier Esparza,
(Madrid: La esfera de*nacimiento de una nación*
(los libros, 2013 . في السنوات الأولى من القرن السابع
عشر في دون كيخوته لسرفانتس، الجزء الثاني المقطع 39
يشرح دون كيخوته لسانشو معنى التعبير باعتباره صرخة معركة
ضد أعداء إسبانيا وخصوصًا الإسلام، الأمر الذي سمح
لسرفانتس (من خلال سانشو) بإلقاء نكتة حوله. بالطبع، الكثير
من الأكاديميين يستخدمون النكتة اليوم ليشرحوا أن سرفانتس،
عبد المسلمين في شمال إفريقيا لخمس سنوات وبطل في معركة
ليبانتو ضد الأتراك المسلمين، كان في الواقع ضد استخدام
التعبير كصرخة حرب ضد أعداء إسبانيا وخاصة الإسلام.

[38←]

- تتغاضى الحيلة أيضًا عن أن الحضارة "الإسلامية" كانت نتاج التقاء العديد من الحضارات الأخرى من بينها اليونانية والفارسية والهندية والتركية والمغولية وحتى الصينية، وأن الدين الذي أعطى الحضارة الإسلامية اسمها، من وجهة نظر تاريخية بحتة، برز من ديانتين موجودتين سابقتين، المسيحية واليهودية، ولذلك ربما ثمة أسباب أكثر للشك في وجود حضارة "إسلامية" أكثر مما هناك من أسباب للشك في وجود حضارة غربية. يحدث تمييز مماثل في حالة الحضارة اليهودية الإسبانية، التي على عكس الممالك الكاثوليكية الإسبانية إزاء إسبانيا القوطية الكاثوليكية، يُنظر إليها على أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالثقافة اليهودية السابقة.

[39←]

- كما لاحظ المؤرخ الإسباني للعصور الوسطى لويس أ غارسيا مورينيو أن مؤرخي الدراسات الإسلامية المعاصرة للفتح الإسلامي أهملوا غالبًا المصادر المسيحية. وبعد، تقدم هذه المصادر الرواية الأقدم وبما هو الأكثر موثوقية للغزو كما في حالة *Chronica mozarabica* of 754، انظر غارسيا مورينيو *España 702–719: La conquista musulmana* (Seville: University of Seville, 2013), 191، غارسيا مورينيو أيد آراء مؤرخ القرون الوسطى الإنجليزي روجر كولينز Roger Collins. المصادر المسيحية ذات قيمة أيضًا لأنها تخدم في "التحقق" من روايات السجلات الإسلامية، وهي مكتوبة أحيانًا لخدمة الدين والتقاليد الإسلامية، كما اعترف بها Jorge Aguadé في كتاب التفريع، وروزنتال .F Rosenthal *A History of Muslim Historiography* (Leiden: Brill, 1968), 42ff. (عند قراءة الكتابات التاريخية عن إسبانيا الإسلامية لبعض علماء اليوم، كما هو موضح في المقتطفات في الكتاب الحالي، لا يسع المرء إلا أن يشعر، بالنظر إلى صياغة الأيديولوجيا للكتابات التاريخية أن *plus ça change, plus c'est la même chose*).ما لم تتم الإشارة إلى خلاف ذلك في الملاحظات فإن المصادر الأولية الرئيسة التي تم الرجوع إليها في هذا الفصل: *Chronica mozarabica* of 754، *in José Eduardo López Pereira, Crónica mozárabe de 754: Edición crítica y traducción (Zaragoza: Universidad de Zaragoza, 1980)*، *Chronica Byzantia-Arabica* of 743, ed. Juan Gil, *Corpus scriptorum*

[40←]

- تشير *Chronica mozarabica* of 754 إليها دائمًا على أنها الإمبراطورية الرومانية. بحلول القرن الخامس، إن لم يكن قبل ذلك، كانت هذه الإمبراطورية الرومانية وعاصمتها القسطنطينية (وتسمى أيضًا "روما الجديدة") رومانية ومسيحية من الناحية الثقافية. أشار إليها أعداؤها المسلمون والفرس وكذلك الأوروبيون باسم إمبراطورية اليونانيين، وإلى سكانها باسم "اليونانيين" (على الرغم من أن سكانها لم يكونوا جميعًا يونانيين من الناحية العرقية، أكثر مما كان سكان أو أباطرة الإمبراطورية الرومانية اللاتينية أو الغربية رومانًا ("Rum" كما يشير إليهم القرآن الكريم). لم يشر أحد إلى هذه الإمبراطورية الرومانية باسم "البيزنطية"، هو "أي اللقب" اختراع ناجح من قبل عالم بروتستانتي ألماني في القرن السادس عشر. من أجل هذه القضية، انظر من بين أمور أخرى، *A Greek Roman Empire* (Berkeley: University of California Press, 2007)، و Ioannis Stouraitis, "Roman Identity in Byzantium: A Critical Approach," *Byzantinische Zeitschrift* 107, no. 1 (2014): 175، و Clifton R. Fox, "What If Anything Is a Byzantine," http://www.romanity.org/htm/fox.01.en.what_if_anything_is_a_byzantine.01.htm.

[41←]

- Kristina Krüger, *Monasteries and Monastic Orders: 2000 Years of Christian Art and Culture* (Könnigswinter: H. F. Ullmann, 2008)، من أجل إلغاء التنصير في شمال إفريقيا انظر Youssef Courbage and Philippe Fargues, *Christians and Jews under Islam*, trans. Judy Mabro (London: I. B. Tauris, 1997). من أجل تقليص وتهميش الأقباط انظر Harald Suermann, "Copts and the Islam of the Seventh Century," in Emmanouela Grypeou, Mark Swanson, and David Thomas, eds. *The Encounter of Eastern Christianity with Early Islam* (Leiden: Brill, 2006), 109، A. J. Butler, *The Ancient Coptic Churches of Egypt* (1884; rpt. London: Clarendon Press 1970). أحد الأمثلة المتبقية على ما كانت تحتويه هذه الشبكة الواسعة ذات مرة من فن ومخطوطات لا يمكن الاستغناء عنها هو دير "سانت كاترين" الاستثنائي للروم الأرثوذوكس في جبل سيناء (بُني بين 548 و565) وقد أعلنته اليونسكو من مواقع التراث العالمي. في القرن العاشر، شُيد مسجد بين جدرانه من أجل استرضاء الحكّام المسلمين على الأرجح. بما أن الجامع لا يواجه مكة فقد أُهمل استخدامه. اعتنق العديد من البربر المسيحية، كما تشهد مصادر إسلامية عدة، انظر من بين مصادر أخرى al-Hakam, 37.

[42←]

- تذكر مصادر إسلامية زعيمة بربرية عظيمة تُعرف باسم الكاهنة Kahina، ربما كانت يهودية أو مسيحية (بعض قبائل البربر تحول إلى المسيحية) قاومت الجيوش الإسلامية إلى أن هزمها موسى بن نصير. انظر من بين مصادر أخرى al-Athir, 29ff. تبعًا للمؤرخ محمد بن عبد الريني القيرواني تم قطع رأس الكاهنة لكن أولادها اعتنقوا الإسلام وقادوا العديد من الوحدات البربرية "المُرسلة إلى الغرب" "إسبانيا" للشروع بالحرب باسم الله "الجهاد". انظر: *Histoire de l'Afrique de Mohammed-ben-Abi-el-Raini-el-Kairouani*, trans. E. Pellisier (Paris: Imprimerie Royale, 1845), 55. الريني يشير أيضًا إلى أن جبال "نفوسة" (ستة أيام سيرًا على الأقدام من طرابلس) كانت مأهولة بالسكان المسيحيين، ومع ذلك فإن ظاهرة البربرية الثقافية والإثنية والسياسية تُظهر أن ثقافة البربر لا تزال حية وأنها مستمرة في الصراع ضد التعريب (البربرية هي لغة أفروآسيوية وليست لغة سامية) والإسلام.

[43←]
- *Chronica mozarabica* 54.5 of 754. مدخل هذا المضيق من البحر الأبيض المتوسط كان معروفًا منذ الأزمنة القديمة باسمه اليوناني أعمدة هرقل (Ηρακλειοι Στηλαι) بسبب من النتوءين اللذين يحيطان بالمدخل. بعد أن فتح المسلمون إسبانيا أعادوا تسمية النتوء الذي من المفترض أن طارق قد هبط فيه باسم جبل الطارق (صخرة أو نتوء طارق) ومنه الاسم الحالي جبل طارق (*el peñón de Gibraltar*, or Rock of Gibraltar). كانت أعمدة هرقل جزءًا من الشعار الإسباني لقرون عدة.

[44←]
- الغالبية العظمى من الموالي كانوا من المحررين وأحفاد المحررين، *Brill Encyclopaedia of Islam, Second* "mawlā," II. C*Edition* ،. من أجل طريف وطارق بوصفهم موالي عن طريق العبودية السابقة انظر المصادر التالية *Ajbar* ،, 20ff*Machmuá*
*Slave Soldiers and Islam: The*Daniel Pipes, (New Haven, CT:*Genesis of a Military System* Yale University Press, 1981), 125– 27, and "Mawlas: Freed Slaves and Converts in Early *Muslims and Others in Early Islamic*Islam," in , ed. Robert Hoyland (Farnham:*Society Brill*The .Ashgate, 2004), 277–322 *Encyclopedia of Islam, Second Edition*يشرح مفهوم "المولى" كذلك: "التابع المعترف به في الشريعة المبكرة كان عبدًا محررًا غير عربي، أو اعتنق الإسلام أو وافد جديد إلى المجتمع الإسلامي. بما أن غير العرب فقط يمكن أن يدخلوا هذا المجتمع كتابعين أصبح المولى مرادفًا لـ"المسلم غير العربي" وعادة ما تستخدم الأدبيات الثانوية الكلمة بهذا المعنى.
المستعرب وعالم الشريعة الإسلامية فيليبي مايلو سالغادو يشرح معنى الرق غير المحرر ووضعه الاجتماعي الأدنى: كان يعني في البداية أي شخص تحول إلى الإسلام حديثًا بما أنه من حيث المبدأ لا يمكن لغير العرب دخول الإسلام إلا بصفتهم "تابعين" للعرب. وهكذا أصبح المولى مُرادفًا لـ"المسلم غير العربي". سيصبح العبيد المحررون أيضًا، وكذلك أحفادهم، تابعين للمالك السابق... على الرغم أنه من الناحية النظرية لا ينبغي اعتبارهم أقل شأنًا إلا أنه من الناحية العملية كان الموالي يُعتبرون أناسًا أدنى، وكانت حياة التابع أقل أهمية من حياة العربي. تسبب هذا التفاوت في حركة (في الشرق الأوسط) نجم عنها سقوط الدولة الأموية وصعود العباسيين الذين كانوا مدعومين من قبل الموالي الفرس. *Diccionario de derecho* (Guijón: Trea, 2005), 225–26*islámico*. الكثير من الجهد تم بذله من قبل عدد من العلماء المسلمين (ذكرهم بابيس) الذين يجادلون بأنه إما أن العبيد في ظل الإسلام عوملوا بشكل رائع (وهي حجة سمعها المرء أيضًا من بعض العلماء بخصوص نظام الرق الأمريكي في الجنوب) أو أن فكرة العبيد الجنود بحد ذاتها غير مقبولة.

[46←]

- بحسب سهى عبود حجار أستاذة الدراسات الإسلامية في جامعة كومبلوتنسي دي مدريد في عملها “Guadalete: La batalla del destino,” *La aventura de la historia* 13, 147 (2011): 62 نقلًا عن (أعطي الاسم كما تُهجئه بالضبط سهى حجار) المؤرخ al- Haza’ini. انظر أيضًا García Moreno, *España 702–719*, and the *Ajbar Machmuá*, 20.

[47←]

- كان إرسال قوة استكشافية ليتبعها جيش أكبر ممارسة معيارية في الفتوحات الإسلامية كما أشار David Nicolle *Armies of the Muslim*and Angus McBride, 251*Con*
quest(London: Osprey, 1993) وهو عمل، كما هو الحال مع مصادر أخرى ذات طابع عسكري بحت، لم يستخدمه مؤرخو الفتح الإسلامي.

[52←]

*La vie*Charles Emmanuel Dufourcq, - *quotidienne dans l'Europe médièvale sous la* (Paris: Hachette, 1978), 18;*domination arabe* , ed. and trans. José*Crónica mozárabe de 754* Eduardo López Pereira (Zaragoza: Facsimil, 80 ,(1980. منذ ذلك الحين حاول علماء مسلمون وبعض الغربيين التقليل من شأن هذه الهزيمة، كما حاولوا فعل ذلك مع Lepanto and even Navas de Tolosa. الحصرم حامض بلا شك (عبارَة يقولها شخص عندما لا يَستطيع**الحُصول**على**شيء**وذلك كتَعْزية لنَفسه/ غَيْرَة).

[53←]

- في عام 1526 (حصار فيينا) احتُجزت القوات الكاثوليكية المكونة إلى حد كبير من الجنود الإسبان والألمان حتى وصول جيش الإغاثة الألماني. في 1683 (معركة فيينا) كان المدافعون الكاثوليك على وشك الهزيمة عند وصول الجيش البولندي بقيادة الملك يان سوبيسكي الثالث وفرسانه المجنحين (المقاتلين تحت راية السيدة العذراء مريم سيدة Częstochowa). هُزم الأتراك بشكل حاسم في سبتمبر 11-12. كان هذا بمثابة الطرد التدريجي للجيوش الإسلامية من وسط وجنوب شرق أوروبا.

[54←]

- من أفضل المعالجات العلمية حول هذا الموضوع باللغة الإنجليزية يبقى عمل ماجد خدوري *War and Peace in the Law of Islam* (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1955). العمل الأكثر تأثيرًا اليوم هو عمل البروفيسور Juan Cole الذي أدرجت أعماله البليغة في موقعه على الإنترنت www.juancole.com/about. المستعربون المتعاطفون مع إسبانيا الإسلامية مثل Emilio González Ferrín (الذي يؤكد أيضًا أنه يجب إنقاذ الماركسية من التشهير بسبب "اغتصاب مصاصي الدماء السوفييت" وأن البنية الاقتصادية الفوقية هي "ما يوتّر العصب التاريخي حقًا") يصرون على أن كلمة الجهاد في القرآن تنطبق فقط على الجهاد الروحي. انظر: Ferrín, *Historia general de al-Andalus* (Córdoba: Almuzara, 2003), 153. تقييم أكثر واقعية وتوازنًا للجهاد يمكن أن نجده في، Michael Bonner, *Jihad in Islamic History: Doctrines and Practice* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2008)، حيث يحاول أن يُظهر أن المعنى الروحي مهم أيضًا، لكن أفضل عمل علمي حديث عن الجهاد بوصفه حربًا مقدسة أو قتالًا مقدسًا قد يكون عمل Alfred Morabia, *Le gihad dans l'Islam médiéval: Le "combat sacré" des origines au XIIe siécle* (Paris: Alban Michel, 1993). أولئك الذين يصرون على المعنى الروحي الأساسي بوصفه "الجهاد الأعظم" على النقيض من المعنى القتالي الأقل أهمية "الجهاد الأصغر" ربما يرددون عمل المفسر المصري للشريعة الإسلامية من القرن الثامن عشر الزرقاني (توفي 1710) (الذي كان متأثرًا حسب رأيي بالأفكار التنويرية للقرن الثامن عشر والفرقة الصغيرة جدًا من الإسلام، المتصوفة، الذين لديهم هذا التمييز)، انظر Abboud-Haggar, "Gihad según el manuscrito aljamiado de al-Tafri de Ibn al-Gallab," *Sharq al-Andalus* n6 (1995): 12. ربما يكون أفضل استقصاء قصير لفكرة الجهاد E. Tyan, "Jihad," *Encyclopaedia of Islam, Second Edition* (Brill, 2012), *BrillOnline*, Northwestern University Library, accessed August 7, 2012, www.encislam.brill.nl.turing.library.northwestern.edu/subscriber/entry?entry=islam_COM-0189

[57←]

- انظر www.islaminourschools.com. In contrast, the historian Tom Holland's documentary *Islam: The Untold Story* (produced by England's Channel 4), المتشكك إلى حد ما بعدد من المعتقدات الإسلامية لم يجد رواجًا مماثلًا.

[61←]

- الاستشهادات التالية في موطأ الإمام مالك رواها يحيى بن يحيى بن كثير الليث الأندلسي، ترجمها F. Amira Zrien Matrah (Karachi: Darul Ishaat, 2005)

[62←]

- بعبارة أخرى، كان اغتصاب النساء اللواتي تم أسرهن في منطقة الجهاد مبررًا دينيًا لأنهن كن يعتبرن إماء، راجع نص المالكي المؤثر المدونة، tome 4, vol. 2, no. 655. تم تلخيص المدونة بالمجلد والكتاب والرقم من قبل G. H. Bousquet in "La *Moudawwana*," *Annales de l'Institut d'Études Orientales* 16 (1958), 17 (1959), and 20 (1962), and *Revue algérienne, tunisienne et marocaine de législation et de jurisprudence* 74 (1958), 75 (1959), and 77 (1961). كل إشاراتي إلى المدونة مأخوذة من هذا العمل، ما لم أذكر خلاف ذلك. يشرح الموطأ 21.10.18 ؛ 21.9.17 كيف تصبح كل ممتلكات العدو الميت ممتلكات لقاتله المسلم أثناء الجهاد. انظر أيضًا الموطأ 40.1، بدايات ابن رشد وكتاب التدبير 54.2.3 و54.2.2 و Cristina de la Puente, "Límites legales del concubinato: Normas y tabúes en la esclavitud sexual según la bidya de Ibn Rushd," *Al-Qantara* 28, no. 2 (Julio– Diciembre 2007): 409–33

[63←]

- المرجع السابق. أبو عبيد القاسم ابن سلام (774-837) في كتابه "كتاب الأموال" ترجمة Imran Ahsan Khan Nyazee (London: Center for Muslim Contributions to Civilization, 2005), 32. يؤكد أبو عبيد أن الذين لا يشتركون في الجهاد، بحسب رسول الله، لا يحق لهم أي جزء من الغنائم المتحصلة. يلاحظ البروفيسور أحسن خان: "يجب اتباع هذا الرأي، لأنه يتوافق مع الحديث، ولا يجوز تركه من أجل رأي آخر حتى لو كان رأي شخص مثل عمر".

[72←]

, trans. *Crónica anónima de los reyes de Taifas* - .Felipe Maíllo Salgado (Madrid: Akal, 1991). اسم أحد قادة المسلمين في فالنسيا، العبد المجاهد، يعني "بطل الحرب المقدسة".

[73←]

- ملك غرناطة محمد بن نصر (قُتل في 1350) هو مثال نموذجي قدمه ابن الخطيب. دار نقاش في حضوره ذات مرة حول الدين وقال "بالنسبة لي، قول لا إله إلا الله، وهذا، مشيرًا إلى سيفه". *Historia de los Reyes de* Ibn al-Jatib, *la Alhambra*, trans. José María Casciaro Ramírez (Granada: University of Granda, 2010), 187–88

[78←]

- ;*Le gihad dans l'Islam médiéval*Morabia,
(*yihad*Salgado, "Guerra Santa ".(. انظر أيضًا الفصل
الثالث من هذا الكتاب. من أجل عمل توضيحي آخر يبحث
بعض أقدم أنواع الجهاد في الإسلام انظر: Michael
*Aristocratic Violence and Holy War:*Bonner,
Studies in the Jihad and the ArabByzantine
(New Haven, CT: American Oriental*Frontier*
(Society, 1996. في عمل أحدث، منشور هذه المرة من قبل
مطبعة جامعية، يراوغ Bonnerلدى معالجته للجهاد ويحاول
إظهار جانبه الجميل، *Jihad in*Michael Bonner,
(Princeton, NJ: Princeton*Islamic History*
(University Press, 2006. انظر أيضًا: Mathias von
*Der heilige Krieg (Gihad) aus der Sicht*Bredow,
der malikitischen Rechtsschule (Ibn Abi Zayd al-
.(Stuttgart: Franz Steiner, 1994)*Qayrawani)*

[79←]

Felipe Maíllo Salgado, "La guerra santa según -
1, no. 2*Studia Historica* el derecho malikí,"
3 :(1983). خير مثال وجدته هو رسالة القيرواني (1.30-2).

[90←]

*Tuhfat al-Anfus wa Shiar Sukkan*Ibn Hudhayl, -
, ed. Louis Mercier (Paris, 1936), 8–*al-Andalus*
*War and Peace in the*Majid Khadduri, .10, cit
(Baltimore: Johns Hopkins Press,*Law of Islam*
81 ,(1955. بطبيعة الحال، فإن الاجتهاد التأويلي فيما يخص الشك قد يأخذ بعين الاعتبار إمكانية أن فكرة الجهاد بوصفها نضالًا داخليًا سلميًا أيدها أساتذة معاصرون لدراسات الشرق الأوسط وخبراء عرب ومعتدلون إسلاميون لأنها تساعدهم في تقديم حقل عملهم (خبرتهم) أو معتقدهم بطريقة أكثر قبولًا للجماهير الحديثة الذين قد يكونون غير قادرين على النظر إلى الجهاد من وجهة نظر تاريخية بحتة وبالتالي قبوله كما فهمه العلماء والحكّام المسلمون لقرون، أعني الحرب المقدسة ضد الكفار.

[91←]

- Bonner بعض الملاحظات المتعلقة بالتطور المبكر للجهاد على الحدود العربية - البيزنطية، *Studia Islamica*, 8: (1992) 75، الذي يستشهد ويتفق مع Albrecht Noth، *Heiliger Krieg und Heiliger Kampf im Islam und Christentum* (Bonn: Rohrscheid, 1966). في كتاب حديث نشرته مطبعة جامعية يحاول Bonner إظهار أن المعنى "الروحاني" للإسلام مهم أيضًا، لكنه لم يذكر عدد النصوص والمؤلفين التي فحصناها والتي كانت أساسية في الأندلس (التفريع، الرسالة، المدونة، ابن حزم، السجلات، إلخ). لقد ذكر الموطأ والطبري لكنه لم يشر إلى أنهم تحدثوا عن الجهاد حصريًا على أنه حرب مقدسة.

[94←]

Kenneth Baxter Wolf, "Christian Views of Islam - in Early Medieval Spain," in John Victor Tolan, *Medieval Christian Perceptions of Islam: A*ed., (New York: Garland, 1996), 85–*Book of Essays* *Mozarabs in Medieval*Richard Hitchcock, .89 *and Early Modern Spain: Identities and* (Hampshire: Ashgate, 2008)*Influences*. من أجل

دحض جيد للادعاء أن الدين لم يحفز الفتوحات الإسلامية، انظر Bousquet, "Some Critical and Sociological Remarks on the Arab Conquest and the Theories Proposed on This," in Fred M. Donner, *The Expansion of the Early Islamic State* ،ed (Burlington: Ashgate, 2008), 21; "Observations on the Nature and Causes of the Arab *The Expansion of*Conquest," in Donner, ed., ., 23–33*the Early Islamic State*

[100←]

- بحسب المؤرخين المسلمين التالية أسماؤهم: ابن أبي أصيبعة (1203-1270)، في المقري، تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا من قبل المقري، سعيد الأندلسي: كتاب طبقات الأمم (*Livre des Categories des Nations*), trans. Regis Blachére (Paris: Larose Editeurs, 1935), 126–27).

[102←]

- تبعًا لفتح الأندلس لابن القوطية ترجمة، María Jesús Viguera Molins, “Lectura de Ibn al-Qutiyya: *Del Nilo al*sobre la conquista de al-Andalus,” *Guadalquivir II Estudios sobre las fuentes de la* , ed. Luis A. García Moreno*conquista islámica* and Esther Sánchez Medina (Madrid: Real .Academia de la Historia, 2013), 122

[103←]

- انظر من بين مصادر أخرى، "Polemic Between a Saracen and a Christian," attributed to John Damascene (676–749): Adel Theodor Khoury, *Les théologiens byzantins et l'Islam: Textes et auteurs (VIIIe–XIIIe s.)* (Louvain: Nauwlaerts, 1969), 68–82

[105←]

- من أجل التسلسل الزمني، Luis A. García Moreno, Vidas"Elementos de tradición bizantina en dos Bizancio y lamozárabes," in *de Mahoma península ibérica: De la antigüedad tardía a la* , ed. Inmaculada Pérez Martín*edad moderna* and Pedro Bádenas de la Peña (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2004), 247–71. يوضح غارسيا مورينيو أنها قد تكون مكتوبة على الأرجح من قبل المستعربين الأندلسيين (إما ذميين أو ذميين سابقين) في النصف الثاني من القرن الثامن وتدين بالكثير لمجادلات الكنيسة الشرقية ضد الإسلام. تم العثور على المخطوطة المفقودة من قرطبة في دير شمالي بواسطة Eulogio of Córdoba. انظر أيضًا الجدل في القرن السابع بين طيموثاوس الأول Timothy I بطريرك الكنيسة الشرقية السريانية والخليفة المهدي، الحاكم الديني والزمني في الإسلام، الذي يرجع تاريخه إلى القرن السابع، حيث استخدمت كلمة مسلم: Timothy's Apology for Christianity," trans. *Bulletin of the John Rylands Library*A. Mingana, .2 (1928): v–vii and 1–15

[110←]

, *Consideraciones*José Miranda Calvo - *militares sobre la conquista arábiga: del* (Madrid: Patronato José*Guadalete a Toledo* María Quadrado del Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1973). لم يتم الاستشهاد بدراسة Miranda Calvo الرئيسة في أي من الكتب الإنجليزية القياسية عن الفتح، ربما لأنه كان محللًا عسكريًّا، وأستاذًا في الأكاديمية العسكرية للجيش الإسباني أكثر مما كان مُؤرخًا جامعيًّا. *The Barbarian*Hans Delbrück, , trans. Walter J. Renfroe Jr. (1900–*Invasions* 1920; rpt. Lincoln: University of Nebraska Press, 1980)، 417–26، جرى إهمالها أيضًا من قبل المؤرخين المعاصرين، *Acerca de la conquista*Maíllo Salgado, *España 702–*; García Moreno, *árabe de España* . See also María R. Valverde Castro,*719 Ideología, simbolismo y ejercicio del poder real en la monarquía visigoda: un proceso de* (Salamanca: Universidad de*cambio* Salamanca, 2000), 277. تشير السجلات المسيحية مرارًا وتكرارًا إلى "النعومة" و"الرذائل" السائدة لدى قادة القوط الغربيين، لكن تاريخًا إسلاميًّا يصفها على أنها حياة شجاعة ولكن منحطة. انظر أيضًا الروايات النابضة بالحياة في السجلات الإسلامية والمسيحية عن خيانة الكونت جوليان بسبب اغتصاب الملك رودريغو لابنة الكونت: ربما تكون التفاصيل الجنسية خيالية وربما لا، لكنها تعزز حقيقة الخيانة من قبل بعض النبلاء.

[113←]

- انتظر الفصل السابع من هذا الكتاب من أجل التشريع المعادي لليهود، كل من المصادر المسيحة والإسلامية تروي ما يبدو أنه تحالف غير متكرر بين المسلمين واليهود ضد الحكم المسيحي حتى في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ليس ثمة سبب لكذب المؤرخين المسلمين بشأن هذا الأمر. في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، سريعًا ما أدرك المسلمون أنه يمكنهم استخدام الجالية اليهودية، غير الراضية عن علاقتها بالإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية، للمساعدة في إبقاء المسيحيين تحت السيطرة. يستشهد تريتون بعدة مصادر إسلامية في هذا الشأن: *The Caliphs and Their Non-Muslim Subjects: A Critical Study of the Covenant of* (London: Frank Cass & Co., *Umar* 95-941930; rpt. 1970). للمصادر الأولية المتعلقة بإسبانيا التي تسجل هذا التعاون، انظر , 25, 27, 29; al-*Ajbar Machmuá* *The History of the*Maqqari in ,*Mohammedan Dynasties in Spain* 1:280–82; Ibn Idhari al-Marrakusi, , 17–42; al-*Historia de al-Andalus* *Ibn al*-Qutiyya, 8; Ibn al-Athir in *Athir: Annales du Maghreb et de* , trans. E. Fagnan*l'Espagne* (Algiers: Adolphe Jourdan, 1898), *Ibn al-Jatib:*46–47; al-Khatib in *Historia de los Reyes de la Alhambra (Al-Lamha al-badriyya): Resplandor de la luna llena acerca* , trans. José*de la dinastía nazarí* María Casciaro Ramírez and Emilio Molina López (Granada: Universidad de Granada, 2010), 106;

al-Razi in Pascual de Gayangos, "Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del moro *Memorias de la Real*Rasis," 8 (1852):*Academia de la Historia* app. 2, 72; Ibn Idhari al-Marrakushi, (Algiers:*Al-Bayano 'l-Mogrib* Imprimerie Orientale Pierre *Rodrigo*Fontana, 1904), 2:18; (1170–1247), 3,*Jiménez de Rada* chs. 22–23. بحسب العالم العظيم في التاريخ اليهودي سالو بارون Salo Baron أن عدم ثقة الإسبان باليهود والمتحولين في العصور الوسطى وما وراءها ربما كان مبنيًّا على أساس أن "السفارديم" كانوا طابورًا خامسًا في الغزو الإسلامي لإسبانيا: *A Social and* (New*Religious History of the Jews* York: Columbia University Press, 1958), 5:135–36. يصرح Francisco Cantera Burgos أن اليهود شكلوا "طابورًا خامسًا" قبل الغزو، انظر له: "Christian Spain," in Cecil Roth, ed. *The Dark Ages: Jews in Christian* (Tel Aviv: Jewish History*Europe, 711–1096* Publications, 1966), 357, 450n1. Gayangos يجادل أن اليهود دعوا المسلمين لغزو مملكة القوط الغربيين وبعد ذلك "جعلوا بينهم وبين المسلمين الكثير من الأسباب المشتركة"، (*The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*1:531n18)., بحسب آلان هاريس كوتلر Alan Harris Cutler فإن "مسيحيي فرنسا وألمانيا رأوا اليهود أيضًا كـ"طابور خامس" إسلامي مُحتمل وفي بعض الأحيان اضُطهد اليهود بسبب هذا الأمر بالذات، انظر: *The Jew as Ally of the Muslim: Medieval Roots of Anti-Semitism* (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1986), 395n17. يشير المؤرخ الإسرائيلي إلياهو آشتور Elyahu Ashtor إلى أن اليهود دعموا المسلمين ضد المتمردين المسيحيين مثل (عمر بن حفصون، والقديس أولوجيوس) وضد المسيحيين في الشمال (مثل الملك ألفونسو

الثالث ملك أستورياس 866-910) الذين هاجموا المسلمين في الجنوب وأن اليهود جلسوا مع المسلمين في المجلس المسيحي في قرطبة (863) للتأكد من أن المجلس لم يشجع التمرد المسيحي: *The Jews of Moslem Spain*
(Philadelphia: Jewish Publication Society, 1973;
Korot ha-trans. Jenny Maklowitz Klein of
), 1:68–69, 92–*Yehudim bi-Sefarad ha-Muslemit*
99–98 ,93. وفقًا لآرثر جيه زوكرمان .Arthur J.
Zuckerman أستاذ الحضارة اليهودية في العصور الوسطى في كلية البناة الحاخاميين الجدد في فيلادلفيا، كان ثمة مؤامرة يهودية إسلامية للاستيلاء على برشلونة المسيحية في 852: انظر عمله *Jewish Princedom in Feudal France,*
(New York:*768–900 (Study in Jewish History)*
Columbia University Press, 1972), 316–18. قد تكون هذه إشارة إلى ما تدعي *Anales*Christian
bertinianorum أنه حدث: "السارسين (المسلمون) بفضل خيانة اليهود، استولوا على برشلونة، وبعد تدمير المدينة وقتل معظم سكانها عادوا دون أدنى صعوبة": المصدر السابق.
Casanovas Miró, “Aspectos cotidianos de las
*Del pasado*relación entre judíos y cristianos,” in
, ed.*judío en los reinos medievales hispánicos*
Yolanda Moreno Koch (Cuenca: Ediciones de la
.Universidad de Castilla-La Mancha, 2005), 100
وفقًا لما ذكره أمادور دي لوس ريوس، فإن كتيبة من القوات اليهودية من إفريقيا بقيادة كولا اليهودي كانت جزءًا من الجيش المسلم الذي هزم القوط الغربيين في Guadalete وأن الفاتحين المسلمين فضلوا الهجرة اليهودية من أراض عدة كجزء من مخططهم السياسي ضد المسيحيين الإسبان: *Historia*
social, política y religiosa de los judíos de
(Madrid: Fontanet, 1875),*España y Portugal*
Helen وAlan Harris Cutler .1:116–17n1–2, 118–19
Elmquist يستشهدان بالمصادر المسيحية الأولية التي تنسب اضطهاد اليهود في أوروبا في 1010 و1060 إلى الاعتقاد السائد بأن اليهود تواطؤوا مع الإسلام. يجادل المؤلفان بأن تعاون "اليهود مع المسلمين" كان العامل الحاسم في اضطهاد عام 1096"، وأيضًا: *The Jew as Ally of the Muslim*,
402–400. الأنباء عن الهجوم المشترك المزعوم على كنيسة القيامة في 966 والتدمير الفعلي للكنيسة من قبل المسلمين الفاطميين في عام 1010 وصلت إلى أوروبا وأثارت العداء لليهود، كان هذا على الأرجح الدافع وراء مذبحة اليهود في نهاية المطاف خلال غزو القدس في 1099 خلال الحملة الصليبية

الأولى (*The Jew as Ally of the Muslim*, 403–5).
لطالما اتهم اليونانيون المسيحيون اليهود بالتواطؤ مع المسلمين،
وعندما استسلمت القدس للمسلمين في 638 طلب بطريرك
القدس الأورثوذكسي سوفيرينيوس Sophronios الحماية
من المسلمين ضد اليهود لتجنب تكرار المذابح التي تعرض لها
المسيحيون اليونانيون والتي وقعت في المدينة عام 614، انظر:
Joshua Starr, *Jews in the Byzantine Empire*
(Research and Source Works Series, No. 386)
(Farnborough: Gregg, 1969), 109. دون تقديم أي دليل
أو الأخذ بعين الاعتبار أي مصادر إسلامية أولية، يرفض
David J. Wasserstein أستاذ الدراسات اليهودية في
جامعة فاندربيلت "التعاون اليهودي" بوصفه "قصصًا" من
منتجات "البارنوايا المسيحية" و"على الأقل هي عبارة عن
اختراعات لاحقة إلى حد كبير": "The Muslims and the
Golden Age of the Jews in al-Andalus,"
Dhimmis and Others: Jews and Christians and
the World of Classical Islam (Israel Oriental
Studies CVII), ed. Uri Rubin and David J.
Wasserstein (Tel Aviv: Tel Aviv University, 1997),
179–80. وبالمثل، حتى دون ذكر مصادر إسلامية مثل ابن
عذاري المراكشي وكتاب البيان المغرب يجادل الباحث في
التاريخ اليهودي نورمان روث أن اليهود لم يكونوا عاملًا مهمًّا في
غزو إسبانيا: "The Jews and the Muslim Conquest
of Spain," *Jewish Social Studies* 38, no. 72
(1976): 145–58. يلاحظ فيليبي مايلو سالغادو المستعرب في
جامعة سالامانكا أنه لم يجد في جميع أبحاثه أي مصدر
إسلامي يخالف سرديات السجلات الإسلامية المبكرة عن تعاون
الجالية اليهودية مع القوى الإسلامية: "Los judíos enlas
fuentes magrebíes y andalucíes: los visires,"
Del pasado judío en los reinos medievales
hispánicos: afinidad y distanciamiento, ed.
Yolanda Moreno Koch and Ricardo Izauierdo
Benito (Cuenca: Universidad de Castilla-La
Mancha, 2005), 126n20

[114←]

- رعايا ثيودومير "Theodomir" لن يُقتلوا أو يؤسروا ولن يُفصلوا عن أطفالهم ونسائهم ولن تُحرق كنائسهم طالما أنه يعمل بحسن نية ويستوفي الشروط المفروضة عليه، لقد وافق على شروط تسليم تغطي سبع بلدات.. (وافق أيضًا) أنه لن يمنح ملجأ لأي من عبيدنا الهاربين، أو مأوى لأي من أعدائنا، أو يثير ذعر من يشعر بالأمان في جوارنا، وأنه لن يخفي المعلومات التي حصل عليها عن أعدائنا، وأنه منوط به وبشعبه أن يدفعوا دينارًا واحدًا كل سنة وأربعة بوشل من القمح وأربعة بوشل شعير وأربعة مقاييس من عصير العنب السميك، وأربعة مقاييس من الخل، مقياسين من العسل ومقياسين من الزيت. العبيد يدفعون نصف ذلك. بشهادة عثمان بن أبي عبدة القرشي، حبيب بن أبي عبيدة، ابن ميسرة الفهمي وأبو القائم الهذلي. كُتب في رجب عام 94 للهجرة (نيسان 713): 713(*Christians.* "*and Moors in Spain: Volume III Arabic Sources*, ed. and trans. Charles Melville and Ahmad Ubaydl (Warmsminster: Aris & Phillips, 1992), 11–13

[115←]

- انظر من بين مصادر أخرى، ابن عبد الحكم، *Conquista del Norte de África y de España*, 43; al-Qutiyya, كتاب الاكتفاء في تاريخ الخلفاء لأبي جعفر ابن عبد الحق الخزرجي القرطبي، ترجمة Pascual de Gayangos، *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, vol. 1, app. D, xliii–1; the quotation is from *Ibn al-Kardabus*, 6، *Rodrigo Jiménez de Rada*, 64–65; vol. 2, chap. 23

[118←]

- أخبار مجموعة 14-27. مثل المسلمين لاحقًا، استفاد الفرس في أوائل القرن السابع من العداء اليهودي المسيحي: Elliott Horowitz, " 'The Vengeance of the Jews Was Stronger Than Their Avarice': Modern Historians and the Persian Conquest of Jerusalem in 614," 4, no. 2*Jewish Social Studies* *Reckless Rites:* ،(Winter 1998): 1–25 *Purim and the Legacy of Jewish* (Princeton, NJ: Princeton*Violence* University Press, 2004), 229. يزعم عدد من المصادر الأولية أعمال قتل انتقامية لليهود من المسيحيين إبان الفتح الفارسي للقدس: Theophanes the Confessor *The Chronicle of*(d. 818) in *Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History a.d. 284–* , ed. Cyril Mango and Roger*813* Scott, with the assistance of Geoffrey Greatrex (Oxford: Clarendon Press, 1997), 431; Antiochus Strategos of Mar Saba in "Antiochus Strategos, The Capture of Jerusalem by the Persians in a.d. 614," trans. F. C. Coneybeare, 25 (1910):*English Historical Review* 502–17; the Armenian bishop *The Armenian History*Sebeos, in , trans. R. W.*Attributed to Sebeos* Thomson (Liverpool: Liverpool University Press, 1999), part 1, 68–69. See also Heinrich Graetz, (Philadelphia:*History of the Jews* Jewish Publication Society of America, 1894), 3:18–22. The states that the*Jewish Encyclopedia*

story of Jews buying Christians and then massacring them at the Mamilla Pool in Jerusalem is fiction (see www.jewishencyclopedia.com/articles/4356-chosroes-khosru-ii-parwiz).
كشفت الحفريات الأثرية الإسرائيلية الأخيرة في القدس عن رفات آلاف الرجال والنساء والأطفال، معظمهن من النساء (راهبات على الأرجح) في موقع بركة ماميلا يعود تاريخها إلى زمن الفتح الفارسي للمدينة. انظر يوسي نجار:
"Human Skeletal Remains from the Mamilla Cave, Jerusalem," www.antiquities.org (website of the Israel Antiquities Authority) الذي ينسب المجزرة إلى الفرس .www.antiquities.org.il/article_Item_eng.asp?sec_id=17&sub_subj_id=179. لا ينسب عالم الآثار الإسرائيلي روني رايش القتل إلى الفرس ويقدر إجمالي القتلى بستين ألفًا قبل أن يوقف الجيش الفارسي المذبحة، انظر: Gil Zohar, "Massacre at Mamilla," *Jerusalem Post*, March 2, 2006.

[125←]

M. C. Díaz y Díaz, "Noticias históricas en dos - *Los visigodos*:himnos litúrgicos visigóticos," in *Historia y civilización: Antigüedad y Cristianismo* (Murcia) 3 (1986): 443–56. See also García Moreno, *España 702–719*190 ,. يميل المرء إلى مقارنة تكتيكات الإرهاب هذه ونتائجها السريعة مع التكتيكات القاسية والفتوحات السريعة المماثلة للدولة الإسلامية في العراق وسوريا في القرن الحادي والعشرين.

[128←]

- *Crónica del moro Rasis*281–82 ,. شكك بعض المؤرخين في نسبة أقسام من تاريخ ما قبل الإسلام إلى الرازي، لكن النصوص الحديثة أكدت صحة النص حتى في فترة ما قبل الإسلام. انظر المقدمة من قبل: Diego Catalán as well as the historian Claudio Sánchez Albornoz's *Adiciones al estudio de la crónica del moro Rasis*(Madrid: Moneda y Crédito, S.A., 1978). نصوص أخرى بالطبع تؤكد تدمير الكنائس في العصر الإسلامي، انظر مثلًا بحث Susana Calvo Capilla.

[131←]

Cit. Cyrille Aillet, *Les mozárabes: christianisme, islamisation, et arabisation en péninsule ibérique (IXe–XIIe siècle)* (Madrid: Casa de Velázquez, 2010), 122–23. المواد الموضوعة بين قوسين تعود إلي.

[132←]

*El tesoro Visigodo de Guarrazar*Alicia Perea, -
(Madrid: Consejo Superior de Investigaciones
*El tesoro Visigodo de*Cientificas, 2001);
(Madrid: Consejo Superior de *Torredonjimeno*
Investigaciones Cientificas, 2009). Curiously، لم
يُشر أي عمل عن الفتح إلى هذا الدليل الأثري.

[133←]

- Lord Dannat الرئيس السابق لهيئة الأركان العامة البريطانية في إشارة إلى الفتوحات السريعة التي قام بها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا، والذي يعكس نجاحه وأساليبه صدى الفتوحات الإسلامية الأولى: "ISIS Slaughters 400 in Ancient Syria City of Palmyra Where Hundreds of Bodies Line the Street," , May 24, 2015 *Daily Mail*

[135←]

- من أجل الحماس المدمر للمأمون والرشيد انظر: Ibn Khaldun, *Les prolégomenes*., 2:246–47. أعاد ذكر هذه النقطة أحد أكثر رجال الدين احترامًا في المدرسة السلفية في الإسلام، محمد المنجد: at http://islamqa.info/en/20894. المرحوم هانز يانسن Hans Jansen أستاذ الفكر الإسلامي في جامعة أوتريخت أشار أيضًا إلى هذا الإجراء من قبل الفتوحات الإسلامية: https://www.youtube.com/watch?v=6G0a06zMs-o.

[136←]

, trans. *Relation de l'Egypte par Abd Allatif* -
Silvestre de Sacy (Paris: Imprimerie Impériale,
, *Les prolégomènes*1810), 183. Ibn Khaldun,
.1:78. المؤرخون المسلمون الآخرون الذين ذكروا حريق مكتبة
الإسكندرية: القفطي (1172-1248) والمقريزي (1364-1442).
يروي المؤرخ القبطي بار هيبيريوس (1226-1286) المعروف في
اللغة العربية باسم ابن العبري القصة في كتابه *Chronicum*
Syriacum:أن عمرو بن العاص بعد فتحِه لمصر استأذن
الخليفة عمر بن الخطاب في أمر المكتبة بعد أن دخل عليه يحيى
النحوي الإسكندراني وطلب منه كتُبَ الحكمة من الخزائن
الملكية، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر الذي أجابه بكتاب يقول
فيه: "أما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله
فلا حاجةَ إليها"، وتزعم القصَّة أن عمرو بن العاص قد وزَّع
الكتب على حمامات الإسكندريَّة، وأحرقها في مواقدِها، واستنفَد
استهلاكها مدة ستة أشهر. لهذه القصة انظر: *.Alfred J*
Butler, The Arab Conquest of Egypt and the
Last Thirty Years of the Roman Dominion (1902;
rev. rpt. Oxford: Oxford University Press, 1978),
402. رفض المؤرخون الغربيون المتعاطفون مع الإسلام إلى حد
بعيد هذه المصادر الإسلامية والمسيحية زاعمين أنها كُتبت بعد
فترة طويلة من الأحداث، لكن لماذا أبقى مؤرخون مسلمون، بمن
فيهم ابن خلدون الذي لا يمكن وصفه بمعاداة الإسلام، تلك
القصص بلا شرح. لقد تم تأكيدها من قبل الخبراء الدينيين في
العصور الوسطى الذين استشهدوا بمالك، كما رأينا في حالة
ابن رشد الجد. يزعم المؤرخ برنارد لويس، غير واع لهذا النص
الديني كما يبدو، أن قصة حرق مكتبة الإسكندرية من قبل عمر
مختلقة؛ لأن ابن خلدون يتحدث عن حدث مماثل في بلاد فارس،
يُفترض أنه "عرض لطابعها الفولكلوري". يجادل لويس بأن
صلاح الدين روّج للقصة لتبرير تدميره الخاص للمكتبات
الهرطوقية للخلافة الفاطمية (الفاطميون يتبعون الفرع الشيعي
من الإسلام)، لكن لماذا لا يكشف كل هذا التدمير في الواقع عن
نمط معين من السلوك وبالتالي يعزز كل منهما احتمال بقاء
الآخر دون تفسير. انظر Lewis, "The Vanished
, September *New York Review of Books*Library,"
.27, 1990

[137←]

- بحسب المؤرخ المسلم ابن قتيبة الدينوراي (القرن التاسع)، المقري، المجلد الأول،

[143←]

- Butler, *The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion*, 475, 484–85. يجادل بتلر ضد التهمة الشائعة بأن الخيانة القبطية ضد الأرثوذوكس اليونانيين هي التي تسببت بسقوط مصر (السادس والسابع 480). من أجل ملخص عن الدمار الذي تسبب به الفتح الإسلامي للشرق الأوسط انظر: Emmet Scott, *Muhammad and Charlemagne Revisited: The History of a Controversy* (London: New English Review Press, 2012).

[144←]

Soha Abboud-Haggar, “La conquista musulmana en las fuentes coptas en lengua árabe (II),” in *Del Nilo al Guadalquivir II: Estudios sobre las fuentes de la conquista islámica*, ed. Luis A. García Moreno and Esther Sánchez Medina (Madrid: Real Academia de la Historia, 2013), 349, 359–60. تنسب عبود حجار إلى العرب "غير المسلمين" حرق الكنائس القبطية غافلة عن أنه بحلول الوقت الذي يغطيه النص القبطي الذي تعلق عليه –عهد هرقل- كان مُحمد قد وحّد العرب بالفعل تحت راية الإسلام. من أجل الرواية أدناه لمذبحة اليونانيين، انظر: Abboud-Haggar, “La conquista musulmana en las fuentes coptas en lengua árabe (III),” 382.

[145←]

- تحويل أهل الذمة من أناس منتجين إلى مجرد عبيد سينهي أيضًا النظام الربحي "الجزية" الذي كان من المفترض أن يفيد منه المسلمون إلى نهاية الزمان. كما قيل إن الخليفة عمر قد كتب: أوضح الله هذا لنا ولكم حين قال في كتابه **"قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"**

[148←]

- *Chronique de Michel le Syrien*. 2:430–31 ., كتب ميخائيل السوري أن القدس عندما استسلمت بعد الحصار نهب المسلمون المدينة وفرضوا الجزية على المسيحيين. في كيليكيا، قتل المسلمون العديد من السكان وعذبوا القادة ليقروا بمكان إخفاء كنوزهم، وارتكبوا العديد من "النجاسات " في الكنائس. تم استعباد الناجين. يزعم ميخائيل أن "عمرو بن سعيد" منع وضع الصلبان خارج الكنائس على الجداران الخارجية، وأن اليهود أقنعوا القادة العرب أن قلب الصلبان رأسًا على عقب من شأنه أن يساعد في بناء المساجد بشكل أفضل أينما كانت الكنيسة. لدراسة عملية تهميش المسيحيين في أرض كانت مسيحية ذات يوم انظر: Islamic and Asian studies scholar Raphael Israeli, *Green Crescent Over Nazareth: The Displacement of Christians by Muslims in the Holy Land* (Oxford: Routledge, 2014).

[150←]

- في وثيقة يعود تاريخها إلى القرن العاشر على الأرجح لكنها تعبر عن وجهات نظر عامة منذ القرن الثامن، انظر: Luis A. García Moreno, “Literatura antimusulmana de tradición bizantina entre los mozárabes,” *Hispania Sacre* 57 (2005): 11.

[151←]

- تذكر The *Chronica mozarabica* 754 of أن فرض الإسلام للضرائب على المسيحيين كشرط للسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية ولكن بشروط إسلامية، إشارة مرجحة إلى الجزية الإسلامية. علاوة على ذلك، فإن المذهب المالكي في الشريعة، الذي كان سائدًا في إسبانيا الإسلامية، يؤكد هذا المعنى والغرض من الجزية.

[152←]

- لمناقشة هذين التفسيرين لغزو إسبانيا انظر: Maribel *El* Fierro and Francisco García Fitz, eds., *cuerpo derrotado: Cómo trataban musulmanes y cristianos a los enemigos vencidos (Península* (Madrid: Consejo Superior *Ibérica, ss. VIII–XIII)* ،de Investigaciones Científicas, 2008), 23–25 عدد من اللوردات القوطيين، من بينهم أتباع فصيل Witiza،الذين تحالفوا مع الغزاة، قبلوا الذمية طواعية وهو ما سمح لهم بالاستمرار بصفتهم أمراء مسيحيين لمتلكاتهم الشاسعة. في النهاية، كما لاحظت كل المصادر الإسلامية (الحكم) والمسيحية (Lucas de Tuy, Alfonso X's *Primera crónica general)* أن هؤلاء اللوردات وخلفاءهم وقعوا فريسة "لخداع " المسلمين في الوقت الذي كانت فيه دولة المسلمين تصبح أقوى وأقدر على انتهاك شروط الإخضاع. كما يلاحظ المؤرخ Jesús Lorenzo Jiménez من جامعة أوتونوما في برشلونة بشكل تهكمي: "من وافق على ميثاق فقد فعل ذلك مكرهًا. ما من امرئ يتخلى عن الأشياء لأنه يريد ذلك. بل لأن ذلك مفروض عليه". (Cit. Santiago Belistigoitía, "El cambio histórico de 711," *El País*, February 20, 2011.)

- هذا هو أصح بيان في الأمر، كما في ,Maíllo Salgado
*Acerca de la conquista árabe de Hispania*30 ,.
مندوب المواثيق هو الشخص الذي خضع اللورد القوطي
ثيودومير من خلاله لطارق، لكن "الاتفاق السلمي" تضمن التزام
ثيودومير بالدفع وإلا (الأقواس للمترجمين): وافق (ثيودومير) على
شروط الاستسلام التي تشمل سبع بلدات... (وافق أيضًا) أنه
لن يوفر ملاذًا لعبيدنا الهاربين ولا مأوى لأعدائنا وألا يتسبب
بالخوف لمن يشعر بالأمان معنا، وأنه لن يخفي معلومات حصل
عليها عن أعدائنا، وأنه مُنوط به وبشعبه أن يدفعوا دينارًا واحدًا
في العام، وأربعة بوشل من القمح وأربعة بوشل من الشعير
وأربعة مقاييس من عصير العنب السميك، وأربعة مقاييس من
الخل، واثنان من العسل واثنان من الزيت. العبيد يدفعون نصف
ذلك".)*Christians and Moors in Spain: Volume III*
Arabic Sources (711–1501), ed. and trans.
Charles Melville and Ahmad Ubaydli
[Warminster: Aris & Phillips, 1992], 12–13.)، في
عام 2013 احتفلت مدينة أوريولا (في مورسيا) بالاتفاق في
احتفال رسمي، انظر: ,Alejandro García Sanjuán*La*
conquista islámica de la peninsula ibérica y la
tergiversación del pasado: Del catastrofismo al
negacionismo(Madrid: Marcial
Pons Historia, 2013), 19. غارسيا سانجوان يدافع عن
مدرسة "المواثيق السلمية" ويهاجم "نظرية الكارثة" للمستعربين
مثل Serafín Fanjul ومؤرخين مثل García Moreno
(García Sanjuán, *La conquista*, 49–50). انظر له
أيضًا: "Formas de sumisión del territorio y
tratamiento de los vencidos en el derecho
islámico clásico," in Maribel Fierro and
Francisco García Fitz eds., *El cuerpo derrotado:*
Cómo trataban musulmanes y cristianos a los
enemigos vencidos (Península Ibérica, Ss. VIII–
XIII) (Madrid: 2008), 61–111.

[156←]

Ibn Abd el-John Harris Jones, ed. and trans., -
Hakem's History of the Conquest of Spain
(London: Williams & Morgate, 1858), 23; al-
Hakam, 47, حيث ترجمه Vidal Beltrán مستخدمًا
مصطلحًا مروعًا آخر "القيامة". كما يستشهد الحكم بمالك حين
يقول إن المسلمين خلال غزوهم لإسبانيا نهبوا المكان وقاموا
بالعديد من الأعمال "الاحتيالية". (al-Hakam, 47). مؤرخ
القرن السابع عشر محمد بن الريني القيرواني يقتبس عبارة
"يوم الحشر" كما استخدمها موسى لوصف الفتح بترجمة .E
Histoire de l'Afrique de Mohammed-Pellisier:
, trans. E. Pellisier*ben-Abi-el-Raini-el-Kairouani*
(Paris: Imprimérie Royale, 1845), 59.

[157←]

- من المفارقات أن كلمة إستانبول استخدمت للقضاء على الذاكرة السياسية والدينية المشحونة لكلمة القسطنطينية، والتي نشأت من خطأ الفاتحين في لفظ العبارة اليونانية "εις τήν πόλι، eesteen Pohlee أو !to the Polis أي إلى المدينة أو إلى القسطنطينية.

[158←]

- من أجل الأصل اليوناني المحتمل لكلمة الأندلس، انظر:
Joaquín Vallvé Bermejo, “El nombre de al-Andalus,” *Al-Qantara* 4, no. 2 (1983): 353–55. من أجل أصل اسم إستانبول انظر الملاحظة السابقة.

[160←]

- لهذا وقائمة الأسماء السابقة التي غيرها الفاتحون المسلمون انظر: *The Land of the Bible: A*Y. Aharoni, (London: Burns & Oates,*Historical Geography* 1979); Bat Ye'or, *The Decline of Eastern Christianity under Islam: From Jihad to Dhimmitude* (Madison: Farleigh- Dickinson University Press, 1996), 240، بعد مرور أكثر من خمسمئة عام على فتح المسلمين لمدينتهم المسيحية، لا يزال اليونانيون حتى اليوم يرفضون أن يسموا القسطنطينية إستانبول.

[165←]

- وكذلك Crónica mozárabe de 754 اللاتينية خاصة 103، لكن المؤرخ يستخدم اسم إسبانيا في كل مكان. (cf. pp. 54, 58, 68, 72, 88, and 92). المعالجة الأعمق لمفهوم كلمة "إسبانيا" في اللغة الإسبانية للعصور الوسطى ربما تكون José Antonio Maravall, *El concepto de España en la Edad Media* (Madrid: Instituto de Estudios Políticos, 1964), but see also Vicente A. Álvarez Palenzuela and Luis Suárez Fernández, *Historia de España: La España musulmana y los inicios de los reinos cristianos (711–1157)* (Madrid: Gredos, 1991).

[166←]

- وفقًا للباحثة في العصور الوسطى Isabel Velزquez فإن *Historia Wambae* لجوليان من توليدو هي "ترنيمة عاطفية، إلى الأم إسبانيا قبل كل شيء، على عكس *gentes* التي على الرغم أنها *Gallia*, even *externae, Francia* جزء من *regnum*, "إلا أنها تتعرض للتشويه والإهانة من قبل المؤلف". "Pro patriae gentisque Gothorum stato," in H. W. Goetz, J. Jarnut, and W. Pohl, eds., *Regna and Gentes: The Relationship between Late Antique and Early Medieval Peoples and Kingdoms in the Transformation of the Roman World* (Leiden: Brill, 2003), 212.

[173←]

135- من أجل ثناء المسلمين الدعائي على الأندلس في العصور الوسطى بوصفها فردوسًا ردده العديد من الكتاب اليوم في إسبانيا الإسلامية، انظر: Francisco Prado-Vilar, "Circular Visions of Fertility and Punishment: Caliphal Ivory Caskets from al-Andalus," *Muqarnas* 14 (1997): 19–41.

[174←]

Felipe Maíllo Salgado, "De los musulmanes en -
Asturias en el alto Medievo: Inciertos pactos,
efímera presencia," in Juan Ignacio Ruiz de la
*La Carisa*Peña and Jorge Camino Mayor, eds.,
y La Mesa, Causas políticas y militares del
(Oviedo:*origen del Reino de Asturias*
Asociación de Amigos de La Carisa: 2010), 187.
*Acerca de la conquista árabe de*See also his
Hispania حيث يجادل بأن المسلمين لم يغزوا شمال غرب
إسبانيا.

[176←]

El Cid and the Reconquista: 1050–1492 - 4 ,(London: Osprey, 1988)، لكن ممارسة استخدام العبيد المحاربين كانت قد بدأت وأُتقنت من قبل الأمويين. انظر العمل الكلاسيكي من قبل دانييل بابيس *Slave Soldiers and Islam: The Genesis of a Military System* (New Haven, CT: Yale University Press, 1981).

[179←]

- تلخيص وتحليل ممتازان للنقاش حول استخدام كلمة *Reconquista* وعن صلة هذه الكلمة بالمفهوم المسيحي "الحرب العادلة" الذي يعود للقرون الوسطى من قبل المؤرخ Francisco García Fitz, *Las Navas de Tolosa* (Madrid: Ariel, 2008), 393–403. تبدو خاتمته قيمة بشكل بارز: "برأينا، بغض النظر عن الموقف الذي يتبناه المرء في هذا النقاش، ما يبدو أن لا جدال فيه هو أنه في الممالك المسيحية لشبه الجزيرة ومنذ وقت مبكر جدًا، تم تطوير بناء أيديولوجي، لا يبدو من الغريب، بسبب محتواه، أن يُدعى *Reconquista* والذي تم تكوينه كنظام من التمثيلات الذهنية والقيم الأخلاقية والدينية والسياسية والقانونية في خدمة مثل هذا التوسع (*Reconquista*). (ص 398 من ترجمتي).

[180←]

., 2:79–80 *Ibn Khaldūn: Histoire des Berbères* -
كان الفيلسوف العظيم الغزالي من بين العلماء الذين أيدوا الاستيلاء. حكّام الطوائف الذين يحظون اليوم بإعجاب المؤرخين الغربيين، فرضوا الضرائب على رعاياهم بقسوة وفي كثير من الأحيان لم يحافظوا على التعاليم الإسلامية الأخرى, ومنها عدم شرب الخمر وعدم التحالف مع الكفار.

[183←]

- أفضل عمل عن هذه المعركة: Fitz, Las Navas de Tolosa. معظم المتطوعين المسيحيين من بقية أوروبا الذين بلغ عددهم في البداية بالآلاف تخلوا عن المعركة الصليبية قبل المعركة، غير واثقين بنوايا ألفونسو الثامن (الذي بدا لهم أكثر اهتمامًا بكسب الأرض دون خسارة المقاتلين أكثر منه اهتمامًا بقتل المسلمين). على عكس ما يبدو أن بعض العلماء الإنجليز يعتقدونه لم يشارك ملك ليون في المعركة إلى جانب الموحدين أو أي شخص آخر في هذا الشأن. كما لم يُسجل أن قوات مسلمة قاتلت إلى جانب المسيحيين.

[184←]

- تم تبني هذه المقاربة من قبل الكنيسة الإسبانية: في أيار 2004، قررت السلطات الكنسية في كاتدرائية سانتياغو دي كومبوستيلا إزالة تمثال سانتياغو ماتاموروس (القديس جيمس مورسلاير) من مكانه وإرساله إلى متحف الكاتدرائية واستبداله بتمثال سانتياغو كحاج. كان السبب جعل صورة سانتياغو مناسبة لـ"تعاليم المسيح" وتجنب الإساءة إلى "حساسيات المجموعات العرقية الأخرى". انظر: "Church to Remove Moor-Slayer Saint," BBC News, May 3, 2004. رحب أعضاء الجالية الإسلامية بالإعلان باعتباره خطوة نحو السلام على حد قول حسام المحمودي رئيس اتحاد طلبة المغرب في سانتياغو، لكن الإعلان أثار احجاج الكاثوليك الإسبان. نتيجة لذلك، تراجعت الكنيسة وقررت إبقاء التمثال في مكانه على المدى المنظور. انظر: "Public Outcry Forces Church to Keep Moor Slayer's Statue," *Telegraph*, July 22, 2004.

147 R. Burns

[186←]

- لم تظهر كلمة "مدجن" في الإسبانية المكتوبة حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وفقًا لـ Isidoro de las Cagigas كانت كلمة "مدجن" تعني ببساطة "تابع" لإسبانيي ذلك الوقت، لكنها مشتقة من الكلمة العربية دجّن، التي تقال عن الحيوان الأليف أو المطيع. في الواقع، أشار المسلمون إلى أولئك المسلمين الذين قبلوا هيمنة الكفار عن طيب خاطر باعتبارهم *al-dadjn* و*mudajjan* أي مستأنسين. وهكذا اشتقاق *mudéjar* من *mudajjan* يعني "ترويض" أو "مستأنس". لكل هذا انظر: Gerard Wiegers, *Islamic Literature in Spanish and Aljamiado: Yva of Segovia (f1.1450), His Antecedents and Successors* (Leiden: Brill, 1994), 3, and Hans Wehr, *A Dictionary of Modern Written Arabic* (Wiesbaden: Harrasowitz, 1979), 314، في الواقع اعتبر بعض فقهاء المالكيين أن mudéjares أنذال لرغبتهم في البقاء تحت حكم الكافرين: Kathryn A. Miller, "Muslim Minorities and the Obligation to Emigrate to Islamic Territory: Two Fatwas from Fifteenth-Century Granada," *Islamic Law and Society* 7, 2 (2000): 258. For P. Chalmeta, *mudéjar*no. also means simply "tributary": "Mudéjar," *Encyclopaedia of Islam, Second Edition*, ed. P. Bearman (Brill, 2012), *BrillOnline*, Northwestern University Library, accessed July 18, 2012, www.encislam.brill.nl.turing.library.northwestern.edu/subscriber/entry?entry=islam_COM-0772. لم يذكر أي من هؤلاء العلماء أن القرن السادس عشر *Suma de los principales mandamientos y devedamientos de la ley y çunna, por don Içe de Gebir, Alfaquí Mayor de la aljama de Segovia: Año de 1492*، والذي يقول للمسلمين أيضًا ألا يعيشوا في أرض الكفار *Dos tratados de legislación musulmana. 1: Leyes de moros del siglo XIV 2: Suma de los principales mandamientos y devedamientos de la ley y çunna, por don Içe de Gebir, Alfaquí Mayor de la aljama de Segovia: Año de 1492*, ed. Pascual de Gayangos (Madrid: Academia de la Historia, Memorial histórico español, 1853), 5:251.

[187←]

- يعترف مؤرخ أكاديمي متعاطف بشكل عام مع *mudéjares* و*moriscos* بأن "العديد من المدجنين كانت لديهم مشاعر الولاء للعالم الإسلامي الأوسع.. أثارت الانتصارات العثمانية في الشرق بصيص أمل خافتاً في إمكانية إنقاذ غرناطة وإعادة تأسيس الحكم الإسلامي. وهكذا عرضوا على الأتراك دعمهم في حال حدوث غزو غير محتمل لإسبانيا. وكان ثمة "متطرفون مدجنون" عرضوا دعمهم لقراصنة شمال إفريقيا المسلمين. انظر: Mark D. Meyerson, *The Muslims of Valencia in the Age of Fernando and Isabel* (Berkeley: University of California Press, 1990), 81–82.

[188←]

- انظر الوثائق المعاصرة المتضمنة في عمل المستعرب Serafín Fanjul in his *Al-Andalus contra España: La forja del mito* (Madrid: Siglo XXI, 2005), 263–66.

[189←]

- إحدى شخصيات سرفانتس تذكر هذا الخوف من ارتفاع معدل المواليد في روايته *El* coloquio de los perros. في عام 1612 كتب الباحث Pedro Aznar de Cardona:
"يزوج الموريسكيون أولادهم في سن صغيرة، يبدو لهم أن من الجيد تمامًا أن تبلغ الأنثى أحد عشر عامًا وأن يبلغ الذكر اثني عشر عامًا من أجل الزواج. لم يهتموا بالحصول على مهر قبل الزواج لأنهم (ما عدا الأغنياء منهم) كانوا راضين بقليل من الملابس وعشرة جنيهات من المال. كانت نيتهم أن يتكاثروا ويتوالدوا مثل الحشائش، وقد أداروا الأمر بشكل جيد فعلًا بحيث إنهم فاضوا في أحيائهم وبلداتهم وتوسعوا في كل مكان ولوثوا كل شيء، حريصين جدًّا على رؤية هذه الكلمات متحققة في أغانيهم، حتى إني سمعت أغنية يطلبون فيها من مُحمد أن يبارك تناسلهم. وهم تكاثروا فعلًا لأن لا أحد أصبح عازبًا أو راهبًا أو راهبة، الجميع تزوجوا، الفقراء والأغنياء، الأصحاء والمرضى، ليسوا مثل المسيحيين القدامى الذين لديهم خمسة أو ستة أطفال ويسعدهم أن يزوجوا الابنة أو الابن الأكبر، أو يصبحوا رهبانًا أو كهنة أو جنودًا" Fanjul, *Al-Andalus contra España*, 285. إحدى شخصيات سرفانتس في روايته *El coloquio de los perros* ينتقد أيضًا معدل المواليد المرتفع لدى الموريسكيين والخطر الذي شكلوه على سلامة إسبانيا. مناقشات اليوم حول هذا الموضوع مثل احتمال الـ Eurabia (عوربة أوروبا)، هي صدى لمخاوف القرن السابع عشر، لكن حتى بعض المؤلفين المحافظين يرفضونهم مثل معلق فوكس نيوز و"المستشار الاستراتيجي " رالف بيترز الليفتانت كولونيل السابق في الجيش الأمريكي، انظر: Peters, “The Eurabia Myth: Muslims Take Over Europe? Sorry, No Chance,” *New York Post*, November 26, 2006.

[190←]

- من أجل رؤى سرفانتس حول الإسلام انظر: Darío Fernández-Morera, “Cervantes and Islam: A Contemporary Analogy,” in Robert Lauer and *Cervantes y su Mundo*Kurt Reichenberger, ed., (Kassell: Reichenberger, 2005), 126–66, at*3* http://books.google.com/books?id=NQz5W94fbys=WAirwAnr1G&dq=christians+enslaved+cantigas&ie=ISO8.8591&output=html

[191←]

- وفقًا للطبري فقد صرح الخليفة عثمان (579-656): أما بعد، فإن القسطنطينية إنما تُفتح من قبل الأندلس، وإنكم إن افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر، والسلام". *The History of al-Tabari*, translated and annotated by R. Stephen Humphreys (New York: State University of New York Press, 1990), 15:22. يروي الطبري أيضًا تصريحًا لكعب الأحبار وهو يهودي اعتنق الإسلام وعمل كمستشار للخليفة عثمان: "يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتتحونها، يعرفون بنورهم يوم القيامة". كان الاعتقاد بأن غزو القسطنطينية سيحدث عبر الأندلس شائعًا بين المؤرخين العرب. Said al-Andalusi in *Kitab al-Tarij*, ed. Jorge Aguadé (Madrid: CSIC, 1991), 92n56. تستشهد مانويلا مارين Manuela Marín بمؤرخين إسلاميين آخرين يرددون هذه الصلة بين غزو إسبانيا وفتح القسطنطينية دون أن تعي وجود هذه النصوص. "Constantinopla en los geógrafos árabes," *Erytheia* 9, no. 1 (1988): 53 and n27.

[192←]

Joseph Cardinal Ratzinger, “Perspectivas y - tareas del catolicismo en la actualidad y de cara *El Concilio III de*al futuro,” A.A. V.V. eds., (Toledo:*Toledo: XIV Centenario 589–1989* Arzobispado de Toledo, 1991), 107. عن أهمية تقليد القوط الغربيين لروح الاسترداد انظر: J. I. Ruiz de la *El*Peña, “La monarquía asturiana (718–918),” in *reino de León en la Alta Edad Media. III: La monarquía asturleonesa. De Pelayo a Alfonso* (León: Centro de Estudios e*1109 – VI. 718* Investigación, San Isidoro, 1995), 120–27، من أجل المفهوم الذي نشأ في إسبانيا القوطية انظر من بين مصادر أخرى: José Antonio Maravall, *El concepto de* (1954; rpt. Madrid:*España en la Edad Media* Centro de Estudios Constitucionales, 1997), 299–337; Adeline Rucquoi, “Les Wisigoths fondement de la nation Espagne,” *L'Europe* , ed.*Héritière de l'Espagne Wisigothique* Jacques Fontaine and Christine Pellistrandi (Madrid: Rencontres de la Casa de Velázquez, 1992), 341–52

[193←]

(New*Barbarians to Angels* Peter S. Wells, -
.York: W. W. Norton, 2008). الابتكارات التقنية
"للعصور المظلمة" ليست أقل إثارة للإعجاب من حفظها لقدر
كبير من التراث الكلاسيكي للرهبان في أديرتهم. انظر أيضًا:
*The Genesis of Science: How*James Hannam,
the Christian Middle Ages Launched the
(Washington, DC: Regnery*Scientific Revolution*
Publishing Inc., 2011).

[194←]

- من بين العديد من الأعمال حول الدور الذي لعبه القوط الغربيون في بناء الحضارة الغربية انظر: Christopher Dawson, *The Making of Europe: An Introduction to the History of European Unity* (1932; rpt. Washington, DC: The Catholic University of America Press, 2003) و *Religion and the Rise of Western Culture* (New York: Sheed &Ward, 1950); Jacques Fontaine and Christine Pellistrandi, eds., *L'Europe héritière de l'Espagne wisigothique: Colloque international du C.N.R.S.* (Madrid: Rencontres de la Casa de Velazquez, 1992).

[195←]
تقليديًا كان يُنظر إلى القوط الغربيين على أنهم شعب جرماني على الرغم من أنهم ليسوا جزءًا من تاريخ ما يُسمى اليوم "الألمان". رؤى القوط الغربيين كشعب جرماني (ولكن مرة أخرى ليسوا جزءًا من تاريخ ما يُسمى اليوم "الألمان") مع العديد من العناصر العرقية الهندية الأوروبية الأخرى (بتعددها الإثني) صاغها Herwig Wolfram، *Geschichte der Goten* (Munich: Beck, 1979), translated as *History of the Goths* (Berkeley: University of California Press, 1988), and *Die Goten: Von den Anfängen bis zur Mitte des 6. Jahrhunderts. Versuch einer historischen Ethnographie*, 3rd ed. (Munich: Beck, 1990). انظر أيضًا: Peter Heather, ed., *The Visigoths: From the Migration Period to the Seventh Century, an Ethnographic Perspective* (Woodbridge: Boydell Press, 1999). لاحتمال أن يكون البلطيق (وليس إسكندنافيا) أصل القوطيين بدلًا من الأصل الجرماني انظر: Jurate Rosales, *Los Godos* (Barcelona: Ariel, 2004), trans. *Goths and Balts* (Chicago: Vydino Fondas, 2004); "El idioma que hablaron los godos," *La Torre del Virrey* n3, Serie 6 (February 2010), Valencia, Spain: 1–12; "Las cuatro mentiras sobre los godos," Preprint of Universidad de Los Andes, Facultad de Letras y Educación, Mérida, Venezuela (July 2, 2008), 1–26. For the Spanish historian Pío Moa, the Visigoths may have come from Scandinavia before wandering in eastern and central Europe: "¿Qué debe España a los Visigodos?" *Libertad Digital*, October 14, 2009. Gisela Ripoll and Eduardo Carrera, "Art wisigoth en *Hispania*: en quête d'une révision nécessaire," *Perspective* 2 (June 2009): 256,

, ed. and *The Visigothic Code (Forum Iudicum)* - trans. S. P. Scott (The Library of Iberian .Resources Online, accessed January 8, 2015).
لم أر أي عمل عن القوط الغربيين يقتبس هذه الكلمات المهمة من قانون القوط الغربيين. جميع قوانين القوط الغربيين عبر القرون يمكن العثور عليها في (In *Leges visigothorum*
LL nat. Germ. *Monumenta Germaniae Historica* .I, 1), ed. Karl Zeumer (Hannover/Leipzig: 1902)
الكراهية لسلطة الحكومة بين الشعوب الجرمانية القديمة لاحظها المؤرخ الروماني تاسيتوس 98 ميلادي في عمله *De origine et situ germanorum* (chapters 7, 11, and 13). من المفارقات، أن عمل تاسيتوس (المعروف باسم *De Germania*) استخدمه القوميون الاشتراكيون في دعايتهم متجاهلين أن "الجرمانيين" لم يكونوا بالضبط ما هم عليه "الألمان" اليوم ولكن أيضًا التناقض بين حب الألمانيين القدماء للحرية والسيطرة الاستبدادية على المواطنين من قبل النظام الاشتراكي الوطني. لنقد استخدام الاشتراكيين القوميين لتاسيتوس، انظر من بين مصادر أخرى Kristopher B. Krebs, *A Most Dangerous Book: Tacitus' Germania from the Roman Empire to the Third Reich* (New York: W. W. Norton, 2012). كان حب القوط الغربيين للحرية هو نقطة ضعفهم أيضًا. لم تكن الملكية القوطية وراثية بل اختيارية. مثل البارونات الذين فرضوا الماجنا كارتا على الملك جون في إنجلترا بعد عدة قرون، كان نبلاء القوط الغربيون مرتابين من السلطة الملكية وساهموا في عدم استقرار النظام الملكي، لكنهم مضوا أبعد مما ذهب إليه البارونات الإنجليز حين دعموا ليس فقط المغتصبين وإنما أيضًا الغزاة الأجانب (حيث شارك بعض رجال الدين مثل Oppas وElipando في التمرد)، من بين أفضل دراسات اللغة الإنجليزية عن الموضوع انظر: Roger Collins's *Visigothic Spain, 409–711* (Oxford: Blackwell, 2004) الذي يجسد ميل التأريخ الإنجليزي للتقليل من أهمية الثقافة الرومانية الإسبانية القوطية والتغاضي عن إجراء مقارنة ستكون في صالح القوط الغربين في إسبانيا، مع مستوى الثقافة في أجزاء أخرى من العالم في ذلك الوقت، مثل شبه الجزيرة العربية الإسلامية. منع قانون القوط الغربيين الإجهاض تحت عقوبة شديدة: كان يمكن أن يُصاب الرومان الإسبان والقوطيون بالرعب في ثقافة تعلن أنه حق "دستوري" للمرأة الحامل أن تقتل طفلها الذي لم يولد بعد وأن تتبرع بأجزاء جسم الجثة الصغيرة للبحث الطبي، والتي تجيز الأفلام

التجارية التي تجعل من الإجهاض عملًا يستحق الثناء (راجع الفيلم الهوليودي الجدة). أفضل الكتب عن الحياة في إسبانيا القوط الغربيين، José Orlandis, *La vida en España en tiempo de los godos* (Madrid: Rialp, 1991) و*Historia del reino visigodo español* (Madrid: Rialp, 2003). من أجل جهود القوط الغربيين لتقديم أنفسهم بوصفهم ورثة ومدافعين عن الإمبراطورية الرومانية انظر: Federico-Mario Beltrán Torreira, "El concepto de barbarie en la hispania visigoda," *Antigüedad y cristianismo* 3 (1986): 56–57; Salvador Caramunt, *Historia de la Edad Media* (Barcelona: Ariel, 1995), 19; Maria R. Valverde Castro, *Ideología, simbolismo y ejercicio del poder real en la monarquía visigoda* (Salamanca: Universidad de Salamanca, 2000), 155–56

حتى إن ملوك القوط الغربيين تبنوا الأثواب الأرجوانية وتاج الأباطرة الرومان وفي أواخر عام 578 كانت العملات التي أصدرها الملك Leovigild تحمل على أحد وجهيها اسم الملك وعلى الوجه الآخر اسم الإمبراطور الروماني اليوناني في القسطنطينية (الإمبراطورية الرومانية الوحيدة الباقية): Jesús Vico and María Cruz Cors, "La moneda visigoda," *Gaceta numismática*, no. 169 (June 2008): 25–26.

[198←]

- موطأ الإمام مالك رواه يحيى يحيى بن كثير الليث الأندلسي. ترجمة: أميرة زرين مطرجي. يبدو أن مالك يتبع الآية القرآنية 9:29. أستخدمُ إصدار الموطأ جمعه يحيى الليثي، تلميذ مالك من قرطبة.

[200←]

- وفقًا للمقري، المجلد الأول، تنسب كل من السجلات المسلمة والكاثوليكية خيانة الكونت يوليان لرغبته في الانتقام بعد أن اغتصب الملك رودريغو ابنته. عادة ما يرفض مؤرخو اليوم هذا السبب باعتباره أسطورة، ويتغاضون عن أهمية الشرف العائلي في تلك الأزمنة الغابرة.

[206←]

- المقري، تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا، ترجمة Pascual de Gayangos (1840; rpt. New York: Johnson Reprint Corporation, 1964), 1:79.

[208←]

- أخبار مجموعة، ترجمة Emilio Lafuente y Alcántara (1867; rpt. Madrid: Bibliófilo, 1984), 20. يتردد صدى أعمال النهب والاستعباد الهائلة في جميع التواريخ الإسلامية. هكذا، على سبيل المثال، تاريخ القرن السابع عشر للريني القيرواني، والذي يستخدم مصادر أقدم من ذلك بكثير: *Histoire de l'Afrique de Mohammed-ben-Abi-el-Raini-el-Kairouani*, trans. E. Pellisier (Paris: Imprimerie Royale, 1845), 59–60.

[210←]

- ابن قتيبة الدينوري، قصص تراثية عن كبار القادة والحكّام الحكماء، المقري، المجلد الأول.

[211←]

*a del prerrománico en*í*Gu*Jaime Cobreros, -
España: Visigodo; Asturiano; Mozárabe
39 ,(Madrid: Anaya, 2005). هذه "الطاولة" جزء من
الأسطورة التي انتهى المطاف بطاولة سليمان وفقًا لها في
إسبانيا بعد تدمير الهيكل اليهودي.

[213←]

- لهذا وما يليه، انظر ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ترجمة وشرح Edmond Fagnan (Algiers: Imprimerie Orientale Pierre Fonatana, 1904), 25

[214←]

Mozárabes y Manuel Rincón Álvarez, -
(Salamanca: Universidad de *mozarabías*
Leandro, Julian, .Salamanca, 2003), 192–93
Braulio, Isidoro, and Ildefonso هم بعض أشهر ممثلي
هذه الثقافة. إذا دخل نحو 100000 محارب إلى إسبانيا وإذا
افترضنا أن ثمة أربعة أقارب لكل محارب، فإذًا لدينا ما يقرب
من نصف مليون من القوط الغربيين الذين دخلوا إسبانيا في
القرنين الخامس والسادس (عندما تحرك جميع السكان إلى
إسبانيا بعد هزيمة القوط الغربيين من قبل الفرنجة) وليس رقم
200000 الذي يذكره المؤرخون كثيرًا.

[215←]

- المقري 413:2 ن 18. هنا وفي كل مكان آخر أقدم نسخة Gayangos للأسماء المذكورة في المقري.

[225←]

- المرجع السابق. Saint John of Damascus, Writings: The Fount of Knowledge, trans. Frederick H. Chase (Washington, DC: The Catholic University of America Press, 1958), ix–x. لم يكن الوليد متساهلًا مع رعاياه المسيحيين كما كان أسلافه، لا سيما أنه فرض قيودًا على المسؤولين المسيحيين. ربما كانت سياسة الوليد القاسية تجاه المسيحيين هي العامل الحاسم في قرار القديس يوحنا الدمشقي انتهاج الحياة الرهبانية. أمر الخليفة الوليد الثاني (توفي 744) بقطع لسان بطرس، مطران دمشق؛ لأنه وعظ ضد تحطيم الأيقونات وبالتالي الإسلام.

[226←]

George Makdisi, “Scholasticism and - Humanism in Classical Islam and the Christian West,” Jour-nal of the American Oriental Society 109, no. 2 (1982): 176. See also Makdisi, “Madrasa and University in the Middle Ages,” Studia Islamica 32 (1970): 255–54. في القرن الخامس كانت أفضل مراكز التعلم في أكاديميات الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية وخاصة في القسطنطينية والإسكندرية. كما يشير الباحث Robert Browningإلى أنه بعد احتلال العرب للإسكندرية في القرن السابع كان تركز التعلم في الإمبراطورية في القسطنطينية، لكن بنية الجامعات اليونانية في العصور الوسطى لم تكن مثل بنية الجامعات اللاتينية في الغرب. "لم يكن العالم اليوناني في العصور الوسطى يعرف الاستقلال الوظيفي.. مؤسسات التعليم العالي كان يمكن مقارنتها بالجامعات اللاتينية في العصور الوسطى المتأخرة في أوروبا الغربية، لكن التعليم العالي، العام والمهني، تم توفيره من قبل مدرسين مختصين وأعضاء من مجموعات مهنية، ومعلمين معينين رسميًّا تدفع لهم الدولة". انظر: Robert Brown-ing, “Universities, Byzantine,” Dictionary of the Middle Ages (New York: Scribner, 1989), 12:300. تم نسخ هذا النظام أيضًا من قبل العرب كما يشير الهيكل المماثل للمدارس. انظر: André Godard, “L’origine de la madrasa, de la mosquée et du caravansérail à quatre iwans,” ArsIslamica 15/16 (1951): 1–9. الأزهر، الجامعة الشهيرة في القاهرة، كانت في البداية مدرسة وتطورت إلى جامعة فقط في القرن التاسع عشر تحت التأثير الأوروبي. انظر: Jakob Skovgaard-Petersen, “Al-Azhar, Modern Period,” Encyclopaedia of Islam (Leiden: Brill, 2010). جورج مقدسي واضح في هذا الأمر:"الجامعة كشكل من أشكال التنظيم لا تدين بشيء للإسلام. في الواقع، لا يمكن أن يكون للإسلام علاقة بالجامعة كمؤسسة. استنادًا إلى المفهوم الغربي للشخصية الاعتبارية فإن المؤسسة هي فكرة مجردة تتمتع بحقوق ومسؤوليات قانونية. كانت الجامعة منتجًا جديدًا، منفصلًا تمامًا عن الأكاديميات اليونانية في أثينا والإسكندرية وعن الكاتدرائية المسيحية والمدارس الرهبانية، وكانت غريبة تمامًا عن التجربة الإسلامية". The Rise of Colleges: Institutions of Learningin Islam and the West (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1981),

224–25. أول جامعة حقيقية في العلم كانت في بولونيا. تأسست عام 1088.

[227←]

- المقري، المجلد الأول. من أجل الظاهرة العامة لانتقال المعرفة العلمية اليونانية من اليونانيين المسيحيين إلى المسلمين انظر: Dimitri Gutas, Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early 'Abbasid Society (2nd–4th/8th–10th centuries) (London: Routledge, 1998); و De Lacy O'Leary, How Greek Science Passed to the Arabs (London: Routledge, 1949) و F. Rosenthal, The Classi-cal Heritage in Islam (London: Routledge, 1975). من أجل انتقال المنطق الأرسطي من المسيحيين اليونانيين في الشرق الأوسط إلى المسلمين انظر: "History of Logic," Encyclopedia Britannica Online, March 17, 2011, at www.britannica.com/EBchecked/topic/346217/historyoflogic.

[228←]

- من أجل مثال مميز، التعليقات والخلاصات والملخصات اليونانية المسيحية على الأعمال اليونانية الكلاسيكية لجالينوس انظر: Judith T. Irvine, "Who Was Akilaos? A Prob-lem in Medical Historiography," Bulletin of the History of Medicine 77, no. 1 (Spring 2003): 24–12. امتدت المنح الدراسية اليونانية التي تعلمها المسلمون في الشرق الأوسط إلى المواد اللغوية: انظر the influence of Greek thought on Arabic linguistic writings in C. H. M. Versteegh, Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking (Leiden: Brill, 1977). كما وقعت نصوص فلاسفة من الإمبراطورية الرومانية اليونانية مثل جون فيلبونوس (490-570) في أيدي المسلمين. يلاحظ أحد المؤلفين، والذي شعر بالاشمئزاز التام من أوروبا العصور الوسطى المسيحية ومأخوذًا بسحر الحضارة الإسلامية: "أن الخليفة الأموي الرابع مروان الأول أمر بالترجمة من الأطروحة الطبية الشهيرة لهارون من الإسكندرية. كانت ترجمة المؤلفات الطبية في الواقع جانبًا رئيسًا من جوانب التقدم العلمي الذي ميّز حكم الأمويين". Gene W. Heck, When Worlds Collide: Exploring the Ideological Foundations of the Clash of Civilizations (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2007), 28. وفقًا لموقع المركز الوطني لتحليل السياسات لعام 2007، حصل السيد Gene W. Heck, على درجة الدكتوراة من جامعة ميشيغان وعمل كضابط استخبارات عسكرية بالجيش الأمريكي لسنوات عديدة، مع جولات احتياطية للجيش الأمريكي في إثيوبيا، تركيا والأردن. نظرًا لمهارته في إتقان اللغة العربية فقد أمضى وقتًا طويلًا من وقته في الشرق الأوسط حيث لا يزال يقيم حتى اليوم. فاز الدكتور هيك بالعديد من الجوائز الوطنية لتصميم برامج التنمية الاقتصادية الحكومية المحلية والحكومية. حاليًا هو خبير اقتصادي أول لتطوير الأعمال في المملكة العربية السعودية وجميع أنحاء الشرق الأوسط، كما أنه يعمل كأستاذ مساعد في الشؤون الحكومية والتاريخ في جامعة ماريلاند".

[229←]

- المقري، المجلد الأول، Al-Makkari, vol. 1, app. B, xxxiv.

[230←]

Julio Samsó, Las ciencias de los antiguos en - al-Andalus (Almería: Fundación Ibn Tufayl de Samsó, يجادل .Estudios Árabes, 2011), 128–29 بأن القطيعة النسبية مع ثقافة الشرق والتي حدثت عقب انهيار خلافة قرطبة تسببت في الانحلال العلمي للأندلس بعد القرن الحادي عشر. العديد من العلماء المسلمين الأندلسيين مثل الطبيب عريب بن سعيد كانوا من عائلات مسيحية سابقة أو كانوا من المتحولين الصريحين كما لاحظ Reinhardt Dozy. المرجع السابق. Ann Christys, Christians in al- .Andalus (Oxford: Routledge, 2002), 124 الإسطرلاب الذي يُنسب غالبًا إلى الأندلس هو اختراع يوناني، (αστρολαβος) وقد اخترع الراهب والفيلسوف والمخترع المسيحي رومان لول Ramon Lull الإسطرلاب للبحار في 1295.

[231←]

Basilio Pavón Maldonado, “Influjos - occidentales en el califato de Córdoba,” Al-Andalus 33, no. 1 (1968): 206. هذه مقالة رائدة في هذا الموضوع المهمل بشكل مثير للفضول. انظر أيضًا:

Sylvain Gouguenheim, Aristote au Mont Saint-Michel.

[232←]

Isidro Bango Torviso, Alta Edad Media: De la - tradición hispanogoda al románico (Editorial Silex, 1989), 1. في مسجد قرطبة (في موقع كنيسة سانت فنسنت السابقة التي هُدمت لبناء المسجد) لا يزال بإمكان المرء أن يرى في الجزء الجنوبي فسيفساء يونانية الصنع من بين أشياء أخرى. في وقت مبكر من عام 687 حاكت قبة الصخرة الشهيرة في القدس التقنيات الرومانية واليونانية.

[233←]

- كنت أعتقد أنني أول من أشار إلى هذا، في نسخة سابقة من هذا الفصل، لكن Horgel Michiels أرسل لي إيميلًا قائلًا إنه جرت الإشارة إلى ذلك بالفعل، كما كان الأمر حقًا، من قبل Ernest T. Dewald في عمله: "The Appearance of the Horseshoe Arch in Western Europe," *American Journal of Archaeology* 26, no. 3 (July–September 1922): 316–37.

[234←]

- من المعروف لمؤرخي الفن الإسبان أن الفاتحين المسلمين تبنوا قوس حدوة الحصان على الرغم من تجاهل المستعربين ومؤرخي الفن الإسلامي لذلك بانتظام. للحصول على أمثلة متبقية لقوس حدوة الحصان القوطي انظر من بين أمور أخرى كنيسة San Juan de Baños. تحتوي أقواس حدوة الحصان هذه على مميل من نصف قطر شعاع المحيط، كما هو الحال في القوس الإسلامي، أو بعبارة أخرى، الحجارة التي تشكل القوس تغطي 180 درجة من المحيط التخيلي للقوس. لم تُترك أي كنائس كاثوليكية في جنوب إسبانيا بعد تراجع المد الإسلامي.

[238←]

- بحسب ابن سعيد، بعد ابن خلدون في Manuel Gómez Moreno, "El Kitab al- Muqtataf Min Azahir al-Turaf de 13, no. 1*Al-Andalus* Ibn Said," 28–31 :(1948). حتى ما كان ملحوظًا من "الموسيقى الإسلامية" في إسبانيا (هنا تناقض ظاهري نظريًّا بالنظر إلى تحريم المذهب المالكي الإسلامي للموسيقى) ربما يدين بالكثير من وجوده للحضارات المحتلة. حظر مالك بن أنس مؤسس المالكية الغناء والموسيقى. تُظهر The *Historia de los jueces de Córdoba* by al-Khushani (d. 971?) موقف علماء قرطبة الأمويين المالكيين الأكثر احترامًا تجاه الموسيقى: *Historia de los jueces de* , trans. Julián*Córdoba por Alxojaní* Ribera (1914; rpt. Madrid: Renacimiento, 2005), 89. من أجل معارضة مالك للموسيقى انظر أيضًا: the testimony of al-Ghazali in Duncan B. Macdonald, "Emotional Religion in Islam as Affected by Music and Singing: Being a Translation of a Book of the Ihya Ulum al-Din of al-Ghazali with Analisis, Annotation, *Journal of the*and Appendices," (1901): 201*Royal Asiatic Society* and n2. زرياب الفارسي (توفي 857) الذي كان من حضارة مُحتلة قيل إنه من أحضر الموسيقى إلى البلاط الأموي ولكن لتُعزف من قبل العبيد فقط. حتى في وقت مبكر في شبه الجزيرة العربية ربما تكون الموسيقى تطورت مع ظهور الإسلام بسبب الفتوحات العربية. تشير المصادر الموجودة إلى التأثير الأجنبي، من الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية إلى

بلاد فارس، انظر: Irfan Shahid, *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century* (Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and collection, 1995), vol. 2, pt. 2, p. 184. "كانت الموسيقى علمًا يكاد يكون غير معروف للعرب قبل فتوحاتهم، واستعاروا معرفتهم بها بالضرورة من الأمم الأخرى، وكذلك أسماء جميع آلاتهم تقريبًا" Pascual de Gayangos, في ترجمته لكتاب المقري تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا، 1: n17365 (انظر 58-59).

[239←]

- لهذا وما يليه انظر: *al-Makkari*.18–1:217 ., كان على الكاثوليك التخلي عن الكنيسة بعد تلقي عرض من عبد الرحمن لم يكونوا قادرين على رفضه ثم اضطروا إلى بناء كنيسة جديدة في ضواحي المدينة. كما أشار بيدرو مارفيل وآخرون إلى أن الفكرة القائلة بأن المسلمين تشاركوا "في البداية" الكنيسة مع المسيحيين محض أسطورة. لم تبق كنائس داخل المدينة يمكن أن تتحدى مسجد قرطبة. المثير للاهتمام أن موقع جامعة قرطبة يتجنب ذكر أن عبد الرحمن الأول استولى على كنيسة سانت فنسنت الكاثوليكية القديمة ودمرها من أجل بناء مسجده: "عبد الرحمن الأول (756-788) بدأ بناء المسجد في الموقع السابق لكنيسة سانت فنسنت التي بناها القوط الغربيون منذ 584"، وهذا كل ما يقوله موقع الجامعة عن ذلك. لا تزال أسطورة التسامح الإسلامي على حالها. انظر:
http://www.uco.es/internacionalcoopera/ori/english/walkCórdoba.html.

[240←]

*Iglesias mozárabes:*Manuel Gómez Moreno, -
(Madrid:*Arte español de los siglos IX a XI*
Junta para ampliación de estudios. Centro de
estudios históricos, 1919), 6; Pedro Marfil, “La
basílica de San Vicente: En la Catedral
*Arte, arqueología e historia*de Córdoba,”
(2007): 185–96, n14; “Córdoba de Teodosio a
*Anejos de AespA XXIII*Abd al-Rahman III,”
(2000), 127–29; Patrice Cressier, “Les
chapiteaux de la Grande Mosquée de Cordoue,”
قام .25 (1994): 257–313.*Madrider Mitteilungen*
المنصور بتوسيع المسجد باستخدام العبيد الكاثوليك والمواد التي
سطا عليها في غاراته على الأراضي الكاثوليكية.

[242←]

Manuel C. Díaz y Díaz, “Les arts libéraux d’après les écrivains espagnols et insulaires au VIIe et VIIIe siécles,” *Arts Libéraux et Philosophie au Moyen Âge: Actes du Quatrième Congrés International de Philosophie Médievale* (Montreal: Institut D’Études Médiévales, 1969), 37–46; “Noticias históricas en dos himnos litúrgicos visigóticos,” *Antigüedad y cristianismo*, no. 3 (1986): 443–56; Jacques Fontaine, *Isidore de Séville et la culture classique dans l’Espagne wisigothique* (Paris: Études augustiniennes, 1959); “Grammaire sacrée et grammaire profane: Isidore de Seville devant l’exégèse biblique,” *Antigüedad y cristianismo*, no. 3 (1986): 311–29; Fontaine and Pellistrandi, *L’Europe héritière de l’Espagne wisigothique*.

العلماء اليوم الذين يسمون "إيسيدور" ساذجًا وحتى غبيًا يفتقرون للمنظور التاريخي.

[244←]

- انظر "Recpolis" على موقع Amigos del Arte Altomedieval Español: http://www.turismo-prerromanico.com/es/visigodo/monumento/recpolis-20130212105615/, and Luis A. García Moreno, *Leovigildo: Unidad y diversidad de un reinado* (Madrid: Real Academia de la Historia, 2008), 83–84. ريكوبوليس هي المدينة الوحيدة المعروفة التي أسسها القوط الغربيون التي تستخدم الكلمة اليونانية *polis* (المدينة) كمقطع لاحق، أظن أن هذا جزء من التقليد الواعي لعاصمة الإمبراطورية الرومانية اليونانية Constantinopolis (Κωνσταντινουπολις).

[248←]

*Nota Bene: Reading*Jan M. Ziolkowski, -
Classics and Writing Melodies in the Early
(Turnhout: Brepols, 2007), 199;*Middle Ages*
, ed.*Columbia History of Western Philosophy*
Richard Henry Popkin (New York: Columbia
University Press, 1999), 230–44. من أجل الاستقبال
المستمر للنصوص اليونانية في أوروبا دون توسيط اللغة العربية
انظر العمل المهم ,Sylvain Gougenheim *Aristote au*
mont Saint-Michel: Les racines grecques de
l'Europe chrétienne(Paris: Seuil, 2008). أعتقد أن
طقوس "المستعربين" الكاثوليكية، التي لم تكن سوى الطقوس
الإسبانية الباقية المستخدمة من قبل القوط الغربيين في إسبانيا،
رددت صدى طقوس الكنيسة الرومانية الأرثوذكسية، التي كانت
معاصرة لها قبل الإصلاح الغريغوري الذي جعل من الطقوس
اللاتينية مختلفة بشكل ملحوظ عن الطقوس اليونانية؛ لذلك فإن
أصوات الطقس "المستعربي" التي يربطها البعض بالموسيقى
العربية عابقة في الواقع بأصوات الطقوس العائدة للكنيسة
الأرثوذكسية اليونانية.

[250←]

- *Al-Makkari* 1:77 ,. التفوق الثقافي لإسبانيا الكاثوليكية على شمال إفريقيا استولت عليه الفتوحات الإسلامية، والجاذبية التي مارستها إسبانيا بلا شك على البربر ستساعد في الواقع النظرية المعتوهة لأستاذ الدراسات العربية بجامعة إشبيلية Emilio González Ferrín الذي يدعي أنه لم يكن هناك غزو إسلامي وإنما فقط نوع من هجرة سلمية من شمال إفريقيا. يتبع تعاليم Ignacio Olagüe, *Les arabes n'ont jamais envahi l'Espagne* (Paris: Flammarion, 1960), الذي دُحضت كتاباته في وقت سابق من قبل Charles-Emanuel Dufourcq, *La vie quotidienne dans l'Europe médièvale sous la domination arabe* (Biarritz: Cino del Luca, 1981).

[252←]

- *Al-Makkari*. 1:77 ,. قيل إن قناة تاراغونا التي بناها الرومان على الأرجح في القرن الأول تم "إصلاحها" من قبل عبد الرحمن الثالث، وهذا ما يؤخذ في العادة على أنه يعني أنها كانت أنقاضًا قبل الفتح الإسلامي، لكن مر وقت طويل بين الفتح الإسلامي لإسبانيا (711) وصعود عبد الرحمن الثالث (891)، كان يمكن للقناة أن تتدهور بعد الفتح الإسلامي. لا يوجد ما يشير إلى أنها لم تكن تعمل في ظل القوط الغربيين.

[255←]

- من أجل هذا العمل الهائل في الحفظ والاستيعاب والنقل في الإمبراطورية الرومانية الأرثوذكسية اليونانية حتى في مواجهة الاعتداءات المستمرة من أعدائها، الإسلاميين وغيرهم، انظر من بين مصادر أخرى:

*History of*Michael H. Harris, *Libraries in the Western World* (Metuchen, NJ, and London: Scarecrow Press, 1995), 75–77؛ *A Short*John Julius Norwich, (New York:*History of Byzantium* Vintage, 1999), xli. انظر أيضًا: *The Christian*Anthony Kaldellis, *Parthenon: Classicism and Pilgrimage in Byzantine Athens* (Cambridge: Cambridge University "Classical و Press, 2009) Scholarship in Twelfth-Century Byzantium," in C. Barber and D. *Medieval Greek*Jenkins, eds., *Nicomachean*"*Commentary on the* " (Leiden and Boston: Brill,*Ethics* *Byzantium: The*و 2008); *Transformation of Greek Identity and the Reception of the Classical* (Cambridge University*Tradition* Demetriosو Press, 2007); *Christian Hellenism:*Constantelos, *Essays and Studies in Continuity* (New Rochelle, NY,*and Change* and Athens: Aristide D. Caratzas, "The Formation الملخص في عمله (1999 of the Hellenic Christian Mind," at http://www.myriobiblos.gr/texts/english/Constantelos_1.html#2_bottom Helene Ahrweiler, "The Hellenicو Europe: Problems in Greek

Continuity" (2000), at
http://www.myriobiblos.gr/texts/english/1821_problems_of_greek.html،
*Cultural and*Constantine Cavarnos,
Educational Continuity of Greece from Antiquity to the Present
(Belmont: Institute for Byzantine and Modern Greek Studies, 1995)،
*Modern Greek*J. C. Lawson,
Folklore and Ancient Greek Religion: A Study in Survivals
(Cambridge University Press, 1910)،
*The Life and*S. F. Johnson,
Miracles of Thekla: A Literary Study
(Washington, DC: Center for Hellenic Studies, 2006). من أجل
تصحيح رؤية كل ظهور مسيحي يوناني كتكييف
للوثنية اليونانية انظر: Gerald V. Lalonde,
"Pagan Cult to Christian Ritual: The Case of Agia Marina Theseiou,"
Greek, Roman, and Byzantine Studies 45 (2005): 91–125، من أجل
التجارة الهائلة بين أوروبا والإمبراطورية
الرومانية اليونانية الأرثوذكسية انظر: Marlia
*Byzantine*Mundell Mango, ed.,
Trade, 4th–12th Centuries: The Archaeology of Local, Regional and International Exchange. Papers of the Thirty-Eighth Spring Symposium for the Promotion of ..of Byzantine Byzantine Studies (London: Ashgate, 2009). الورق الذي حصل عليه
العرب من الصينيين في القرن الثامن، كان
يُستخدم في الإمبراطورية الرومانية اليونانية
بحلول القرن التاسع عندما كانت أوروبا الغربية
لا تزال تستخدم الجلد. نعرف عن مكتبات
خاصة كبيرة جدًّا وأديرة تمتلك مكتبات ضخمة

تحتوي على مئات الكتب التي كانت تُعار للناس في منطقة كل دير. هكذا تم الحفاظ على أعمال العصور الكلاسيكية القديمة، انظر: Nicolas Oikonomides, “Writing Materials, *The*Documents and Books,” *Economic History of Byzantium: From the Seventh Through the* , ed. Angeliki E. *Fifteenth Century* Laiou (Washington, DC: Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, 2002). انظر ايضًا: he illuminating Speros Vryonis, (New York:*Byzantium and Europe* Harcourt, Brace, and World,

(1967. تُعتبر أعمال Vryonis مصدرًا علميًا استثنائيًا لفهم مسار الحضارة اليونانية من الكلاسيكية إلى العصور الوسطى. بالنسبة لفهمي "الوجودي" للرؤية اليونانية للاستمرارية من العصور الكلاسيكية إلى الأزمنة الحديثة عبر الإمبراطورية الرومانية اليونانية أشكر Ιωάννα, τήν γυναίκα μου. كما وصف وردذورث الأمر بعد بقائه في اليونان: "على هذا النحو، تم تعليم تيار الوثنية الانزلاق إلى قناة مسيحية تيارها ناعم وسهل.. عمومًا كان ثمة بعض التشابه الذي ينظم عملية التحويل، بين الشخصية المحولة وتلك التي تم استثمارها بعد التحويل". *Athens and Attica: Journal of a*in *Residence There (Originally published in 1836, a companion to the classical topography of*), ed. G. Brisch (Oxford: 3rd*Athens and Attica* Guides, 2004), 153. من أجل المفهوم اليوناني Ρωμηοσύνη (*romiosini*) "الرومان" انظر: http://greekodyssey.typepad.com/my_greek_odyssey/2007/10/romiosini2.htmlset. ومن أجل بعض جوانب موسيقاها اسمع Mikis Theodorakis, على سبيل المثال at http://www.youtube.com/watch?v=g8F43rPkdI0&feature=related.

[256←]

- جورج مقدسي: السكولاستية "المدرسية" والإنسانية في الإسلام الكلاسيكي والغرب المسيحي 176. بدأت محاكم التفتيش الإسلامية على قدم وساق في عهد المأمون الراعي الأكبر لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية. اشتغلت محاكم التفتيش على السؤال اللاهوتي إن كان القرآن، "كلام الله" مخلوقًا. تحت وطأة العقوبة، التي كانت الموت أحيانًا، أُجبر اللاهوتيون الشرعيون على الإجابة أن القرآن لم يكن كلمة الله الأزلية. بعد خمسة عشر عامًا اضطهد خلالها اللاهوتيون الفلسفيون اللاهوتيين الشرعيين فشلت محاكم التفتيش وظهر قائد تقليدي جديد، ابن حنبل، بطل المقاومة السلبية التي حطمت محاكم التفتيش. بعد ذلك بفترة وجيزة، تم اختيار الشافعي وابن حنبل، كراعيين، إذا جاز التعبير، لاثنين من النقابات الشرعية المحترفة المنظمة حديثًا". كانت محاكم التفتيش وسيلة لمواجهة التحدي العقلاني الذي فرضته الفلسفة اليونانية التي اتصل الإسلام معها إبان غزوه لأراضي الإمبراطورية الرومانية اليونانية في الشرق الأوسط.

[259←]

- ربما بدأ رثاء المؤرخين مع إدوارد غيبون Edward Gibbon واستمر بلا انقطاع منذ ذلك الحين. مع ذلك، كان إغلاق الأكاديمية الأفلاطونية المحدثة من قبل جوستنيان (حاكم استثنائي مسؤول عن كتابة إحدى أعظم الوثائق في تاريخ القانون: قانون جوستنيان) إن كان قد حدث، لم يوقف الحفاظ على الفلسفة الكلاسيكية والعلوم ودراستهما في الإمبراطورية الرومانية اليونانية (انظر نصنا بما في ذلك تصريحات علماء في تاريخ المكتبات مثل Michael Harris وJohn Julius Norwich وكذلك دور العلماء اليونانيين في تقديم أفلاطون إلى الغرب). ربما كان الإغلاق، إن حدث فعلًا، جزءًا من سياسة جوستنيان العامة لتقويض الطوائف الوثنية التي كانت الأكاديمية الأثينية ما بعد الأفلاطونية مخصصة لهم (لأنها ببساطة لم تعلّم الأفلاطونية المحدثة) بدلًا من سياسة ضد الفلسفة والعلم الكلاسيكيين. في الإسكندرية واصل الفيلسوف الوثني الصريح Olympiodorusالتدريس بعد ثلاثة عقود من الإغلاق المفترض للأكاديمية الأثينية. (Cameron, 9). الفلاسفة الهلينيون السبعة (الوثنيون) الذين قيل إنهم تركوا الأكاديمية إلى بلاد فارس عادوا بعد سنة. الإغلاق، إن كان قد حدث، ربما كان جزءًا من رغبة جوستنيان في تركيز التعليم العالي في القسطنطينية وليس تدمير الفلسفة والعلوم الكلاسيكيين (Hallström, 157–160,)، هالستروم، هو من أشار إلى أن John Malalas لم يذكر أي دافع ديني، أو إغلاق أي مدرسة معينة)، لكن ربما لم يكن ثمة إغلاق لهذه المؤسسة، على العكس مما جمعه العديد من المؤرخين والمأخوذ من بيان John Malalas العام إلى حد ما في

تأريخه للقرن السادس عشر: ما من مصدر آخر، يوناني أو سوري اقترح حتى إغلاق الأكاديمية. أنظر: Alan Cameron, “The Last Days of the Academy of Athens,” *Proceedings of the Cambridge Philological Society* 195, no. 15 (1969): 7–29; و Gunnar Hallström, “The Closing of the Neoplatonic School in a.d. 529: An Additional Aspect,” in Paavo Castren, ed., *Post-Herulian Athens: Aspects of Life and Culture in Athens a.d. 267–529* (Helsinki: Suomen Ateenan-Instituutin, 1994), 157–160. من أجل الشكوك المتعلقة بالإغلاق الفعلي للأكاديمية انظر: Rainer Thiel, *Simplikios und das Ende der neoplatonischen Schule in Athen* (Stuttgart: Franz Steiner, 1999), reviewed by Gerald Bechtle, *Bryn Mawr Classical Review* 4 (2000): 19، انظر فحصًا حصيفًا جدًّا في Arthur P. Urbano, *The Philosophical Life: Biography and the Crafting of Intellectual Identity in Late Antiquity* (Washington, DC: The Catholic University of America Press, 2013), 315–16 الذي يلاحظ أن القول بإغلاق الأكاديمية في 529 للميلاد هو للافتراض أن المؤسسة التي تأسست من قبل أفلاطون استمرت في العمل كمؤسسة لمدة تسعمئة عام أو أن تلك المؤسسة التي أسسها بلوتارخ في القرن الخامس بعد الميلاد كانت بطريقة ما "إعادة افتتاح" لأكاديمية أفلاطون. أمر بالغ الأهمية أن يقتبس مؤرخ مسيحي من القرن السادس عشر مثل Malalas من يوربيديس كما لو أن قراءه على دراية بمثل هذا المؤلف

التراجيدي الكلاسيكي: Paolo Carrara, “A Line from Euripides Quoted in John Malalas’ Chronographia,” *Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik* 69 (1987): 20–24.

[263←]

- من بين المصادر الأولية التي تذكر عمل المسيحيين ناقلي المعرفة إلى العرب انظر، Said al-Andalusi, *Kitab*–79 , 80. انظر أيضًا، Harris, *History of Libraries in the Western World*, 75–77; Norwich, *A Short History of Byzantium*, xli; and Vryonis, *Byzantium and Europe*. لهذا العمل الهائل في الحفظ والاستيعاب والنقل في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية انظر من بين مصادر أخرى، Kaldellis, *The Christian Parthenon*; "Classical Scholarship in Twelfth-Century Byzantium," in Barber and Jenkins, *Medieval Greek Commentary on the Nicomachean Ethics*; Kaldellis, "*Hellenism in Byzantium*"; Constantelos, *Christian Hellenism*, summarized in his "The Formation of the Hellenic Christian Mind," at myriobiblos.gr/texts/english/Constantelos_1.html#2_bottom; Ahrweiler، "The Hellenic Europe"; Cavarnos, *Cultural and Educational Continuity of Greece from Antiquity to the Present*; Lawson, *Modern Greek Folklore and Ancient Greek Religion*; Johnson, *The Life and Miracles of Thekla*; and Evanghélos Moutsopoulos، "Arts libéraux et philosophie à Byzance," in *Arts Libéraux et Philosophie au Moyen Âge: Actes du Quatrième Congrés International de Philosophie Médievale* (Montreal: Institut D'Études Médiévales, 1969), 79–88. ربما تكون الإمبراطورية الرومانية اليونانية قد أثرت حتى على بعض جوانب الشريعة الإسلامية: Louis Milliot, *Introduction à l'Étude du Droit Musulman* (Paris: Recueil Sirey, 1953), 772. لتصحيح اعتبار كل مظهر مسيحي تكييفًا للوثنية اليونانية انظر: Lalonde, "Pagan Cult to Christian Ritual," 91–125. من أجل التجارة الهائلة بين الإمبراطورية الرومانية المسيحية وأوروبا انظر: Mundell Mango, ed., *Byzantine Trade, 4th–12th Centuries*..

[264←]

- انظر: ,.ColumbiaRichard Henry Popkin, ed
(New York:*History of Western Philosophy*
.Columbia University Press, 1999), 230–44. كان
ابن سينا فارسيًا، وكانت بلاد الفرس تحت تأثير اللغة والثقافة
اليونانيين لقرون منذ احتلال برسيبوليس Persepolis من قبل
الإسكندر الأكبر عام 330 قبل الميلاد، على أي حال، لم تكن
معرفة ابن سينا باليونانية مباشرة وإنما بوساطة مترجمين:
Mostafa Younesi, "Avicenna's Method for
Translating Greek Philosophical Terms into
*The Dialogue of*Persian," in William Sweet, ed.,
Cultural Traditions: Global Perspective
(Washington, DC: Council for Research in
Values and Philosophy, 2008), chap. 35, p.
online at ،462,
http://www.crvp.org/book/Series01/I39/chapter35
.htm... من أجل وجود الترجمات والتعليقات في الإمبراطورية
الرومانية اليونانية المسيحية في الشرق الأوسط انظر:
Cristina d'Ancona, "Greek Sources in Arabic
*Stanford*and Islamic Philosophy," in
, February 23, 2009,*Encyclopedia of Philosophy*
online at http://plato.stanford.
edu/entries/arabicislamicgreek/index.html#SyrBac.
*Aristote au mont Saint-*See also Gouguenheim,
..*Michel*

[265←]

- انظر العمل الممتاز لـ Clifton R. Fox " "What, if Anything, Is a Byzantine," *Celator* 10, no. 3 (March 1996),
org/htm/fox.01.en.what_if_anything_is_a_byzantine.01.htm.

[270←]

- توضح تجربتي الشخصية التحيز الأيديولوجي. منذ فترة ليست بعيدة سألت أحد أساتذة الكلاسيكيات المعروفين ما إذا كان قسمه يقدم أي دورات عن الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحية. أجاب بنصف ابتسامة: "آه، الإمبراطورية الآفلة. نحن لا نقدم دروسًا عن ذلك". وبالفعل فإن دراسة هذه الإمبراطورية التي صمدت لأكثر من ألف عام مُحالة إلى تلك الجامعات التي تقدم دورات "بيزنطية" في الأقسام أو برامج "دراسات الشرق الأوسط" أو "الدراسات الآسيوية" أو حتى "الدراسات التركية".

[271←]

- كان إبطاء التلقي الأكثر صعوبة للمعرفة اليونانية أحد مكوناته. انظر: Pirenne, *Mohammed and Charlemagne*. الأدلة الأثرية المفحوصة أخيرًا تدعم وجهة نظر Pirenne, حيث تشير حتى إلى انخفاض في التجارة في شرق المتوسط خلال الفتوحات الإسلامية المبكرة: التدفق المستمر للمنتجات التي نجت من التدهور السياسي للقوطيين والواندال والسلاف توقف فجأة، على عكس الميول التفسيرية الحالية التي تحدد الاستمرارية في التجارة الكلاسيكية خلال الفترة الإسلامية المبكرة. كشوفات بقايا حطام السفن في شرق المتوسط توقفت في 650 للميلاد. لم يكن الخزف الأموي موجودًا في قاعدة بيانات السفن المحطمة، Sean Kingsley, "Mapping Trade by *Byzantine*Shipwrecks," in Mundell Mango, ed., *Trade, 4th–12th Centuries* 33, 35 .، لتنقيح أطروحة Pirenne انظر: R. S. Lopez, "Mohammed and Charlemagne: A Revision," *Speculum* 18 (1943): 1438، حتى الباحث الذي شكك في تأكيد Pirenne أن الإسلام أبطأ التنمية الاقتصادية في الغرب وافق على دور الإسلام كمعترض في التدفق الثقافي من الإمبراطورية الرومانية اليونانية إلى الغرب كله: "وهكذا ربما كان أهم تأثير للتوسع الإسلامي على التطور الثقافي في الغرب يتمثل في واقعة أن الضعف البيزنطي أجبر هذه الإمبراطورية على الانسحاب وترك الغرب في سلام لمتابعة التنمية المستقلة الخاصة به"، (Anne Riising, "The Fate of Henri Pirenne's Theses on the Consequence of the Islamic Invasion," in *The Pirenne Thesis: Analysis, Criticism, and Revision :Problems in European Civilization*, ed. Alfred F. Havighurst [Boston: D.C. Heath and Company, 1958], 105). ربما كانت جمهورية البندقية هي الأقل تضررًا بسبب اتصالها الوثيق مع الإمبراطورية اليونانية. بالطبع لا الإسلام ولا المسيحية حظرا التجارة مع بعضهما، لكن مثل هذا التبادل عن طريق المستعمرات التجارية كان مقيدًا بحقيقة أن إسلام القرون الوسطى لم يكن يسمح (وحتى اليوم لا يزال يمنع) بناء كنيسة جديدة في الأراضي الإسلامية أكثر مما قد تسمح المسيحية (على عكس اليوم) ببناء مساجد في الأراضي المسيحية. (النقاش أن الإسلام سمح بلطف بممارسة العبادة المسيحية في الكنائس المبنية سابقًا في الأراضي التي غزاها الإسلام، يتغاضى عن وجود تباين في المقارنة: دخل المسلمون أراضي كانت مسيحية سابقًا ورأوا أنه من الحكمة السماح باستمرار العبادة المسيحية، في حين أن المسيحيين حين

دخلوا البلاد الإسلامية لم يدخلوا أرضًا كانت مسلمة سابقًا بل
كانت مسيحية). كان جسم الفلسفة اليونانية برمته متاحًا للعلماء
في الإمبراطورية الرومانية اليونانية المسيحة الذين قرؤوه، لكن
انقطاع العلاقات بين أوروبا والإمبراطورية بسبب التقدم
الإسلامي قطع أيضًا الانتشار السهل للفلسفة اليونانية في
أوروبا. من المحتمل أن يكون لوجهات نظر الإسلام حول الفن
التمثيلي تأثير في التدمير القريب لأحد أروع أشكال الفن في
العالم عندما حاول بعض حكّام الإمبراطورية الرومانية اليونانية
إلغاء الصور الدينية "الأيقونات" ففي الكنائس اليونانية
الأرثوذكسية خلال ما يُسمى "جدل تحطيم الأيقونات" في القرن
الثامن وأوائل القرن التاسع. دمر الإسلام في النهاية هذا الفن
في بعض أعظم كنائس الإمبراطورية الرومانية اليونانية مثل آيا
صوفيا في القسطنطينية (إسطنبول اليوم)، التي تحولت اليوم
إلى متحف، لكن أربع مآذن لا تزال تحيط بالكنيسة السابقة في
فعل تدنيس جمالي وديني. أشكر مؤتمر Liberty Fund حول
"مدن العصور الوسطى"، توكسون، أريزونا، 10-13 يناير
2010، لجعلي واعيًا بأطروحة Pirenne من خلال تضمين
كتاباته في قراءات الندوة. تمت مهاجمة أطروحة بيرين من قبل
Philip Grierson, "Commerce in the Dark Ages: A
*Transactions of the*Critique of the Evidence,"
5th series, 9 (1959):*Royal Historical Society*
*Europe: The Emergence of*Denys Hay, و 123–40
(New York: Harper and Row, 1966);*an Idea*
*Naval Power and Trade in*Archibald R. Lewis, و
(Princeton,*the Mediterranean, a.d. 500–1100*
Andrewو NJ: Princeton University Press, 1951)
*Economic*M. Watson, "Back to Gold and Silver,"
.2nd series, 20 (1967): 1–34.*History Review*
أحدث تبرير لأطروحة بيرين هو العمل الممتاز لـ Emmet
،*Mohammed and Charlemagne Revisited* ،Scott
الذي يستخدم أحدث الدلائل الأثرية. أعتقد أن أطروحة بيرين
تبقى على الأقل من وجهة نظر اقتصادية وثقافية.

[272←]

*Constantinople and*Deno John Geanakoplos, -
the West: Essays on the Late Byzantine
(Paleologan) and Italian Renaissances and the
(Madison:*Byzantine and Roman Churches*
University of Wisconsin Press, 1989) يقدم تقديرًا متوازنًا مُجادلًا بأن العلماء اليونانيين إن لم يؤسسوا النهضة الإيطالية (كما قال علماء عصر النهضة عمومًا منذ القرن السابع عشر حتى الثمانينيات) فإنهم كانوا مسؤولين حتمًا عن الكثير من مجدها المشهور. على سبيل المثال، تم جذب انتباه الغرب إلى حوارات أفلاطون من قبل العلماء اليونانيين في مجلس فلورنسا (1438-1445) والذي انعقد لحل الانقسام المسيحي بين الغرب الكاثوليكي الروماني والشرق الأرثوذكسي (كما تطلق الكنيسة الأرثوذكسية على نفسها اسم كاثوليك، *Katholikos أي* عالمي) كتوطئة لمساعدة الغرب للإمبراطورية الرومانية اليونانية في صراعها ضد إمبراطورية المسلمين الأتراك. عدد العلماء اليونانيين المؤثرين أطول من أن يتم إدراجه هنا، من بينهم كان: Manuel Chrysoloras، مانويل كريسولراس (الذي علّم ليوناردو بروني الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية)، Marcus Musurus ماركوس موسوروس (الذي كان المحرر الرئيس لمطبعة أدين الشهيرة، المركز التحريري لعصر النهضة الإيطالي، والذي كان أيضًا أستاذًا للغة اليونانية في جامعة بادوفا، ومحرر الأعمال الكاملة لأريستوفانيس وأفلاطون)، John Argyropoulos جون أرغيروبولوس (الذي علم لورنزو دي ميديتشي وأنجيلو بوليزيانو)، Nicholas Sigeros نيكولاسسيغيروس (الذي كان سفيرًا للمحمة البابوية والذي أعطى بترارك نسخة من هوميروس)، Aristotle Gaza أرسطو غازا (الذي أشار إلى التحريفات التي لحقت بأرسطو من قبل أتباع ابن رشد والمدرسيين الرومان الكاثوليك)، Gemistos Pletho جيميستوس بليثو (محاضر مؤثر في أعمال أفلاطون)، Demetrios Chalcondyles ديمتيريوس تشالكونديليس (الذي جذب اهتمام العلماء الطليان إلى عمل الأب القديس باسيلوس الكبير الذي أصبح خطابه حول "الشباب المسيحي" مفضلًا لدى دارسي الإنسانيات)، George of Trebyzond جورج تريبيزون، Demetrios Dukas ديمتريوس دوكاس وMichael Apostolis مايكل أبوستوليس. الراهب الإيطالي اليوناني Barlaam of Calabria برلام من كالبريا (أُرسل إلى آفينيون في القرن الرابع عشر من قبل الإمبراطور اليوناني أندرونيكوس الثالث لالتماس وحدة الكنيستين في الدفا ع

المشترك ضد الإسلام)، وكذلك اليوناني الإيطالي ليونيتوس بيلاتوس Leontius Pilatus الذي قام بتدريس اليونانية لبترارك وبوكاتشيو (كما قام بيلاتوس بترجمة هوميروس إلى اللاتينية).

[276←]

- انظر ملاحظاتي الختامية والفصل الثاني مع مثال مسجد قرطبة، قوس حدوة الحصان القوطي الغربي والمقتبسات الأخرى. انظر أيضًا: De Lacy O'Leary, *How Greek Science Passed to the Arabs* (London: Routledge & Kegan Paul, 1949) الذي يوضح كيف كانت المسيحية قوة يونانية في البحر الأبيض المتوسط، R. Walzer, "L'éveil de la philosophie islamique," *Revue des Études Islamiques* 38, nos. 1–2 (1970): 7–42, 207–42; و F. Rosenthal, *The Classical Heritage in Islam* (London: Routledge & Kegan Paul, 1975); و Dimitri Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early 'Abbasid Society (2nd–4th/8th–10th centuries)* (London: Routledge, 1998). قبل أعمال المنطق العائدة لـ الكندي (805-873) والفارابي (873-950) وابن سينا (980-1037) المعروف في أوروبا باسم Avicenna كان المسيحيون في الشرق الأوسط في القرن الثامن في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية قد كتبوا شروحًا على المنطق الأرسطي. اختفت هذه الشروح منذ الغزو الإسلامي. انظر: "History of Logic," *Encyclopedia Britannica Online*, September 25, 2009, at http://www.britannica.com/EBchecked/topic/346217/history-of-logic.

[277←]

- Antonio Domínguez Ortiz, *España: Tres Milenios de Historia* (Madrid: Marcial Pons, 2007), 40. بقيت بعض النقوش، وكذلك وثائق كنسية ذات أهمية كافية ليكون ثمة نسخ منها في الخارج، مثل تلك الخاصة بمعظم وليس جميع المجالس الكنسية.

[278←]

- لما تبقى من منحوتات ما قبل الإسلام، التي تقتصر إلى حد كبير على أجزاء من النقوش البارزة على جدران الكنائس والأبراج والجسور انظر: Luis Caballero Zoreda and Pedro Mateos Cruz, eds., *Escultura decorativa tardorromana y altomedieval en la Península Ibérica* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2007) و Luis Caballero Zoreda, ed., *El siglo VII frente al siglo VII: Arquitectura* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2009); José Orlandis, *Historia del reino visigodo español* (Madrid: Rialp, 2003), 243.

[279←]

- يشير José Orlandis إلى تأثير لاهوت الإمبراطورية الرومانية المسيحية وطقوس الكنيسة جنبًا إلى جنب الفن والعمارة: *Historia del reino visigodo español*, 243, 244, 249–50. لفصل الإسلام الاتصال المباشر بين الإمبراطورية المسيحية الرومانية ومعظم أوروبا الغربية انظر بشكل خاص: Pirenne, *Mohammed and Charlemagne*.

[280←]

Diego Catalán and Maria Soledad de Andrés, -
(Madrid: Gredos, *Crónica del moro Rasis* eds.,
Susana Calvo Capilla, :انظر أيضًا .1975), 281–82.
"Las primeras mezquitas de al-Andalus a través
Al-de las fuentes árabes (92/711–170/785),"
.27, no. 1 (Enero–Julio 2007): 143–79 *Qantara*

*- مؤرخ مسلم، اعتبره المؤرخون المسلمون اللاحقون والد التأريخ الإسباني في إسبانيا. وهو أول من قدم إطارًا سرديًّا بدلًا من الحقائق المجردة. كان يعمل في المحكمة مما منحه وصولًا لا مثيل له إلى الوثائق والمحفوظات الرسمية. توفي في قرطبة 955. له أخبار ملوك الأندلس وكتّابهم وخططهم، كتاب أنساب مشاهير أهل الأندلس (خمسة أجزاء)، كتاب صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها، كتاب كبار الموالي الأندلسيين أو أعيان الموالي. ضاعت معظم أعماله واقتبس منها المؤرخون اللاحقون الكثير. تاريخ المور *Crónica del moro Rasi* أيضًا من الأعمال الضائعة، مترجم إلى القشتالية. هذه ترجمتي للمقبوس. (المترجم).

[281←]

- هذا نهج معماري يعتمد إلى حد كبير على "الدخان والمرايا". حتى موسوعة *Grove للعمارة* والفن الإسلاميين وهي متأصلة جدًّا في الثقافة الإسلامية تخبرنا: "في العمارة النصرية، كانت القصور والمباني المدنية مزينة بأقواس مقلدة من الجص الملون لإعطاء وهم الديناميكية والأثيرية. الجاذبية غائبة على ما يبدو عن العمارة النصرية، ولكن الهياكل في الواقع جامدة وبدائية التكوين، حيث توازن الجدران السمكية قوة دفع الأسقف الخشبية الخفيفة التي يُعلق أسفلها أسقف مزخرفة من الخشب أو الجص أحيانًا: Jonathan M. Bloom and Sheila S. Blair, eds., *Grove Encyclopedia of Islamic Art and Architecture* (Oxford: Oxford University Press, 2009), 157. لهذا السبب لاحظ ابن خلدون أن مباني العرب في شمال إفريقيا كانت تسقط بسرعة متحولة إلى أنقاض لأنها "لم تبن بشكل متين". *The Muqaddimah*, 2:267, 269.

[282←]

*A History of*Huseyin Abiva and Noura Durkee, -
(Skokie: IQRA International*Muslim Civilization*
Robert Hillenbrand,و Foundation, 2003), 66;
Islamic Architecture: Form, Function, and
(New York: Columbia University Press,*Meaning*
*The*W. N. Lockington, ed., و 1994), 136
Iconographic Encyclopaedia of the Arts and
(Philadelphia:*Sciences: Architecture*
Iconographic Publishing 1888), 4:125, 126
*Discourses*Eugène-Emmanuel Viollet-le-Duc, و
(Boston: James R. Osgood,*on Architecture*
*History of Syria:*Philip Khuri Hitti, و 1875), 452;
(New York:*Including Lebanon and Palestine*
*The Arab*Ali Wigdan, و Macmillan, 1951), 511;
Contribution to Islamic Art: From the Seventh to
(Cairo: Cairo American*the Fifteenth Centuries*
Johnو University in Cairo Press, 1999), 21
(London:*Atlas of World Art* Onians, ed.,
James Hastings etو Laurence King, 2004), 128;
*Encyclopedia of Religion and Ethics*al., eds.,
(Whitefish: Kessinger Publishing, 2003), pt. 2, p.
*The Religions of*Frederick Jones Bliss, و 757
(New York: C.*Modern Syria and Palestine*
Scribner's Sons, 1917; rpt. General Books LCC,
J. Petersen et al., "Masjid," 277و 2009),
, ed. P.*Second Edition*, *Encyclopaedia of Islam*
Brill Online,و Bearman et al. (Brill, 2012
Northwestern University Library, June 27, 2012),
http://www.encislam.brill.nl.turing.library.northwestern.edu/subscriber/uid=1705/entry?entry=islam_COM-0694.. عند هزيمة المسلمين للملكة
الصليبية في فلسطين تكرر الإجراء ذاته، -Daniella Talman
*Islamic Piety in Medieval Syria:*Heller,
Mosques, Cemeteries, and Sermons under the
(Leiden: Brill,*Zangids and Ayyubids (1146–1260)*
.36 ,(2007. سعى الحكّام المسلمون في القرون الأولى
للإسلام إلى نسخ السمات المعمارية الخارجية للكنائس المسيحية
في كنائسهم لغرض صريح هو تقزيمها وفقًا لـ Eutichyus of
Alexandria, cit. Rafi Grasman and Myriam
Rosen-Ayalon, "The Two Great Syrian Umayyad
Mosques: Jerusalem and Damascus,"

4:07





ابن معلاق الخالدية

You
متوفرة خيار أبو منصور وطماطم أبو منصور وفلفل رومي صح؟

الان اتاكد لكم ابشروا

12:23 PM

You
متوفرة خيار أبو منصور وطماطم أبو منصور وفلفل رومي صح؟

الافضل تخلوها لبعد العصر
لان الموجود حقت قبل امس
وبيجي ع العصر الجديد ونوصلها لكم اول ماتوصل

12:25 PM

تمام ما قصرتوا الله يعطيكم العافية

12:28 PM

متى ما توفرت عطوني خبر ولا عليكم أمر

12:29 PM

You
تمام ما قصرتوا الله يعطيكم العافية

الله يعافيكم

12:29 PM

You
متى ما توفرت عطوني خبر ولا عليكم أمر

ابشروا

12:29 PM

1 UNHEARD MESSAGE



0:15 3:53 PM











[284←]

- في مقال جيد بخلاف ذلك Mary Elizabeth Poodles, “A Thousand *Touchstone: A Journal of*Words,” (July/August*Mere Christianity* 54–55, (2015), تكتب "بقيت الكنيسة إلى حد بعيد كما كانت حينها، تم الاستيلاء عليها حينها كمسجد ولكنها الآن متحف"، كيف يمكن لكنيسة أن تبقى إلى حد بعيد كما كانت في حين أنها لم تعد كنيسة بل متحف؟ حتى إن الأتراك يسمونه اليوم Kariye Camii أو Chora Mosque أو Kariye Müzesi، Chora Museum. شكرًا لعمل Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies at Harvard University and the Byzantine Institute of America تمت إزالة الجص والكثير من الأيقونات مرئي الآن.

[287←]

- كانت هذ الأساليب معيارية في جميع الفتوحات الإسلامية. على سبيل المثال، عند السيطرة على الجزء الشمالي من قبرص في أواخر القرن العشرين، شرع الأتراك المسلمون في تدمير الكنائس الأرثوذكسية اليونانية وفنونها: Judith Miller and Stephen Kinzer, "Greek Orthodox Icons Ravaged in the Turkish Part of Cyprus," *New York Times*, April 1, 1998. ، في القرن الحادي والعشرين اتبعت أعمال طالبان والدولة الإسلامية النمط ذاته.

[288←]

- للدراسات التمثيلية عن روعة فن القوط الغربيين الذي يظهر من خلال ما تبقى من هذه الكنوز انظر: Alicia Perea, *El tesoro Visigodo de Guarrazar* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 2001), esp. 83, and by the same author, *El tesoro Visigodo de Torredonjimeno* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 2009).

[291←]

- *L’Espagne du Moyen Age*:Henri Terrasse, *Civilizations et Arts* 19 (Paris: Fayard, 1966).

أشار Terrasse إلى أن الفن الصناعي لإسبانيا القوط الغربيين بلغ ذروته في إنتاج التيجان النذرية لملوك القوط الغربيين وأن هذ الممارسة كانت تقليدًا للممارسة اليونانية الرومانية "البيزنطية" (17-19). كتب Terrasse "يبدو أن هذه التيجان كانت نتاج ورش رسمية على اتصال بالعالم البيزنطي".

[292←]

- من أجل روعة بلاط القوط الغربيين انظر: ,José Orlandis
, 93–*La vida en España en tiempo de los godos*
;97، من أجل حجم توليدو وجهود القوط الغربيين لمحاكاة روما
والقسطنطينية انظر: Jesús Carrobles Santos, Rafael
Barroso Cabrera, Jorge Morín de Pablos, and
*Regia Sedes*Fernando Valdés Fernández,
., 217.*Toletana*

[293←]

- يُعتبر حكم مونتسكيو غير التاريخي وغير المناسب للعصر عن الثقافة القوطية خاصًّا: كتب في *De l'esprit des lois* "أن "قوانين القوط كانت صبيانية وغبية". (Orlandis, *Historia del reino visigodo español*, 152).

- من بينهم: Bango Torviso, *Alta Edad Media: De la tradición hispanogoda al románico*; Pavón Maldonado, “Influjos occidentales en el califato de Córdoba” و José Orlandis, *Historia del reino visigodo español* and *La vida en España en tiempo de los godos* و Jaime Cobreros, *Guía del prerrománico: Visigodo; Asturiano; Mozárabe* (Madrid: Anaya, 2005); و Luis Caballero Zoreda, ed., *El siglo vii frente al siglo vii: Arquitectura* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2009) و Luis Caballero Zoreda, ed., *Escultura decorativa tardorromana y altomedieval en la peninsula ibérica* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2007) و Alicia Perea, *El tesoro visigodo de Guarrazar* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2001) و *El tesoro visigodo de Torredonjimeno* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2009); و María de los Angeles Utrero Agudo, *Iglesias tardoantiguas y altomedievales en la peninsula ibérica: Análisis arqueológico y sistemas de abovedamiento* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2007); و Javier Sainz Saiz, *Arte prerrománico en Castilla y León* (León: Lancia, 1997). ثمة استثناء هو Jurate Rosales, *Los godos* (Barcelona: Ariel, 2004), which has been translated as *Goths and Balts: The Missing Link of European History* (Lemont: Vydunas Youth Fund, 2004). من أجل مثال عن البحث الفرنسي انظر: Jacques Fontaine and Christine Pellistrandi, eds., *L’Europe Héritière de l’Espagne Wisigothique* (Madrid: Rencontres de la Casa de Velázquez, 1992).

[296←]

*Mohammed and Charlemagne*Scott, -
Thomas F. Glick, معلقًا على , 122–23*Revisited*
professor of medieval history and director of the
Institute for Medieval History at Boston
*Islamic and Christian*University and author of
(Princeton, NJ:*Spain in the Early Middle Ages*
Princeton University Press, 1979; rpt. New York:
.Brill, 2005), 29. انظر المزيد من الأدلة عن عداء غليك في
أحد نقوش هذا الفصل.

[297←]

"Prólogo to *El collar de la paloma* de Ibn**1-**
Hazm," in José Ortega y Gasset, *Obras completas* (Madrid: Revista de Occidente, 1950), 7:42.مقدمة طوق الحمامة .
لابن حزم الأندلسي، الأعمال الكاملة لخوسيه أورتيغا أي غاسيت.

[298←]

- وبالتالي ضرورة تجنب الاختلاط بهم لمنع التدنيس. ابن حزم مُستشهدًا بالقرآن 4:139 -144. انظر له أيضًا "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، الرسالة الثالثة، ترجمة ميغيل أسين بالاسيوس Miguel Asín Palacios.
Abenházam de Córdoba y su historia crítica de las ideas religiosas, 5 vols. (Madrid: Turner, 1984), 4:106. انظر أيضًا Theodore Pulcini:
Exegesis of Polemical Discourse: Ibn Hazm on Jewish and Christian Scriptures (Oxford: Oxford University Press, 1998), 139, 149, 167, 181. ثيودور بولشيني: تأويل الخطاب الجدلي: ابن حزم عن النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية.

أظهر المستعرب فيليبي مايلو سالغادو كيف كان المسلمون المتعلمون في الأندلس يملكون نقاطًا مرجعية ثقافية "مختلفة كليًا عن تلك التي كان يمتلكها معاصروهم المسيحيون الغربيون"، *De la desaparición de al-Andalus* (Madrid: Abada, 2011), 24–2.

[304←]

-8 للاطلاع على السلطة المزدوجة التقليدية للخلفاء في الإسلام انظر، من بين مراجع أخرى، Francisco Marcos Marín, *Áctas del*," in *malik*"Notas sobre el concepto de (Madrid: Instituto*IV Coloquio Hispano-Tunecino* Hispano-Árabe de Cultura, 1983), 176 الذي يشير إلى أن الخليفة يعني "البديل" أو "الخلف" وأن الخليفة كان الأول بين أئمة الصلاة وكذلك أعلى منصب سياسي، وانظر أيضًا Patricia Crone and Martin Hinds: *God's Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam*، خليفة الله: السلطة الدينية في القرون الأولى للإسلام، (منشورات جامعة كامبردج 1986). تم اختيار الخلفاء السُّنة الأوائل من الناحية النظرية من خلال التشاور بين قادة القبائل العربية المختلفة. في الواقع حصل معظم الخلفاء على السلطة إما من خلال الميراث أو القوة العسكرية. بين الشيعة، لم يكن التشاور لاختيار حاكم ضروريًا، بما أنهم يزعمون أن سليل عائلة مُحمد هو فقط من يجب أن يكون الإمام الأعلى؛ لذلك يعتبر الإسلام الشيعي أن التقسيم بين شكلي السلطة أقل منطقية. من الصحيح أن التعاليم الكلاسيكية الإسلامية تؤكد أن السلطة الدينية تقع على عاتق العلماء "الطبقة الفكرية الدينية" بينما تقع السلطة السياسية على عاتق الخليفة. (أنظر María *God's*Isabel Fierro, "Crone, P. y M. Hinds, centuries*Caliph: Religious authority in the first* 7, nos. 1/2*Al-Qantara* " [book review], *of Islam* 481–82 :[1986]). ولكن قد يرتاب المرء في أن هذه التعاليم الكلاسيكية الإسلامية –التي يُدرّسها العلماء أنفسهم بالطبع- هي نتاج قرون من التنافس على السلطة العليا بين العلماء والحكام المسلمين. بما أن الإسلام دين عضوي وبالتالي لا يمكن أن يكون ثمة فصل بين العوالم الدينية والدنيوية، فإن احتكار العلماء المزعوم للسلطة الدينية، إن كان مبررًا، سيعطي بشكل طبيعي السلطة الكلية الأعلى لطبقة العلماء.

[305←]

*Gerichtspraxis im Stadtstaat*Christian Mueller, -
Cordoba: Zum Recht der Gesellschaft in einer
malikitisch-islamischen Rechtstradition des 5./11
(Leiden: Brill, 1999), 388; Nayer*Jahrhunderts*
.Honarvar

خلف الحجاب: حقوق المرأة في المجتمعات المسلمة،Journal of
Law and
.Religion 6, no. 2 (1988): 361

10- الطقوس وقانون الأسرة في العصور الوسطى، على الرغم من الانحرافات العرضية المبنية على أساس العادات، فإنها تلتزم على نحو أوثق بالشريعة، Abraham L. Udovitch. النظرية وتطبيق القانون الإسلامي: بعض الأدلة من Geniza، *Studia*
, no. 32 (1970): 19–29; Joseph Schacht,*Islamica*
Esquisse d'une histoire du droit musulman
(Paris: Librairie orientale et americaine, 1953),
.19

[307←]

- لم تحقق أي امرأة مسلمة مكانة مماثلة لمكانة سانتا تيريزا من أفيلا، التي أصبحت كتاباتها مؤثرة جدًّا بعد إعلانها قديسة بعد أربعين سنة من وفاتها في 1582، وهي التي سُميت بطبيبة الكنيسة الكاثوليكية في 1969. جُهود عديدة بُذلت للتعرف على نساء مثل الشيخة شهدا التي حققت مكانة مرموقة في العالم الإسلامي بوصفها مُحدّثة (راوية للحديث).. من أجل نقد لهذه الجهود، انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

[308←]

- الخشني 55-60. من أجل النزاع بين العلماء والحاكم الأول (الذي كانت أمه رقيقًا جنسيًا مسيحيًا)، انظر كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لمحمد عبد الواحد المراكشي.
*Colección de*Ambrosio Huici Miranda, in
(Tetuán:*Crónicas Arabes de la Reconquista*
Instituto General Franco de Estudios e
Investigación Hispano-Arabe, 1955), 4:15–16,
and Ibn Hayyan, in J. Vallvé and F. Ruiz Girela,
La primera década del reinado de Al-Hakam I,
según el Muqtabis II, I de Ben Hayyan de
(Madrid: Real*Córdoba (m. 469 h./1076 J.C.)*
.Academia de la Historia, 2003), 140–50

María Calero Secall ماريا كاليرو سيكال جادلت بأنه خلال حكم الطائفة النصرية في غرناطة تضاءلت قوة العلماء بالمقارنة مع قوة القصر. انظر: الحكّام وقادش: علاقتهم خلال فترة حكم المملكة النصرية، الشريعة الإسلامية والمجتمع 7، 2، 255.

El derecho islámico y su aplicación en al-
Roldán-Andalus (siglo XIII–XV)," in Fátima
*El*Castro and Isabel Hervás Jóvega, eds.,
saber en Al-Andalus: Textos y Estudios, III
(Sevilla: Universidad de Sevilla y Fundación El
.Monte, 2001)

-هذا الإضعاف للمراجع والسلطات الدينية في ممالك الطوائف قد يساعد في تفسير السلطة التي تمتع بها في بلاط غرناطة الكاهن ابن نغريلة غير المسلم، "الأمير"، لكن في النهاية اندلعت أعمال شغب شعبية بتشجيع من العلماء أطاحت ابنه الذي تمتع بالسلطة ذاتها الكاهن جوزيف بن نغريلة ودمرت كل الجالية اليهودية.

[309←]

- من الطائفة العربية، فصيل أو حزب. في وقت ما كان هناك ثلاثة وعشرون حاكمًا قبل وصول المرابطين، الذين غزوهم جميعًا بحلول عام 1091. يشرح المراكشي بازدراء: "بعد انهيار الدولة الأموية، الخلافة، تم تقسيمها إلى طوائف، وكل منطقة كان يسيطر عليها أولئك الذين لديهم سلطة محلية وتقاسموا ألقاب الخليفة، أحدهم كان يُسمى المعتضد وآخر المأمون، آخرون كانوا يُسمون المستعين، المقتدر، المعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل وألقاب أخرى للخليفة.)*Kitab*, ed. and trans. Ambrosio Hici Miranda, 65).

[310←]

*Les almoravides jusqu'au règne de*Lagardère, - 207 *Yusuf B. Tasfin* ., كان المرابطون عبارة عن اتحاد من القبائل البربرية من الصحراء الشمالية الغربية (الصحراء الكبرى) الذين بنوا إمبراطورية في شمال غرب إفريقيا وجنوب إسبانيا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. كان هؤلاء المحاربون الشرسون يرتدون حجابًا أسود يُظهر أعينهم فقط. كانوا متدينين بعمق وأتباعًا متقشفين للمدرسة المالكية. الاسم مُشتق من الكلمة العربية "المرابطون"، أي الذين يشبهون القلاع (المفرد: رباط). كان شعارهم "نشر الحقيقة، كبح الظلم وإلغاء الضرائب غير القانونية". من أجل الدور الحاسم للعلماء في سيطرة المرابطين على الأندلس بعد أن دعا حكّام الطوائف المنحطون البربر للمساعدة ضد ممالك الكاثوليك المنبعثة، انظر , ed. and trans. Ambrosio Huici Miranda, *Kitab* 108–9 and n2. أوقف المرابطون التقدم الكاثوليكي لكنهم لم يستردوا طليطلة التي أُعيد احتلالها. كانت جموع المسلمين مستاءة من حكّام الطوائف لمجموعة من الأسباب: مُشاحناتهم، ضرائبهم، مجونهم وتحالفاتهم مع الممالك الكاثوليكية (انظر المراكشي، 118).

[313←]

*Encyclopaedia of*C. L. Caen et al., “Hisba,” -
, ed. P. Bearman et al.*Islam, Second Edition*
(Brill, 2011),
.brill.nl.turing.library.northwestern.edu/subscriber/uid=1705/
.entry?entry=islam_COM0293

"العام والخاص" Roy Mottahedeh and Kristen Stilt
منظورًا إليهما من خلال عمل المُحتسب" *Research:*Social
70, no. 3 (Fall 2003):*An International Quarterly*
.735–48;

*El señor del zoco en*Pedro Chalmeta Gendrón,
(Madrid: Instituto Hispano-Árabe de*España*
.Cultura, 1973), 408

تُعزى أول أطروحة عن وجوب الحفاظ على الأخلاق وفرضها في الفضاء العام "الحسبة" في الأندلس الأموية إلى المُحتسب أحمد بن الرؤوف التي يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن التاسع، لكن المكتب "أي مكتب الحسبة" كان سمة من سمات الإمبراطورية العباسية وبالتالي إسبانيا العباسية التي استولى عليها الحاكم الأموي عبد الرحمن الأول، انظر: Ahmad
*Hisba, Arts and Craft in Islam*Ghabin,
.(Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 2009), 83

Under the Middle East Umayyads, the title was-
An: see Joseph Schacht, *amil al-suk*
(Oxford: Clarendon*Introduction to Islamic Law*
.Press, 1964), 55

[316←]

- من أجل أصول ووظائف القاضي في الإسلام بشكل عام انظر: Louis Milliot, *Introduction à l'étude du droit musulman* (Paris: Recueil Sirey, 1953), 695–703. من أجل الأندلس انظر: Alfonso Carmona, "Le Malékisme et les conditions requises pour l'exercice de la judicature," *Islamic Law and Society* 7, no. 2, 122–58.

[317←]

-الخشني97 ,. لم يكن القاضي سعيد بن سليمان شريفًا وفاضلًا فحسب، بل كان متواضعًا أيضًا(137). كان زهد الإشبيلي يحيى بن معمر مضرب المثل (104).

[318←]

- 81*Al-Joxani* , انظر الدليل القانوني للتفريع في، سهى عبود حجّار، *El Tratado Jurídico de Al-Tafri de Ibn Al-Gallab: Manuscrito Aljamiado De Almonacid De La Sierra (Zaragoza*).
Edición, Estudio, Glosario y Confrontación Con (Zaragoza: Institución*El Original Árabe* "Fernando el Católico," 1999), 2:44–45 (I cite by , tome 1, bk. 1, no. 12, in "La*Mudawwana*page); (Recension de Sahnoun):*Moudawwana* *Annales de*Analyse par G. H. Bousquet," 16 (1958), 17 (1959),*l'Institut d'Études Orientales* *Revue algérienne,*and 20 (1962), and *tunisienne et marocaine de législation et de* 74 (1958), 75 (1959), and 77*jurisprudence* (1961). كل إشاراتي إلى المدونة مأخوذة من هذا العمل. ما لم يُذكر خلاف ذلك. انظر أيضًا الفقيه المالكي ابن حبيب حسب جنينة م. صفران. "الهوية والتمايز في أندلس القرن التاسع" "Identity and Differentiation in Ninth-Century al-.76, no. 3 (July 2001): 582*Speculum* Andalus,"
مشكلة مسح أو عدم مسح يدي المرء بجواربه نشأت من مقطع في القرآن 5:6 من أجل الإيعاز باستخدام اليد اليمنى في الأكل والشرب إن لم تمكن مُعاقة، انظر *التفريع 586*. النقاط الدقيقة لمخالفة تحريم الجنس خلال شهر رمضان عالجها الأمام مالك في كتابه "الموطأ" 18.9.22 في موطأ الإمام مالك للإمام مالك بن أنس (95-179)هجري. رواه يحيى بن يحيى بن كثير الليثي الأندلسي. ترجمة أميرة زرين مطرجي، صححه وراجعه د. محمود مطرجي، (كراتشي: دار الإشاعات، 2005)، جميع استشهاداتي مأخوذة منه ما لم يذكر خلاف ذلك. لمعرفة فدية أو تكلفة الدم لقضيب مقطوع أو خصية انظر الموطأ 43.8.6.
واقعة دخول المسجد بعد تناول الثوم في الموطأ 8.1. لم يُسمح للأطفال بدخول المسجد وفقًا لوثيقة قضائية إسلامية من القرن العاشر استشهدت بها Christine Mazzoli-Guintard, *Vivre à Cordoue au Moyen Age: Solidarités citadines en terre d'Islam aux Xe–Xie siècles* (Rennes: Presses Universitaires de Rennes, .2003), 224

[319←]

- لهذا وما يليه، انظر، من بين أمور أخرى، التفريع، 21-49 ؛ المدونة، 16 (1958) ؛

الموطأ 2.2. Octave Pesle, *La Femme Musulmane Dans le Droit, la Réligion et les Moeurs* (Rabat: Les éditions La Porte, 1946).

[320←]

- *التفريع 44-45*. وأجازت المدونة استخدام ماء متخلفًا عن امرأة حائض من أجل الوضوء، لكن ليس امرأة مسيحية (المجلد 1، الكتاب 1، رقم 12 في المدونة 16 (1958) 182). فقه المالكي ابن حبيب حسب سفران "الهوية والتمايز في أندلس القرن التاسع" 582.

[321←]

- الموطأ، 12.5.54: وفقًا لمالك، يدّعي الحديث أن مُحمدًا أمر بقتل الكلاب. الموطأ، 31.29.68: يجب عدم الاحتفاظ بالكلاب في المنازل أو للرفقة، وإنما إذا تطلب الأمر في الخارج مع الماشية. انظر أيضًا ابن رشد، بدايات، المجلد 2، 24.2.1. تمت ترجمة بدايات بعنوان الدليل التمهيدي للقانوني المتميز من قبل عمران إحسان خان نيازي، [Reading: Garnet Publishing
Limited, 1994], 2 vols. ، وجميع استشهاداتي تشير إلى هذه الطبعة. 44.05.

رسالة عبد الله بن أبي زيد القيرواني (310 / 922-386 / 996): رسالة في الفقه المالكي، ترجمة. عائشة بيولي مع تعليقاتها التوضيحية بين قوسين، 44.05.
الصفحة الرئيسة الإسلامية لعائشة بيولي ,June 5, 2010
.bewley.virtualave.net/Risalatitl.html

كل اقتباساتي من الرسالة مأخوذة من هذ الترجمة بمقارنتها مع أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، *Risala ou traité abrégé de droit Malékite et moral*
, trans. Edmond Fagnan*musulmane*
(Paris: Geuthner, 1914), at
http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k5813421p ما

لم يُذكر خلاف ذلك.

من بين الأعمال الأخرى ذات الصلة التي تتعلق بالفقه المالكي لعائشة بيولي، موطأ الإمام
مالك بن أنس: الصياغة الأولى للشريعة الإسلامية (لندن: كيغان بول إنترناشيونال،
1989)، ومعاوية: مرمم العقيدة الإسلامية (لندن: دار التقوى، 2002).

[325←]

- كانت في حالة "نجاسة كبرى"، الموطأ 2.23.88 ؛ 2.28.10 يستشهد البخاري أيضًا بمُحمد حول الموضوع: *Sahih Al-Bukhari*, trans. Dr. Muhammad Muhsin Khan (Chicago: Kazi Publications, 1979), tome 1, bk. 6, no. 301. عن أبي سعيد الخدري قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء، فقال يا معشر النساءتصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار،فقلن وبم يا رسول الله، قال تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله، قال أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، قلن بلى، قال فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم، قلن بلى، قال فذلك من نقصان دينها. مع ذلك سمح مُحمد للرجل أن ينام في نفس الفراش مع الحائض. البخاري، المجلد الأول، الكتاب السادس، الحديث 320.

[328←]

- المرجع نفسه، 2.27.95. حدثني يحيى عن مالك عن زيد بن إسلام أن رجلًا سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال له: شد إزارها، ثم عليك بأعلاها" 2.27.97. حدثني يحيى عن مالك عن نافع أن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بعث إلى عائشة يسألها إن كان يمكن للرجل أن يلاطف زوجته الحائض، أجابت "تتزر بإزار إلى الركبتين وتخرج سرتها ثم له ما فوق الإزار".

[329←]

- يشير مالك أن الرجال والنساء كانوا يتوضؤون معًا في زمن الرسول لكن هذا التآزر لم يعد ممارسة مقبولة. موطأ، 2.3.15.

[332←]

- على سبيل المثال قد لا يتطلب القيء العرضي أثناء الصلاة في المسجد سوى مضمضة الفم قبل الاستمرار في الصلاة، والوضوء قبل الصلاة يمكن أن يُشطب بعد تناول الطعام المطبوخ. انظر الموطأ 2.5. إذا لم يكن الماء متوفرًا يمكن استخدام الرمل أو الحجارة. الموطأ 2.2.

[334←]

Manuela Marín, “Una familia de ulama -
6,*Al-Qantara* cordobeses: los Banu Abiisa,”
nos. 1/2 (1985): 291–320. من أجل عمل عام حول الدور
الأساسي للعلماء في إسبانيا الإسلامية انظر حسين مؤنس:
Le rôle des hommes de religion dans l’histoire
de l’Espagne musulmane jusqu’à la fin du
20 (1964): 47–88; Emile*Studia Islamica* Califat,”
*Histoire de l’Organisation Judiciaire en*Tyan,
(Paris: Librairie du Recueil Sirey,*Pays d’Islam*
.1938), 339–40

من أجل العلماء عمومًا في العالم الإسلامي انظر: Milliot,
, 703–*Introduction à l’étude du droit musulman*

12. تُستخدم كلمة إمام عادة للإشارة إلى شخص يؤم صلاة الجمعة، لكن مفردة "إمام" كانت أيضًا لقبًا فخريًا دائمًا ولقبًا محترمًا للغاية يُمنح بالإجماع إلى عالم ذي علم عظيم وبالتالي سلطة مثل مالك بن أنس والبخاري. في الإسلام الشيعي كان لهذا اللقب سلطة أكبر بما أنه يستلزم الوصول إلى الرؤية.

[335←]

- بدلًا من المولدين ("مختلط" أو "هجين") يُسمى المتحولون اليوم "المؤلفة قلوبهم" ويعني من تآلفوا مع الإيمان الصحيح وهو لقب أكثر صحة من الناحية السياسية. كان القاضي القرطبي مهدي بن مسلم متحولًا. لم يحدث صعود المعتنقين "المتحولين" داخل الصفوف الإسلامية دائمًا بلا بعض الارتياب المتريث من قبل أعدائهم بالنظر إلى أصوليتهم: الخشني 23. في الكنيسة الكاثوليكية من بين الأمثلة الأكثر شهرة لرجال ونساء من عائلات يهودية سابقة ممن صعدوا إلى مناصب مهمة: المطران بابلو دي سانتا ماريا والمحقق العام توماس دي توركويمادا، والمجدد الديني وطبيب كنيسة القديسة تيريزا دي فيلا، جميعهم من عائلات متحولة، أي من أسلاف يهود تحولوا في وقت ما إلى الكاثوليكية. في قشتالة أواخر القرن الخامس عشر، كان أمين صندوق إيزابيلا متحولًا وعاملًا في رحلة كولومبوس الأولى، في ذلك الوقت، كان أمين صندوق مملكة أراغون متحولًا أيضًا. كلمة الازدراء *marrano*(ربما تكون مشتقة من الكلمة العربية محرم أو مُحرّم " المحرّم طقسيًّا") تنطبق على المتحولين إلى الكاثوليكية "*conversos*" الذين تابعوا ممارسة مُعتقدهم السابق بشكل سري. تربط بعض المصادر المصطلح الإنجليزي الأمريكي *mulatto* بـ *muladi* وهو ربط معقول من جهة الدور المركزي الذي لعبه العرب في تجارة الرقيق.

[337←]

- المرجع نفسه ومصادر أخرى. في أوقات لاحقة، في عهد المرابطين، ازدادت قوة العلماء غالبًا. دراسة جيدة للعلماء في عهد المرابطين لرشيد الحور "القاضي الأندلسي في عهد المرابطين: السلطة السياسية والقضائيةآ. الدراسات الإسلامية، 90 (2000)، 67-83.

[343←]

- كان الطابع الدستوري للقانون المدني هو القاعدة في أوروبا حتى عصر التنوير، حيث تم فرضه على أوروبا من قبل نابليون والثورة الفرنسية، والذي قدم مقاربة بنائية وذات سمة هندسية للقانون. علّمت الكنيسة الكاثوليكية (انظر من بين آخرين، القديس أوغسطين والقديس توما الأكويني) أن المفاهيم المسيحية يجب أن تُلهم المجتمع وبالتالي قوانين المجتمع لجعل كليهما عادلًا، لكن هذا الإلهام المسيحي لا يعني أن القانون يجب أن يكون هو نفسه بالنسبة للكنيسة والدولة. في الواقع، في أوروبا الكاثوليكية، ربما كان أول مُنظّم للفروق الملموسة بين القانون الكنسي والقانون المدني هو الراهب (سواء البنديكتي أو الكامالدولي) Johannes Gratian يوهانس جراتيان بمرسومه (بعد 1193). هذا يعني أن الكنيسة الكاثوليكية نفسها كانت تميز نفسها عن الدولة. على الرغم من أن الفروق قُدمت بطريقة عامة، إلا أنه يمكن إرجاعها إلى يسوع، وبالتالي في الفكر الكاثوليكي إلى الله نفسه، الذي يحث مُستمعيه أن يعطوا ما لقيصر إلى قيصر وما لله إلى الله (لوقا 20: 20-26). في القرآن، لم ينقل الله أي تمييز مماثل بين المملكتين. بالنسبة لبيانات القانون الكنسي التي تضفي الطابع الرسمي على فصل الكنيسة عن المحاكم العلمانية، انظر *The Summa decretorum* الذي كتبه روفينيوس Rufinus بين 1157 و1159 كإضافة إلى مرسوم *Decretum* جراتيان الانفصالي بدوره. بالنسبة للقانون الكنسي في إنجلترا انظر Alain Boureau, "How Law Came to the Monks: The Use of Law in English Society at the Beginning of the Thirteenth Century," *Past and Present* 167 (2000): 29–74.

[344←]

- على سبيل المثال، اختارت قشتالة comtes كقضاة، مثلما أشار Ramón Peralta، أستاذ القانون الدستوري في جامعة كومبلوتنسي بمدريد، في كتابه Teoría de Castilla (مدريد: أكتاس، 2005).

[345←]

- على سبيل المثال، يتجاهل أستاذ الدراسات الإسلامية ريتشارد دبليو بوليت Richard W. Bulliet هذه القضايا أثناء دراسته الحجج المؤيدة للتعددية الثقافية في حالة الحضارة الإسلامية –المسيحية (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا، 2004).

[346←]

- "التبرع لقسطنطين" كانت وثيقة تنص على أن الإمبراطور قسطنطين قد ورث سلطة البابا السياسية على الإمبراطورية الرومانية الغربية، اللاتينية. الوثيقة "مزورة بلا شك" كما تعلن الموسوعة الكاثوليكية بشكل قاطع. لقد زُورت في مكان ما بين عامي 750 و850. كان تزييفها معروفًا ومُثبتًا في وقت مبكر من القرن الخامس عشر. الكاردينال نيكولاس من كوسا (*De Concordantia Catholicâ*, III, ii, in the Basle ed. of his *Opera*, 1565,) تحدث عنها على أنها *dictamen apocryphum*. بعد بضع سنوات (1140) أثبت لورينزو فالا التزوير على وجه اليقين (*De falso credita et ementita Constantini donatione declamatio*, Mainz, 1518). بغض النظر عن أسلافه توصل ريجينالد بيكوك Reginald Pecocke أسقف تشيشيستر (1450-57) إلى استنتاج مماثل في عمله "The Repressor of over much Blaming of the Clergy,' Rolls Series, II, 351–366". تم الدفاع عن أصالتها من حين لآخر وبقيت الوثيقة مستخدمة بوصفها أصلية حتى اعترف بارونيوس Baronius في كتابه "'Annales Ecclesiastici" (ad an. 324) أن "Donatio" كان مزورًا وسرعان ما تم الاعتراف بذلك عالميًا. انظر "Donation of Constantine" في الموسوعة الكاثوليكية، ed. Charles G. Herbermann et al., available at www.newadvent.org/cathen/05118a.htm.

[347←]

- أثرت الكنيسة بشكل مختلف على التشريع وخاصة قانون الوصايا. تم الزواج وفقًا لإجراءات الكنيسة، وكانت قواعد الأسرة مستوحاة مباشرة من الرومانية الكاثوليكية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية. انظر Michael M. Sheehan، *Marriage, Family, and Law in Medieval Europe: Collected Studies*, ed. James K. Farge (Toronto: University of Toronto Press, 1996), esp. 24. من أجل الحصول على مقدمة عامة عن التأثير العميق للمسيحية على القانون في أوروبا انظر John Witte Jr. and Frank S. Alexander, eds., *Christianity and Law: An Introduction* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).

[348←]

- جون هدسون: تشكيل القانون العام الإنجليزي، القانون والمجتمع في إنجلترا من الفتح النورماندي إلى ماجنا كرتا.

John Hudson, *The Formation of the English Common Law: Law and Society in England from the Norman Conquest to Magna Carta* (London: Longman, 1996).

[350←]

- Peralta, *Teoría de Castilla* 50 ., حتى الملك كان خاضعًا للقانون الذي لم يستحدثه. ومع ذلك انتصرت السلطة الملكية، في النهاية، على الحم الذاتي المحلي في القرن السادس عشر.

[354←]

- الكلمة العربية "القاضي" al-qadi، بعض من خصائص هذا المنصب المنتخب قد تم التقاطها في مسرحية بيدرو كالديرون دي لابراكا الشهيرة في القرن السابع عشر El alcalde de Zalamea. لا يظهر أي كاهن في هذه المسرحية.

[355←]

- باستثناء، مرة أخرى، أعمال "الكنيسة بالمعنى الضيق للكلمة" مثل الزواج والشؤون العائلية مثل المعمودية والأسرار الدينية الأخرى.

[356←]

- الولايات المتحدة مثال مُعبر. في المدن التي ترتفع فيها معدلات القتل مثل شيكاغو، أو نيويورك، يرفض رؤساء البلديات الدعوة إلى تطبيق العقوبات الحكومية الفيدرالية الإلزامية بالنسبة للمجرمين المسلحين. مجرد حيازة مجرم عنيف لسلاح ناري يجب أن تفضي إلى الحكم على هذا المجرم بالسجن لمدة عشر سنوات تلقائيًا وفقًا للقانون الفيدرالي، لكن القضاة في مدن مثل هذه لا يُنفذون القانون. وبالمثل كل من ينقل سلاحًا ناريًا أو ذخيرة عبر خطوط الولاية بقصد ارتكاب جناية أو المساعدة في ارتكابها يجب أن يكون الحد الأدنى لعقوبته عشر سنوات من السجن، لكن القضاة يتجاهلون القانون. لا يتم تطبيق قوانين الهجرة الفيدرالية بشكل روتيني من قبل الفرع التنفيذي للحكومة وأشهرها المدن التي أعلنت نفسها "مدن الملاذ" والتي تتحدى صراحة القوانين الفيدرالية. يمر راكبو الدراجات بشكل روتيني بالإشارات الحمراء وعلامات التوقف دون إصدار مخالفات وهكذا...

[357←]

- إلى التعقيدات في الشريعة الإسلامية يُضاف التمايزات الممكنة بين العمل (práctica jurídica) والعرف *urf* (الاستخدام المحلي للقانون) والعادة. انظر Andrés Botero Bernal: "Al-Andalus: Una experiencia ius-histórica de convivencia entre diferentes," www.urbeetius.org/newsletters/22/news22_boterobernal.pdf لكن مرة أخرى، لم يكن هذا سمة خاصة لإسبانيا الإسلامية، إذ يحدث هذا في كل مجتمع.

[358←]

- هذه العبارة المقتبسة مأخوذة من جانينا م.سافران Janina M. Safran أستاذة التاريخ ومديرة دراسات الشرق الأوسط الثانوية في جامعة ولاية بنسلفانيا كجزء من جهودها لمواجهة فحص الفقه المالكي الذي يمكن أن يقودنا إلى النظر على نحو غير مناسب إلى طريقة الحياة في الأندلس: انظر هنا، تحديد الحدود في الأندلس: المسلمون والمسيحيون واليهود في أيبيريا الإسلامية (إيثاكا: مطبعة جامعة كورنيل، 2013)، 211.
Defining Boundaries in al-Andalus: Muslims, (Ithaca:*Christians and Jews in Islamic Iberia* Cornell University Press, 2013), 211. هذا الكتاب المتقن لا يذكر ختان الإناث والرجم بتهمة الزنا، والصلب وجدع الأنوف أو الألسن وما إلى ذلك. في وصفها للكتاب على موقع قسمها على http://history. psu.edu/directory/jxs57, accessed May 21, 2015 تتابع سافران مع ادعاء قدمه العديد من المستعربين لا يتعلق فقط بإسبانيا الإسلامية بل يشمل الشريعة الإسلامية ككل: أن "مرونة مفاهيم وطبقات الشريعة الإسلامية استوعبت التفاعل والتكامل بين الطوائف في المجتمع المسلم".

[359←]

- *The Decline and Fall of the Roman Empire*, chap. 44.

انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الفصل الأول. 44.

[360←]

- انظر التفريع، حيث يتم استدعاء اسم مالك في بداية الفصل الأول الذي يعالج طقوس التطهير. هذه الطبعة عمل مُمتاز من قبل الأستاذ عبود حجّار. بعد عدد من الأجيال في ظل الحكم الكاثوليكي، تواصل العديد من المدجنين والموريسكيين من خلال شكل من الإسبانية (Aljamiado، الجميادو المكتوبة بالحروف العربية) أكثر مما تواصلوا بالعربية، تمامًا كما فقد العديد من الكاثوليكيين في ظل الحكم الإسلامي لغتهم الإسبانية وتواصلوا باللغة العربية. حكومة أراغون التي كانت تفتقر إلى استيعاب الشعوب الأجنبية التي يمكن أن تتواطأ مع العوالم الإسلامية القوية خارج إسبانيا، والتي انخرطت، في الواقع، في ثورة هائلة في أوائل القرن السادس عشر، اعتمدت مرسوم التحول في 1525 ومنعت المسلمين السابقين المفترضين (الموريسكيين) من الاحتفاظ بالنصوص الإسلامية. وهكذا تم العثور على نسخة الجاميادو من أطروحة ابن الجلّاب مخبأة داخل جدار في 1884 في Almonacid de la Sierra في مقاطعة سرقسطة.

[361←]

- مقارنات إرشادية تم إجراؤها بين المدونة الكلاسيكية في نسختها الكلاسيكية التي قام بها سُحنون Sahnun وبين تعديلاتها المبكرة في القرن العشرين في André Colomer, *Droit Musulman: Les Personnes. La famille* (Rabat: La Porte, 1962). لخص ج.ه بوسكيه G. H. Bousquet المدونة في "La *Moudawwana*," *Annales de l'Institut d'Études Orientales* 16 (1958), 17 (1959), and 20 (1962), and *Revue algérienne, tunisienne et marocaine de législation et de jurisprudence* 74 (1958), 75 (1959), and 77 (1961).

من أجل نقل المدونة انظر، ميكلوس موراني، Miklos Muranyi، *Die Rechtsbuecher des Qairawaners Sahnun b. Sa'id: Entstehungsgeschichte und Werkueberlieferung* (Stuttgart: Steiner, 1999)، الذي يؤكد على "مرونة" النص الباقي الموجود في النسخ المختلفة. يعزز موراني الجدول الزمني المقبول عمومًا للكتابات الإسلامية ويرفض بشكل مقنع محاولة تقديم المدونة كما كانت قبل الموطأ، كما في نورمان كالدر، دراسات في الفقه الإسلامي المبكر، Norman Calder, *Studies in Early Muslim Jurisprudence* (Oxford: Clarendon Press, 1993).

من أجل تأثير الأطروحة في إسبانيا الإسلامية انظر J. M. Forneas, "Datos para un estudio de la *mudawwana* de Sahnun en al-Andalus," in *Actas del IV Coloquio Hispano-Tunecino* (Madrid: Instituto Hispano-Arabe de Cutlura, 1983), 93–118.

[362←]

*Cuestiones legales del*Ana Fernández Félix, - *islam temprano: la Utbiyya y el proceso de formación de la sociedad islámica andalusí* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones .Científicas, 2003), especially 494–95

العتبيةتُسمى بذلك نسبةً لمؤلفها محمد العتبي بن أحمد بن عبد العزيز الأموي (ت245 هـ)، وتسمى أيضًا **المُستخرجَة**، سميت بذلك لأنه استخرجها من الأسمعة التي رويت عن الإمام مالك بواسطة تلاميذه، وقد ورد اسمها عند ابن حارث «الديوان المستخرج من الأسمعة". م.

[364←]

- تحفة الحكّام أو هدية للقضاة، ترجمة Alhaji Bello Muhammad (Zaria, Nigeria: Ahmadu Bello University, 1989). قراءتي لهذا الدليل التي لم يُستشهد بها، على حد علمي، من قبل ماريا إيزابيل فييرو وعلماء إسبان آخرون، تشير إلى أن بعض الاختلافات المفترضة بين المالكية الأندلسية والمالكية غير الأندلسية قد تكون أكثر تعقيدًا مما يبدو حتى الآن. توضح الأطروحة أن شاهدًا ذكرًا واحدًا قد يكون مطلوبًا لإبلاغ القاضي عن بعض القضايا، لكن كل فقيه سليم التفكير يعتبر أن رجلين أفضل من رجل واحد، وأنه إذا كان الشهود من النساء، فيجب أن تكونا اثنتين. لا يزال هذا الدليل، الذي كتبه فقيه أندلسي، مستخدمًا اليوم، من بين أماكن أخرى، في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

[366←]

- موطأ الإمام مالك للإمام مالك بن أنس 95-179 هجري. رواه يحيى بن يحيى بن كثير الليث الأندلسي. ترجمة أميرة زرين مطرجي. تصحيح ومراجعة د. محمود مطرجي (Karachi: Darul Ishaat, 2005). J. M. Forneas, “Para un estudio del Kitab al-Muwatta en al-Andalus,” in *Actas del Coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas: Historia, Ciencia y Sociedad* (Madrid: M.A.E., 1992), 197–216. في دراسات في الفقه الإسلامي المبكر يجادل نورمان كالدر بأن الموطأ كان يمكن أن يكون مكتوبًا في الواقع في قرطبة أولًا. أسس المالكية الإمام مالك بن أنس (توفي 795) في المدينة المنورة، المدينة التي هاجر إليها مُحمد من مكة عام 622، العام الذي أصبح بداية التقويم الإسلامي. في نسخة تلميذ مالك، يحيى بن يحيى الأندلسي، يتمتع موطأ مالك بسلطة هائلة ليس في إسبانيا المسلمة فقط ولكن في جزء كبير من العالم الإسلامي كذلك. اعتبره اتباعه الخلاصة الأولى للفقه والأحاديث، أقدم كتاب إسلامي بعد القرآن، ورسول التقاليد الإسلامية الأولى للمدينة المنورة، أصبح الموطأ يُعتبر على نطاق واسع في المرتبة الثانية بعد القرآن بوصفه منهلًا للمعرفة الإسلامية. "الدينا في ممارسة أهل المدينة المنورة في معاملاتهم العادية كما في عبادتهم نموذج واضح أيده الوحي، حيث إن أهل المدينة من جيل الصحابة عاشوا كل لحظاتهم بمعرفة عميقة أن آية أو سورة ما قد توحى في أي لحظة فيما يتعلق بأمور تُغضب الله أو في إقرار أمور ترضيه" (من مقدمة محمود مطرجي). انظر أيضًا Miklos Muranyi، *Materialien zur malikitischen Rechtsliteratur* (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1984), 78.

[367←]

- الخشني. الرأي العلمي الأكثر رسوخًا عن هذا الكتاب هو أن السير الذاتية الثلاث الأولى ربما كانت أسطورية، لكن بقية السير ليست كذلك، لكن حتى السير الذاتية الخيالية الممكنة يمكن أن تساعد القارئ على "تصور" البيئة الاجتماعية ونظام القيم الذي عمل فيه العلماء المسلمون والذي عاش فيه السكان بشكل عام.

[368←]

- هذ المدرسة الشرعية الأقل تحفظًا تحكم باكستان، والدستور الباكستاني لعام 1979 يتضمن الرجم في حالات الزنا المثبتة والدعارة عند المحصن (المسلم المتزوج أو المسلمة المتزوجة). انظر الحكم رقم سبعة الذي يتضمن تعريف المحصن، online at www.pakistani.org/pakistan/legislation/zia_po_1979/ord7_1979.html.

[369←]

- عبد الرحيم، أصول الفقه المحمدي عند المذاهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي (London and Madras: Luzac & Co., 1911). من أجل تطور القوانين ضد الردة انظر الصفحات 54-249.

[370←]

- Asín Palacios, 1:22. مواد الفقه المالكي عديدة. من أجل الحصول على قائمة وفحص نَسَبِيّ للوثائق المتاحة أنظر، Muranyi, *Materialien zur Malikitischen Rechtsliteratur*. من أجل حكمها في مملكة غرناطة انظر Rachel Arié, *Études sur la civilisation de l'Espagne musulmane* (Leiden: Brill, 1990), 68–69.

[371←]

- María Isabel Fierro. "البدعة في الأندلس" في سلمى خضراء الجيوسي. إرث إسبانيا المسلمة. (Leiden: Brill, 1994), 2:895.

[372←]

María Isabel Fierro, “Los malikíes de al- -
Al-Andalus y los dos árbitros (al-hakaman),”
*Qantara*79 :(1985) 1/2 .nos ,6. تسرد فييرو الانحرافات التالية في مناحٍ أخرى من القانون: عدم الاعتراف بشاهد واحد كدليل، قبلوا الدفع لقاء تأجير الأرض بواسطة جزء من محصول الأرض، لم يعترفوا بروابط الملكية عندما تكون النية خلف تلك الروابط دفع الصدقات، وسمحوا بزراعة الأشجار حول المساجد. كان هناك أيضًا خلافات حول القواعد الصحيحة لغسل اليدين.
María Isabel Fierro, “La polémique a propos de
raf al-yadayn fi l-salat ,” *Studia Islamica*65
69–90 :(1987). الخوشني (79-80). يشير إلى أن الموضات الإسلامية المبكرة للرجال اختلفت بطريقة واحدة على الأقل عن غيرها في الأراضي الإسلامية: على الرغم من أن الرجال تجنبوا الملابس الحريرية كما تتطلب التقاليد الإسلامية، إلا أنهم وكقاعدة لم يرتدوا العمامة حتى القرن الحادي عشر، كما كانت العادة الإسلامية في أمكنة أخرى(وإن كان يُقال إن بعض أحاديث مُحمد أمرت بعدم ارتداء العمامة أثناء الإحرام، الشرط المطلوب قبل الحج إلى مكة). منمنمات ألفونسو العاشر (1282-1284) كانتيجاس دي سانتا ماريا *Cantigas de Santa María* تصور المسلمين يرتدون العمامات.

[373←]

- Fierro, “Heresy in al-Andalus,” 895. إشارة ابن حزم إلى وجود طوائف مختلفة غير مرغوب فيها وهجومه في عمل مختلف على الزنادقة مثل المرجئة والمتصوفة لا يظهر التسامح المالكي، بل يدل على عكس ذلك بما أنه هاجم الطوائف الضالة.

[375←]

- مع ما يترتب على ذلك من صعود الهرطقات الموجودة سابقًا مثل الصوفية، لكن المالكية بقيت المدرسة الدينية المهيمنة.

[376←]

- راجع على سبيل المثال، Robert Brunschvig, "Polémiques Médiévales Autour du Rite de Malik," *Al- Andalus* 15, no. 2 (1950): 388، حول إذا ما كان يترتب على المرء أن ينتبه أكثر لمالك جامع الأحاديث التي نقلت سُنة مُحمد، أو لمالك صاحب الفتاوى.

[383←]

87- Jorge Aguade، بعض الملاحظات حول الحركات الطائفية في الأندلس، *Studia Islamica*; no. 64 (1986): 56–57, Maribel Fierro, “Prácticas y creencias religiosas en al-Andalus,” *Al-Qantara*; 13, no. 2 (1992): 470. Fierro، "الهرطقة في الأندلس"، 895-908، في هذه المقالة الأخيرة تجادل فييرو أساسًا أن وجود الهرطقة الإسلامية يدل على تنوع ومرونة الإسلام الأندلسي، لكن واقعة تعرض تلك الهرطقة للاضطهاد تدل على التعصب المالكي وليس العكس. تصر فييرو بقوة على وجود مفكرين ومجموعات هرطوقية في الأندلس. بالطبع كان يمكن العثور على بعض الهراطقة الصريحين هنا أو هناك تمامًا كما كان ثمة فترات لم تكن المالكية مهيمنة فيها. لا شيء من هذا يلغي واقعة أن المالكية حكمت إسبانيا لمعظم تاريخها، أو أن هؤلاء الذين انحرفوا عن الأرثوذكسية، لا سيما الهراطقة والمجدفين، تحدثوا على مسؤوليتهم الخاصة.

[392←]

- أدركت آنا فرناندیز فیلیکس کیف أدى الاتصال بالمسیحیین والیهود إلى تفاقم الإسلامویة. انظر ,Fernández Félix *Cuestiones legales del Islam temprano*499 ,.

[393←]

- جوزيف شاخت، "مالك بن أنس" الموسوعة الأولى للإسلام لـ *E. J. Brill's*، *1913–1936*, (Leiden: Brill, 1913–1938) 5:208; *Muwatta*14 ,. الأصل المديني للأطروحة (المدينة المنورة) سمح بادعائها للمرجعية الأرثوذكسية: صفران، الهوية والتمايز في القرن التاسع في الأندلس، 577-78".

[394←]

Justin Stearns, “Contagion and - Law: Ethical Considerations in the Writings of Two Fourteenth-Century *Islamic*Scholars of Nasrid Granada 14, no. 1 (2007)*Law and Society* 29–109. جاستن ستيرنز، العدوى والقانون: الاعتبارات الأخلاقية في كتابات اثنين من علماء القرن الرابع عشر في غرناطة النصرية، (الشريعة الإسلامية والمجتمع، 14، رقم 1، 2007): 29 – 109. يغطي هذا المقال مملكة الطوائف، ومع ذلك لم يتم الاحتفال عادة بحكّام الطوائف لالتزامهم المخلص بالتعاليم الإسلامية الصارمة.

[397←]

- لعب عبد الرحمن الأول، مؤسس الأندلس الأموية، ألعاب المحسوبية مع قضاته، انظر: *Historia de los jueces de Córdoba*., 53. في عهد عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول، تمت تبرئة العلماء المتهمين بالإلحاد المبطن والرياء بسبب ضغط الحكّام على المحاكم. انظر: سفران: الهوية والتمايز في الأندلس في القرن التاسع. 592.

[402←]

- وفقًا لابن رشد، أتيحت الفرصة للمسلم الذي ترك الإسلام علانية للتوبة قبل القتل: بدايات، 2.552 ؛ عادل ثيودور خوري، *Toleranz im Islam*، (ميونيخ: كايزر، 1980)، 112.

لخدمة ابن رشد كمستشار للموحدين، انظر المقري، تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا لأحمد بن محمد المكاري.
trans. Pascual de Gayangos (1843; rpt. New York: Johnson Reprint Corporation, 1964), vol. 1, .app. A, xv

[404←]

- من المفترض أن إحراق الساحرات في أوروبا المسيحية قد طهر أرواحهن وبالتالي أنقذهن. لم يُزعج انشغال كهذا بأرواح الساحرات رجال الدين المسلمين. كتاب جديد عن موضوع اضطهاد الساحرات في أوروبا والأمريكتين يخرج كل بضع سنوات. آخرها هو كتاب John Demos *The Enemy Within: Two Thousand Years of Witch Hunting in the Western World* (New York: Viking, 2008).
جون ديموس، العدو في الداخل: ألفا عام من مطاردة الساحرات في العالم الغربي. قد يتوقع المرء أن هذه الدراسات المُزمع كتابتها ستعزو اضطهاد الساحرات في بلاد المسلمين إلى التأثير الغربي، مرتدة إلى الوراء إما إلى مُحمد أو إلى صعود طبقة العلماء البطريركية وبالتالي غير المتسامحة. وبالتالي سيتم تفسيره "الاضطهاد" على أن لا علاقة له بإسلام العصور الوسطى أو بالثقافة العربية.

[410←]

- سهى عبود حجّار، *Al*-"Difusión del tratado jurídico de Ibn Al-Gallab en el Occidente *Trafi* 1, nos. *Aragón en la Edad Media* Musulmán," 1–18 :(1999) 15–14. لا تتماشى مثل هذه الإجراءات المتطرفة مع الصورة الشعبية لإسبانيا الإسلامية بوصفها أرضًا "للتسامح". بالكاد تبدو أكثر تسامحًا من الأفعال التي شهدناها في القرن الحادي والعشرين مثل الانتشار الواسع لأعمال الشغب وقتل غير المسلمين ردًا على الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية التي تصور مُحمد وبذلك تنتهك التعليمات ضد التمثيل التصويري لهيئته البشرية، أو قتل المترجم الياباني لرواية سلمان رشدي آيات شيطانية، وطعن المترجم الإيطالي، والفتوى التي تأمر بقتل رشدي، أو أفعال الدولة الإسلامية في العراق وسوريا.

[412←]

- ثمة سوابق في القرآن تنص على صلب من أفسد في الأرض، راجع القرآن 5:33. أقتبس من القرآن: نص وترجمة وشرح عبد الله يوسف علي (New York: Tahrike Tarsile Qur'an, 2001). بالنسبة للرواية أدناه عن العالم الذي طُعن وصُلب انظر Maribel Fierro "الفتوى الأندلسية فيما يتعلق بالكفر" *Annales islamologiques* 25 (1990): 103–17. رددت نصوص دينية أخرى صدى المطلب القرآني بصلب الذين "يحاربون الله ورسوله". انظر سنان أو داوود، مُتاح عبر الإنترنت من خلال ملخص موجز جامعة جنوب كاليفورنيا للنصوص الإسلامية بترجمة أحمد حسن على usc.edu/dept/MSA/fundamentals/hadithsunnah/abudawud/: bk. 38, nos. 4357 and 4359. لم يُستخدم الصلب أبدًا في إسبانيا الكاثوليكية، ولم يُعاقب الزنادقة بالحرق حتى القرن الثاني عشر.

[414←]

- لدينا عدد قليل جدًا من الوثائق حول هذه الأمور، بالطبع. أحد الأسباب هو أن الوقت وتقلبات التاريخ قد محت معظم السجلات. من جهة ثانية استغلاق التفاصيل عن تطبيق الشريعة الإسلامية (التي لا تزال ظاهرة حتى اليوم في البلدان الإسلامية التي تطبق شريعة العصور الوسطى مثل السعودية) يُساهم في شح التوثيق. مع ذلك لا يزال لدينا بعض السجلات من الأندلس التي تشير إلى انتشار استخدام هذه العقوبات. بالنسبة للممارسة الحالية لقطع الرأس والصلب والطبيعة الغامضة لتوثيق الشريعة في بلد مثل المملكة العربية السعودية وهي عضو حسن النية في الأمم المتحدة انظر Raziye Akkoc, "Hackers Target Saudi Websites as Teenager Ali Mohammed al- Nimr Awaits Execution," *Telegraph* (UK), September 28, 2015.

[417←]

- لم تكن الظروف الاجتماعية في الأندلس وردية، على عكس ما يتم تدريسه عادة. انظر Roberto Marín Guzmán "أسباب ثورة عمر بن حفصون في الأندلس": دراسة في التاريخ الاجتماعي الإسلامي في العصور الوسطى *Arabica* 42, no. 2 (June 1995): 180–221.

[431←]

- أطروحات المالكي واضحة عن مثل هذه التعاليم الإسلامية، انظر على سبيل المثال، التفريع ومصادر أخرى، 586،587. بشكل ملحوظ، يمكن تزيين السيف بالذهب والفضة. لم يكن مالك يحب الألعاب، بما في ذلك الشطرنج، الموطأ 52.2.7، "يحيى منسوب إليه عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه عندما وجد أحد أهله يلعب النرد ضربه وأتلف حجر النرد. قال يحيى إنه سمع مالك يقول: لا خير في الشطرنج، وليس بشيء وهو من الباطل. قال يحيى: سمعته يرفض لعبها وغيرها من الألعاب التي لا قيمة لها. استشهد بهذه الآية "فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ". سورة 10 آية 32.

[442←]

- كان هذا الابن، محمد، شخصًا ماجنًا و"لم يكن سلوكه مواتيًا للخلافة". بعد وفاة والده استمر في السلطة خمسة وأربعين يومًا فقط. تم خلعه من قبل شقيقيه، أحدهما أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، أصبح خليفة، لكن كان على يوسف أن يتغلب على معارضة ثلاثة أشقاء آخرين، مات اثنان منهما في "ظروف" غامضة قبل أن يوطد يوسف سلطته: *Colección de Crónicas Arabes de la Reconquista volumen iv: Kitab al-muyib fi taljis ajbar al-Magrib by Abu Muhammad Abd al-Wahid al-Marrakusi*, trans. Ambrosio Huici Miranda (Tetuán: Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Arabe, 1955), 189 and note and 190 and n. التاريخ الإسلامي ذاته يروي أن محمد هذا كان متعلمًا وحاميًا للكتّاب. غزا الأندلس بنجاح لكنه هُزم وقُتل من قبل الكاثوليك (211-12). ابنه وخليفته أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان ابن جارية جنسية كاثوليكية (215).

[443←]

- عبد الواحد المراكشي. 118. يستخدم العديد من العلماء المسلمين اليوم هذا السلوك الماجن من قبل الحكّام المسلمين لتفسير سقوط الأندلس.

[444←]

- Peter Scholliers, *Food, Drink, and Identity: Cooking, Eating, and Drinking in Europe since the Middle Ages* (Brussels: Berg, 2001), 207. بيتر شوليبرز، الطعام والشراب والهوية: الطبخ والأكل والشرب في أوروبا منذ العصور الوسطى.

[449←]

- يلاحظ بيتر شوليرز "الشعور الديني الذي يثيره الخبز لدى المسيحيين، لا سيما حين يُمزج بالنبيذ"، الطعام والشراب والهوية، 195. الخبز وبيع الطحين نهى عنه الشافعي وبعض المالكيين وأجازه الموطأ: ابن رشد، بدايات، المجلد الأول، 24.2.2.4.3.

[457←]

- المقري، تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا، 1: 197-198.
لا يمكن لأحد أن يتجاهل أن المقري الذي كتب في وقت تصاعد الهيمنة الأوروبية، بذل قصارى جهده لتعظيم الإنجازات الثقافية للإسلام.

[458←]

*Ziryab: La prodigiosa historia del*Jesús Greus, -
(Madrid:*Sultán Andaluz y el cantor de Bagdad*
Swan, 1987. من أجل رفض أمناء الخزانة الدفع للموسيقي،
*Historia de la conquista de España de*see انظر
, trans. Julián Ribera*Abenalcotía el cordobés*
.(Madrid: Revista de Archivos, 1926), 2:54–55

[459←]

- وفقًا لباسكال دي غايانغوس "كانت الموسيقى علمًا بالكاد يعرفه العرب قبل فتوحاتهم، استعاروا بالضرورة معرفتهم بها من الأمم المغلوبة وكذلك أسماء جميع آلاتهم تقريبًا". غايانغوس في ترجمته للمقري، تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا، 1:58-17رقم 59- 365. هذا من شأنه أن ينطبق على العود أيضًا، الذي يكرر بعض العلماء بحماس أن الإسلام أعطاه لإسبانيا: حصل العرب على العود أثناء اتصالهم بالحضارة الأكثر تقدمًا للإمبراطورية الرومانية اليونانية التي انقطع اتصالها الثقافي المباشر أوروبا المسلمة في المقام الأول.

[460←]

- الخشني، 87-88. في النص الإسباني، تتم ترجمة اسم أحد القضاة إلى Baxir.

[462←]

- تشارك السنة والشيعة في العصور الوسطى هذه الآراء التي لا تزال سائدة حتى اليوم بين المتدينين المسلمين: في مقابلة أُجريت في السبعينيات مع الإمام الشيعي آية الله الخميني قال إنه لم يسمع قط عن باخ أو موزارت أو بيتهوفن أو فيردي. انظر "الخميني سافرًا: آية الله يتحدث عن الإعدام والحرية السياسية وجرائم الشاه والأخلاق عند الشباب والنساء. مقابلة أجرتها أوريانا فالاتشي، واشنطن بوست، 14 أكتوبر، 1979". أولئك الذين يجادلون أن بعض الموسيقيين الغربيين كتبوا موسيقى دينية رائعة دون أن يكونوا هم ذاتهم متدينين يتغاضون عن النقطة الأساسية أن هؤلاء المؤلفين المفترض أنهم ملحدون لا يمكنهم أن يتصوروا، وعلى الأقل أن ينتجوا، موسيقاهم الدينية دون ثقافة دينية.

[463←]

- كما نتعلم من كتيبات المالكي، راجع على سبيل المثال، الأطروحة الأندلسية التفريع، 24-25، 44-45، والمدونة المؤثرة، المجلد الأول، الكتاب الأول رقم 12. في باكستان اليوم وفي ظل المذهب الإسلامي الحنفي الأقل تشددًا حُكم على امرأة مسيحية بالإعدام لشربها من بئر مخصصة للمسلمين، "امرأة مسيحية حُكم عليها بالإعدام لشربها من بئر مخصصة للمسلمين قد لا تعيش لمواجهة الإعدام بعد خمس سنوات من السجن تركتها مُصابة بنزيف معوي، الديلي ميل، 20 يونيو 2015".

[464←]

- صفران، الهوية والتمايز في القرن التاسع في الأندلس، 582، في إشارة إلى الأطروحة، المدونة الكبرى للإمام مالك.

[471←]

- المرجع نفسه 486-487. بذل بعض العلماء اليوم جهودًا مضنية للجدال بأن بعض الكنائس الجديدة قد تم بناؤها. تشمل هذه الجهود الإشارة إلى "التأثيرات" السورية على كنائس كان يُعتقد سابقًا أن بناءها تم قبل الفتح الإسلامي. كل هذا افتراضي، نظرًا لأن التجديد وليس البناء الجديد قد يشمل بالفعل مثل هذه التأثيرات، إن كانت موجودة. على أي حال، كنيسة هنا وهناك، بُنيت في ظل حكم عبد الرحمن الثالث على سبيل المثال، ليست سوى استثناء لما كان عليه التعليم الديني في إسبانيا الإسلامية. كما يشير Fernández Félix إلى أن كلمة بنى *bana* يمكن أن تشير إما إلى إعادة البناء أو إلى التجديد. أي إعادة إعمار مثل هذه ستتم دون مساعدة المسلمين، كما يشير القانون المالكي.

[472←]

- موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية (بريل)، "الذبيحة". انظر أيضًا المذهب المالكي في الشريعة الإسلامية في النظرية والتطبيق ed. Robert Gleave and Eugenia Kermeli (London: Tauris, 2001), 58–59: يجب قطع "الوريدين الوداجيين" وإلا لا يمكن أن يؤكل لحم الحيوان.

[476←]

- لتصريح مالك عن ركوب المسيحيين للحمير، انظر *A Madinan View of the Sunna, Courtesy, Wisdom, Battles, and History* لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (توفي 386 هجريًّا) ترجمة، عبد الصمد كلارك، (London: Ta-Ha Publishers, 1999)، 119. من أجل هذا الأمر الإسلامي المُطبق على الإغريق انظر C. M. Woodhouse, *Modern Greece: A Short History* (London: Faber & Faber, 1977), 101. أشكر Joanna Spilioti, την Ιωαννα, την γυναικα μου, على هذه المعرفة. على عكس آرائهم الطيبة حول حكم المسلمين للمسيحيين، غضب العديد من الأكاديميين عندما أظهر الاقتصادي روبرت فوغل، الحاصل على نوبل لاحقًا، أن معدل الرقيق الأسود في الجنوب الأمريكي والذي كان يُعامل على العموم بشكل جيد وعاش في الواقع لفترة أطول وتناول سعرات حرارية أعلى كان أعلى من معدل السكان البيض في مدن الشمال. كان من المزعج أيضًا أن فوغل، الذي لم يكن مسيحيًّا، قد استنتج أن المسيحية (الكنائس البروتستانتية المختلفة وخاصة الكنائس البيوريتانية) كانت عاملًا رئيسًا في الحركة المناهضة للعبودية والحرب بين الولايات. انظر: See Robert W. Fogel and Stanley L. Engermann, *Time on the Cross: The Economics of American Slavery* (1974; rpt. New York: W. W. Norton, 2013).

[471←]

- المرجع نفسه 486-487. بذل بعض العلماء اليوم جهودًا مضنية للجدال بأن بعض الكنائس الجديدة قد تم بناؤها. تشمل هذه الجهود الإشارة إلى "التأثيرات" السورية على كنائس كان يُعتقد سابقًا أن بناءها تم قبل الفتح الإسلامي. كل هذا افتراضي، نظرًا لأن التجديد وليس البناء الجديد قد يشمل بالفعل مثل هذه التأثيرات، إن كانت موجودة. على أي حال، كنيسة هنا وهناك، بُنيت في ظل حكم عبد الرحمن الثالث على سبيل المثال، ليست سوى استثناء لما كان عليه التعليم الديني في إسبانيا الإسلامية. كما يشير Fernández Félix إلى أن كلمة بنى *bana* يمكن أن تشير إما إلى إعادة البناء أو إلى التجديد. أي إعادة إعمار مثل هذه ستتم دون مساعدة المسلمين، كما يشير القانون المالكي.

[472←]

- موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية (بريل)، "الذبيحة". انظر أيضًا المذهب المالكي في الشريعة الإسلامية في النظرية والتطبيق ed. Robert Gleave and Eugenia Kermeli (London: Tauris, 2001), 58–59: يجب قطع "الوريدين الوداجيين" وإلا لا يمكن أن يؤكل لحم الحيوان.

[476←]

- لتصريح مالك عن ركوب المسيحيين للحمير، انظر *A Madinan View of the Sunna, Courtesy, Wisdom, Battles, and History* لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (توفي 386 هجريًّا) ترجمة، عبد الصمد كلارك، (London: Ta-Ha Publishers, 1999)، 119. من أجل هذا الأمر الإسلامي المُطبق على الإغريق انظر C. M. Woodhouse, *Modern Greece: A Short History* (London: Faber & Faber, 1977), 101. أشكر Joanna Spilioti, την Ιωαννα, την γυναικα μου, على هذه المعرفة. على عكس آرائهم الطيبة حول حكم المسلمين للمسيحيين، غضب العديد من الأكاديميين عندما أظهر الاقتصادي روبرت فوغل، الحاصل على نوبل لاحقًا، أن معدل الرقيق الأسود في الجنوب الأمريكي والذي كان يُعامل على العموم بشكل جيد وعاش في الواقع لفترة أطول وتناول سعرات حرارية أعلى كان أعلى من معدل السكان البيض في مدن الشمال. كان من المزعج أيضًا أن فوغل، الذي لم يكن مسيحيًّا، قد استنتج أن المسيحية (الكنائس البروتستانتية المختلفة وخاصة الكنائس البيوريتانية) كانت عاملًا رئيسًا في الحركة المناهضة للعبودية والحرب بين الولايات. انظر: See Robert W. Fogel and Stanley L. Engermann, *Time on the Cross: The Economics of American Slavery* (1974; rpt. New York: W. W. Norton, 2013).

[484←]

De la Granja, “Fiestas cristianas en al- - Andalus,” 1–53. جهود مماثلة لمنافسة عيد الميلاد المسيحي يمكن رؤيتها اليوم بين الملحدين الممارسين الذين يحتفلون بـ"الانقلاب الشمسي" وهي احتفالية وثنية قديمة، وبين الممارسين اليهود الذين أعطوا أهمية متزايدة لحانوكة "مهرجان النور" الذي هو في الواقع احتفال صغير نسبيًا في التقويم اليهودي.

[486←]

François Clément, “Les rélations - interreligieuses en Andalus (Espagne *Le*musulmane) du IXe au XIIe siècle,” in (Strasbourg:*buissonnement monothéiste* 365 ,(Presses Universitaires, 2010. هذا اعتراف غير مقصود من قبل المؤلف، الذي يحاول مثل العلماء الآخرين اليوم المجادلة أن المجموعات الثلاث لم تسكن في أحياء منفصلة.

[487←]

*La Berbérie orientale sous les*H. I. Idris, -
بدلًا من اليأس، .(Paris: 1962), 2:766n437*Zirides*
يستشهد العالم (Mazzoli-Guintard) اليوم بهذه الحالة
كمثال على التعايش، إذ بعد كل شيء، كان المسلمون واليهود
يتشاركون بئرًا: Mazzoli-Guintard, *Vivre à Cordoue*
, 89.*au Moyen Age*

Le Statut légal des non-192 Antoine Fattal,
(Beyrut: Imprimérie*musulmans en pays d'Islam*
Catholique, 1958), 62–63

[490←]

- يُلاحظ عادل تيودور خوري أن القرآن ينص على أنه "لا يُنصح بإقامة مجموعة كاملة مع اليهود والمسيحيين": *Toleranz im Islam* (Munich: Kaiser, 1980), 217. تطورت الأحياء الإسلامية واليهودية والمسيحية بشكل طبيعي حول المساجد والمعابد اليهودية والكنائس (مثل هذا التجمع العرقي والديني يحدث بشكل طبيعي حتى في المدن التي تتمتع بمجتمعات مفتوحة نسبيًا مثل الولايات المتحدة). يُشير Almagro, "Planimetría de las ciudades hispanomusulmanas," إلى وجود أحياء يهودية ومسيحية في مدن الأندلس الإسلامية، كذلك يفعل Évariste Lévi-Provencal, cit. Basilio Pavón Maldonado, *Tratado de Arquitectura Hispanomusulmana* (Madrid: España, 2009), 4:4, 410. للحصول على تقييم إيجابي للمزايا العملية للتقسيم المعياري إلى أحياء إسلامية ومسيحية ويهودية في المدن الإسلامية انظر: André Raymond, "The Spatial Organization of the City," in *The City in the Islamic World*, ed. S. K. Jayyusi et al. (Leyden: Brill, 2008), 63–64. انظر أيضًا: Leopoldo Torres Balbás, *Ciudades hispanomusulmanas* (Madrid: Instituto Hispano-Árabe de cultura, 1985). يمكن للرجال المسلمين أن يتزوجوا نساء كاثوليكيات ويهوديات حرات (لكن لا يمكن للرجل الكاثوليكي أو اليهودي أن يتزوج نساء مسلمات) واللواتي يمكن لهن الاستمرار في ممارسة شعائر دينهن، لكن الذرية يجب أن تنشأ على الإسلام. مما لا شك فيه أن التعايش في أوضاع أسرية كهذه يخلق مشاكل يمكن للمهارة البشرية أن تحلها أحيانًا، لكن بحلول الجيل الثاني ستتكفل الأسلمة بهم. لتجنب مثل هذه المشاكل، نصح مالك بحكمة ألا يتزوج المسلمون من غير المسلمين. للحصول على مثال عن الجهد السياسي الصائب الأخير لمواجهة وجهة نظر المستعربين الأوائل (المنبوذين بوصفهم مستشرقين) فيما يتعلق بتقسيم الأحياء إلى إسلامية ويهودية ومسيحية انظر Clément, "Les rélations interreligieuses en Andalus," ودفاع المستعربة الخبيرة Christine Mazzoli-Guintard عن "تكافل" خيالي في إسبانيا بين أصحاب الديانات الثلاث في *Vivre à Cordue au Moyen Age*., 85–88. الموقف الأخير لـ Mazzoli-Guintard هو أن المجموعات الثلاث سكنت بالفعل في مناطق "تفضيلية ولكن ليست حصرية" (88 and n18). فيما يقلل من أهمية المعازِل، لا يمكن للمؤلف أن يتجنب

استخدام تعبيرات "أحياء طائفية" و"أحياء تفضيلية" هذا يعني –أي "الأحياء الدينية" و"الأحياء التفضيلية"- والمذكورة مرارًا وتكرارًا "الأحياء الإسلامية"، والفتاوى حول الحد من التواصل الاجتماعي حتى عندما يكون لا مفر منه. حتى في الولايات المتحدة القرن الحادي والعشرين، ناهيك عن أوروبا، دون إدراج القوانين الدينية الحصرية التي تعزز العنصرية والتجمعات الدينية والإثنية في المدن إلى العزل الذاتي في مناطق قابلة للتحديد، حيث غالبية السكان من السود، من أصل إسباني، "أبيض" بولندي، يهودي وإيطالي، "شرق أوسطي" إلى آخره، بدرجات متفاوتة من التفاعل مع المجتمعات الأخرى. لا يحتاج المرء إلى الكثير من الخيال لتصور الفصل الأعظم الذي وُجد في إسبانيا الإسلامية، معززاً بدين تغلغل في كل جانب من حياة الإنسان الخاصة. من غير المحتمل أن يكره الحكّام المسلمون هذا الوضع؛ لأن ذلك سمح لهم، من بين أشياء أخرى، بالتحكم وفرض الضرائب بسهولة أكبر.

[491←]

- من أجل المعنى التحقيري لـ "أهل الدجن"، "الخاضعين" واشتقاقها "مُدجن" بين المسلمين انظر: Kathryn A. Miller, "Muslim Minorities and the Obligation to Emigrate to Islamic Territory: Two Fatwas from Fifteenth-Century Granada," *Islamic Law and Society* 7, no. 2 (2000): 257–58؛ الأقليات المسلمة والالتزام بالهجرة إلى الأراضي الإسلامية: فتاوى من القرن الخامس عشر في غرناطة. "الشريعة الإسلامية والمجتمع"، الشريعة الإسلامية في الأندلس، أيضًا Gerard Wiegers below. تُظهر ميللر، مع ذلك، أن بعض العلماء اعتبروا استمرار وجود المسلمين في الأراضي الكاثوليكية أمرًا مقبولًا وحتى ضروريًا من أجل الاحتفاظ بحضور فيما كان ذات مرة وربما يمكن أن يكون مرة أخرى جزءًا من الأمة. دعا المسلمون في الأراضي الإسلامية المسلمين الذين بقوا في الأراضي الكاثوليكية مُدجن (مُروض) ودعاهم الكاثوليك (*mudéjares*)، على الرغم من أنه عنى للكاثوليك ببساطة "خاضِع": Gerard Wiegers, *Islamic Literature in Spanish and Aljamiado: Yva of Segovia (fl. 1450), His Antecedents and Successors* (Leiden: Brill, 1994), 3. مسلمون في دار الإسلام، الأمة الحية، يُشار إليهم أيضًا بأهل الدجن أو "الخاضعين".

[493←]

- لهذا وما يليه، انظر تاريخ السلالات المحمدية في إسبانيا، لأحمد بن محمد المقري، ترجمة Pascual de Gayangos (1843; rpt. New York: Johnson Reprint Corporation, 1964), 2:74, 79ff.، Maribel Fierro, *De muerte violenta: Política, Religión y Violencia en Al-Andalus* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 2004)

[494←]

- "ذات مرة في منتصف القرن الثامن، تخلى شاب مقدام يُدعى عبد الرحمن عن منزله في دمشق، معقل الإسلام في الشرق الأدنى، وانطلق عبر صحراء شمال إفريقيا بحثاً عن ملجأ"، María Rosa Menocal (Sterling Professor of Humanities at Yale University)، *The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain* (New York: Little, Brown and Company, 2002), 1

[499←]

- قبرص: تدمير الممتلكات الثقافية في الجزء الشمالي من قبرص وانتهاكات القانون الدولي، مكتبة الكونغرس، أبريل 2009. انظر أيضًا: "Destruction of Cultural Heritage" Ministry of Foreign Affairs of the Republic of Cyprus, June 2014, http://www.mfa.gov.cy/mfa/mfa2006.nsf/cyprus07_en/cyprus07_en?OpenDocument

[501←]

Christian C. Sahner, “The Crescent and the -
, May 2008, 55. Sahner*First Things*Scimitar,”
was then a Rhodes Scholar at the University of
،Oxford studying Islamic and medieval history
في إسبانيا اليوم، طلبت بعض الجماعات الإسلامية أن تتشارك مع الكاثوليك في استخدام كاتدرائية قرطبة لأن المبنى كان في السابق مسجدًا، والموقع الذي كان ذات مرة جزءًا من الإسلام، يبقى جزءًا منه. تحول مسجد قرطبة إلى معبد مسيحي بعد استعادة المدينة في القرن الثالث عشر، وإن لم يتم تدميره كما كان مصير كنيسة سانت فنسنت السابقة.

[502←]

M. Ocaña Jiménez, “La basílica de San - *Al*-Vicente y la gran mezquita de Córdoba,” 6 (1942): 349–51; Capilla, “Las primeras*Andalus* mezquitas de al-Andalus a través de las fuentes árabes,” 160; Pedro Marfil, “Arqueología. La Basílica de San Vicente: En la Catedral de , no. 14*Arte, Arqueología e Historia*Córdoba,” (2007): 185–96; “Arqueología en la Mezquita de , no. 6*Arte, Arqueología e Historia*Córdoba,” (1999): 94–100. A more specialized synthesis is “Córdoba de Teodosio a Abd-al-Rahman III,” 23*Anejos del Archivo Español de Arqueología* (2000): 117–41. See a list of Marfil’s works at http://dialnet.unirioja.es/servlet/autor?codigo=281455،

أكد لي عالم الآثار بيدرو مارفيل في إيميل شخصي أنه من غير المحتمل أن يتم تشارك كنيسة سانت فنسنت بسبب الاختلاف في المعتقدات الدينية. *Christian*See Kenneth B. Wolf, (Cambridge:*Martyrs in Muslim Spain* Cambridge University Press, 1988) for the typical English scholars’ viewpoint

[503←]

Maribel Fierro, “Decapitation of Christians and -
Muslims in the Medieval Iberian Peninsula:
Narratives, Images, Contemporary Perceptions,”
45, no. 2*Comparative Literature Studies*
(2008): 158–59

ماريبيل فييرو "قطع رؤوس المسيحيين والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية في العصور الوسطى: الروايات والصور والتصورات المعاصرة". "دراسات الأدب المقارن". 45. رقم 2، 158-59(2008).

[506←]

[-14] لهذا وما يليه انظر: ,Khallaf, *Documentos* 1034–
35. المرجع السابق. جانينا م. سافران: "الهوية والتمايز في القرن التاسع عشر في الأندلس، *Speculum* 76, no. 3 (July 2001): 589

[508←]

- روبرت هيلينبراند "زخرفة العالم"، في تراث إسبانيا الإسلامية، أ. د سلمى الخضراء الجيوسي، (ليدن، بريل، 1992)17. في الواقع هزمت القوات الكاثوليكية قوات عبد الرحمن الثالث أكثر من مرة وفي معركة الهنديجة بكارسينا (سوريا) هُزم عبد الرحمن ذاته، وبعد ذلك لم يخرج إلى الجهاد بنفسه مرة أخرى. انظر Ibn Hayyan de Córdoba, *Cronica del Califa Abdarrahman III An-Nasir entre los anos 912 y 942 (al-Muqtabis V)*, trans. María Jesús Viguera and Federico Corriente (Zaragoza: Anubar, 1981), 323–24. هذا العمل سيتم الاقتباس منه باسم المقتبس 5.

[510←]

- ابن حيان، المقتبس الجزء الخامس، 28-30. المواد الموضوعة بين قوسين والتي لا تنسب إلى M. J. Viguera هي لي.
بالنظر إلى ما نعرفه عن عبد الرحمن الثالث، يذكر تقريظ ابن حيّان له بأحد التمارين السفسطائية البلاغية اليونانية في مدح الشخصيات التي يُضرب بها المثل في الفساد.

[511←]

- من أجل محاكم التفتيش الخاصة بالمأمون، انظر، جورج مقدسي، "السكولاستية والإنسانية في الإسلام الكلاسيكي والغرب المسيحي" *Journal of the American Oriental Society* .109, no. 2 (April– June 1989), 176. ليس من المستغرب أن يذكر المقال عن المأمون لدومينيك سورديل في موسوعة بريتانيكا على الإنترنت أنه كان مُهتمًّا بالمعرفة اليونانية لكنها أغفلت ذكر استخدامه لمحاكم التفتيش في محاولته لفرض العقلانية على التقليديين الإسلاميين، الذين، بقيادة الشافعي وابن حنبل، سادوا في نهاية المطاف في الفكر الإسلامي.

[512←]

- Fierro, *De muerte violenta*70 ,. ربما كان للعزيز أم كاثوليكية، واحدة من أصل آلاف من العبيد الجنسيين من أصل أوروبي أو بلقاني ويوناني ضمن حريم عبد الرحمن الثالث، كان من شأن هذا أن يضفي القوة على التحذير الحكيم لمالك من زواج رجال المسلمين من الكفار لأن النساء يمكن أن يُضالن الرجال وأطفالهن خصوصًا.